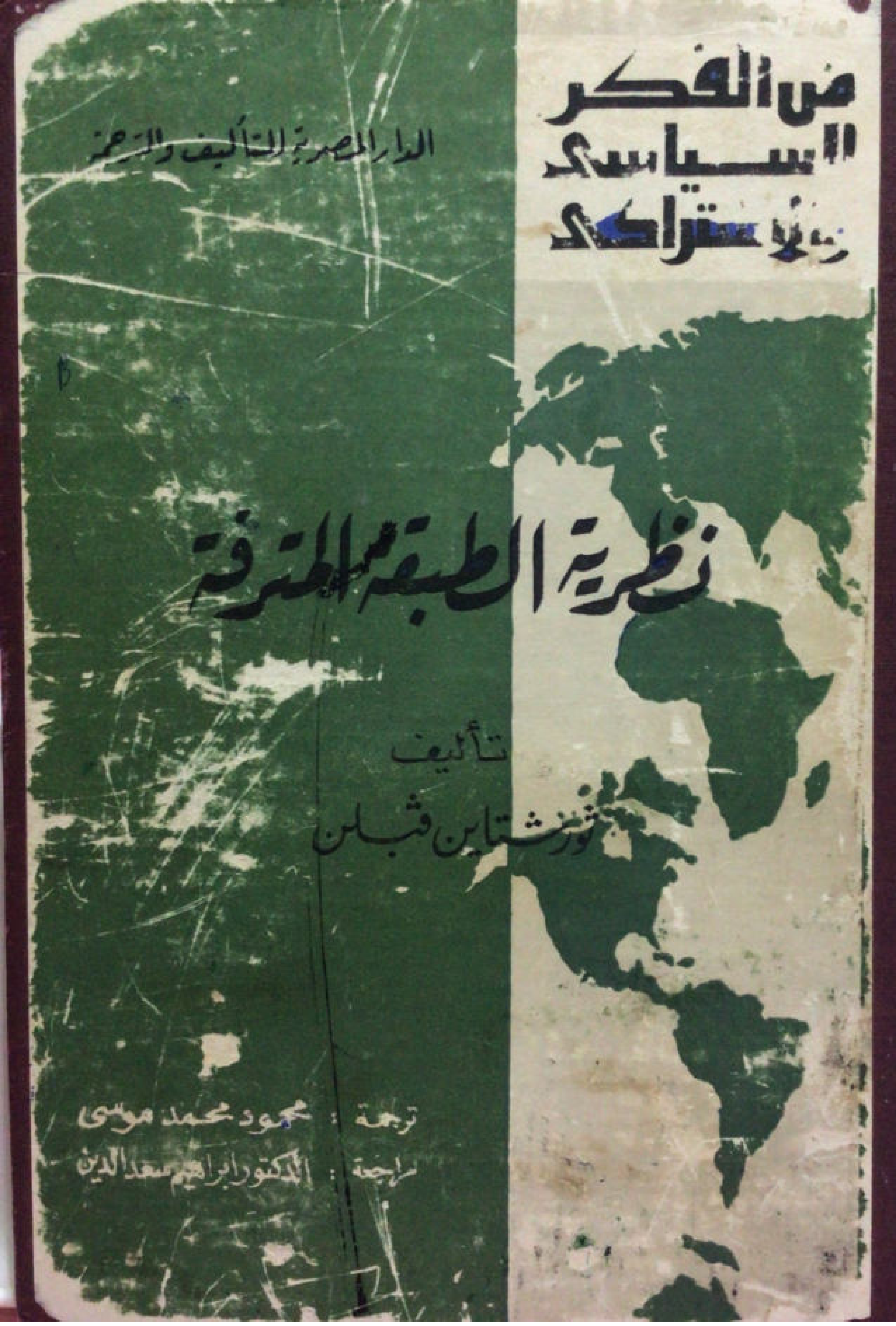

من الفكر
السياسي
الاشتراكي
الدار المصرية للتأليف والترجمة
نظرية الطبقة المترفة
تأليف
ثورشتاين ڤبلن
ترجمة : محمود محمد موسى
مراجعة : الدكتور ابراهيم سعد الدين

من الفكر
السياسي
والاشتراكي

نظرية الطبقة المترفة

تأليف
ثورشتاين فبلن

ترجمة : محمود محمد موسى
مراجعة : الدكتور ابراهيم سعد الدين

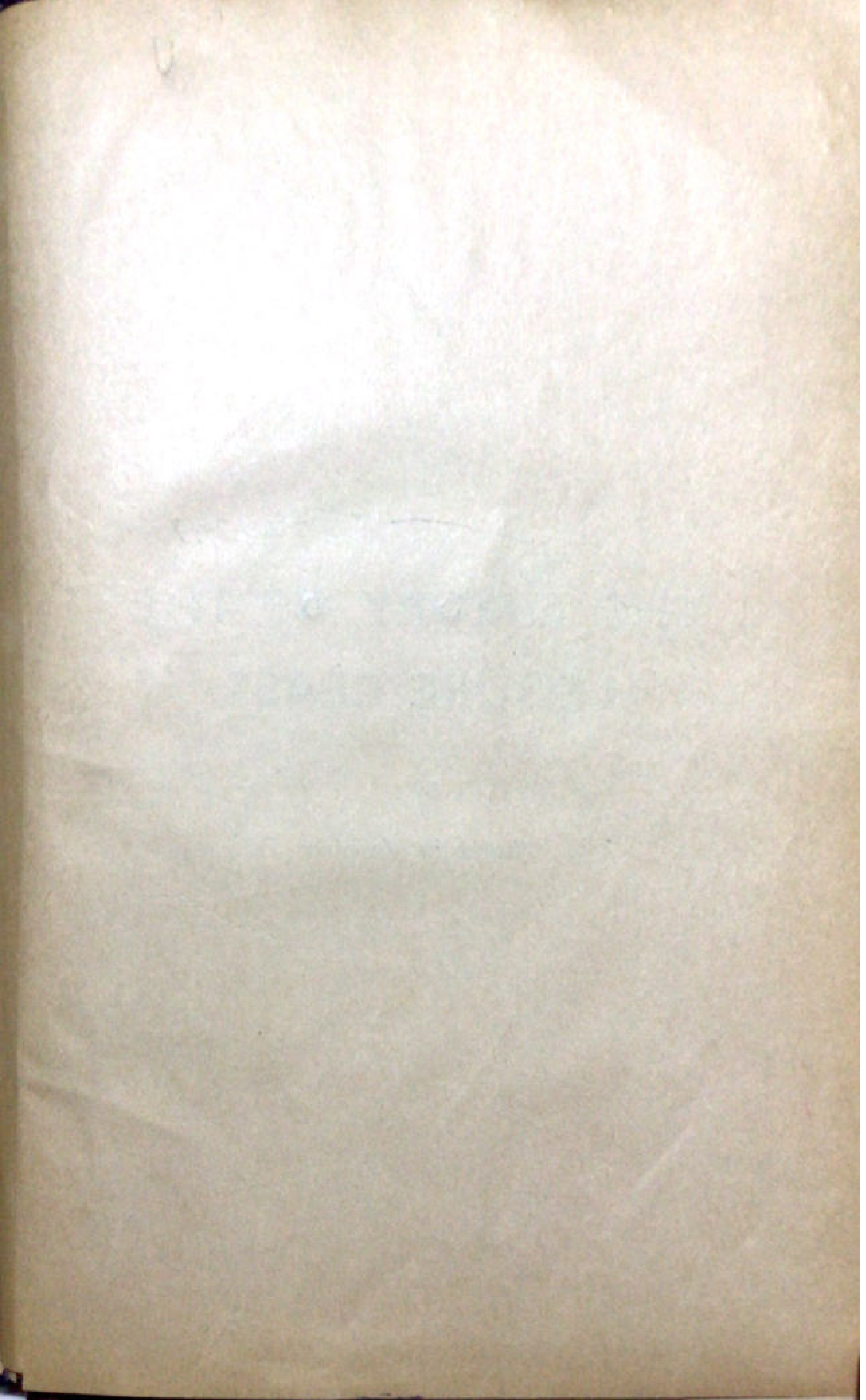
الدار المصرية للتأليف والترجمة

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

THE THEORY OF THE LEISURE CLASS

By

Thorstein Verblen





تمهيد

غرض هذا البحث مناقشة مركز الطبقة المترفة وقيمتها من حيث كونها عاملا اقتصاديا فى الحياة الحديثة . ولكننا قد وجدنا ان قصر البحث داخل هذه الحدود دون ان نتعداها امر غير مستطاع . فقد وجدنا من الضرورى أن نوجه بعض الاهتمام الى منشأ هذا النظام وتطوره . وكذلك الى مظاهر الحياة الاجتماعية التى لا تدخل عادة فى نطاق العوامل الاقتصادية .

وهذا البحث يسير فى بعض مراحله على اسس من النظريات الاقتصادية أو التعميمات الاثنولوجية التى قد تكون ـ الى حد ما ـ غير مألوفة . ولكنى ارجو ان يوضح الباب الاول طبيعة هذه المقدمات النظرية توضيحا يكفى لكشف كل غموض . ويستطيع القارىء ان يجد مزيدا من الايضاح عن المقدمات النظرية التى يتناولها هذا الكتاب . وذلك فى سلسلة من المحاضرات وردت بالجزء الرابع من مجلة علم الاجتماع الامريكية American Journal of Sociology عن « غريزة المهارة فى العمل ومتاعبه » The Instinct of Workmanship and the Irksomeness of Labour و « الخطوات الأولى فى سبيل التملك » The Beginnings of Ownership و « مركز المرأة غير اللائق » The Barbarian Status of Women .

ولكن هذا البحث لايرتكز على هذه التعميمات التى تعتبر حديثة الى درجة ما بطريقة تفقدها قيمتها بصفتها تفصيلا لنظرية اقتصادية . لو ان هذه التعميمات الحديثة لم تستقر فى مفهوم القارىء لافتقارها الى الدعم بالاسانيد والبيانات .

وقد فضلنا ان نختار بياناتنا التى استخدمناها للتدليل على صحة البحث او تدعيمه من واقع الحياة اليومية عن طريق ملاحظتنا المباشرة او العرف المألوف ولم نتخيرها من مصادر مجهولة او بعيدة عن المألوف . يدفعنا الى هذا ان هذه الطريقة اسهل تناولا من جهة . وانها تستبعد احتمالات سوء فهم حقيقة الظواهر المألوفة للناس من جهة اخرى . ويقيننا ان احدا لن يجد غضاضة على ذوقه الادبى او استعداده العلمى فى استخدامنا

لهذه الحقائق المألوفة أو بما يبدو فى بعض الاحيان أنه حرية فى تناول ظواهر عامة أو ظواهر كانت علاقتها الدقيقة بحياة الرجال تمنعهم أحيانا من مناقشتها مناقشة اقتصادية .

مثل هذه الشواهد التى نأخذها من مصادر بعيدة . وكذا كل عناصر النظريات والاستنتاجات التى نأخذها عن العلوم الاثنولوجية ، هى أيضا من النوع المعتاد السهل . ويمكن أن يتعقبها المطلعون الى مصادرها الأولى . وعلى ذلك لم نتقيد بما جرى عليه العرف من ايراد المصادر ومؤلفيها . وكذلك المقتبسات القليلة التى أوردناها على سبيل الايضاح قبل كل شىء ، هى أيضا مما يمكن ادراكه بسهولة كافية دون الاسترشاد بتحديد المصدر .

الفصل الأول

تقديم

ان نظام الطبقة المترفة يوجد على أتمه في المراحل العليا لأية ثقافة همجية ، كما كانت الحال مثلا في أوربا الاقطاعية أو اليابان الاقطاعية • ففي مثل هذه المجتمعات تراعي الفوارق بين الطبقات بدقة شديدة ، واهم مظهر ذي مغزى اقتصادى واضح من مظاهر الفوارق بين الطبقات هو التمييز بين الاعمال التى تختص بها كل طبقة من طبقات المجتمع العديدة . فالطبقات العليا هي بحكم العرف معفاة او ممنوعة من ممارسة المهن الصناعية ، لانها تدخر لمهن خاصة ذات نصيب خاص من التشريف . ومن اشهر الاعمال التى ينظر اليها فى اى مجتمع اقطاعى نظرة الشرف والاجلال فن الحرب ، وتأتى بعده مباشرة الوظائف الدينية . فاذا لم يكن المجتمع الهمجي مجتمعا حربيا الى حد كبير فقد يكون للوظائف الدينية مكان الصدارة ثم يأتى فن الحرب بعدها فى المحل الثانى • ولكن القاعدة تسرى فى الحالين دون استثناء يذكر ، وهى ان الطبقات الراقية ، سواء من رجال الدين او رجال الحرب ، معفاة من القيام بالاعمال الصناعية وهذا الاعفاء هو التعبير الاقتصادى عن مركزها الاجتماعي الممتاز • ونستطيع ان نضرب من الهند البراهمية مثلا يوضح اعفاء هاتين الطبقتين من الأعمال اليدوية • اننا نجد فى المجتمعات التى تنتمى الى الثقافة الهمجية الراقية تمييزا شديدا بين الاقسام المختلفة التى تنقسم اليها الطبقات التى يمكن ان نطلق عليها اسم الطبقات المرفهة ، وهناك بالمثل فروق شديدة بين المهن التى يمتهنها كل قسم منها • والطبقات المرفهة على العموم تشمل طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين وعددا كبيرا ممن يسيرون فى ركابهم • والمهن التى يمتهنها كل قسم تتنوع أيضا بنفس الدرجة ، ولكنها جميعا تشترك فى صفة عامة هى انها لا تمت الى العمل اليدوى بأية صلة ، وهذه المهن غير الصناعية يمكن أن نجملها فنقول انها أعمال الحكم والحرب والدين والرياضة •

وتنشأ الطبقة المرفهة فى طور مبكر من أطوار الهمجية ، وان لم يكن هو أقدم أطوارها ولكنها توجد فى صورة أقل تمايزا ، فلا الفروق بين الطبقات ولا التمييز بين أنواع المهن الخاصة بالطبقات المرفهة توجد بهذه الدرجة من الدقة والتشابك . ونستطيع أن نشاهد هذا الطور من أطوار التقدم واضحا بين سكان جزر بولينيزيا عامة ، مع فارق واحد هو أنه نظرا لانعدام أمكانيات الصيدعلى نطاق واسع فان مهنة الصيد لم تكن تحتل مكان الشرف فى نظام حياتهم . وكذلك نجد فى المجتمع الايسلندى على عهد الساجا مثالا جيدا من امثلة هذا النظام . ففى مثل هذا المجتمع توجد حدود صارمه بين الطبقات وبين المهن الخاصة بكل طبقة ، فالاعمال اليدوية والصناعيه وكل ما له صلة بالاعمال اليومية التى يمارسها الناس للحصول على القوت ، كلها من عمل الطبقة الدنيا دون غيرها . وهذه الطبقة الدنيا تشمل الرقيق ومن اليهم من الاتباع ، كما تشمل فى العادة جميع النساء . فاذا كان هناك عدة درجات للارستقراطية فان نساء الطبقة العليا يعفين عادة من الاعمال الصناعية أو على الاقل من النوع الشاق من الاعمال اليدوية . أما رجال الطبقات العليا فلا يعفون من الاعمال اليدوية فحسب بل هى محرمة عليهم ايضا بمقتضى التقاليد الموروثة ، وانواع الاعمال التى يجوز لهم ممارستها محدودة تحديدا دقيقا ، وهى كما سبق ان ذكرنا ، اعمال الحكم والحرب والدين والرياضة . وهذه السبل الأربع من سبل النشاط تتحكم فى نظام حياة الطبقة العليا .

أما الاشخاص ذوو المراكز السامية كالملوك والزعماء فان هذه هى انواع النشاط الوحيدة التى يسمح لهم العرف والفروق فى المجتمع بممارستها . بل الواقع ان المجتمعات التى تقدم فيها هذا النظام تعتبر الرياضة من الأمور التى لايجوز أن يمارسها ذوو المراكز السامية . أما الذين ينتمون الى أدنى درجات الطبقة المترفة فيمكنهم امتهان مهن اخرى معينة ، ولكنها جميعا تعتبر مهنا ثانوية او احتياطية لمهنة او اخرى من المهن التى تمتاز بها الطبقة المترفة . ومن هذه المهن الثانوية مثلا صناعة الاسلحة والمعدات الحربية وقوارب الحرب والعناية بها ، واعداد الخيل والكلاب والصقور للصيد ورعايتها ، واعداد الادوات المقدسة ، وما الى ذلك . أما الطبقات الدنيا فلا يحل لها ممارسة مثل هذه الأعمال الشرفية الثانوية الا ما كان منها ذا صفة صناعية لاجدال فيها ولا تمت بغير سبب بعيد للاعمال التى تتميز بها الطبقة العليا .

فاذا رجعنا الى الوراء خطوة قبل ظهور الثقافة الهمجية العليا ونظرنا الى درجات من الهمجية أدنى منها فلن نجد الطبقة المترفة قد بلغت تلك الدرجة من التطور ، لكن هذه الهمجية الدنيا توضح العادات والدوافع

والظروف التى نشأ منها نظام الطبقات المترفة ، وتعين الخطـوات الأولى لظهوره . والقبائل الرحل التى تعيش على القنص فى جهات مختلفة من العالم توضح هذا المظهر البدائى من مظاهر التمييز بين الطبقات . واية قبيلة من القبائل التى تعيش على القنص فى أمريكا الشمالية تقدم لنا مثلا ملائما يوضح هذه الحقيقة . وليس بوسعنا أن نقول ان هذه القبائل بها طبقات مترفة محددة . لكن هناك تمييزا فى الوظائف وتمييزا بين الطبقـات على أساس هذا التفريق ، لكن اعفاء الطبقة العليا من العمل لم يتطور الى الحد الذى يجعلنا فى حل من تسميتها « الطبقة المترفة » . والقبائل التى تعيش على هذا المستوى الاقتصادى قد وصلت فى التمييز الاقتصادى الى الدرجة التى جعلتها تضع حدا فاصلا بين الاعمال التى يمارسهـا الرجل والتى تمارسها المراة ، وهو تمييز ذو طبيعة تبعث على الحقد ، فان النسـاء فى جميع هذه القبائل تقريبا يقتصر عملهن بحكم التقاليد الموروثة على تلك المهن التى هى نواة للأعمال الصناعية التى تظهر فى الطور التالى من أطوار التقدم ، بينما الرجال يحرم عليهم اداء هذه الاعمال الشـاقة ويدخرون للحرب والقنص والرياضة والوظائف الدينية . والناس فى العادة يراعون هذه الفروق مراعاة دقيقة .

وتقسيم العمل على هذه الصورة يتفق والتمييز بين الطبقة الكادحه والطبقة المترفة كما يظهر فى الثقافةالهمجية العليا ،وكلما زاد تنوع الأعمال وزاد التخصص فيها زادت حدة الخط الفاصل بين الأعمال الصناعية وغير الصناعية . ومهنة الرجل كما هى محددة فى أطوار الهمجية الاولى ليست هى الأصل الذى نشأ عنه فيما بعد اى تقدم ملحوظ نحو الصناعة . فهذه المهنة لايبقى لها أثر فى مراحل التطور الأخيرة الا فى المهن التى لا تعتبر صناعية – كالحرب والسياسة والرياضة والدراسة والوظائف الدينية . وليس لهذه القاعدة استثناءات تستحق الذكر سوى بعض الأعمال المتعلقة بصيد السمك وبعض الأعمال البسيطة التى ليست بالتأكيد أعمالاصناعية، كصناعة الأسلحة واللعب وأدوات الرياضة . والحقيقة أن جميع الأعمـال الصناعية قد نشأت عن الأعمال التى كانت الجمـاعات البـدائية تختص بهـا النسـاء .

والأعمال التى يقوم بها الرجال فى الثقافات الهمجية لا تقـل أهمية لحياة الجماعة عن الأعمال التى تؤديها النساء ، بل ان عمل الرجال قد يسهم فى توفير الطعام والضرورات الأخرى التى تستهلكها الجماعة بنفس القـدر الذى تسهم به أعمال النساء . والحقيقة أن عمل الرجال ذو طابع انتاجى واضح الى حد ان كتب الاقتصاد تشير الى عملية القنص بصفتها نوعا من الصناعة البدائية ، لكن صاحب الثقافة البدائية لا ينظر الى الامر هكذا ،

فهو فى نظر نفسه ليس عاملا ، ومن هنا لايعتبر نفسه فى مرتبة واحدة مع النساء ، ولا يعتبر عمله من نوع الأعمال والصناعات المهنية التى تؤديها النساء بحيث يصح الخلط بينها وبين أعمال النساء · فهناك فى جميع المجتمعات الهمجية شعور عميق بالتمييز بين أعمال الرجال وأعمال النساء فان عمل الرجل قد يساعد على توفير الطعام للمجموع ، ولكنه يشعر انذلك يتم عن طريق امتياز ومهارة من نوع لا يمكن المقارنة بينه وبين أعمال المرأة الروتينية التى لا تحتاج الى مهارة ، دون أن تعتبر هذه المقارنة اهانة للرجال .

فاذا رجعنا الى الوراء فى سلم التقدم الثقافى – بين الجماعات المتوحشة – وجدنا هذا التفريق أقل احكاما ووجدنا التمييز المثير بين الطبقات وبين المهن أقل استقرارا وأقل تحديدا · ومن الصعب أن نجد جماعات متوحشة بدائية خالصة · فقليل فقط من هذه المجتمعات أو الجماعات التى تسمى متوحشة لا يبدو انها بلغت فى وقت من الاوقات مرحلة ثقافية أرقى مما هى عليه الآن ثم ارتدت بعد ذلك الى مرتبة ثقافية ادنى . لكن هناك جماعات يبدو أن بعضها لم يتعرض لمثل هذا الارتداد ، لا تزال تتمسك بآثار التوحش البدائى ، وهؤلاء تختلف ثقافتهم عن ثقافة المجتمعات الهمجية فى أنها تخلو من طبقة مترفة كما تخلو الى حد كبير من الاتجاهات الروحية التى يقوم عليها نظام طبقة المترفين · وهذه المجتمعات الهمجية البدائية التى لا تعترف بالتدرج الطبقى لا تزيد على نسبة تافهة من مجموع الجنس البشرى · ومن أحسن الأمثلة التى يمكن أن نجدها لمثل هذا التطور الثقافى هى تلك التى نجدها فى قبائل اندامان وقبائل التودا التى تقطن تلال نلجيرى · فنظم الحياة بين هذه القبائل عندما عرفهم الأوربيون أول مرة تبدو متشابهة تماما من حيث انعدام الطبقة المترفة · وهناك مثل آخر نستطيع ذكره هو مثل قبائل الاينو بجزيرة يزو ، كما نستطيع أيضا أن نذكر بعض قبائل البشمن والاسكيمو ، ولو أننا غير متأكدين من انعدام الطبقة المترفة بينهم ، ونستطيع أن نضيف اليهم أيضا بعض جماعات البويبلو Pueblo على اننا أيضا أقل تأكدا فيما يتعلق بهم · ومعظم المجتمعات التى ذكرناها هنا، ان لم تكن جميعها ، قد تكون أمثلة لمجتمعات تدهورت من مراحل البربرية الراقية ، لا امثلة لمجتمعات ذات ثقافة لم ترتفع قط فوق مستواها الحاضر. فاذا كان الأمر كذلك فان فى ضربنا المثل بهم شيئا من التساهل ، ولكنهم مع ذلك قد يكونون شاهدا يؤيد نفس الراى كما لو كانوا فعلا من الشعوب البدائية .

هذه المجتمعات التى تخلو من طبقة مترفة محددة يشبه بعضها بعضا أيضا فى مظاهر معينة تتعلق بكيانها الاجتماعى وطرق حياتها ، فهى

تعيش فى جماعات قليلة العدد ذات نظام بسيط يرجع فى نشأته الى عهود قديمة ، وهم على العموم مسالمون وغير رحل وفقراء وليست الملكية الفردية من المظاهر السائدة فى نظامهم الاقتصادى ، وهذا لا يعنى بالضرورة أن هذه الجماعات هى اصغر الجماعات الموجودة فى الوقت الحاضر ، او ان كيانهم الاجتماعى هو من جميع الوجوه اقلها تمييزا بين الطبقات . وكذلك لا يعنى هذا ان هذه الجماعات تشمل بالضرورة جميع المجتمعات البدائية التى لا تعرف نظاما محددا للملكية الفردية . لكن علينا أن نلاحظ ان هذه الجماعة يبدو انها تشمل أكثر الجماعات البدائية حبا للسلام - بل ربما تشمل جميع الجماعات البشرية التى تمتاز بحبها للسلام . والحقيقة أن أبرز طابع عام يميز أفراد مثل هذه المجتمعات هو نوع معين من العجز اللطيف عندما يقابلهم عدو بالقوة أو الخديعة .

والادلة التى نستطيع ان نستمدها من احوال الجماعات التى لا تزال فى ادنى مراحل التقدم ومن ملامح ثقافتها تبين ان نظام الطبقة المترفة قد ظهر بالتدرج أثناء تحولها من الوحشية البدائية الى الهمجية ، أو بتعبير ادق ، أثناءالانتقال من الحياة السلمية الى الحياة الحربيـة . ويبدو ان الظروف التى اوجبت هذا التحول الشامل هى :

١ - ان الجماعات كانت لها قبل ذلك طرق خاصة فى الحياة (فى الحرب أو فى قنص الحيوانات الضخمة أو كليهما) أى أن الرجال وهم الذين تتكون منهم نواة الطبقة المترفة فى مثل هذه الاحوال ، لا بد انهم كانوا قبل ذلك قد اعتادوا البطش بغيرهم سواء بالقوة او بالخديعة .

٢ - ان موارد العيش لا بد أن تكون ميسورة بدرجة تسمح باعفاء نسبة كبيرة من الجماعة من القيام بأعمال روتينية دائمة . وظهور طبقة من المترفين هو وليد تفرقة سابقة بين أنواع المهن ينظر الناس بمقتضاها الى بعض المهن على أنها محترمة والى البعض الآخر على انها لا تستحق الاحترام . فالمهن التى تستحق الاحترام كانت - من وجهة نظر هذا التفريق القديم - هى التى نستطيع أن نسميها أعمالا بطولية ، أما التى لم تكن تستحق الاحترام فهى الاعمال اليومية الضرورية التى لا تنطوى على أى عنصر من عناصر البطولة .

هذا التمييز ليس له فى المجتمع الصناعى الحديث الا مغزى ضئيل ، ومن اجل هذا لم يلق من كتاب الاقتصاد اهتماما يذكر . وهو اذا نظرنا اليه فى ضوء الآراء الحديثة التى سار على هديها الجدل الاقتصادى ، يبدو شكليا وغير ذى موضوع ، ولكنه رغم ذلك يتشبث بالاستمرار فى الحياة الحديثة ، يشهد على ذلك ما نراه - على سبيل المثال - من عزوفنا التقليدى

عن الأعمال اليدوية . وهو تمييز ذو طابع شخصي – طابع التعالى وطابع الضعة . وفي المراحل الأولى للثقافة ، عندما كانت قوة الفرد الذاتية ذات أثر مباشر وواضح فى تشكيل مجرى الحوادث ، كان عنصر القوة ذا أثر أكبر فى طرق الحياة اليومية ، وكان اهتمام الناس يتركز حول هذه الحقيقة الى درجة أكبر . ومن هنا كان يبدو أن التفريق القائم على هذا الأساس أكثر حتمية وأشد تحديدا للسلطة والنفوذ مما هي الحال فى الوقت الحاضر . وعلى هذا فان ذلك التمييز – بصفته حقيقة واقعة من حقائق التطور – هو تمييز حقيقي يقوم على دعائم صحيحة وثابتة .

ان الاساس الذى يقوم عليه فى العادة التمييز بين الحقائق يتغير تبعا لتغير الزاوية التى ينظر منها عادة الى الحقائق ، ومظاهر الحقائق التى بين ايدينا تزداد وضوحا واهمية كلما تركز حولها اهتمام الناس ف أى وقت من الأوقات . وأى أساس معين من الأسس التى يقوم عليها ذلك التمييز يبدو غير واقعى فى نظر أى فرد اذا نظر اليها من زاوية مختلفة وقومها من أجل غرض مختلف ، فان عادة التمييز بين الأغراض المتباينة واتجاهات النشاط وتبويبها موجودة بالضرورة فى كل زمان ومكان ، اذ لاغنى عنها لكى يرسم الانسان طريقه فى الحياة . ووجهة النظر المعينة أو الطابع المعين الذى يقع عليه اختيارنا النهائى فى تبويب حقائق الحياة يتوقف على المصلحة التى من أجلها نقوم بالتمييز بين الحقائق . وعلى ذلك فان الأسس التى نبنى عليها ذلك التمييز ، وكذلك القاعدة التى نسير عليها فى تبويب الحقائق ، تتغير باستمرار كلما زاد نمو الثقافة ، لأن الهدف الذى من أجله نتمسك بحقائق الحياة يتغير، وكذلك تتغير بتغيره وجهة نظرنا اليها ، حتى ان المظاهر الخاصة البارزة التى تمتاز بها مهنة ما أو وظيفة أو طبقة اجتماعية فى مرحلة معينة من مراحل الثقافة ، لا تبقى لها نفس الاهمية النسبية عندما يتغير الهدف من تبويبها فى مرحلة ثقافية تالية .

لكن تغير القيم ووجهات النظر لا يحدث الا بالتدريج ، ويندر أن يؤدى الى تخلى الانسان عن راى او الى مقاومته لهذا الراى . والناس لا يزالون كعادتهم يفرقون بين الأعمال الصناعية وغير الصناعية ، وهذا التمييز الحديث هو مظهر متطور من تمييز الجماعات المتبربرة بين الأعمال التى لها طابع البطولة وبين الاعمال الروتينية العادية . فان الناس لا يزالون يشعرون ان أعمالا كالحرب والسياسة والوظائف الرئيسية والترفيه عن الجماهير كلها اعمال تختلف من أساسها عن الاعمال التى تتعلق بانتاج ضرورات الحياة المادية . على ان الخط الدقيق الفاصل بين هذين النوعين من المهن ليس كما كان فى نظم الحياة الهمجية الأولى ، ولكن التمييز الاجمالى بينهما لا يزال عالقا باذهان الناس لم يتخلوا عنه تماما .

والحق أن التمييز الذى يحس به الناس فى الوقت الحاضر يقضى بأن اى مجهود لايمكن أن يعتبر صناعيا الا اذا كان الغرض النهائى منه استخدام أدوات غير بشرية ، ولهذا لايعتبرون استخدام الانسان للانسان من الأعمال الصناعية ، ولكن كل جهد يوجه الى رفع مستوى الحياة البشرية عن طريق استغلال الموارد غير البشرية التى تتوفر فى البيئة يعتبر عملا صناعيا . و « غلبة الانسان على الطبيعة » تعتبر فى نظر الاقتصاديين الذين لا يزالون يحتفظون بالآراء التقليدية القديمة انها هى الحقيقة التى تميز الانتاجية الصناعية ، وهذه السيطرة الصناعية على الطبيعة تشمل فى رايهم سيطرة الانسان على حياة الحيوان وعلى قوى سائر العناصر ، وهم بهذا يرسمون خطا يفصل بين الانسان وبين المملكة الحيوانية ·

وهذا الخط لايرسم — فى أوقات أخرى وبين أقوام طبعوا على مفاهيم تختلف عن مفاهيمنا — لا يرسم كما نرسمه نحن اليوم تماما · ففى طرائق الحياة البربرية أو الهمجية يرسم هذا الخط فى موضع آخر وبطريقة مختلفة . وهناك بين جميع المجتمعات التى تعيش فى ظل الثقافة البربرية شعور حاد بالتعارض بين مجموعتين كبيرتين من الظاهرات يضع الرجل المتبربر نفسه داخل احداهما ، بينما الاخرى تشمل فى نظره المواد اللازمة لحفظ الحياة · فهناك تعارض محسوس بين الظاهرات الاقتصادية وغير الاقتصادية ، ولكنهم لا يفهمونه بمعناه الحديث ، فهو ليس تعارضا بين الانسان وبين مملكة الحيوان ، بل الأشياء الناشطة والأشياء الجامدة ·

ربما كان من المبالغة فى الاحتياط الآن ان نوضح ان عقيدة المتبربرين التى قصدنا التعبير عنها هنا بكلمة « ناشطة » لا تحمل نفس المعنى الذى قد ينطوى عليه لفظ كائنات « حية » فان الأول لا يشمل جميع الكائنات الحية ، مع انه يشمل كثيرا من الكائنات غير الحية . فبعض الظاهرات الطبيعية المحسوسة كالعواصف والأمراض ومساقط المياه تعتبر فى نظرهم اشياء ناشطة بينما الفواكه والعشب ، بل وبعض الكائنات الصغيرة كذباب المنازل والديدان وبعض القوارض والغنم لا تعتبر من الكائنات « الناشطة » الا اذا ذكرت مجتمعة . وهذا الاصطلاح كما نستعمله هنا لا يعنى بالضرورة ان للكائن روحا تحل فيه . وعلى ذلك فان مفهوم مثل هذه الاشياء لدى المتبربرين أو المتوحشين ينم عن الأشياء ذات القوة التى تنعكس فى قدرتها على خلق الحركة . وفى نطاق هذا المفهوم يدخل عدد كبير متنوع من المواد والظاهرات الطبيعية . ومثل هذا التمييز بين الأشياء « الجامدة » والأشياء « الناشطة » لايزال مستقرا فى طرق تفكير الأشخاص الذين لا يتدبرون ، ولا تزال ذات تأثير عميق على النظرية السائدة عن الحياة البشرية والعمليات

التمييز بين الظواهر الناشطة والظواهر الجامدة

الطبيعية لكنها لا تتغلغل فى حياتنــا اليومية التغلغل الواضح فى حيــاة الجماعات التى لا تزال فى المراحل الاولى من مراحل ثقافتها وعقائدها ، ولا التغلغل الذى يجعل له عليها عواقب فعلية بعيدة الأثر .

والمتبربرون يرون أن « تصنيع » المواد التى توفرها لهم الطبيعـة « الجامدة » واستخدامها يدخلان فى باب من ابواب النشاط على مستوى يختلف اختلافا تاما عن علاقته بالأشياء والقوى « الناشطة » ، وقد يكـون الخط الفاصل بين الاثنين غامضا ومتغيرا ، ولكن التمييز العام بينهما حقيقى وفعال بدرجة تجعله ذا اثر كبير فى نظم الحياة بين هؤلاء الناس . ويلعب خيال المتبربر دوره فينسب الى مجموعة الأشياء التى يعتبرها « ناشطة » أن نشاطها هادف أو غائى . وهذا الاعتقاد الذى يقول بأن كل نشاط انما يبذل لتحقيق غرض معين هو الذى يجعل من أية مادة أو أية ظاهرة حقيقة « ناشطة » . وأينما التقى المتوحش أو المتبربر الذى لايزال على طبيعتـه بنوع من نشاط القوى الطبيعية يفرض نفسه عليه ، فانه يفسره على النحو الذى يستطيع ان يدركه ــ التفسير الذى يقترن فى قرارة نفسه بالنشاط الذى نقوم هو به . وعلى ذلك يعتبر مثل هذا النشاط فى نظره شيئا شبيها بعمل الانسان ويعتبر الأشياء « الناشطة » من هذه الناحية شبيهة بالعامل البشرى . والظواهر التى لها هذه الخاصية ــ لاسيما ماكان منها ذا طبيعة غامضة أو محيرة بدرجة ملحوظة ــ يجب مقابلتها بروح مختلفة وباستعداد من نوع يختلف عن النوع اللازم لمقابلة الاشياء « الجامدة » . والنجاح فى مقاومة مثل هذه الظواهر هو نوع من البطولة اكثر منه نوعا من الصناعة ، وهو اثبات للشجاعة لا للمهارة فى العمل .

وعلى هدى هذا التمييز الساذج بين الأشياء « الجامدة » والأشيــاء « الناشطة » يميل نشاط المجتمعات البدائية الى ان ينقسم قسمين نستطيع أن نسميهما فى عرف الاصطلاح الحديث «أعمال البطولة » و «أعمال الصناعة» وتعني الصناعة في هذه الحالة كل مجهود يتجه الى خلق شيء جديد بغرض جديد يكتسبه على يدى صانعها الذى يشـكلها من مادة « جامدة » غير « ناشطة » ، بينما تتضمن أعمال البطولة ، من حيث أنها تتمخض عن شيء مفيد لمن يؤديها ، تحويل الطاقات التى كان يوجهها قبل ذلك عامل مختلف الى غرض ما ، الى خدمة أهداف القائم بالعمل البطولى . ونحن لانزال حتى الآن نتكلم عن المادة الخام بشيء من ادراك المتبربرين لما ينطوى عليه الاصطلاح من مغزى عميق .

والتمييز بين أعمال البطولة والاعمال الكادحة يتلاءم مع فرق موجود بين الجنسين فالجنسان يختلفان ، لا فى القامة والقوة العضلية فحسب ، بل

قد يكون اختلافهما فى الطبع اكثر وضوحا ، ولا بد ان هذا الاختلاف قد أدى فى العصور القديمة الى تقسيم العمل بين الجنسين على اساسه ، فعهد الى الرجال القيام بجميع اوجه النشاط التى تحتاج الى نوع من البطولة ، اذ انهم اقوى بنية واضخم جثة واقدر على تحمل الجهد العنيف الفجائى ، واكثر ميلا لحماية حقوقهم وبذل الجهد فى سبيل التفوق والمباداة بالعدوان. والفرق بين الجنسين فى ضخامة الجثة والخصائص الفسيولوجيــة وفى الطباع قد يكون طفيفا بين أفراد الجماعات البدائية . والواقع انه يبـدو قليلا نسبيا وعديم الأثر بين بعض المجتمعات القديمة التى نعرفها ، كالقبائل التى تسكن جزر اندامان مثلا . لكن ما ان يبدأ تفريق فى الاختصــاص قائم على أساس الفروق فى البنية وعلى التناحر بين الجنسين حتى تبدأ الفروق الاصلية بين الجنسين فى الازدياد ، وحينئذ تبدا عملية جديدة تؤدى الى اكتساب مزيد من الصفات الجديدة التى تجعل الفرد اكثر صلاحية للتقسيم الجديد للعمل ، لا سيما اذا كانت ظروف البيئة أو كان الحيــوان الذى تعيش عليه الجماعة بحيث تتطلب استخدام الانسان لأقوى مواهبــه . فمطاردة الانسان باستمرار لحيوانات الصيد الكبرى تتطلب كثيرا من صفات الرجولة كقوة البنية وسرعة الحركة وشدة المراس ، وهى لهذا لا يمكن الا ان تعجل بزيادة التفريق بين أعمال كل من الجنسين . فاذا حدث أى اتصال عدائى بين الجماعة وبين جماعات اخرى فسرعان مايتخذ التفريق فى العمل بين الجنسين مظهرا جديدا هو التمييز بين اعمال البطولة واعمال الصناعة.

وينتهى الامر فى مثل هذه الجماعات القديمة التى تعيش على القنص بان يضطلع الرجال القادرون بالحرب وبالقنص ، بينما تقوم النساء بما قد يكون هناك من عمل آخر يتطلب الأداء ــ ولهذا كان سائر أفراد الجماعــة الذين لايصلحون لأعمال الرجال يوضعون فيما يختص بهذه الناحيــة ، فى طبقة واحدة مع النســاء . لكن القنص والحرب اللذين يقوم بهما الرجــال يشتركان فى صفة عامة ، فكلاهما بطبيعته يحتاج الى التفكير والتخطيط ، والقانص والمحارب كلاهما يجنى ثمرة لم يزرع بذورها ، ومن الواضح أن أستخدامهما القوة والذكاء فى الدفاع عن حقوقهما يختلف عما تقوم به النساء من عمل روتينى لا يحتاج الى ذكاء ولا بد لذلك أن يعد عملا انتاجيا ، بل يعتبر عمل الرجال بالحرى من أعمال أخذ الأشياء غصبا ، ولما كان هــذا هو العمل الذى يقوم به الرجال فى المجتمعات الهمجية ، عندما يبلغ اقصى درجة من التطور وأوسع مدى من الاختلاف عن عمل النساء ، فانهم ينظرون الى كل عمل لا يحتاج الى البطولة على أنه لا يليق بالرجال . فاذا ما استقر هذا الاعتقاد فى الأذهان نظر اليه المجتمع على أنه القانون العام للسلوك ، حتى أنهم فى هذاالطور من أطوار الثقافةليعتبرون أن أيةمهنة أو أيةوسيلة من وسائل الحصول على المقتنيات غير لائقة بالرجل الذى يحترم نفسه الا

اذا كانت تنطوى على عمل من أعمال البطولة ـ القوة أو الخديعة • فاذا استقر هذا الاعتقاد وساد واصبح جزءا من تقاليد المجتمع أصبح من الحقوق المسلم بها للرجل القوى البنية أن يقتل وان يدمر أى منافس يحاول أن يقاومه أو يخادعه ، وأن يغلب ويخضع اية قوى خارجية تحاول أن تظهر نفوذها بالخروج على طاعته . وفى كثير من الجماعات البدائية يشتد تمسك الناس بهذا التفريق النظرى بين أعمال البطولة وأعمال الكدح الى درجة ان الرجل اذا قنص حيوانا فانه لا يجب ان يحمله معه الى المنزل بل عليه ان يرسل امراة لتقوم بهذا العمل المهين .

ان التفريق بين الرجل والمراة هو كما أشرنا آنفا تمييز بين أنواع المهن. فالأعمال التي يمكن أن تدخل في باب البطولة أعمال لائقة وكريمة وجديرة بالاحترام . لكن ما عداها من المهن التى لا تنطوى على عنصر البطولة هذا ، وخاصة تلك المهن التى تنطوى على المذلة أو الخضـــوع ، مهن غير لائقـــة ومشينة وتافهة . واعتبارات الوقار والمنزلة والشرف فى تطبيقها على الناس وعلى السلوك ، لها الاعتبار الأول فى وجود نظام الطبقات وفى التمييز بينها ولهذا كان من الواجب انذكر شيئا عن مغزاها . ونستطيع ان نشير فيما يلى الى أساسها السيكولوجى •

الانسان عامل من العوامل الضرورية فى عملية الانتخاب الطبيعى ، فهو فى نظر نفسه مركز لاشعاع الطاقة التى تبعث على النشاط • فهو عامل يرمى فى كل عمل من الأعمال الى تحقيق غرض متكامل وواقعى وغير شخصى • وهو بحكم كونه عاملا من هذا القبيل قد وهب الذوق الذى يجعله يعجب بكل عمل مفيد ويعزف عن كل جهد لافائدة منه ، ووهب الادراك الذى به يقرر قيمة العمل والكفاية ، ويحتقر التفاهة والسفه والقصور •

هذه الموهبة أو الاستعداد العقلى نستطيع ان نسميها غريزة الاتقان . وحينما كانت ظروف الحياة أو تقاليدها تدعو الى مقارنة تقليدية بين انسان وانسان من حيث الكفاية ، فان غريزة الاتقان تعمل على عقـــد مقارنات بين الاشخاص مبعثها الحسد أو المنافسة . اما الى اى حد تؤدى غريزة الاتقان الى هذه النتيجة فيتوقف الى درجة كبيرة على طبائع السكان • فأىمجتمع يعتاد الناس فيه على ان يعقدوا بين الاشخاص مقارنات تقوم على الحسد فان النجاح يصبح هدفا يسعى اليه الفرد من أجل فائدته ، بصفته الأساس الذى يقوم عليه اعتباره فى نظر الناس ، فان الناس ينـــالون التقدير ويتجنبون الذم باظهار قدراتهم ، ومن هنا تعمل غريزة الاتقان عن طـريق استعراض القدرة على التفوق •

وخلال هذه المرحلة البدائية من مراحل التقـــدم الاجتماعى ، حين لا يزال المجتمع يتمسك بالتقاليد السلمية ، وقد يكون قد وصل الى مرحلة

الاستقرار لكن دون أن يظهر فيه نظام الملكية الفردية ، يستطيع الفرد أن يعرض قدرته دائما بتأدية عمل يكون من شأنه تحسين أحوال الجماعة ، وأية منافسة ذات طابع اقتصادى توجد بين الأفراد فى مثل هذا المجتمع تكون فى الأغلب منافسة فى ميدان الخدمة الصناعية ، وفى نفس الوقت لا يكون الدافع الى هذه المنافسة قويا ولا يكون مجالها كبيرا ٠

فاذا تطورت الجماعة من الهمجية المسالمة الى المرحلة التى تليها فان ظروف المنافسة تتغير ، فتتغير فرص المنافسة ودوافعها تغيرا كبيرا فى مجالها وفى الضرورات التى تحتمها ، ويأخذ نشاط الرجال طابع البطولة بالتدريج ، وتزداد المقارنة المطبوعة بالحقد بين قانص وقنص او محارب ومحارب سهولة ورسوخا ، ويبدأ الناس يفكرون فى اقتناء كل ما يشهد لهم بالبطولة من غنائم الحرب بصفتها مظهرا من مظاهر زينة الحياة ، وينظر الناس بعين التقدير الى الاسلاب التى اخذوها خلال عمليات القنص او الغزو بصفتها مظهرا من مظاهر القوة الخارقة ، ويصبح الاعتداء هو العمل الذى يستحق التقدير ، وتقوم الاسلاب لاول وهلة شاهدا على الاعتداء الموفق . وتنظر الجماعات التى تجتاز هذه المرحلة من مراحل الثقافة ، الى المنافسة على انها الوسيلة التى تستحق التقدير ويستطيع بها الرجل ان يوطد مركزه فى عشيرته ، والأدوات النافعة والخدمات التى يحصل عليها الرجل اغتصابا أو كرها هى فى نظرهم شاهد على نجاحه فى المنافسة ٠ ومن هنا وعلى النقيض من ذلك ، ينظرون الى الاشياء التى يحصل عليها المرء بغير طريق العنف على أنها لا تليق بالرجل ذى المكانة ، ولهذا السبب نفسه كانت تأدية العمل المنتج أو العمل فى خدمة الافراد تقابل بنفس هـذا الاحتقار . وبهذه الطريقة يبدأ التمييز القائم على التحاسد بين اعمال البطولة وحيازة المقتنيات عن طريق الاغتصاب من جهة وبين الأعمال الصناعية من جهة اخرى ، فيوسم العمل بميسم المهانة لما يلصق به من التحقير ٠

ويبدو أن لفظ «الشرف» لم يكن له فى تفكير الرجل المتبربر البدائى غير التفوق فى القوة الجسمية ، وذلك قبل اختفاء مدلوله البسيط وراء حجب من المفاهيم التى تشعبت عنها ، وظهور أفكار ثانوية مشابهة لها ٠ فلفظ « شريف » معناه « قوى المراس » ولفظ « وجيه » معناه « بالغ القوة » ٠ والعمل الشريف ليس له آخر الأمر أية قيمة سوى انه عمل ناجح من أعمال الاعتداء ، وحيثما كان الاعتداء معناه الصراع مع الرجال أو الحيوانات فان العمل الذى يوسم بالشرف هو أولا وعلى وجه الخصوص الذى ينطوى على قوة أكبر ٠ والفكرة الساذجة القديمة التى كانت تفسر جميع مظاهر القوة على أنها من مظاهر قوة الشخصية أو قوة

الارادة ، تزيد من التشريف الذى كان الناس يسبغونه على صاحب القوة الاكبر . وصفات الاجلال التى يعتز بها الناس فى المجتمعات المتبربرة وبين كثير من الشعوب التى وصلت الى درجة ثقافية أرقى ، تحمل فى العادة طابع هذا الادراك البسيط لمعنى الشرف . فالنعوت والالقاب التى تستعمل فى مخاطبة الزعماء والملوك والآلهة غالبا ما تنسب الى الشخص الذى يراد استرضاؤه الميل الى العنف الطاغى والقوة المخربة التى لا تقاوم . وهذا صحيح الى حد ما فى بعض الجماعات الأكثر تحضرا فى وقتنا الحاضر . وأن ما نراه فى شارات الاسر العريقة من ايثارها لصور الحيوانات المفترسة والطيور الجارحة يؤكد وجهة النظر هذه .

وعلى أساس هذا المفهوم من تقدير المتبربرين للجاه والشرف نجد أن ازهاق الأرواح ، أى القضاء على المنافس القوى سواء كان حيوانا أو انسانا، عمل شريف غاية الشرف . وهذه المكانة المرموقة لعملية القتل ، بصفتها مظهرا يدل على القوة الخارقة التى يتمتع بها القاتل تضفى ثوبا ساحرا من التقدير على كل عملية من عمليات القتل وعلى كل أداة ساهمت فيه . والسلاح أهل للاحترام واستخدامه ، حتى لو كان فى القضاء على أحقر كائن من كائنات الحقل ، عمل يستحق الاحترام . وفى نفس الوقت نجد العمل فى الصناعة امرا محتقرا ، كما نجد تداول أدوات الصناعة وآلاتها من الاعمال التى تحط فى نظرهم من مكانة الرجل القادر ، ومن هنا يصبح العمل شيئا بغيضا .

نحن فى بحثنا هذا نفترض أن الجماعات البدائية قد مرت خلال عملية تطورها الثقافى من مرحلة سلمية أولية الى مرحلة تالية يصبح الصراع فيها هو المهنة المباحة التى تتميز بها الجماعة . ولكن هذا لا يعنى أنه كان هناك انتقال فجائى من مرحلة مسالمة دائمة وحسن جوار الى مرحلة تالية أو أرقى من مراحل الحياة يقع فيها الصدام للمرة الأولى ، كذلك لايعنى هذا أن كل عمل من الاعمال السلمية يختفى بمجرد الانتقال الى مرحلة الثقافة العدوانية. ونحن لانعدو الصواب اذا قلنا أن الأمر لم يخل أبدا من بعض الصدام فى المراحل الاولى للتطور الاجتماعى . فان الصراع كان يحدث فى أحيان كثيرة أو قليلة من أجل التنافس على الأنثى . والعادات التى نعرفها عن الجماعات البدائية ، وكذلك التى نعرفها عن القردة العليا ، تؤيد هذا الراى ، كما تؤيده الشواهد التى نعرفها عن الطبيعة البشرية .

قد يعترض معترض بأن من الممكن أن مثل هذه المرحلة الأولية التى كانت الجماعات فيهاتجنح الى السلم لم تحدث أبداكما نفترض هنا ،فليست هناك مرحلة من مراحل التطور الثقافى تخلو من الصراع . لكن النقطة التى يدور حولها البحث هنا ليست خاصة بامكان وقوع الصراع بصفة منقطعة

أو مستمرة أو حتى بصفة دائمة الى درجة كبيرة أو صغيرة أو بصفة عادية ، ان النقطة هى ما اذا كان وقوع الصراع ناشئا عن عقلية جبلت على المشاغبة ـ انتشار عادة التحكم على الحقائق والأحداث من وجهة نظر الصراع ٠ ولاتبلغ الجماعة هذه المرحلة العدوانية من مراحل الثقافة الا عندما يصبح الاتجاه الى العدوان هو الاتجاه التقليدى الذى ينظر اليه بالتقدير بين كل أفراد الجماعة ، وعند ما يصبح الصراع هو النغمة السائدة فى النظرة العامة الى الحياة ، وعندما يصبح تقدير الرجال والأشياء تقديرا من وجهة نظر الصراع .

لهذا نجد الفرق بين مرحلة الحياة السلمية ومرحلتها العدوانية فرقا روحيا لا آليا والتغير فى الاتجاه الروحى هو نتيجة ظهور تغير فى حقائق الحياة المادية لدى الجماعة ، وهذا التغير يأتى تدريجيا كلما سادت الأحوال المادية التى تساعد على انتشار الروح العدوانية . والحد الادنى لاى ثقافة عدوانية حد صناعى ، لان العدوان لا يمكن أن يصير هو الملاذ المعتاد والمناسب لأية جماعة أو أية طبقة من الناس الا بعد أن تكون وسائل الصناعة قد تقدمت الى درجة من الكفاية بحيث يكون هناك فرق يستحق الاصطراع ـ فوق مستوى الذين يكدحون من أجل الحصول على ما يقيم أودهم ٠ وعلى ذلك كان التحول من روح المسالمة الى روح العدوان يتوقف على تقدم المعلومات الفنية واستعمال الأدوات ، وكانت الثقافة العدوانية بالمثل غير ممكنة فى العصور الاولى حتى تقدمت الاسلحة بدرجة جعلت من الانسان حيوانا شديد المراس . والخطوات الاولى فى تطور الآلات والادوات هى بطبيعة الحال ذات الحقيقة ينظر اليها من وجهتى نظر مختلفتين ٠

ومن الممكن أن نعتبر حياة اى مجتمع معين حياة مسالمة طالما ان عادة الالتجاء الى التصارع لم تجعل الحرب اهم شىء يشغل تفكير الناس ولم تصبح بعد مظهر الأساس فى حياة الانسان ٠ ومن الواضح أن جماعة من الناس قد ينمو فيها الميل الى العدوان الى درجة تامة او ناقصة بحيث قد تصبح نظم حياتها وقوانين سلوكها يتحكم فيها هذا الاتجـاه العدوانى . فمرحلة الثقافة العدوانية يمكن اذن أن ننظر اليها على أنها تاتى تدريجيا بسبب زيادة الميول والعادات والتقاليد العدوانية ، وهذه الزيادة التى تاتى

نتيجة لتغيرات تطرأ على ظروف حياة الجماعة تساعد على احتفاظها بسمات الطبيعة البشرية ، والتقاليد ومعايير السلوك التى تساعد على خلق حياة عدوانية بدلا من حياة مسالمة .

والدليل على صحة النظرية التى تقول بانه كان هناك مثل هذه المرحلة السلمية فى الثقافة البدائية نستمد اكثره من علم النفس لا من علم الاجناس البشرية ، ولا يمكن ان نتناوله هنا بالتفصيل ، وسوف نتناول بعضه فى فصل تال من هذا الكتاب حين نناقش رواسب الملامح البدائية للطبيعة البشرية التى لا تزال باقية فى ثقافتنا الحديثة .

الفصل الثاني

التسابق في اقتناء المال

ان ظهور طبقة المترفين خلال مرحلة التطور الثقافي يتفق مع بدء ظهور الملكية . وهذا بالضرورة هو الواقع لان هذين النظامين ينشآن من مجموعة واحدة من العوامل الاقتصادية . وهما في خلال أطوار ظهورهما الأولى لا يزيدان على أن يكونا مظهرين مختلفين للحقائق العامة التي يتميز بها الكيان الاقتصادي .

والفراغ والملكية أمران هامان للبحث الذي نتناوله من حيث كونهما من عناصر الكيان الاجتماعي . واعتياد البطالة لا يخلق طبقة من المترفين ، كذلك استخدام الاشياء واستهلاكها لا يخلق الملكية . وعلى ذلك فان بحثنا هذا ليس من شأنه البحث في منشأ التكاسل ، ولا هو يبحث في منشأ الرغبة في اقتناء الأدوات التي تفيد في الاستهلاك الشخصي . ولكن موضوع البحث هو منشأ عادة البطالة التقليدية وطبيعتها من جهة ، وبدء الملكية الفردية بصفتها حقا وراثيا أو مطلبا مشروعا من جهة أخرى .

محور الكتاب

وأول تفريق نشأ عنه التمييز بين الطبقة العاطلة والطبقة العاملة كان تمييزا بين وظيفة الرجل ووظيفة المرأة وذلك في المراحل الدنيا من البربرية . كذلك نجد أن أقدم نوع من أنواع الملكية كان ملكية الرجال الأشداء في المجتمع للنساء . هذه الحقائق يمكن التعبير عنها بطريقة أكثر تعميما وأصدق تعبيرا عن نظرية المتبربرين في الحياة ، فنقول انها هي امتلاك الرجال للنساء .

لاشك أنه كان هناك نوع من حيازة الادوات النافعة قبل ظهور عادة امتلاك النساء ، والعادات السائدة في المجتمعات البدائية الحالية التي لا تمارس استرقاق الرجال للنساء دليل على صحة هذا الرأي . فان الأعضاء في جميع المجتمعات ـ سواء كانوا رجالا أو نساء ـ يحوزون عادة عددا من الأدوات النافعة من أجل استعمالهم الشخصي ، لكن هذه الأشياء النافعة لا تعتبر مملوكة للشخص الذي يحوزها ويستهلكها ، فالحيازة التقليدية واستهلاك بعض الادوات الخاصة القليلة تتم دون أن تثير أية مشكلة خاصة بامتلاكها ، اي لا تثير اي نزاع حول قانونية المطالبة بها

وعادة حيازة المرأة تبدأ فى المراحل الدنيا من مراحل الثقافة البربرية ، ويبدو أن هذه الحيازة تنشأ من أخذهن أسرى فى الحروب ، كما يبدو أن السبب الرئيسى الذى كان يدعو الى سبى النســاء وحيازتهن هو قيمتهن كشاهد على الانتصار • وممارسة سبى نساء العدو وأخذهن ضمن أسلاب الحرب تسمو الى شكل من أشكال تزوج الرجل بما ملكت يمينه • وهذا يؤدى الى نشوء الاسرة التى تخضع لسيادة الرجل • وقد تبع هذا امتداد الرق الى الاسرى والاتباع من غير النساء والى امتــداد التزوج بما ملكت اليمين الى نساء أخريات غير من أخذن سبايا من الأعداء • ثم ينتهى التصارع فى هذه الظروف التى تمتاز بها الحياة العدوانية الى نوع من أنواع التزوج المبنى على الارغام من ناحيــة ، والى ظهــور نظام التملك من جهة أخرى • وهذان النظامان لايمكن التفريق بينهما خــلال مراحــل ظهورهما الاولى ، فكلاهما ينشأ عن رغبــة المنتصرين فى اظهار دلائل سطوتهم باستعراض بعض النتائج الدائمة لبطولاتهم وكلاهما أيضا يساعد على تدعيم الرغبة فى السيادة التى تنتشر فى كل المجتمعات العدوانية • ومن امتلاك النساء يمتد مفهوم الملكية حتى يشمل ملكية المنتجات التى يصنعنها ، وهكذا تنشأ ملكية الأشياء الى جانب ملكية الاشخاص •

كيف يستقر نظام ملكية السلع

وبهذه الطريقة يستقر بالتــدريج نظام ملكيــة السلع • ومع أن فائدة السلع للاستهلاك قد أصبحت فى مراحل التقدم الاخيرة أهم عنصر تتوقف عليه قيمتها ـ فان اقتناء الثروة لم يفقد الى الآن أهميتــه كدليــل عظيم مشرف على سطوة من يملكها •

حيثما وجد نظام الملكية الخاصة ، حتى لو كان فى مراحل تطوره الأولى فان العملية الاقتصادية تحمل طابع الصراع بين الرجال على امتلاك السلع • ومن المعتاد فى النظرية الاقتصادية ، وخاصــة بين الاقتصــاديين الذين يلتزمون النظريات الكلاسيكية دون أن يحيدوا عنها الا قليلا ، نقــول من المعتاد فى النظرية الاقتصادية تفسير هذا الصراع على اقتناء الثروة على أنه فى الأساس صراع على الرزق • وهذا لا جدال هو طابعه الى حد كبير خلال المراحل الأولى والأقل كفاية من مراحل الصناعة • وهذا أيضا هو طابعه فى جميع الاحوال التى يكون فيها شح الطبيعة بحيث لا تجود على الجمــاعة الا بما لايكاد يقيم أودهم فى مقابل الجهود المضنية التى يبذلونها فى سبيل الحصول على الرزق • لكن جميع المجتمعات التى تسير فى طريق الارتقاء سرعان ما تتخطى هذه المرحلة الاولية من مراحل التقــدم التكنولوجى ، وسرعان ما تسير بالكفاية الصناعية حتى تبلغ درجــة تســاعد المشتغلين بالصناعة على أن ينتجوا سلعا تزيد كثيرا على القدر الذى يلزم لمجرد اقامة

الأود · ولم يكن من غير المعتاد أن تبحث النظرية الاقتصادية عما ياتى بعد ذلك من صراع على الثروة على هذا الأساس الصناعى الحديث ، فتصفه بأنه تنافس من أجل توفير مزيد من الترف — وهو قبل كل شيء توفير مزيد من الترف المادى الذى يهيئه استهلاك السلع ·

والرأى السائد هو أن الهدف من جمع السلع وتكديسها هو استهلاكها سواء كان استهلاكها مباشرا بوساطة من يملك السلع او عائلته الذين لا يفترقون عنه من هذه الناحية نظريا · وهذا هو على الاقل ما نعلم أنه الهدف من جمع السلع الذى يستطاع تبريره من الناحية الاقتصادية ، وهو وحده الذى يجب على هذه النظرية ان تأخذه بعين الاعتبار · ومثل هذا الاستهلاك قد ينظر اليه بالطبع على أنه يسد احتياجات المستهلك المادية — راحته المادية أو ما يسمى احتياجاته العليا — واحتياجاته الروحية والرياضية والعقلية وما اليها ، والنوع الاخير من الاحتياجات يمكن كفايته بطريق غير مباشر بواسطة استهلاك السلع بالوسيلة المعروفة لدى كل من يقرأ الاقتصاد ·

لكن لا يمكن أن يقال أن استهلاك السلع هو الدافع الوحيد لتكديسها الا اذا فهمناه على وجه يختلف كثيرا عن معناه الساذج · فان حب السيادة هو الدافع الأساسى الى اقتناء الثروة ، ودوافع اقتناء الثروة هذه لاتزال تعمل عملها فى تطور النظام الذى عملت على ظهوره ، وفى تطور جميع مظاهر الكيان الاجتماعى التى يمسها نظام الملكية هذا ، فامتلاك الثروة يضفى نوعا من الشرف ، وهو عامل من عوامل التمييز يثير الحسد · ولايمكن أن يقال مثل هذا عن استهلاك السلع ، ولا عن أى دافع آخر من دوافع اكتنازها ·

ولا يمكن بالطبع أن نغض النظر عن الحقيقة الواقعة وهى أن كل المجتمعات التى تكون جميع السلع فيها تقريبا من الممتلكات الخاصة تكون الحاجة الى كسب العيش من الدوافع القوية التى تدفع جميع الفقراء من أعضاء المجتمع الى العمل الدائب — وقد تكون الحاجة الى كسب القوت والى رفع المستوى المادى فى بعض الاوقات هى الدافع القوى الى جمع الثروة بين الطبقات التى تشتغل عادة بالاعمال اليدوية والتى تعيش على مستوى الكفاف والتى تملك القليل ولا تدخر فى العادة الا القليل · ولكننا سوف نرى فى خلال هذا البحث ان الدوافع الناشئة عن الاحتياجات المادية — حتى فى حالة هذه الطبقات التى لاتتسابق على جمع المال — ليس أمرا مقطوعا به كما يفترض فى بعض الأحيان · ومن جهة أخرى نرى أن الحاجة الى توفير ضرورات الحياة أو توفير الراحة المادية لا تلعب أبدا

دورا هاما فى حياة أفراد المجتمع وطبقاته التى تهتم أكبر الاهتمام بجمع الثروة • فان اقتناء المـاديات قد ظهر وتطور الى نظـام بشرى على أسس لا تمت بصلة الى حياة الكفاف • فقد كان الدافع السائد منذ البداية هو التحاسد بين الطبقات بسبب التمييز بينهم على أساس التفاوت فى الثراء ، ولم يحدث ـ الا فى أوقات محدودة وعلى سبيل الاستثناء ـ ان حل محله دافع آخر فى أية مرحلة تالية من مراحل التقدم •

وقد بدأت الملكية على شكل أسلاب يقتنيها الرجال دليلا على التوفيق فى الغارات • وطالما بقيت الجماعة دون أن تتحول الا قليلا عن النظام الشعبى البدائى ، وطالما بقيت على اتصال بجماعات أخرى معادية لها ، فان الاشياء أو الاشخاص المملوكة تقتصر منفعتها على المقارنة التفاخرية بين الشـخص الذى سلبها والشخص الذى سلبت منه • ويبدو أن عادة التمييز بين مصالح الأفراد ومصالح الجماعة التى ينتمى اليها لم تنشأ الا فى مرحلة تالية • والمقارنة التفاخرية بين من حصل على الأسلاب المشرفة وبين جيرانه من نفس الفريق الذين لم يسعدهم الحظ مثله ، هذه المقارنة كانت من غير شـك موجودة منذ القدم كعنصر من عناصر الانتفاع بالأشياء التى يملكونها • ولو أن هذا التفاخر لم يكن منذ البداية أهم عامل يكسبها قيمتها • فقد كانت سطوة الفرد لاتزال تعتبر أساسا جزءا من سطوة الجماعة ، وكان الذى يملك الأسلاب يشعر بأنه قبل كل شىء حارس شرف المجموع • وهذا التقـدير للبطولة ، من وجهة النظر الجماعية ، نراه أيضا فى مراحل تالية من مراحل التطور الاجتماعى ، لاسيما فيما يختص بأكاليل النصر •

لكن بمجرد أن يبدأ الاعتراف بالملكية الفردية فى الاستقرار فان وجهة النظر التى يتخذها الناس فى عمل المقارنات التحاسدية التى هى الدافـع الأساسى لاقتناء الملكية الفردية ، نقول ان وجهة النظر هذه تبدأ فى التغير ، والحقيقة أن كلا من هذين التغيرين انعكاس للآخر • فان الطـور الأول من أطوار الملكية ، وهو طور الحيازة بطريق الاغتصاب البسيط والامتلاك ، يبدأ فى الانتقال الى طور تال هو طور التنظيم الصناعى البدائى القائم على أساس الملكية الخاصة (من الرقيق) ويتطور المجتمع الى دور يستطيع فيه أن يكفى نفسه الى حد كبير أو قليل ، وتتغير نظرة الناس فيقدرون الممتلكات لا على أنها رمز للتوفيق فى الغارات بل بالحرى على أنهـا رمز لسلطان من يملكها على غيره من أعضاء مجتمعه • وحينئذ تتغير المقـارنة التحاسدية فتصبح قبل كل شىء مقارنة بين صاحب الملكية وغيره من أعضاء الجماعة • ولا تزال الملكية الخاصة تأخذ طابع الغنيمة ، ولكنها تتحول مع التطـور الثقافى فتصبح مع الوقت طابع غنيمة النجاح فاز بها صاحبها اثناء « لعبة »

كيف بدأت الملكية

أطوار الملكية

الملكية التى يتبارى فيها أعضاء المجتمع فى ظروف حياة البداوة ذات الطابع السلمى الظاهرى ٠

وبالتدريج ، وكلما حل النشاط الصناعى محل النشاط العدوانى فى حياة المجتمع اليومية وفى طرق تفكير أفراده ، تحل الممتلكات التى يقتنونها محل الغنائم التى اغتصبوها من حيث كونها مظهرا من مظاهر الجاه والتوفيق ، وعلى ذلك فكلما زاد تقدم الصناعة فى المجتمعات المستقرة زادت أهمية اقتناء الثروة وزادت آثارها كعامل من عوامل الشهرة والجاه٠ وليس معنى هذا أن الجاه يبطل اكتسابه على أساس المظهر الآخر المباشر من السطوة والشجاعة ، ولا معناه ان الاغتصاب عن طريق الاعتداء الموفق أو البطولة فى الحروب يبطل عمله فى اكتساب رضاء المجتمع واعجابه أو اثارة الحسد بين المنافسين الذين كانوا أقل توفيقا ، لكن معناه أن فرص اكتساب الجاه عن طريق هذا الاستعراض المباشر للقوة الكبرى يصبح أبعد منالا من حيث مداه أو تكرار حدوثه ، وفى نفس الوقت تزداد الفرص أمام الحيازة الصناعية وجمع الثروة بوسائل البدو الصناعية ذات المظهر السلمى ، نقول ان هذه الفرص تزداد فى نفس الوقت فى مداها وفى قرب منالها ٠ بل قد يكون أقرب الى الصحة أن نقول ان الملكية تصبح عندئذ أسهل دليل يقوم شاهدا على التوفيق ، بعد أن كان هذا الشرف يعزى الى ما يستولى عليه الشخص بالبطولة أو العمل الخارق ، ومن أجل هذا تصبح الملكية هى الأساس التقليدى لاكتساب التقدير ، واقتناء قدر كبير من الممتلكات يصبح أمرا ضروريا لاكتساب مركز مرموق فى المجتمع ، ولذلك يصبح من الضرورى جمع الممتلكات وحيازتها كى يحتفظ المرء بالسمعة الطيبة ، فاذا اتفق العرف على أن الثروة التى يكنزها المرء بهذه الوسيلة هى رمز الكفاية فسرعان ما يأخذ اقتناء الثروة طابع أساس مستقل وحاسم من أسس التقدير ، ويصبح امتلاك الثروة هو الاساس العرفى لذيوع الصيت ، سواء كانت الثروة قد أتت اغتصابا عن طريق جهود صاحبها أو سلبيا بأيلولتها اليه وراثة عن غيره ٠ فامتلاك الثروة ، الذى لم تكن أهميته فى الاصل تزيد على كونه دليلا من دلائل القوة ، يصبح هو ذاته فى العرف الدارج عملا يستحق التقدير ٠ فالثروة الآن فى حد ذاتها علامة من علامات التكريم تضفى على مالكها شيئا من الشرف ٠ فاذا تطور المجتمع بعد ذلك الى مرحلة تالية راقية أصبحت الثروة التى يكتسبها المرء بالطرق السلبية بأيلولتها اليه عن أسلافه أدعى الى تقديره حتى من الثروة التى يجمعها بجهوده ٠ لكن هذا التمييز لايتأتى الا فى مرحلة متأخرة من مراحل تطور الثقافة المالية وسوف نعرض للكلام عنه فى حينه ٠

قد تبقى السطوة والبطولة أساسا لاكتساب أعلى درجات التقدير فى أعين العامة ، ومع ان اقتناء الثروة قد صار فى عرف الجميع أساسا للشهرة وللمكانة الاجتماعية المرموقة فان غريزة العدوان وما يتبعها من اعجاب بالقدرة على الاعتداء قد تأصلت جذورهما فى طرائق التفكير لدى تلك الشعوب التى اجتازت مراحل ثقافة عدوانيـة طويلة الامـد وأعلى مراتب الشرف التى يستطيع الانسـان أن يبلغهـا قد تكون — حتى فى وقتنا الحاضر — هى التى يبلغها المرء باستعراض قدرة عدوانية خارقة فى الحرب أو قدرة ذات مظهر عدوانى فى أمور السياسة • ولكن وسائل الشهرة هذه قد حل محلها جمع المال وتكديسه ، من حيث كونهما امورا تكسب صاحبها مركزا مرموقا فى المجتمع • فلكى يرتفع المرء فى نظر المجتمع فعليه أن يبلغ مستوى خاصا غير محدد من الثراء ، تماما كما كان من الضرورى للرجل المتبربر فى المراحل الأولى من الثقافات العدوانية أن يبلغ مستوى القبيلة من حيث الاحتمال والدهاء والمهارة فى الحرب • وهكذا نجد مستوى خاصا من الثراء فى احدى الحالات ومستوى خاصا من السطوة فى الأخرى ، شرطا أساسيا لاكتساب الشهرة ، وما زاد على ذلك المسـتوى يستوجب لصاحبه التقدير •

فاذا قصر بعض أفراد المجتمع عن بلوغ هذه الدرجة العادية غير المحددة من السطوة أو من الثراء فقدوا شيئا من تقدير مواطنيهم ، وفقدوا من أجل ذلك شيئا من التقدير فى نظر أنفسهم ، اذ أن الأساس المعتاد الذى يقوم عليه احترام المرء لنفسه هو الاحترام الذى يبديه جيرانه نحوه • ولايستطيع غير ذوى المزاج المنحرف أن يبقوا طويلا على احترامهم لأنفسهم اذا كـان المجتمع ينظر اليهم بعين الاحتقار • وقد نصادف أفرادا يشذون عن هـذه القاعدة ، لاسيما فى الشعوب ذات العقيدة الدينية الراسخة • ولكن تلك الشواذ الظاهرية يندر أن تكون شواذ حقيقية ، لأن مثل هؤلاء الأشخاص يعتمدون فى العادة على قبول العامة لبعض الخوارق التى تشهد على أعمالهم •

وعلى ذلك فبمجرد أن يصبح امتلاك الثروة أساس احترام المرء فى أعين الناس فان الثروة تصبح أيضا من ضرورات الرضا النفسانى الذى نسميه احترام النفس • ومن الامور الضرورية — فى أى مجتمع يعترف بالملكيـة الفردية — لأى فرد يريد لنفسه راحة البال أن يملك من الثروة مايساوى ثروة غيره من الأفراد الذين يضع نفسه واياهم فى طبقة واحدة • ومما يبعث فى نفسه أشد الرضا أن يملك قدرا يزيد على ما يملكه غيره • لكن بمجـرد أن يضيف المرء الى ثروته شيئا جديدا ويعتاد المستوى الجديد الذى نشأ عن هذا الوضع الجديد ، فان المستوى الجـديد لا يستطيع أن يبعث فى نفسه قدرا من الرضا يزيد كثيرا على ماكان يبعث المستوى السابق • وعلى

أى حال ، فان الانسان يميل دائما الى أن يجعل مستوى الثروة الجديد الذى بلغه نقطة انطلاق الى تكديس مزيد من الثروة ، وهذا بدوره يخلق مستوى جديدا للكفاية ويساعد الانسان على أن يضع نفسه فى طبقة جديدة من الناحية المالية بالنسبة الى جيرانه • ونحن نرى فيما يختص بهذا البحث أن الهدف الذى يرمى اليه الناس من جمع الثروة هو ارتفاع منزلتهم بالنسبة لباقى أعضاء المجتمع من حيث قوة مركزهم المالى • فطالما كان الفرد يرى أن هذه المقارنة هى بالتأكيد فى غير جانبه فسوف يبقى دائما فى حالة تذمر مزمن من حظه فى الحياة ، فاذا بلغ ما نستطيع أن نسميه المستوى المالى العادى للمجتمع أو لطبقته التى ينتمى اليها فى المجتمع فسوف يختفى ذلك التذمر المزمن ليحل محله جهد مضن يبذله ليخلق بينه وبين هذا المستوى المعتاد هوة مالية تزداد اتساعا على مر الأيام • ان المقارنة القائمة على الحسد لا يمكن أن تترك صاحبها مرتاح البال الى حد يمنعه من وضع نفسه دائما فى طبقة أعلى من طبقة منافسيه فى الصراع على الشهرة المالية •

ان رغبة أى فرد فى الثراء لا يمكن أن تقف عند حد ، ومن الواضح أن اشباع الرغبة العامة فى الثراء أمر مستحيل • ومهما كانت الثروة موزعة توزيعا عاما أو متساويا أو عادلا فان أية زيادة عامة فى ثروة المجتمع لايمكن أن تسد هذه الحاجة • لأن أساسها هو رغبة كل فرد فى أن يبز كل فرد آخر فى مقدار ما يجمع من المال ، فلو كان الدافع الى جمع المال هو – كما يفترض فى بعض الأحيان – الحاجة الى توفير وسائل العيش أو الترف المادى لكان فى الامكان اذن سد جميع الحاجيات المادية للمجتمع عندما يبلغ هذا المجتمع درجة خاصة من الكفاية الصناعية ، لكن لما كان الصراع فى أساسه تسابقا الى الشهرة على أساس المقارنة التحاسدية ، فليس فى الامكان الاكتفاء ببلوغ مستوى محدد •

هذا القول الذى أوردناه لا ينبغى أن يفهم منه انه ليست هناك دوافع أخرى لجمع المال وتكديسه غير هذه الرغبة فى رفع الفرد لمركزه المالى لينال بذلك تقدير مواطنيه وغيرتهم • فان دافع الرغبة فى تحقيق مزيد من الترف المادى والامان من الحاجة موجود فى كل خطوة من خطوات جمع المال فى اى مجتمع صناعى حديث ، مع أن مستوى الكفاية فى هذه الاحوال يتأثر بدوره بعادة التنافس على جمع المال • وهذا التنافس يتدخل الى حد كبير فى تشكيل طرائق انفاق المال وتخير أوجه صرفه كى يوفر لصاحبه الترف المادى والحياة الناعمة •

اضف الى هذا ان السلطان الذى يوفره الثراء لصاحبه هو دافع آخر من دوافع جمع المال • فذلك الميل الى النشاط الهادف وذلك العزوف عن

كل جهد لا طائل تحته ، وهما من مميزات الانسان بصفته عاملا من العوامل، لا يتخليان عنه اذا جاوز الثقافة البدائية الساذجة حيث طابع الحياة الغالب هو وحدة الفرد مع المجتمع الذى ينتمى اليه وحدة لافكاك منها . وعندما ينتقل الى المرحلة العدوانية التى يغلب فيها طابع الحــرص على المصلحة الذاتية فى معناه الضيق ، فان ذلك الميل (الى النشاط الهـادف) لايزال يلازمه فيصبح السمة الملازمة التى تشكل طريق حياته . وهذا الميل الى تحقيق الهدف والعزوف عما لا يفيد يبقيانهما الدافع الاقتصادى الاساسى، والميل لا يتغير الا فى المظهر الذى يعبر عن نفسه وفى الأغراض الأخرى التى يوجه اليها نشاط الانسان . وفى المجتمعات التى يسود فيها نظام الملكية الفردية تكون اسهل الوسائل الى تحقيق الهدف هى وسائل اغتصـــاب الممتلكات والاحتفاظ بها . وعندما يصل شعور الناس بالتباين بين بعض الرجال وبعض اقصى مداه نجد رغبة الناس فى الاقتناء — وهى غريزة المهارة الفنية — تزداد ميلا الى تعديل نفسها نحو التفوق على الآخرين فى جمع المال . ويصبح النجاح ، الذى يقاس بمقياس الموازنة التحاسدية بين الرجال من حيث الثراء ، هو الهدف التقليدى لكل نشاط . ويصبح الهدف المشروع الذى يعترف به المجتمع لكل مجهود يبذل هو فوز الفرد فى المقارنة بينه وبين غيره من الرجال ، وعلى ذلك فأن عزوف المرء عن أى عمل غير مفيد هو الى حد كبير عنصر من عناصر التنافس ، اذ هو يعمل على دفع الصراع من اجل الشهرة المالية ، ويقابل بالاعتراض الشديد كل فشل وكل ظاهرة فشل فى السعى من اجل المال . ويصبح « المجهود الهادف » هو ، قبل كل شىء ، المجهود الذى يوجه الى — أو الذى ينتج عنه — جمع قدر من الثروة يزهى به صاحبه . وعلى ذلك فان حب السبق لا يزال من الدوافع الى التنافس على جمع المال .

عندما نستخدم لفظ « تحاسدى » قد لا يكون من الضرورى ان نشير الى أننا لم نقصد أن نمجد او نبخس ، ان نمــدح أو نذم ، أية ظاهرة من الظاهرات التى يستعمل اللفظ للدلالة عليها ، فان هذا التعبير يستعمل فى معنى فنى بحيث يصف الموازنة بين الاشخاص بغرض تقييمهم وترتيبهم من حيث قيمهم أو اقدارهم النسبية — من الناحية الجمالية أو الأخلاقيــة — وبذلك يحدد درجات رضائهم النسبى برأى الغير فيهم أو برأيهم فى انفسهم . فالمقارنة التحاسدية عملية تقدير للاشخاص من حيث قيمهم .

الفصل الثالث
البطالة المظهرية

الأثر المباشر لمثل هذا الصراع على الثروة ـ اذا لم تتدخل فى سيره قوى اقتصادية أخرى أو صورة أخرى من صور جمع المال ـ هو ، كما سبق أن ذكرنا فى ايجاز ، أن يدفع الرجال الى الكدح والاقتصاد . وهذا هو بالفعل ما يحدث الى حد ما بين الطبقات الدنيا الذين لايجدون فى العادة غيرالعمل المنتج وسيلة لجمع المال ، وهذا يصدق بصفة خاصة على الطبقات العاملة فى مجتمع غير بدوى بلغ الطور الزراعى فى الصناعة وتوسع فى توزيع الملكية وأصبحت قوانينه وتقاليده تضمن لتلك الطبقات نصيبا من نتاج جهودهم . وهذه الطبقات الدنيا لا تستطيع على أية حال أن تترفع عن العمل ، ومن هنا لم يكن العمل من الأمور التى تحط من قدرهم كثيرا ، أو تحط من قدرهم على الأقل بين أفراد طبقتهم . بل هم بالحرى يشعرون بشىء من الفخر فى قدرتهم على اتقان العمل ، اذ أن هذا هو فى الأغلب الأعم مجال المنافسة الوحيد أمامهم . أما الذين لا يجدون أمامهم سبيلا لجمع المال والمنافسة الا عن طريق الكفاية فى الانتاج ، فان الصراع من أجل الشهرة المالية يؤدى بدرجة ما الى بذل مزيد من الجهد ومن الاتقان . لكن بعض المظاهر الثانوية لعملية المنافسة سوف يأتى الكلام عنها فيما بعد ، تتدخل فتحدد طرق المنافسة وتعدل اتجاهها بين الطبقات الأقل ثروة ، وكذلك بين الطبقات العليا .

لكن الأمر يختلف عن ذلك فيما يختص بطبقة الأثرياء التى هى موضع اهتمام مباشر لهذا البحث . وهذه الطبقة أيضا لا يزال عامل الاجتهاد والاقتصاد يلعب دوره فى دفعها الى العمل ، ولكن أثره تحدده المطالب الثانوية للتنافس المالى ، لدرجة أن أى اتجاه فى هذا السبيل يكون عديم الجدوى من الناحية الفعلية ، وأى دافع الى الاجتهاد يصبح عديم الأثر . والزم هذه المطالب الثانوية التى تتطلبها المنافسة ، وكذا أكثرها ذيوعا ، الحاجة الى الامتناع عن العمل المنتج . وهذا حقيقى بدرجة خاصة فى طور الثقافة الهمجى . ففى الثقافة العدوانية يصبح العمل مقترنا فى تفكير الناس بالضعف والعبودية لسيد من السادة ، وهو لهذا علامة من علامات الضعة ـ ولذا يعتبر غير لائق بالرجل ذى الرجولة الكاملة . وعلى أساس هذا التفكير يشعر الناس بأن العمل شىء شائن ، وهذا التقليد لم يختلف أبدا ، بل هو

على العكس قد اكتسب مع زيادة الفوارق الاجتماعية قوة الحق البين الذي ورثته البشرية عن حكمة قديمة لاجدال فيها .

ومجرد امتلاك الثروة أو السلطان لا يكفي لينال المرء تقدير الناس ويحتفظ به فان الثروة والسلطان لا بد من استعراضهما ، لأن التقدير لايتأتى الا عن طريق هذا الاستعراض ثم أن استعراض الثروة لايؤدى فقط الى فرض احترام الفرد على الآخرين والابقاء على شعورهم بهذا الاحترام ناشطا ، بل أنه لايقل عن ذلك أهمية من حيث أنه يبعث على خلق الرضاء النفساني والمحافظة عليه . ان الرجل ذا المزاج العادى فى أى طور غير أطوار الثقافة الدنيا يشعر بالرضا ورفعة الشأن فى احترامه لنفسه اذا أحاطت به مظاهر الرخاء، وأعفى من الأعمال اليدوية . فاذا أرغم على الخروج من هذا المستوى الناعم سواء فى زخارف الحياة أو فى نوع عمله اليومى ومقداره ، فانه يشعر أن هذا حط من كرامته . حتى بغض النظر عن جميع اعتبارات الموافقة او المعارضة التى يبديها مواطنوه .

ان التمييز التقليدي القديم بين ما هو وضيع وما هو شريف فى نوع الحياة التى يحياها الرجال لا يزال يحتفظ بقدر كبير من الاعتبار حتى فى يومنا هذا . وهذا صحيح الى درجة أن القليلين من الطبقات الميسورة هم الذين لا يحسون فى قرارة نفوسهم بنفور غريزى من أنواع العمل الدنيئة . فان لدينا احساسا بنوع غامض من الدنس يعلق الى درجة خاصة بالمهن التى تقترن فى تفكيرنا بالعمل الخسيس . ان كل ذى ذوق سليم يشعر أن نوعا من الدنس الروحى لا يمكن فصله من بعض أعمال معينة هى من صميم الأعمال التى يطلب الى الخدم القيام بها . ثم أن الجيرة الواطئة والمساكن الحقيرة (أى رخيصة الايجار) والمهن التى تؤدى الى كسب حقير ، لا يتردد الناس فى استهجانها واجتنابها ، فهى لا تتلاءم والحياة على مستوى روحى مرض . وقد كان المفكرون منذ عهد الفلاسفة اليونانيين الى اليوم يعترفون بدرجة من البطالة والاعفاء من مزاولة أنواع العمل التى تسد احتياجات الحياة اليومية ، يعترفون بها على أنها من مستلزمات الحياة البشرية اللائقة أو الجميلة ، بل والناصعة أيضا . وحياة البطالة فى حد ذاتها وفى الآثار التى تنتج عنها جميلة ومشرفة فى أعين المتحضرين .

هذه القيمة الذاتية المباشرة للتعطل ولغيره من مظاهر الثراء هى لاشك فى معظمها قيمة ثانوية ونابعة من عوامل أخرى . فهى ، من جهة ، انعكاس لميزة التعطل كوسيلة لاكتساب احترام الناس ، وهى من جهة أخرى نتيجة من نتائج التعويض العقلي ، فان العمل قد أصبح ينظر اليه على أنه المظهر التقليدي للضعف ، وهو من أجل هذا قد أصبح ينظر اليه بالاختصار على أنه حقير فى جوهره .

الاستعراض بالثروة والسلطان

الاحساس بالدنس الناتج عن العمل الخسيس

وفى أثناء مرحلة الثقافة العدوانية بالذات ، وعلى الأخص المراحل الأولى للتطور الصناعى السلمى المظهر الذى يلى المرحلة العدوانية ، نجد حياة الدعة اول مظهر واقطعه بقدرة الشخص المالية، وبقوة نفوذه تبعا لذلك، على فرض أن الرجل الذى يعيش فى دعة يستطيع ان يعيش فى يسر ورخاء ظاهرين • فى هذه المرحلة تكون الثروة غالبا هى الرقيق • والمزايا التى يتمتع بها المرء من امتلاك الثروة والجاه ، تأتى فى الغالب على هيئة خدمات شخصية وماتؤتيه هذه الخدمات الشخصية من نتائج • من أجل هذا يصبح العزوف الظاهر عن العمل هو العلامة التقليدية على المركز المالى الممتاز والدليل العرفى على الجاه ، وعلى النقيض من ذلك يصبح الاشتغال بالأعمال المنتجة غير لائق بالرجل المرموق فى قومه ، اذ كان الاضطرار الى هذا العمل دليل الفقر والعبودية • من هنا لم يكن انتشار التنافس على جمع المال مشجعا فى كل الأحوال على العمل وعلى ادخار المال. بل ان هذا النوع من التنافس — على نقيض ذلك — يعمل بطريقة غير مباشرة تتعارض مع المشاركة فى العمل المنتج • فالعمل لا مفر من أن يوسم بميسم الضعة اذ كان من دلائل الفقر ، حتى لو لم يعتبره العرف شيئا معيبا حسب التقاليد القديمة المتوارثة من مراحل ثقافية قديمة• فالتقليد القديم الذى توارثه الناس عن الثقافة العدوانية يقول بان العمل المنتج خليق بالاجتناب لأنه لا يليق بالرجال أولى القوة ، وهذا التقليد يزداد رسوخا ، بدلا من أن يزداد وهنا ، أثناء الانتقال من المرحلة العدوانية الى طرائق الحياة ذات المظهر السلمى •

وحتى لو لم يكن نظام الطبقة المترفة قد بدأ مع أول ظهور الملكية الفردية ، بسبب العار الذى يقترن به أداء كل عمل منتج ، فانه لم يكن هناك على أية حال بد من حدوثه كاحدى النتائج الأولى للملكية • ويجب أن نذكر أنه بينما كانت الطبقة المترفة من الناحية النظرية موجودة منذ بدأت الثقافة العدوانية ، فان نظامها يكتسب مغزى جديدا شاملا حين يتطور المجتمع من مرحلة الثقافة العدوانية الى مرحلة الثقافة المالية التى تليها ، وهى منذ ذلك الوقت وما بعده طبقة متعطلة من الناحية الفعلية والناحية النظرية على السواء •

وفى خلال المرحلة العدوانية الحقيقية يكون الفرق بين الطبقة المترفة والطبقة الكادحة فرقا من حيث الشكل فقط الى درجة ما • فان الرجال ذوى القدرة الجسمية يأنفون من أداء أى عمل يرونه شائنا ، ولكن نشاطهم فى الحقيقة يساهم مساهمة كبيرة فى دعم حياة المجموع • والمرحلة التالية وهى مرحلة الصناعة ذات المظهر السلمى ، تمتاز باستقرار تقاليد امتلاك الرقيق وقطعان الماشية ووجود طبقة الخدم الذين يرعون لغيرهم قطعان الماشية والأغنام • وهنا تكون المدنية قد بلغت حدا يغنى المجتمع عن الاعتماد على

قنص الحيوان او أى نوع آخر من انواع النشاط يمكن أن يدخـــل فى باب البطولة . ومنذ تلك المرحلة يصبح الطابع الذى يميز طبقة المترفـين هو الاعفاء المبين من كل عمل مثمر .

والمهن العادية التى تتميز بها هذه الطبقة فى هذا الطور المتقدم من تاريخ حياتنا كبيرة الشبه شكليا بما كانت عليه فى أطوار ظهورها الأولى ، وهى مهن الحكم والحرب والألعاب الرياضية والخدمات الدينية . وقد يرى النـاس الذين يميلون بغير داع الى التحفظ النظرى العويص ، أن هذه الأعمال هى فى آخر الأمر أعمال « مثمرة » بطريق غير مباشر ، لكن يجب أن نلاحظ حسما للموضوع الذى نحن بصدده أن الدافع الظاهرى المعتاد الذى يدفع طبقة المترفين الى الاشتغال بهذه الأعمال هو بكل تأكيد غير دافع تنمية الثروة عن طريق العمل المثمر . فان الناس فى هذه المرحلة الثقافية كمـا فى غيرها ، يقومون بواجبات الحكم والحرب - ولو جزئيا على الأقل - من أجل النفع المادى الذى يحصلون عليه ، ولكنه نفع يأتى عن الطريق الشريف ، طريق السلب والامتلاك . هذه الوظائف لها طابع العدوان لاطابع المجهود المثمر . ويمكن أن نقول شيئا من هذا القبيل عن مهنة القنص ، لكن مع الفارق ، لأن المجتمع أثناء انتقاله من مرحلة القنص الحقيقية ، تبدأ مهنته هذه فى التفرع الى مهنتين متميزتين . فهى من جهة ، مهنة يزاولها الناس سعيـا وراء الكسب ، وبهذا ينعدم منها عنصر البطولة تماما ، أو هو على أية حال لا يوجد بدرجة تكفى لتجريد هذه المهنة من طابع العمل الذى يرمى الى الكسب ، ومن جهة أخرى نجد القنص عبارة عن رياضة - رياضة ممارسة الدافع العدوانى فى صورة مبسطة . وهو بهذه الصفة لايعتبر باعثا كبيرا على جمع المـال ، ولكنه ينطوى الى حد ما على عنصر واضح من عناصر البطولة . وهذا التطور الأخير لمهنة القنص - مجردا من أى اعتبار من اعتبارات المهنة - هو وحده الذى يستحق الكلام ويرتبط بنظام طبقة المترفين خلال تطور تاريخها .

والترفع عن العمل اليدوى ليس أمرا يتسم بالشرف والتقدير فحسب ، ولكنه سرعان ما يصبح من مقتضيات الوجاهة . والاصرار على اقتناء الممتلكات بصفتها أساس الشهرة دافع ساذج وتعسفى فى المراحل الاولى من مراحـل جمع الثروة ، والترفع عن العمل هو الشاهد العرفى على الثراء ، ومن هنا كان هو الدليل التقليدى على مركز المرء فى المجتمع . وهذا الاصرار على النظر الى الثروة بعين الاعتبار يؤدى الى زيادة الأصرار على الترفع عن العمل . وبناء على ما هو معروف جيدا عن الطبيعة البشرية ، سرعان ما يتجه العرف الى هـذه الدلالة التقليدية للثراء فيقر فى أذهان الناس أن الثراء فى حد ذاته من دواعى التقدير والتشريف ، وفى نفس الوقت يصبح العمل المثمر شيئا لا يستحق التقدير . ولا يقف هذا الايحاء عند حد جعل العمل المثمر غير جدير بالاحترام

فى نظر المجتمع ، بل يجعله أيضا مستحيلا على الرجل الشريف الحر ولا يتفق والحياة الكريمة .

هذا الحظر المضروب على العمل له تأثير آخر على التفريق المهنى بين الطبقات ، فكلما زادت كثافة السكان ، وكلما تحول المجتمع العدوانى الى مجتمع صناعى مستقر ، زاد نفوذ السلطة الشرعية وزادت القوانين التى تنظم الملكية استقرارا . وحينئذ يصبح جمع الثروة عن طريق السلب غير ممكن من الناحية العملية . ولنفس السبب يصبح جمعها عن طريق العمل مستحيلا على المعدمين من ذوى المواهب العقلية . وليس أمامهم طريق بعد هذا غير الاستجداء أو الحرمان . وحيثما كانت هناك فرصة أمام قوانين حياة الترف لتأخذ مجراها الطبيعى فلا بد حينئذ من ظهور طبقة ثانوية ومتطفلة من المترفين يعانون الفقر الرذيل ويعيشون عيشة الفاقة والشظف ، لكن لا يستطيعون – وفقا للناموس الأدبى – أن ينزلوا بأنفسهم الى حد الاشتغال بالعمل المنتج ، فالرجل الذى كان وجيها فى قومه ، والسيدة التى جار عليها الزمان لايزالان من المظاهر المألوفة حتى فى زماننا هذا . وهذا الشعور الخاطىء الذى يعتبر الأعمال اليدوية البسيطة أمرا معيبا لا يزال سائدا بين معظم الشعوب المتحضرة كما هو بين الشعوب التى لا تزال فى مرحلة متأخرة من مراحل الثراء . وقد يصبح الشعور بمعرة العمل اليدوى قويا – لدى ذوى الحس المرهف الذين اعتادوا حياة الدعة زمنا طويلا – الى درجة تجعلهم – فى بعض الظروف الحرجة – يتغلبون على غريزة حب الحياة، ولذلك نسمع مثلا عن بعض زعماء القبائل فى بولينيزيا الذين كانوا تحت ضغط التقاليد يفضلون الهلاك جوعا على رفع الطعام بايديهم الى افواههم . صحيح أن مثل هذا السلوك قد يكون راجعا – ولو جزئيا على الأقل – الى قدسية بالغة أو تحريم يتعلق بشخص الزعيم . وقد يقع التحريم فى هذه الحالة عندما تمس يدا الزعيم طعامه ، وحينئذ يصير كل ما يمسه بيديه حراما على أى انسان .

لكن التحريم نفسه نابع من حقارة العمل اليدوى أو منافاته لقانون السلوك . ولذلك ، وحتى لو فسرناه على هذا الوجه فان سلوك الزعماء البولينيزيين اكثر اتفاقا وقوانين البطالة الشرفية مما يبدو لأول وهلة . وهناك مثل آخر أكثر توضيحا لهذا – أو على الأقل أكثر مصداقا ، وهو مايروى عن ملك معين من ملوك فرنسا لقى حتفه بسبب الافراط فى الصلابة الخلقية فى تمسكه بالآداب العامة . فقد حدث فى غياب الموظف الذى كان منوطا به تغيير موضع الكرسى الذى يجلس عليه سيده أن جلس جلالته أمام النار دون أن يتذمر حتى شوت جسده شيا لا شفاء منه ، ولكن الملك بعمله هذا قد أنقذ جلالته المسيحية من أن يدنسها أى عمل يدوى .

البطالة
استهلاك
الوقت في
عمل غير مجد

سبق أن أشرنا الى أن لفظ « البطالة » أو الحياة المترفة كما نستعمله هنا لا يحمل معنى الكسل أو الركود . فان معناه هنا هو استهلاك الوقت في غير عمل مجد . والوقت يستهلك فى غير طائل

١ ـ من حيث تفاهة العمل المنتج .

٢ ـ من حيث انه دليل المقدرة المالية على العيش دون اداء اى عمل.
لكن حياة السيد المترف لاتنقضى جميعها أمام أعين الناظرين الذين يود ان يثبت فى أذهانهم هذا المشهد من مشاهد البطالة الشرفية التى هى قوام حياته فانه بحكم الضرورة يقضى بعض أوقات حياته بعيدا عن أعين الناس . وهو لكى يحافظ على حسن سمعته لا بد من أن يقدم حسابا مقنعا عن هذا الوقت الذى يقضيه على انفراد . اذ لا مفر من أن يجد وسيلة يستشهد بها على البطالة التى يقضيها بعيدا عن اعين الرقباء . وهذا أمر لايتأتى الا بطريق غير مباشر بوساطة عرض النتائج الملموسة الدائمة لوقت الفـراغ الذى قضاه بهذه الطريقة ـ وعرضها بطريقة مشابهة للطريقة المعتادة التى تعرض بها النتائج الملموسة الدائمة للأعمال التى يؤديها أرباب الحـرف والخـدم القائمون على خدمة « السيد المترف » .

والأثر الدائم للعمل هو نتاجه المادى ـ الذى هو فى العـادة مادة من المواد الاستهلاكية . وكذلك من المستطاع ومن المعتاد أن يستحوذ الشخص الذى قام بأعمال بطولية على بعض النتائج الملموسة التى تصلح للعرض فى صورة تذكارات أو غنائم . ومن العادات التى تتبع فى بعض مراحل التطـور التالية أن ينال البطل شعارا أو وساما من أوسمة الشرف يقوم دليلا معترفا به على بطولته ، وفى نفس الوقت يحدد مقدار البطولة التى منح تقديرا لها ودرجتها . فاذا زادت كثافة السكان وزادت العلاقات الانسانية تعقدا وتعددا فان كل صغيرة وكبيرة من أمور حياتهم تمر خلال مرحلة من مراحل الترقى والانتخاب ، وفى خلال هذه العملية تتطور فوائد تذكارات البطـولة فتتخذ شكل الرتب والألقاب والدرجات والشـعارات كالأوسمة والميـداليات والنياشين . والبطالة كما تبدو من وجهة النظر الاقتصادية ـ اذا اعتبرناها مهنة من المهن ، ترتبط من حيث الجوهر ارتباطا وثيقا بحيـاة البطولة ، وما يقوم به المترف من الأعمال التى تتميز بها الحياة المترفة والتى تبقى دائما المعيار اللائق بها تشترك فى كثير من المظاهر مع تذكارات الأعمال البطولية. ولكن الحياة المترفة فى معناها الضيق ، من حيث هى متميزة عن أعمـال البطولة وعن بذل أى جهد فى اداء عمل يبدو مثمرا لكن ليس له أى نفـع حقيقى ، مثل هذا التعطل لا يتمخض عادة عن اية فائدة مادية . وعلى ذلك فان المعايير التى تتخذ شاهدا على أن الشخص كان فيما مضى يؤدى أعمالا مترفة تكون فى العادة منجزات ذات طابع شبه علمى أو شبه فنى والمام بعمليات

ووقائع لاتؤدي مباشرة الى رفع مستوى الحياة البشرية . ومن هذا القبيل مثلا الالمام فى أيامنا هذه باللغات الميتة وعلوم ما وراء الطبيعة . وبالهجاء الصحيح وبالاعراب وعلم العروض ، وبالأشكال العديدة للموسيقى الوطنية وغيرها من الفنون المنزلية ، وبآخر صيحة فى عالم الأزياء والأثاث والتجهيز ، والالعاب والرياضة والحيوانات التى تربى للزينه كالكلاب وخيل السباق . والواقع الاصلى الذى تطور عنه فى البداية الالمام بكل فروع المعرفة هذه والتى ذاع صيتها لأول مرة عن طريقها ، قد يكون شيئا مختلفا كل الاختلاف عن رغبة الفرد فى أن يبين للناس أن وقته لم يصرف فى مهنة ذات طابع انتاجى ، ولكن هذه المنجزات لم تكن ليكتب لها البقاء والاحتفاظ بمكانتها كمنجزات تقليدية للاعمال المترفة ، لو لم تكن هذه المنجزات قد برزت كمظهر نافع من مظاهر صرف الوقت فى عمل غير مثمر .

وقد يكون من الممكن أعتبار هذه المنجزات من فروع المعرفة . ويوجد – الى جانبها وعلاوة عليها – عدد آخر من الحقائق الاجتماعية تخرج عن نطاق المعرفة الى نطاق الحذق الطبيعى ، منها على سبيل المثال ما يعرف بالسلوك والتربية والأدب واللياقة ، والتمسك بالتقاليد المرعية عامة . وهذه المجموعة من الحقائق أكثر وضوحا أمام أعين الملاحظين ، ولهذا يزداد التمسك بها كادلة تشهد لصاحبها ببلوغ درجة طيبة من الحياة المترفة . ومما يجدر ذكره ان كل هذه المجموعة من الطقوس المرعية التى تعرف فى مجموعها باسم آداب السلوك ، تحتل فى تقدير الرجال – خلال طور الثقافة الذى تنال فيه الحياة المترفة اعلى درجات الاحترام بصفتها مظهرا من مظاهر الوجاهة – مركزا أهم مما تحتله فى اطوار التقدم الثقافى التالية . فالمتبربر خلال الطور الصناعى ذى المظهر السلمى رجل أكثر تهذيبا وأحسن تربية فى كل ما يتعلق بحسن السلوك من أى شخص آخر فى مجتمع يجتاز مراحل ثقافية تالية ، وذلك باستثناء عدد قليل من النخبة الممتازة ، والحقيقة ان من المعروف جيدا أو على الأقل من المعتقد عامة أن آداب السلوك كانت تتدهور باستمرار كلما ابتعدت المجتمعات عن نظام الحكومات الأبوية . وكم من سيد مهذب من سادة الجيل القديم قد اضطر تحت ضغط الاستفزاز الى أن يعبر عن أسفه الشديد على ما يبدو حتى من أفراد الطبقة الراقية فى المجتمعات الصناعية الحديثة من انحطاط التربية وسوء السلوك . وقد اصبح تدهور الناموس الخلقى – أو كما يسمى فى بعض الأحيان تدهور الحياة الى مستوى الصعاليك – بين الطبقات الصناعية بالذات من أشهر ما تمخضت عنه المدنية الحاضرة من فظائع فى نظر كل ذى حس مرهف . وهذا التدهور الذى حل بالناموس الأخلاقى على أيدى قوم منهمكين فى العمل ، يشهد – بصرف النظر عن اى استنكار له – بأن حسن السلوك هو أثر من آثار الحياة المترفة ومظهر من مظاهرها لا يبلغ ذروته الا فى ظل نظام يعترف بالفروق الاجتماعية .

تدهور الاصول [illegible] الطبقات الصناعية

ومنشأ آداب السلوك ، أو بالحرى مردها ، قد يكون راجعا الى أى شىء غير رغبة المهذبين فى أن يبرهنوا لغيرهم أنهم قد أضاعوا فى تعلمها وقتا طويلا . فان الهدف الأول للابتكار والتحسين كان هو ما للتغير الجديد من أثر قوى من حيث الجمال وحسن التأثير . والقانون الأخلاقى المتعارف عليه يرجع أصله وتطوره ، الى حد كبير ، الى الرغبة فى التفاهم أو اظهار حسن النية ، كما اعتاد علماء السلالات الجنسية وعلم الاجتماع أن يفترضوا. وهذا الدافع الأساسى يندر ان يختفى (بل قد لا يختفى ابدا) من سلوك الأفراد المهذبين فى أية مرحلة من مراحل التقدم التالية ، فان آداب السلوك كما يقال هى تطوير للايماءة المهذبة ، وهى الى حد ما بقايا رمزية وتقليدية تمثل عملا سابقا من أعمال السيطرة أو الخدمة الشخصية أو العلاقات الشخصية . وهى الى حد كبير تعبير عن العلاقة بين المراكز الاجتماعية ـ علامة رمزية للسيادة من جانب ، والعبودية من جانب آخر . وحيثما كانت اتجاهات العقل العدوانية فى الوقت الحاضر وما ينشأ عنها من الميل الى السيادة والعبودية ، حيثما كانت هذه الاتجاهات تضفى شيئا من خصائصها على نظام الحياة المألوف ، نجد الاهتمام بالمحافظة على آداب السلوك يبلغ ذروته ، والتمسك بمراعاة الرتب والألقاب يقارب المثل العليا التى رسمها المتبربرون ذوو الثقافة البدوية السلمية المظهر . ونرى فى بعض دول القارة الأوربية أمثلة لهذه البقايا الروحية . ففى هذه المجتمعات نجد الاهتمام بآداب السلوك يكاد يبلغ درجة المثالية القديمة

وقد نشأت آداب السلوك أول ما نشأت على أنها تعبير رمزى وايمائى، ولا نفع لها الا فى التعبير عن الحقائق والصفات التى يرمز لها ، ولكن سرعان ما تعرضت للتحول الذى يعترى جميع الحقائق الرمزية فى العلاقات البشرية . وسرعان ما تحولت آداب السلوك فى مفهومها العام فأصبح الناس ينسبون اليها فى حد ذاتها فوائد جوهرية ، فاتخذت طابعا ذا قداسة خفية لا علاقة له بالحقائق التى كانت تمثلها من قبل ، وأصبحت الحيدة عن قوانين الأخلاق بغيضة فى نظر الجميع بغضا حقيقيا ، ولم يعد حسن السلوك فى مفهومه العام رمزا للرقى الانسانى بل صار أيضا صفة لا انفصام لها من صفات النفس البشرية السامية . وهناك أمور قليلة تستطيع ان تثير فى نفوسنا ما يثيره الخروج على آداب السلوك من الاشمئزاز العنيف وقد قطعت البشرية شوطا بعيدا فى اعتبار آداب السلوك المرعية شيئا له منافعه الذاتية ، حتى أن قليلين منا ـ اذا كان هناك أحد منا على الاطلاق ـ يستطيعون أن يفرقوا بين مخالفة قواعد السلوك العامة وبين تفاهة الشخص الذى يرتكبها . وقد يكون فى وسعنا ان نتساهل مع انسان فيما يتعلق

بمخالفته العقيدة ، أما فيما يتعلق بمخالفة قوانين الاخلاق فلا ، فان الأخلاق هي التي تصنع الانسان .

وبالرغم من ذلك ، ومع أن السلوك له هذه الاهمية الجوهرية فى نظر من يقوم به ومن يشهده على السواء ، فان فهم أهميته على هذا الوجه يأتى فى المحل الثانى بين الأسباب التى تغرى الناس بالسلوك الحميد والتربية الحسنة . واذا أردنا معرفة الأسس الاقتصادية البعيدة التى ينشأ منها فعلينا ان نبحث عنها فى ذلك التكريم الذى يظهره الناس لكل من يضيع وقته وجهده فى اداء عمل من الأعمال المترفة التى لايكتسب حسن السلوك الا بها ، فان تعلم الوقار والتعود عليه لا يأتيان الا بطول الممارسة . والذوق السليم والسلوك الحميد والعادات الحسنة فى الحياة شواهد على الرقى لها قيمتها ، لأن التربية الراقية تتطلب وقتا وممارسة ونفقات ، ولهذا ليست فى مستطاع الذين يستنفد العمل كل وقتهم وجهدهم . والالمام بقواعد الحشمة هو من أول نظرة دليل على أن الوقت الذى يقضيه الرجل المهذب بعيدا عن أعين الناس لم يذهب سدى ، لأنه قضاه فى تحصيل أشياء لاترمى الى مكسب مادى . وقيمة الأخلاق آخر الأمر هى فى كونها دليل الحياة المترفة ، ولهذا ، وعلى العكس من ذلك ، لما كانت الأعمال المترفة هى الوسيلة التقليدية للشهرة المالية فان التبريز فى حسن السلوك أمر مفروض توفره فى كل من يطمح الى قدر ولو قليل من الاحترام الناتج عن الثراء .

وعلى ذلك فان القدر الكبير من الحياة المترفة المكرمة الذى لايقضيه صاحبه على مرأى من الناس لا يمكن ان يؤدى الى احراز الشهرة الا بقدر ما يتمخض عنه من نتائج ملموسة ومشهودة يستطيع صاحبها عرضها أمام الناظرين وقياسها وموازنتها بما يماثلها من منتجات الآخرين الذين ينافسونه فى الطموح الى الشهرة . وبعض هذه النتائج التى تدخل فى باب السلوك المهذب والأخلاق الناعمة تنشأ من مجرد التمادى فى الامتناع عن اداء أى عمل ، حتى لو لم يخطر هذا الغرض على البال ، ولم يتعمد صاحبه أن يظهر بمظهر الحياة الناعمة من ثراء وسطوة . ومما يبدو صحيحا بصفة خاصة أن حياة مترفة من هذا القبيل اذا مارسها الأعقاب عدة أجيال ، فانها تترك اثرا دائما اكيدا فى كيان الشخص ، بل واثرا اكبر فى مظهره ومسلكه .. لكن كل ما يقال عن مظاهر الترف التى تجمعت عن طريق الوراثة ، وكل كمال أخلاقى يأتى عن طريق الاعتياد السلبى ، يستطيع المرء أن ينميه بالتصميم والمثابرة على اكتساب أمارات الوظيفة المترفة الشريفة ، ثم بعد ذلك استعراض هذه الامارات التى تنم عن حياة التعطل ، استعراضا مستمرا ومنظما . ومن الواضح أن هذه النقطة قد يكون الجهد والبذل عندها من العوامل التى تعمل الى حد كبير على زيادة اتقان المرء لخصائص الطبقة

المترفه . وعلى العكس من ذلك ، نجد أنه كلما زادت درجة اجادة هذه الخصائص ، وكلما زاد وضوح الشواهد التي تدل على شدة التمسك بالعزوف عن الأعمال التي لا تؤدي الى كسب أو الى أي غرض ذي منفعة مباشرة ، زاد تضييع الوقت والمادة اللذين يصرفهما المرء عادة في تحصيلها وزاد بالتالي ما يتبع هذا من حسن الاحدوثة . ومن هنا يحدث أن يتحمل الناس - تحت ضغط صراع التنافس على التفوق في حسن السلوك - كثيرا من المشقة لكي يغرسوا في نفوسهم آداب اللياقة ، ومن هنا تتحول آداب اللياقة الى دقة شاملة يعتبر التمسك بها من الصفات اللازمة لكل من يريد أن لا تشوب سمعته أية شائبة . ومن هنا أيضا - من جهة أخرى - فان هذا التعطل الواضح الذي يعتبر حسن السلوك شعبة من شعابه ، يتحول بالتدريج الى رياضة شاقة على حسن التصرف والى تمرن على حسن الذوق وتمييز اللائق من المواد الاستهلاكية والطرق اللائقة لاستهلاكها .

ومما هو جدير بالذكر في هذا المجال أن امكان خلق أعراض مرضية أو غير مرضية من مظاهر خواص الشخصية والسلوك عن طريق التقليد المحكم والتدريب المنظم قد أصبح يلعب دورا في خلق طبقة مثقفة ، وكانت له في اكثر الأحيان نتائج عظيمة . وبهذه الطريقة وبواسطة العملية التي تسمى في العرف الدارج ترفعا ، يتحقق تطور سريع لما يسمى عراقة الأصل وحسن التربية في عدد كبير من العائلات وسلاسل الأنساب .

وعراقة الأصل التي ظهرت بهذه الطريقة المختصرة تؤتي نتائج لا تقل في دلالتها كعامل من عوامل الحياة المترفة عن غيرها من العوامل التي تنطوي على تدريب متواصل لبلوغ مستوى الطبقة المترفة .

هناك عدا ذلك درجات يمكن قياسها من التزام آداب السلوك المعترف بها فيما يتعلق باللائق من وسائل الاستهلاك وطرائقه . ومن الممكن مقارنة ما بين فرد وآخر من فروق من ناحية درجة التزامهما المثل الأعلى في هذه الأمور ، ومن الممكن عن طريق هذه المقارنة ترتيب الناس بشيء من الدقة وتصنيفهم على أساس درجة التزامهم لآداب السلوك وأصول التربية . والذي يعود عليهم من حسن السمعة في هذا المجال يكون عادة على شكل حسن الثقة ، على أساس مراعاة قوانين الفوارق المرعية في هذه الامور بالذات ، دون قصد لمراعاة المركز المالي أو درجة الحياة الناعمة التي يحياها الفرد الذي يصبو الى اكتساب طيب السمعة . لكن قوانين الذوق التي اكتسبوا حسن الثقة على أساسها محصورة دائما في نطاق قانون « التعطل الواضح » ولا تزال في الحقيقة تتعرض على الدوام للتغيير والتعديل لتكون دائما أكثر ملاءمة لمقتضياتها . ولهذا نجد أنه بينما أساس التمييز بين الطبقات قد يكون ذا طبيعة أخرى ، الا أن المبدأ السائد والدليل الدائم على حسن التربية أن

قانون التعطل الواضح

يستطيع المرء قضاء وقته في غير طائل • قد يكون هناك قدر كبير من الخلاف على التفاصيل فى نطاق هذا المبدأ ، ولكنها خلافات فى الشكل والمظهر وليست فى الجوهر •

ان كثيرا من المجاملة التى تبدو فى علاقاتنا اليومية هى بطبيعة الحال تعبير مباشر عن الاحترام والنية الطيبة ، ولا حاجة بنا فى الغالب الى أن نبحث هذا العنصر السلوكى فنرجعه الى أى اعتبار من اعتبارات الشهرة لنستطيع تفسير وجوده او تفسير ما يناله من الاستحسان ، ولكن هذا القول نفسه لا يصدق على قواعد « الاتيكيت » ، لأن هذه الأخيرة تعبير عن المركز الاجتماعى ، طبيعى أن من الواضح جدا لكل ذى عينين أن سلوكنا حيال الأجراء ومن هم دونهم ممن هم عالة على غيرهم فى كسب المال هو سلوك الشخص الذى يعتبر نفسه أعلى مركزا ، وان يكن اظهار هذا الاستعلاءغالبا ما يعتريه تعديل كبير يبعد به عن مظهر السيطرة الغاشمة • وكذلك سلوكنا تجاه من هم أعلى منا مركزا ، وبدرجة كبيرة تجاه أقراننا ، ينم عن قدر كبير أو قليل من الشعور بالتبعية • انظر الى التعالى الذى يبدو فى مظهر رجال الطبقة الراقية وسيداتها والذى ينم عن شعورهما بالعظمة وبمتانة مركزهما الاقتصادى ، وهو فى الوقت نفسه يرضى شعورنا بما هو حق وجميل . وانما يبدو حسن السلوك فى أتم مظاهره وأكملها بين هذه الطبقة العليا من المترفين الذين لا يعلو عليهم أحد ولا يساويهم فى الحياة الا القليلون • وانما هذه الطبقة العليا أيضا هى التى تضفى على السلوك تلك الصيغة المحددة التى تعتبر نبراسا للسلوك بين من دونها من الطبقات • وهنا أيضا نجد أن القانون هو بكل وضوح قانون مركز اجتماعى يتعارض تعارضا بينا مع كل عمل مثمر ينطوى على جهد شاق • ان الثقة بالنفس ، والرقة المتغطرسة من نوع ما يبديه شخص اعتاد أن يأمر فيطاع وأن لا يحسب للغد حسابا ، هى حق للسيد بحكم مولده والميزان الذى توزن به عظمته • بل ان الأمر يزيد على ذلك فى العرف العام ، لأن هذا السلوك يؤخذ على أنه صفة أصيلة من صفات السمو الذى يشعر الرجل العامى الوضيع بالسرور عندما ينحنى أمامه •

وهناك كما سبق أن أشرنا فى فصل سابق ما يدعو الى الاعتقاد بأن نظام التملك قد بدأ بتملك الأشخاص ، والنساء منهم أولا • وكانت البواعث على امتلاك مثل هذه السلع هى على ما يبدو :

١ – الميل الى السيطرة والقهر •

٢ – فائدة أولئك الأشخاص كشواهد على سطوة من يمتلكهم •

٣ – والانتفاع بخدماتهم الشخصية •

والخدمات الشخصية تحتل مكانا خاصا فى التقدم الاقتصادى . اذ يبدو ان الاستفادة من هـــذه الخدمات أثناء مرحلة الصناعة ذات المظهر السلمى ، وبخاصة فى ادوار تطورها الأولى أثناء هذه المرحلة العامة ، كانت اشد الدوافع الى حيازة المملوكات البشرية . فقيمة الخدم هى فيما يؤدون من خدمات . ولكن انتشار هذا الدافع لا يرجع الى نقص فى الأهمية المطلقة للمنفعتين الآخريين من اقتناء الخدم . بل الحقيقة ان ظروف الحياة المتغيرة تزيد من فائدة الخدم من حيث هذا الغرض المذكور آخرا . فقد كانت للنساء وغيرهن من الرقيق قيمة كبيرة ، سواء من حيث كونهم مظهرا من مظاهر الثروة ، أو من حيث كونهم وسيلة من وســائل تكديسها . وكانوا هم والماشية ـ اذا كانت القبيلة رعوية ـ الوسيلة المعتادة لاستثمار المـال من أجل الربح . وقد يترك استرقاق النساء طابعه على الحياة الاقتصادية خلال مرحلة الثقافة السلمية الى درجة ان المرأة ـ لدى الشـعوب التى لا تزال تجتاز تلك المرحلة الثقافية ـ قد تصبح وحدة لتقدير قيم الأشياء ، كما كانت عليه الحال مثلا على أيام هوميروس . فاذا كانت هذه هى الحال فليس هناك شك فى أن أساس النظام الصناعى هو الرق ، وأن النساء عموما كن اماء . وفى مثل هذا النظام كانت أكثر علاقة انسانية ســائدة هى علاقة المخدوم بالخادم ، وكان الدليل العرفى على الثروة هو امتلاك العـديد من النساء وكذلك امتلاك غيرهن من العبيد الذين يقومون على خدمة شــخص السيد وعلى انتاج السلع له .

وسرعان ما يبدأ تقسيم للعمل ، تصبح بمقتضاه خدمة شخص السيد والسهر على راحته الشخصية من اختصاص قسم معين من الخدم ، بينما من يعملون منهم فى الأعمال الصناعية البحتة ، يبعدون عن أى اتصال مباشر بسيدهم شخصيا . وفى نفس الوقت نرى الخدم الذين تناط بهم الخدمة الشخصية ، بما فيها الواجبات المنزلية ، يعفون شيئا فشيئا من الأعمـال الانتاجية التى يقوم بها الناس من أجل الكسب .

وعملية الاعفاء التدريجى هذه من المجال العام للأعمال الصناعية تبدأ عادة باعفاء الزوجة ، أو الزوجة ذات الحظوة . وبعد ان يتطور المجتمع الى حياة الاستقرار يصبح سبى الزوجات من القبائل المعادية أمرا غير عملى من حيث كونه مصدرا معتادا للحصول عليهن . وعند بلوغ هذا التقدم الثقافى تكون الزوجة ذات الحظوة عادة من ذوات الأصل العريق ، وهذه الحقيقـة تعجل باعفائها من القيام بالأعمال الشاقة . والطريقة التى يبدأ بها الاعتراف بسمو المقام ، وكذلك الأهمية التى تعلق عليه عند التقدم للزواج ، لا يمكن مناقشتها هنا . ويكفى ، من أجل الغرض الذى نتناوله ، أن نقول ان سمو المقام يطلق على الشخص الذى بلغ درجة النبل عن طريق طول امتلاك الثروة

او عن طريق الامتياز على مدى أجيال متعاقبة. والمرأة التي تنتسب الى أسلاف من هذا القبيل تفضل عند الزواج ، سواء من حيث أن زواجها سيكسب الرجل تحالفا مع أهلها الأثرياء ، ومن حيث أن الذى يتزوجها يرفع من مقام أعقابه لأنه أدخل الى دمهم عنصرا جديدا من عناصر الثروة والقوة .

ومثل هذه المرأة تصبح مملوكة لزوجها ، كما كانت مملوكة لوالدها قبل أن يبيعها ، ولكنها لا تزال فى نفس الوقت تنتمى الى أصل أبيها العريق، ومن هنا كان قيامها بالاعمال الحقيرة التى يقوم بها زملاؤها من الخدم ، أمرا غير لائق بها من الناحية المعنوية ، فمهما كانت تبعيتها لسيدها تامة ، ومهما كانت منزلتها أقل من منزلة الذكور من أفراد الطبقة الاجتماعية التى تنتمى اليها بحكم مولدها ، فان المبدأ الذى يقول بأن عراقة الأصل تنتقل من السلف الى الخلف ، يعمل على وضعها فى مركز فوق مركز الرقيق العادى. وعندما يصبح هذا المبدأ قوى الفعالية فسرعان ما يضفى عليها بعض خصائص الطبقة المترفة التى هى أهم علامة من علامات العراقة . وهذا المبدأ الذى ينادى بأن عراقة الأصل تنتقل من السلف الى الخلف يزيد مجالات اعفاء الزوجة - اذا سمحت بذلك ثروة مالكها - حتى يمتد الى الاعفاء من أعمال الخدمة التى تحط من قدرها وكذا من الحرف اليدوية . وكلما اطرد التقدم الصناعى وتركزت الملكية فى عدد من الأيدى أقل نسبيا ، يظهر المستوى المالى الذى يسمح بدخولها فى عداد الطبقة العليا - ونفس الاتجاه الى الاعفاء من الحرف اليدوية ، وكذلك الاعفاء - مع الزمن - من الواجبات المنزلية الوضيعة سرعان مايبرز كحق من حقوق سائر الزوجات - ان وجدن - وكذلك الخدم الآخرين الذين يسهرون على خدمة سيدهم شخصيا . وهذا الاعفاء يأتى وئيدا كلما بعدت العلاقة بين الخادم وبين شخص سيده .

ثم أن الأهمية الخطيرة التى تكتسبها هذه الخدمة الشخصية تساعد - اذا سمحت موارد السيد المالية - على ظهور طبقة خاصة من الخدم الذين يقومون على خدمة شخص السيد . فشخص السيد من الأهمية بمكان خطير ، لأنه هو الرمز المجسد لعلو القدر والشرف . ومن الأمور الهامة ، بالنسبة لمقامه السامى فى المجتمع ولاحترامه الشخصى ، أن يكون تحت يده خدم متخصصون أكفاء لايجب أن يشغلهم اى شاغل آخر عن السهر على راحة شخص السيد . وهؤلاء الخدم المتخصصون تزيد منفعتهم كمظهر من مظاهر الجاه على منفعتهم فى تأدية أية خدمة حقيقية . ولما كان السيد لا يحتفظ بهم من أجل استعراض الجاه فقط ، فانهم يساعدون على ارضاء غروره لأنهم يهيئون له السبيل لاظهار سطوته . صحيح أن الرعاية التى يتطلبها عدد كبير من الخدم أمر يتطلب مزيدا من الجهد ، لكن لما كان هذا الجهد يتزايد فى العادة باعتباره وسيلة من وسائل ذيوع الصيت بدلا من أن يكون وسيلة

من وسائل الراحة فان هذه المعضلة ليست ذات خطر كبير . فان كل طرق الانتفاع هذه تصبح أكثر وفاء بالغرض كلما زاد عدد الخدم المتخصصين الذين يقومون بها . لهذا يحدث باستمرار تمييز مستمر وزيادة فى عدد خدم المنزل والخدم الخصوصيين ، يسيران جنبا الى جنب مع مايصاحبهما من اعفاء مثل هؤلاء الخدم من القيام بالأعمال المنتجة . ولما كان اقتناء الخدم دليلا على قدرة المخدوم على دفع مرتباتهم ، فان وظيفة مثل هؤلاء الخدم تتجه باستمرار الى أن تشتمل على واجبات أقل، وخدمتهم تتجه فى النهاية الى أن تصبح اسمية فقط . وهذا صحيح على الأخص فيما يختص بالخدم الذين يقومون بأكثر الأعمال اتصالا بشخص السيد ، حتى أن فائدة هؤلاء تتحور حتى تنحصر الى درجة كبيرة فى اعفائهم اعفاء واضحا من كل عمل منتج ، وفيما يقوم به هذا الاعفاء من دلالة على ثروة السيد ونفوذه .

وبعد أن يقطع المجتمع شوطا كبيرا فى ممارسة استخدام هيئة خاصة من الخدم فى أداء الأعمال الترفيهية بهذه الطريقة ، يبدأ تفضيل الرجال على النساء فى أداء الأعمال التى تتطلب ظهورهم أمام الناس ، فمن المعروف أن الرجال ، لا سيما الفتيان الأشداء أولى القوة ، وهو ما يجب أن يكون عليه الخدم الخصوصيون وغيرهم من ذوى الوظائف الوضيعة ، أشد قوة وأكثر نفقة من النساء ، وهم أكثر ملاءمة لهذا العمل لأنهم أكثر دلالة على تضييع الوقت والجهد سدى . ومن هنا نرى أن الزوجة العاملة التى كانت تعيش فى المجتمعات ذات الحكومات الأبوية الأولى ، بما كان فى خدمتها من العدد العديد من الخادمات الكادحات ، هذه الزوجة العاملة تختفى عندما يظهر نظام الطبقة الناعمة ليحل محله نظام السيدة والخدم .

والفراغ الذى تتمتع به السيدة والخادم ، فى كل أدوار الحياة وطرائقها وفى أى مرحلة من مراحل التقدم الاقتصادى يختلف عن الفراغ الذى يتمتع به السيد كحق من حقوقه فى أنه عمل يبدو فى مظهره شاقا ، فهو يأخذ - الى حد كبير - مظهر الاهتمام المضنى بخدمة السيد أو بالعناية بشئون البيت عامة ، ولذلك تعتبر وظائفهم من الأعمال الترفية ، من حيث انهم لايؤدون أى عمل منتج أو لايؤدون منه الا القليل ، لا من حيث انهم يجتنبون كل مظهر من مظاهر العمل . وغالبا ما تكون الواجبات التى تقوم بها السيدة أو التى يقوم بها أهل المنزل والخدم فيها القدر الكافى من المشقة ، وهى أيضا غالبا ما تهدف الى أغراض تعتبر ذات ضرورة قصوى لراحة أهل البيت جميعا . وبقدر ما تؤدى هذه الأعمال الى الكفاية الطبيعية أو الى راحة السيد أو سائر سكان المنزل ، يمكن اعتبارها أعمالا منتجة . ولا يمكن أن يدخل فى باب الأعمال الترفية الا ما يتبقى بعد استبعاد هذه الأعمال المنتجة .

لكن كثيرا من الخدمات التى تدخل فى باب المهام المنزلية فى الحيـاة اليومية الحديثة ، وكثيرا من الخدمات التى يتطلبهـا الرجل المتحضر لتوفر له حياة هانئة ، ذات طابع مظهرى ، ولذلك يتعين اعتبارها عملا من الأعمال الترفية بالمعنى الذى نقصده هنا من هذا الاصطلاح • ولكنها قد تكون معذلك ضرورية فعلا بصفتها من مستلزمات العيش الرغد • وقد تكون مع ذلك ضرورية للهناء الشخصى ، حتى لو كانت كلها أو جلها ذات طابع مظهرى • لكنها ، بقدر نصيبها من هذا الطابع ، هامة ولازمة لأننا قد تعودنا أن نطلبها حتى لانعتبر ملوثين أو تافهين ، فاذا فقدناها افتقدنا الراحة ، ولكن هذا لا يرجع الى أن فقدها ينتج عنه أى تعب جسمى مباشر ، كما أن الشخص الذى لم يتعود التمييز بين ماهو طيب وماهو ردىء من الناحية العرفيـة ، لن يضيق ذرعا اذا فقدها • فاذا كان هذا صحيحا ففى وسـعنا أن نعتبر الجهد الذى يبـذل فى هذه الخدمات من الأعمال الترفية ، فاذا قام بها أحد غير رئيس العمل الذى يتمتع بالحرية الاقتصادية وحرية توجيه نفسـه ، فانها حينئذ تدخل فى باب الأعمال الترفية « بالتبعية » •

والأعمال الترفية « بالتبعية » التى تؤديها الزوجات والخدم تحت اسم المهام المنزلية ، قد تنقلب فى أغلب الأحيان الى أعمال حقيرة ، لا سيما حيث يزداد التنافس على الصيت حدة ومشقة • وهذا مايحدث غالبا فى الحيـاة الحديثة • وحيثما يحدث هذا فان الخدمة المنزلية التى تشمل واجبات هـذه الطبقة من الخدم يمكن بسهولة أن نعتبرها جهدا ضائعا لا عملا من الأعمال الترفية « بالتبعية » • ولكن هذا التعبير الأخير يمتاز بقدرته على الدلالة على الأصل الذى نشأت منه هذه الوظائف المنزليـة ، وكذلك الدلالة على الأساس الاقتصادى لمنافعها ، لأن أهم منافع هذه الوظائف هى فى كونهـا وسيلة تكسب السيد أو أهل منزله اشتهارا بالغنى ، على أساس أن قدرا معينا من الجهد والوقت قد ذهب هباء فى هذه الوجوه •

بهذه الطريقة اذن تظهر طبقة مترفة ثانوية أو فرعية وظيفتها أداء أعمال ترفية ثانوية تزيد من قدر الطبقة المترفة الأولية أو الشرعية • وهذه الطبقة المترفة الثانوية تتميز عن الطبقة المترفة الأصلية بمظهر خاص يميز طرائق معيشتها المعتادة • ففراغ الطبقة المترفة ذات السيادة هو ، على الأقل من ناحية المظهر ، انغماس فى النزوع الى اجتناب العمل ، والمفروض فيه أن يعمل على راحة السيد ورفاهته فى الحياة ، لكن فرزغ طبقة الخدم المعفين من أداء الأعمال المنتجة هو من بعض النواحى اداء لأعمال منوط بهم اداؤها، ولا يتجه عادة وقبل كل شىء الى توفير الراحة لهم • ففراغ الخادم ليس فراغه الخاص به • فطالما كان خادما بأدق معانى الكلمة وليس فى نفس الوقت عضوا فى الدرجات الدنيا لسلم الطبقة المترفة الحقيقية ، فان فراغه يمضى عادة تحت

ستار الخدمة المتخصصة التى تهدف الى أن توفر لسيده فرص التمتع الكامل بالحياة ٠

ومن الواضح أن الشواهد على علاقة التبعية هذه تنجلى فى سلوك الخادم وطريقة معيشته ٠ ومثل هذا القول غالبا ما يصدق على الزوجة فى المراحل الاقتصادية الطويلة التى ظلت خلالها تعتبر خادما قبل كل شىء — أى طالما كان نظام البيت الذى يتحكم فيه رب العائلة سائدا. ويجب على الخادم، لكى يقوم بما يتطلبه نظام حياة الطبقة المترفة، ان يظهر لا بمظهر الخضوع فحسب، بل أيضا بمظهر الذى درب تدريبا خاصا على الخضوع وممارسته ٠ فواجب الخادم أو الزوجة ان لا يقوما فقط ببعض الوظائف المحددة ويظهرا بمظهر ينم عن الخضوع ، لكن مما لايقل عن ذلك اهمية أن يظهرا رشاقة فى أساليب الخضوع — من تمسك مهذب بقوانين الخضوع الواضح الفعال ، بل ان هذا الاستعداد والمهارة المكتسبة لاظهار علاقة التبعية هذه هى التى يتكون منها حتى فى يومنا هذا اهم عناصر الاستفادة من خدمنا الذين يتناولون أجورا باهظة ، كما انها من اهم ما تتباهى به الزوجة الراقية .

ان أول صفة مطلوبة فى الخادم الصالح هى أن يعرف مركزه معرفة واضحة ، فليس يكفى أنه يعرف كيف يحقق بعض النتائج الآلية المطلوبة ، بل يجب عليه قبل كل شىء أن يعرف كيف يحقق هذه النتائج على أحسن الوجوه ٠ فالخدمة المنزلية يمكن أن يقال عنهـــا انها وظيفة روحية قبل أن تكون وظيفة آلية ٠ ثم يظهر بالتدريج نظام دقيق لآداب السلوك يرمى بصفة خاصة الى تنظيم هذه الأعمال الترفية الثانوية التى تقوم بها طبقة الخدم ٠ وأى خروج على هذه القوانين يقابل بالاستنكار ، ولا يرجع هذا الى انه يدل على تقصير فى الكفاية الآلية أو حتى الى أنه يدل على انعدام الشعور بالتبعية، بل لأنه عند التحليل النهائى يدل على نقص فى المران الخاص ٠ والمران الخاص على الخدمة الشخصية يتطلب وقتا وجهدا ، ولذلك فحيثما كان يبدو على درجة من الكمال فانه يقوم حجة على أن الخادم الذى يتصف به لم يقم أبدا ، ولا هو يقوم فى الوقت الحاضر بأى عمل من الأعمال المنتجة، وهو من أول نظرة شاهد عن حياة مترفة ثانوية تمتد فى الماضى زمنا طويلا ، وهكذا نجد أن المـــران على الخدمة له فائدة ، ليس فقط فى اشباع ولع المخدوم بالمهارات الفنيـــة العالية وغرامه باستعراض سلطانه على الذين يؤدون أعمالا نافعـــة لحياته ، لكن فائدته أيضا فى أن دلالته على قدرة السيد على استهلاك الخدمات البشرية تزيد على دلالة مجرد الأعمال الترفية التى يؤديها شخص ينقصه التدريب ٠٠ فان مما يبعث على الأسى الشديد أن يقوم رئيس الخدم أو الساعى بعمله حول

مائدة السيد أو عربته بأسلوب ينم عن أن مهنته الحقيقية قد تكون الحرث أو رعى الغنم • فمثل هذا العمل غير المحكم قد يؤول على أنه قصور من قبل السيد عن استخدام خدم مدربين تدريبا خاصا ، بمعنى أنه يفسر على أن السيد لا يستطيع أن يدفع أجر استهلاك الوقت والجهد والتعليم التى تلزم لتدريب خادم على الخدمة الخاصة حسب قانون أخلاقى صارم• فاذا كان أداء الخادم لعمله يستدل منه على نقص موارد السيد المالية فانه حينئذ يقصر فى أداء الغرض الأساسى منه ، لأن أهم منافع الخدم هى فى دلالتهم على قدرة سيدهم على دفع أجورهم •

ان ما ذكرناه توا قد يفسر على أنه يعنى أن ضرر اقتناء خادم غير مدرب ينحصر فى دلالته الصريحة على الشح أو على الانتفاع ، وهذا طبعا غير الواقع، فان العلاقة بينهما أبعد من أن تكون علاقة مباشرة الى هذا الحد ، وما يحدث هنا هو ما يحدث عموما • وكل ما يبرر نفسه فى نظرنا على أى أساس من الأسس فى مبدأ الأمر ، سرعان ما ينال رضانا على انه شىء مرض فى حد ذاته ، ثم ينتهى به الأمر فيستقر فى أذهاننا على أنه حق فى جوهره • لكن اذا كان لأى قانون معين من قوانين الأخلاق أن يبقى حائزا للرضا ، فلا بد أن ينال تأييد العادات والميول التى تنظم سبيل تطوره ، أو على الأقل أن لا يتعارض معها ــ والحاجة الى الحياة الترفية الثانوية ، أو الى الاستهلاك البين للخدمات ، هو من الدوافع السائدة الى اقتناء الخدم ــ وطالما كان هذا صحيحا ففى وسعنا أن نقرر بغير كثير جدل أن أية حيدة عن طرق الاستفادة المتفق عليها تنم عن تمرس مقتضب بالخدمة ، سرعان ما تصبح غير محتملة • فان الحاجة الى حياة مترفة ثانويه باهظة التكاليف تفعل فعلها بطريقة مباشرة بواسطة توجيه ذوقنا فى نشوئه ــ أى توجيه حاسة تمييز ما هو صواب فى هذه الأمور ــ وبذلك تحول دون ظهور مسالك خلقية غير ملائمة ، وذلك بالحيلولة دون استحسانها •

وكلما زاد مستوى الثروة الذى يتعارف عليه عامة الناس ، تعرض امتلاكهم الخدم واستغلالهم كوسيلة للتدليل على امتلاك الشخص لما يزيد عن حاجته كثيرا ، تعرض هذا لشىء من التهذيب • فامتلاك الرقيق الذين يستخدمون فى انتاج السلع ، يشهد بالثروة والسلطان ، لكن امتلاك الخدم الذين لا ينتجون شيئا على الاطلاق يقوم شاهدا على ثروة وسلطان يزيدان على ذينكم كثيرا ، وفى ضوء هذا المبدأ تنشأ طبقة من الخدم ــ كلما زاد عددها كان هذا خيرا ــ همها الوحيد هو القيام الأحمق على خدمة ذات سيدهم ، وبهذا يعرضون قدرته على استهلاك قدر كبير من الخدمة فى غير طائل • ومن هنا ينشأ تقسيم للعمل بين الخدم أو الأتباع الذين يقضون حياتهم فى المحافظة على شرف السيد ذى الحياة الناعمة ، بحيث أنه ، بينما نجد قسما منهم يقوم بانتاج السلع له نجد قسما آخر ، يرأسه فى العادة الزوجة ، أو

الزوجة المحظية ، يقوم باستهلاك وقت الفراغ بدلا منه ، وبهذا يستعرضون قدرته على تحمل خسائر مالية كبيرة دون تعريض ثرائه الفاحش لأى خطر .

هذا التلخيص التوضيحى المثالى لتطور الخدمة المنزلية وطبيعتها يصبح اقرب ما يكون الى الصدق فيما يختص بالمرحلة الثقافية التى سميناها هنا مرحلة الصناعة ذات المظهر السلمى. ففى هذه المرحلة تسمو الخدمة المنزلية فى اول الأمر الى منزلة النظام الاقتصادى ، وفى هذه المرحلة تحتل أهم مركز فى نظام حياة العشيرة . والمرحلة ذات المظهر السلمى تأتى ، فى سياق التطور الثقافى ، عقب المرحلة العدوانية الحقيقية ، وكلاهما مظهران متتاليان من مظاهر الحياة الهمجية . ومظهر هذه الحياة الذى يميزها هو التمسك الرسمى بالسلم والنظام فى نفس الوقت الذى لا تزال فيه الحياة فى هذه المرحلة تمتلىء بأعمال الاكراه والعداء الطبقى ، بحيث لا يمكن أن تسمى سلمية بكل معنى الكلمة . بل يمكن - لأسباب كثيرة ، ومن وجهة نظر اخرى غير الاقتصادية - ان تسمى مرحلة « المركز الاجتماعى » . وهذا الاصطلاح يعبر تعبيرا دقيقا عن طريقة العلاقات البشرية خلال هذه المرحلة والاستعداد الروحى للرجال عند هذا المستوى الثقافى . لكن يبدو أن اسم « السلمى المظهر » أفضل منه من حيث كونه اصطلاحا وصفيا يميز الطرق السائدة فى الانتاج كما يعين اتجاه التقدم الانتاجى عند هذه النقطة من التطور الاقتصادى . وربما كان هذا الطور من التقدم الاقتصادى قد انقضى فيما يتعلق بمجتمعات الثقافة الغربية ، فيما عدا قسما قليل العدد - وان يكن واضحا - من المجتمع لم تتعرض طرائق تفكيره التى تتميز بها الثقافة الهمجية الا لقليل من التغيير .

ولا تزال الخدمة الشخصية عنصرا ذا أهمية اقتصادية كبيرة ، لاسيما فيما يتعلق بتوزيع السلع واستهلاكها ، لكن لا شك أن أهميتها النسبية ، حتى من هذه الناحية ، أقل مما كانت فى وقت من الأوقات . ولا شك أن أعظم تطور لهذا النوع من الفراغ الثانوى كان فى الزمن الماضى وليس فى الوقت الحاضر ، وهو يوجد اليوم بأجلى مظاهره فى نوع الحياة التى تحياها أعلى الطبقات المترفة . وهذه الطبقة لها على الثقافة الحديثة فضل كثير من حيث المحافظة على التقاليد والعادات وطرائق التفكير التى تنتمى الى مستوى ثقافى عريق فيما يختص بتقبلها لها أتم قبول وتطويرها تطويرا فعالا .

ان الوسائل الآلية التى أصبحت فى متناول المجتمعات الصناعية الحديثة تستخدمها فى سبيل رفاهية الحياة اليومية وهنائها قد بلغت درجة كبيرة من التقدم ، حتى ان الخدم الشخصيين ، أو بالحرى جميع أنواع الخدم ، يندر أن يستخدمهم أى انسان الا على أساس قانون من قوانين الولع بالشهرة حملته الينا التقاليد أثرا من آثار العرف القديم . وقد يكون

الاستثناء الوحيد هم الخدم الذين يؤجرون لرعاية المرضى وضعاف العقول. لكن مثل هؤلاء الخدم ينطبق عليهم فى الحقيقة لقب المرضين المدربين لا لقب خدم المنازل ، ومن أجل هذا نراهم استثناء ظاهريا لهذه القاعدة وليس استثناء فعليا .

والسبب الثاني لاقتناء الخدم في المنازل ، كاستخدامهم في منازل الطبقة الميسورة الى درجة معتدلة فى هذه الأيام مثلا ، هو (على ما يبدو) أن يكون أهل البيت غير قادرين على أداء الأعمال التى تتطلبها مثل هذه البيوت الحديثة الا بمشقة . أما السبب الذى من أجله يعجزون عن ادائها فهو : (١) أن يكون لديهم كثير من « الواجبات الاجتماعية » ، و (٢) أن يكون العمل المطلوب اداؤه فوق طاقتهم من حيث مشقته أو كثرته . وهذان السببان يمكن أن نعرضهما بشكل آخر فنقول : (١) ان قوانين السلوك تقضى بأن تضيع مثل هذه الأسر وقتها وجهدها جميعا فى أعمال يبدو فيها طابع الأعمال المترفة ، فتقضيه فى الزيارات وقيادة السيارات ، وفى النوادى وفى محال الأزياء والرياضة والهيئات الخيرية وما اليها من الأعمال الاجتماعية . والذين يقضون وقتهم ويبذلون جهدهم فى مثل هذه الأمور يعترفون فيما بينهم وبين أنفسهم أنها جميعا ــ وكذلك الاهتمام العرضى بالملبس وغيره من مظاهر الاستهلاك الواضح ، كلها أمور تبعث على الضيق ولكن لا يمكن تجنبها تجنبا كليا . (٢) ثم ان مقتضيات التظاهر باستهلاك السلع قد جعلت ضرورات الحياة ــ من مسكن وأثاث وزخارف وخزائن الملابس ومواد الطعام ــ قد جعلت هذه الضرورات من الصعوبة والتعقيد بحيث لا يستطيع مستهلكو هذه السلع أن يقوموا بأعبائها على الوجه المنشود دون معونة الخدم . والاتصال الشخصى بالاجراء الذين نطلب معونتهم تحقيقا لمظاهر الوقار ، هو على العموم أمر لايستسيغه أهل المنزل ، لكنهم يحتملون وجود الخدم ويدفعون لهم أجورهم لينوبوا عنهم فى القيام بنصيب من الواجبات المنزلية الثقيلة . فوجود خدم المنازل والخدم الخصوصيين بأعداد كبيرة هو تضحية بالراحة الجسمانية فى سبيل الحاجة المعنوية الى التظاهر بالثراء .

واكبر تظاهر بالحياة المترفة الثانوية فى حياتنا الحديثة هو الذى يشتمل عليه ما يسمى الواجبات المنزلية . فان هذه الواجبات تتحول بسرعة الى أنواع تؤدى من الخدمات لا من أجل المصلحة الشخصية لرب الدار بقدر ما هى من أجل سمعة جميع أهل الدار بصفتهم وحدة متكاملة ــ وهم مجموعة تقف الزوجة بينها على قدم المساواة الواضحة . لكن حالما تتطور الأسرة التى تؤدى لمصلحتها هذه الخدمات ، وتتخلى عن التقاليد القديمة التى تقضى بامتلاك الزوج لزوجته ، فسرعان ما تخرج هذه الواجبات من نطاق الأعمال المترفة الثانوية ، الا حيث يؤديها الخدم المأجورون ــ ومعنى هذا أنه لما كانت الحياة المترفة الثانوية غير مستطاعة الا على أساس المركز الاجتماعى ، اى

اقتناء الخدم ، فان اختفاء العلاقة القائمة على أساس المركز الاجتماعى من المعاملات الانسانية فى أى وقت يتبعه فورا اختفاء الحياة المترفة الثانوية ، فيما يختص بهذا القدر من الحياة · لكن من واجبنا أن نضيف — من أجل تحديد هذا التخصيص — انه طالما ان الأسرة باقية ، حتى لو بقيت الزوجة تشارك زوجها فى رياستها ، فلابد من اعتبار هذا النوع من الفراغ غير المنتج الذى يؤدى تحقيقا لمستلزمات الوقار فى الأسرة ، حياة مترفة ثانوية ، ولو بدرجة محورة قليلا ، فهو الآن فراغ يؤدى لخدمة الأسرة التى تبدو فى ظاهرها وحدة متكاملة ، بدلا من أن تكون لخدمة رب الأسرة كما كانت الحال فيما مضى ·

الفصل الرابع
الاستهلاك المظهري

أشرنا فيما قلنا آنفا عن تطور طبقة المترفين بالتبعية والتفريق بينها وبين المجموع العام للطبقات العاملة ، أشرنا الى نوع آخر من أنواع تقسيم العمل ، هو التقسيم بين مختلف طبقات الخدم . فهناك قسم من طبقة الخدم ، لاسيما أولئك الذين يؤدون أعمالا ترفية بالتبعية ، ينتهى بهم الأمر الى القيام بنوع جديد ثانوى من الواجبات – هو استهلاك السلع بالنيابة . وأظهر شكل يحدث به هذا الاستهلاك نراه فى لبس حلل الخدم الرسمية وسكنى اجنحة الخدم الواسعة . ونوع آخر من أنواع الاستهلاك بالنيابة قد لا يقل فضولا او فعالية ، وهو اوسع من سابقه انتشارا ، هو استهلاك سيدة المنزل وسائر هيئات الخدم للطعام والملبس والمسكن والأثاث .

لكن قبل تطور نظام الزوجة الخادم الى نظام « سيدة البيت » بزمن طويل ، توجد مرحلة من مراحل التطور الاقتصادى يكون عندها التخصص فى استهلاك البضائع كدليل على سلطان المال قد بدأ يبرز فى صورة نظام متطور بدرجة كبيرة او صغيرة . بل ان ابتداء التفريق بين أنواع الاستهلاك يسبق ظهور أى شىء يمكن أن يسمى فعلا سلطان المال . ومن الممكن تتبعه فى الماضى الى اول طور من اطوار الثقافة العدوانية ، بل ان هناك قولا بان تفريقا بدائيا فى هذا المجال كان موجودا قبل ظهور الحياة العدوانية . وهذا التفريق البدائى جدا بين مظاهر استهلاك البضائع يشبه التفريق فى المرحلة التالية الذى نعرفه جميعا حق المعرفة ، فى انه تفريق ذو طابع مظهرى الى حد كبير ، ولكنه – على خلاف الأخير – لا يقوم على أساس الفرق فى الثروة المكدسة . واستخدام استهلاك البضائع فى الاستشهاد على الثراء يجب أن يعتبر تطورا مشتقا . وذلك ليتوائم مع هدف جديد عن طريق انتخابى ، وهذا الهدف هو ابراز الامتياز الطبقى الذى كان موجودا من قبل ومستقرا فى أذهان الرجال .

فى أثناء الاطوار الاولى للثقافة العدوانية ، كان التفريق الاقتصادى الوحيد تمييزا عاما بين طبقة شريفة سائدة قوامها الرجال الأقوياء من جانب وطبقة دنيئة مسودة قوامها النساء الكادحات من الجانب الآخر . وطبقة

لنظام الحياة المثالى الذى كان يسود فى ذلك الزمان ، كانت مهمة الرجال هى استهلاك ما تنتجه النساء . اما نصيب النساء من ذلك الاستهلاك فقد كان ثانويا بالنسبة لعملهن ، فقد كان وسيلة تعينهن على متابعة العمل ، لا استهلاكا يرمى الى منحهن الراحة ومتعة الحياة . وكان استهلاك البضائع دون انتاجها يعتبر من الأعمال المشرفة ، فهو أصلا علامة من علامات السلطان وامتياز يستحقه صاحب الجاه ، ثم يصبح بعد ذلك شرفا فى حد ذاته ، لا سيما استهلاك الأشياء التى تزداد رغبة الناس فيها . وبهذا يصبح استهلاك الأنواع الممتازة من الطعام ، وفى أغلب الأحيان استهلاك أدوات الزينة النادرة أيضا ، محظورا على النساء والأطفال ، واذا كانت هناك طبقة وضيعة من الخدم سرى عليها هذا الحظر كذلك . وقد يتحول هذا الحظر مع زيادة التقدم الثقافى الى تقليد بسيط ذى طابع صارم الى درجة كبيرة او صغيرة ، لكن مهما كان الاساس النظرى لهذا التمييز الذى يتمسك به المجتمع ، وسواء كان حظرا أو اتفاقا عاما ، فان ملامح النظام العام للاستهلاك لا تتغير بسهولة . فاذا بلغ المجتمع مرحلة الصناعة ذات المظهر السلمى وما يصحبها من نظام اساسه امتلاك الرقيق ، يصبح المبدأ العام الذى يطبقه المجتمع (بدرجات متفاوتة من الصرامة) هو ان الطبقة الوضيعة الصناعية لا يجب ان تستهلك الا ما كان ضروريا لبقائها ، فان طبيعة الاشياء تقضى بان يكون نعيم الحياة ورخاؤها حقا للطبقة المترفة وحدها ، ويقضى نظام التحريم بأن تكون بعض المواد الغذائية ، وبعض المشروبات بصفة خاصة ، مقتصرة على الطبقة العليا .

وهذا التفريق المظهرى فى التغذية يتضح على احسن وجه فى استعمال المشروبات المسكرة والمخدرات . فان كانت هذه المواد غالية الثمن اعتبر استعمالها نبيلا ومشرفا . ومن هنا تمتنع الطبقات الوضيعة ، وفى مقدمتها النساء ، امتناعا اضطراريا عن استعمالها ، الا فى البلاد التى يكون الحصول فيها على المخدرات ميسورا بتكاليف قليلة . وقد كانت وظيفة النساء ، منذ الازمان القديمة وخلال جميع العصور التى كانت تسود فيها نظم الحكومات الأبوية ، هى تحضير هذه المواد والاشراف على توزيعها ، وكان استهلاكها من امتيازات الرجال ذوى الأصل العريق والنشأة الراقية . وهكذا نرى السكر وما يتبعه من العواقب الباثولوجية التى تنتج عن الافراط فى تناول المخدرات ، تتحول بدورها فتصبح من الأشياء المشرفة بصفتها علامة على علو مركز الذين يمكنهم ثراؤهم من الافراط فيها . بل ان بعض الشعوب تعتبر العلل التى يسببها هذا الانغماس من صفات الرجولة . بل قد حدث ان الاسم الذى يطلق على بعض أحوال الجسم المرضية الناشئة من مثل هذا المصدر ، قد أصبح فى اللغة الدارجة مرادفا لالفاظ مثل « نبيل » و « راق » . والواقع انه لم يحدث الا خلال مرحلة ثقافية بدائية نسبيا

استهلاك البضائع باعتباره علامة شرف

ان كانت المظاهر التى تنم عن الرذائل ذات التكاليف الباهظة تعتبر فى نظر التقاليد علامة على علو المقام ، فكان ينظر اليها كذلك على انها فضائل تستوجب احترام المجتمع ، لكن الاكبار الذى يعلق ببعض الرذائل الباهظة التكاليف يبقى محتفظا بقوته طويلا بدرجة تجعله يقلل كثيرا من الاستهجان الذى ينال طبقة النبلاء والأثرياء من جراء الافراط فى اى نوع من الانغماس. والتفريق الظالم يزيد من قوة الشعور السائد الذى يستهجن أى انغماس من هذا القبيل من جانب النساء والشباب والاتباع ، وهذا التفريق الظالم التقليدى لم يفقد الى اليوم قوته ، حتى بين الشعوب الأكثر تحضرا . فاينما كان المثل الذى تضربه الطبقة المترفة محتفظا بقدرته على تنظيم التقاليد ، فمن الملاحظ أن النساء لا يزلن يتمسكن بالتقاليد فيمتنعن عن تعاطى المسكرات .

هذه السمة التى يتسم بها التمسك الشديد من جانب نساء الطبقة الراقية بالامتناع عن استعمال المسكرات قد تبدو تهذيبا للمنطق على حساب ما هو معقول . لكن الحقائق التى فى متناول كل من يريد الوصول اليها تشير الى أن امتناع النساء البات يرجع الى حد ما الى العرف الذى لا يستطعن الحيدة عنه ، وهذا العرف هو بصفة عامة اقوى ما يكون حيث تكون تقاليد الحكومات الأبوية - وهى التقاليد التى تعتبر المرأة من الممتلكات - قد بقيت على قوتها بشكل عنيف . وهذا التقليد - الذى تعرض لكثير من التعديل من حيث مداه وصرامته ، لكن دون أن يفقد مغزاه أبدا حتى فى وقتنا الحاضر - يقضى بأن المرأة ما دامت مملوكة للرجل ، لا يحق لها أن تستهلك من الأشياء الا ما كان ضروريا لبقائها - الا حيثما كانت زيادة الاستهلاك تعمل على رضاء سيدها وحسن سمعته . واستهلاك مواد الترف هو فى حقيقته استهلاك من أجل فائدة المستهلك نفسه ، وهو لهذا من امتياز السيد . وأى استهلاك من هذا القبيل من جانب غيره لا يمكن ان يحدث الا باذنه . وعلى هذا نستطيع ان نبحث بين الجماعات التى تأثرت طرائق التفكير عندها تأثرا كبيرا بالتقاليد الأبوية ، عن آثار التحريم المفروض على استهلاك مواد الترف ، وذلك على الأقل فيما يتعلق بتحريمها على طبقة الرقيق والأتباع . وهذا يصدق بصفة خاصة على بعض مواد الترف التى يعتبر استهلاك الأتباع لها مصدر مضايقة وغضب شديدين لأسيادهم ، أو التى يوجد شك فى شرعية استهلاكهم لها على أسس أخرى . واستعمال هذه المخدرات المتنوعة يعتبر ، فى نظر الطبقة الوسطى المحافظة فى دول المدنية الغربية ، ممقوتا بسبب أحد الاعتراضين السابقين على الاقل ان لم يكن كليهما . ومن الحقائق الواضحة بدرجة لا تسمح بتجاهلها ، ان بين هذه الطبقات الوسطى ذات الثقافة الجرمانية بالذات ، الذين ما زالوا محتفظين ببقايا تقاليد الحكم الابوى ، تخضع النساء لنوع معدل من الحظر

فيما يتعلق بتعاطى المخدرات والمشروبات الروحية . ومع ان القاعدة العامة قد اعتراها كثير من التعديل - ومزيد من التعديل بمرور الزمن وضعف تقاليد الحكم الأبوى - فلا تزال تعتبر صحيحة وملزمة ، من حيث أن النساء لا يحق لهن استهلاك شيء الا لفائدة سادتهن . وهنا يبرز طبعا الاعتراض بأن الانفاق على ملابس النساء وزينتهن هو استثناء واضح من هذه القاعدة . ولكننا سوف نرى فيما يلى ان هذا الاستثناء ظاهرى أكثر منه حقيقيا .

واستهلاك السلع بغير قيد ، لاسيما استهلاك الأنواع الراقية منها - ومن الناحية المثالية استهلاك مايزيد على القدر الضرورى لأدنى مستويات البقاء - هو فى العادة حق الطبقة المترفة ، وذلك فى اثناء مراحل التقدم الاقتصادى الأولى . وهذا التحديد يتجه نحو الانقراض - من الناحية الشكلية على الأقل ، بعد بلوغ المرحلة السلمية التالية بما يلازمها من حق الفرد فى اقتناء الممتلكات الخاصة وظهور نظام صناعى قائم على اساس دفع اجور فى مقابل العمل او على اساس الاقتصاد المنزلى المتواضع . لكن اثناء المرحلة السلمية السابقة ، وبينما كانت كثير من التقاليد التى بواسطتها اثرت الطبقة المترفة فى الحياة الاقتصادية للمراحل التالية ، بينماكانت هذه التقاليد تاخذ طابعها وتثبت اقدامها ، كان هذا المبدأ قد اكتسب قوة القانون العرفى وأصبح بمثابة معيار يميل الاستهلاك الى التواؤم معه ، وكان الخروج عليه شيئا ممقوتا واختفاؤه مؤكدا خلال مراحل التقدم التالية عاجلا أو آجلا .

والرجل المهذب المسالم الذى يحيا حياة مترفة لا يزيد استهلاكه لضرورات الحياة على الحد الادنى اللازم للبقاء والاحتفاظ بالقوة البدنية فحسب ، بل ان استهلاكه يتجه الى التخصص فيما يتعلق بنوع السلع التى يستهلكها كذلك ، فهو يستهلك اى قدر يشاء من اطايب الطعام والشراب والمكيفات والمسكن والخدمات وادوات الزينة والملبس والسلاح والعتاد ووسائل الترفيه والتعاويذ وتماثيل الآلهة . وفى خلال عملية التحسين التدريجى الذى يطرأ على المواد التى يستهلكها يكون المبدأ الدافع الى التحسين والهدف منه دون شك هو أن المواد المحسنة تستطيع أن توفر لشخص مستهلكها مزيدا من الراحة والهناء ، لكن هذا لا يبقى هو الغرض الرئيسى من استهلاكها ، فان مقاييس الشهرة لا تلبث ان تتمسك بمثل هذه التجديدات التى تصلح للبقاء وفقا لمستواها . ولما كان استهلاك هذه المواد الممتازة دليلا على الثراء ، فانه يصبح من علامات الشرف ، وعلى عكس ذلك يصبح عجز الشخص عن استهلاكها بالقدر والكيفية اللائقين علامة على الحطة والتفاهة .

هذا التقدم فى آداب السلوك ، من حيث تناول المواد الثمينة من مأكل ومشرب وغيرهما ، سرعان ما يؤثر لا فى احوال المعيشة وحدها بل فى النشاط العقلى للرجل المهذب ومرانه ايضا . فهو لا يبقى مجرد رجل ناجح وعدوانى - رجل يتصف بالبأس والثراء والجرأة • وعليه أيضا ، لـكيلا يرمى بالحماقة ، ان ينمى فى نفسه الذوق ، لانه يصبح حينئـذ مطالبا بان يميز بشىء من الدقة بين الغث والثمين من المـواد التى يستهلكها • ويجب أن يكون ذواقة للحوم على اختلافها فى الجودة ، وللمشروبات والحلى التى تليق بالرجال وللملابس المناسبة وفن العمارة والاسلحة والالعاب والرقاصين والمشروبات . وهذه التنمية للذوق الجمالى تتطلب وقتا وتطبيقا ، ولذلك كانت الواجبات الملقاة على عاتق الرجل المهذب فى هذا المجال تميل الى تغيير حياته الناعمة الى نوع من التمرن العويص على كيف يحيا حياة مترفة ظاهرة بطريقة لائقة . وشىء آخر ذو صلة وثيقة بما ينتظر من الرجل المهذب من حيث قدرته على استهلاك أى قدر يشاء من أطايب الأشياء ، ذلك هو أنه يجب عليه ان يعرف كيف يستهلك هذه الاشياء بطريقة لائقة . فان حيـاة الراحة التى يحياها يجب ان تسير على النهج الصحيح ، ومن هنا تظهر آداب السلوك بالطريقة التى اشرنا اليها فى فصل سابق . فان آداب السلوك وطرائق الحياة الراقية عناصر تتفق ومعايير الحيـاة المترفة والاستهلاك المظهرى .

والاستهلاك المظهرى للسلع القيمة وسيلة من وسائل الشهرة للرجـل المترف . فكلما زاد تكدس الثروة لديه عجز عن أن يقوم بمفرده دون مساعدة خارجية باستعراض بذخه بهذه الوسيلة استعراضا كافيا ، ولذا يلجـأ الى طلب مساعدة اصدقائه ومنافسيه ، فيلجأ الى تقديم الهدايا الثمينة واقامة الولائم وحفلات الترفيه التى تتكلف غاليا . وربما كانت الهدايا والولائم قد نشأت من اصل غير هذا التظاهر الساذج ، ولكنها اكتسبت صفة تحقيـق هذا الغرض فى وقت مبكر جدا ، واحتفظت بطابعها هذا الى اليوم ، حتى ان منفعتها فى هذه الناحية قد أصبحت منذ أمد بعيد هى الأساس الرئيسى الذى يرتكز عليه هذا العرف• والولائم ذات التكاليف الباهظة من مثل حفلات الرقص تلائم هذا الغرض ملاءمة خاصة . والمنافس الذى يرمى الداعى الى عقـد المقارنة معه يكون فى هذه الحالة وسيلة لغرض ، فانه يستهلك السلع نيابة عن الداعى فى نفس الوقت الذى يكون فيه شاهدا على استهلاك هذا القدر الزائد من الطيبات التى لا يستطيع الداعى ان يتخلص منها بمفرده ، وهـو أيضا تعرض له الفرصة ليشهد امتياز مضيفه فى آداب السلوك .

لا مراء ان هناك دوافع اخرى ، من نوع أكثر بهجة ، وراء اقامة حفلات الترفيه ذات التكاليف الباهظة . وقد يكون تقليد الاجتماعات التى تشيع فيها البهجة قد نشأ فى الأصل عن الرغبة فى الطرب أو عن العقيدة الدينية•

وهذه البواعث موجودة ايضا فى مراحل التقدم التالية ، ولكنها لم تعد البواعث الوحيدة . فاحتفالات الطبقات المترفة وحفلاتها الترفيهية فى العصور الاخيرة قد تستمر فى خدمة الاغراض الدينية الى حد ما ، وتستمر الى درجة اكبر فى خدمة اغراض الترفيه والبهجة ، ولكنها تخدم ايضا غرضا تحاسديا ، ولو أن خدمة هذا الغرض التحاسدى لا يقلل منها ان الدوافع الصريحة لهذه الاحتفالات تقوم على اساس بهيج غير تحاسدى . ولكن هذا لا يقلل من شأن الأثر الاقتصادى لهذه الدماثة الاجتماعية ، سواء من جهة استهلاك البضائع نيابة عن صاحبها أوجهة استعراض التفوق فى آداب السلوك الذى يكلف كثيرا من الجهد والمال .

وكلما تكدست الثروة زادت الطبقة المترفة تطورا فى وظيفتها وكيانها ، وتشعبت من جديد ، فيظهر نظام جديد يميز بين الناس تمييزا دقيقا فى مراتبهم ودرجاتهم . ثم ان وراثة الثروة وما يتبعها من وراثة الجاه تزيد من حدة هذا التمييز . ووراثة الجاه تصحبها وراثة الحياة المستريحة . واذا كان الجاه عريقا الى درجة تتيح لصاحبه حياة ناعمة فمن الممكن أن يورث حتى لو لم يكن له سند من الثروة التى توفر للمرء حياة ناعمة موقرة . فالدم العريق ينتقل الى الابن حتى لو لم تتوفر له الموارد التى تتيح له حرية استهلاك السلع كما يشاء . وهكذا تنشأ طبقة المترفين المعدمين الذين اشرنا اليهم فيما سلف اشارة عارضة . وهؤلاء السادة الذين ينتمون الى الطبقة نصف المترفة يخضعون لنظام يتدرجون بمقتضاه فى الرتب والألقاب . فالذين تجىء منزلتهم — من حيث عراقة النسب أو الثروة او كليهما — قريبة من أعلى طبقات المترفين الأثرياء ، تعلو منزلتهم على الذين يقلون عنهم حسبا او مالا . وهذه الدرجات الدنيا ، لا سيما طبقة المترفين الذين يقلون عراقة أو مالا ، يربطون أنفسهم بأحد علية القوم برباط من التبعية والولاء ، فينالهم منه مزيد من الشهرة أو من الوسائل التى تهيىء لهم حياة مستريحة . اذ يصبحون خدما له او حجابا . ولما كان السيد هو الذى يطعمهم ويساندهم فانهم يصبحون دليلا على علو منزلته ويستهلكون له ما فاض من ثروته . وكثير من هؤلاء السادة المترفين بالتبعية هم فى نفس الوقت رجال ذوو موارد قليلة ، ولذلك فكثير منهم يمكن بالكاد ان نسميهم مستهلكين بالنيابة ، والباقون ليسوا كذلك الا جزئيا . على ان الكثيرين منهم الذين يتكون منهم خدم السيد وحاشيته يمكن أن نسميهم مستهلكين بالتبعية دون استحقاق . وكثيرون من هؤلاء أيضا ، وكذلك كثيرون من الارستوقراطية الأخرى الأدنى درجة ، قد ألحقوا هم ايضا بخدمتهم الشخصية فريقا كبيرا من المستهلكين بالتبعية فى شخص زوجاتهم واطفالهم وخدمهم وحاشيتهم وما الى ذلك .

وفى خلال هذا النظام التدريجى من نظم الترف بالتبعية والاستهلاك بالتبعية تبقى القاعدة سارية ، وهى ان هذه الوظائف يجب أن تؤدى بطريقة

نشوء طبقة المترفين المعدمين ص٥٤...

خاصة وفى ظروف معينة تساعد على ان تحدد بالدقة شخص السيد الذى يحدث الاستهلاك نيابة عنه ، والذى يستحق من اجل ذلك ما ينتج عن هذا الاستهلاك من حسن الاحدوثة . ثم ان الفراغ والاستهلاك اللذين يقوم بهما هؤلاء الاشخاص نيابة عن سيدهم أو عميدهم يكونان بمثابة استثمار من جانبه يهدف الى مزيد من حسن السمعة . اما فيما يختص بالولائم والسخاء فان هذا واضح كل الوضوح . ووصف المضيف أو العميد بحسن السمعة يتم فى هذه الحالة فورا ، على أساس الشهرة العامة . أما حيث يتم الفراغ والاستهلاك بالتبعية على أيدى الخدم والأتباع فان عزو الشهرة الناتجة عن ذلك الى العميد يتم عن طريق سكناهم فى كنفه حتى يرى الناس جميعا أى نبع يردون . وكلما زاد عدد الفريق الذى يراد اكتساب تقديره بهذه الوسيلة احتاج الأمر الى مزيد من الوسائل التى تشهد بأن الأعمال الترفية التى يؤدونها تستحق التقدير، ومن اجل هذا الهدف ينتشر استعمال الملابس الرسمية والشارات والأزياء التى تميز الخدم . وليس الملابس الرسمية وأزياء الخدم يعنى درجة كبيرة من التبعية ، بل يمكن أن يقال انه علامة على العبودية ، حقيقة كانت أو مظهرا . ولابسو الحلل الرسمية وأزياء الخدم الخاصة يمكن تقسيمهم على وجه التقريب الى طبقتين : طبقة الأحرار وطبقة الأتباع ، أو طبقة النبلاء وطبقة الأدنياء . وكذلك تنقسم الخدمات التى تقوم بها كل منهما الى أعمال نبيلة وأعمال وضيعة . وهذا التقسيم بالطبع لا يراعى بدقة حين مزاولة الأعمال . وأحيانا يندمج القسم الأقل حطة من بين الأعمال الوضيعة والقسم الأقل نبلا من بين الأعمال النبيلة ، فيقوم بهما شخص واحد ، ولكن هذا لايبرر التغاضى عن التقسيم العام . ومما يزيد الأمر اختلاطا أن هذا التمييز الرئيسى بين النبيل والوضيع ، الذى يستند الى طبيعة الخدمة الظاهرة التى تؤدى ، يعترضه تقسيم ثانوى الى أعمال مشرفة وأعمال خسيسة ، وذلك حسب مركز الشخص الذى تؤدى له الخدمة أو الذى يلبس تابعه الزى المميز لأتباعه الخصوصيين . وعلى ذلك فان تلك الوظائف التى هى بحكم الحق من الوظائف الخاصة بالطبقة المترفة وظائف نبيلة ، ومنها وظائف الحكم والحرب والصيد والعناية بالسلاح والعتاد وما الى ذلك ــ وبالاختصار تلك الوظائف التى يمكن أن تدخل فى نطاق الوظائف ذات المظهر العدوانى البين .

أما الوظائف التى تعهد الى الطبقة الكادحة فهى وظائف دنيئة ومن امثالها الأعمال اليدوية أو غيرها من الأعمال المنتجة ، والخدمات الحقيرة وما اليها . لكن الخدمة الحقيرة التى تؤدى لشخص ذى مقام سام جدا قد تصبح خدمة مشرفة جدا ، من ذلك مثلا وظيفة وصيفة الشرف أو وصيفة الملكة ، أو سايس خيل الملك أو القائم على شئون كلابه . والوظيفتان الأخيرتان تدلان على مبدأ ذى أهمية عامة . فحيثما كانت

الخدمة الحقيرة ، كالخدمات المذكورة هنا ، ذات علاقة مباشرة بأعمال الفراغ الأساسية من حرب وصيد ، فمن السهل أن تكتسب طابعا مشرفا . وبهذه الطريقة قد ينتهى الأمر بوظيفة هى بطبيعتها من أحقر الوظائف ، الى أن تتسم بالشرف العظيم .

وفى المرحلة المتأخرة من مراحل الصناعة السلمية يبدأ انقراض نظام استخدام فرق من الجند الذين لا عمل لهم والذين يلبسون الزى الرسمى . ويتضاءل الاستهلاك (بالتبعية) على أيدى الذين يحملون شعار عميدهم أو سيدهم ، فيتحول الى هيئة من الخدم يرتدون الشعار الرسمى . فالشعار هو اذن على أحسن الفروض علامة على التبعية أو بالحرى على العبودية . وقد كان زى الخدم المسلحين دائما يكتسب صفة من الصفات المشرفة ، لكن هذا الطابع المشرف يختفى عندما يصبح الشعار هو الشارة التى تميز الخدم ، فيصير حينئذ مبغضا الى جميع الذين يراد منهم أن يحملوه . ونحن الى اليوم لم نبتعد عن مرحلة العبودية الفعالة الا قليلا ، مما يجعلنا نحس بكثير من الألم اذا رمينا بالعبودية . وهذه الكراهية تبدو بوضوح حتى فى حالة الأزياء الموحدة التى تتخذها بعض الهيئات زيا مميزا لموظفيها ، وفى هذه البلاد (يقصد الولايات المتحدة) تبلغ هذه الكراهية حدا يجعل الناس يستهجنون – بطريقة خفية غامضة – الوظائف الحكومية العسكرية والمدنية ، التى تتطلب ارتداء الملابس الرسمية .

وكلما اختفت العبودية يميل عدد المستهلكين التبعيين الذين يعيشون عالة على أى واحد من السادة ، يميل هذا العدد بصفة عامة الى الانخفاض . ومثل هذا القول يصدق بالطبع ، بل يصدق بدرجة أكبر ، على عدد الأتباع الذين يقومون نيابة عنه بالأعمال الترفية . وهذان الفريقان متلازمان بصفة عامة ، وان لم يكن تلازمهما تاما ولا مستديما . فالتابع الذى كانت هذه الواجبات توكل اليه فى بادىء الأمر كان الزوجة ، أو الزوجة ذات الحظوة . لكن عندما يبلغ هذا النظام مراحله التالية ، وعندما يقل بالتدريج عدد الخدم الذين يقومون عادة بهذه الأعمال ، تكون الزوجة آخر من يبقى من الأتباع ، وهذا طبعا هو ما ننتظر . وفى طبقات المجتمع العليا يوجد قدر كبير من هذا النوع من الخدمة يتطلب الأداء ، وهنا أيضا لا تزال الزوجة تحتاج فى عملها الى معونة عدد من الخدم ، قل أو كثر ، لكن اذا هبطنا السلم الاجتماعى فسرعان ما نبلغ درجة تعود عندها أعمال الفراغ والاستهلاك بالتبعية الى الزوجة وحدها . وهذه الدرجة موجودة اليوم بين أدنى فئات الطبقة الوسطى فى مجتمعات الثقافة الغربية .

وهنا تنقلب الأوضاع انقلابا عجيبا . فمن الحقائق المسلم بها عموما أنه لا يوجد بين أرباب العائلات من هذه الطبقة الوسطى الدنيا من يدعى أنه

يعيش حياة مترفة ، لأن ظروف الحياة قد عملت على اختفاء هذه الحياة المترفة ٠٠ لكن زوجة رجل الطبقة الوسطى لا تزال تؤدى الأعمال الترفية بالنيابة ، وذلك حفظا لسمعة رب البيت وأهل منزله • فاذا هبطنا السلم الاجتماعى فى أى مجتمع صناعى حديث وجدنا أن الحقيقة الأوليـــة ـ الحياة المترفة الواضحة التى يحياها رب الأسرة ـ تختفى عند وصولنا الى درجة عاليـــة نسبيا من درجات هذا السلم • فان رب الأسرة من الطبقة الوســطى قد أرغمته الظروف الاقتصادية ـ فى سبيل كسب العيش ـ على تأدية أعمال ذات طابع صناعى الى حد كبير ، كما يفعل رجل الأعمال فى الوقت الحاضر • لكن الحقيقة التى نستخلصها ـ الحياة المترفة والاستهلاك التبعيـــان اللذان تؤديهما الزوجة ، والأعمال الثانوية الأخرى التى يؤديها الخدم نيابة عنها ـ يستمر تمسك الناس بها كتقليد لا تسمح مستلزمات الوجاهة باغفاله • ومن الأمور الشائعة أن نرى رجلا ينكب على العمل بهمـــة لا تعرف الكلل لكى تستطيع زوجته أن تقوم بدلا منه بالأعمال المترفة التى تتطلبها روح العصر •

وأعمال الفراغ التى تقوم بها الزوجة فى مثل هـــذه الأحوال ليست بطبيعة الحال استعراضا بسيطا للتعطل أو الكسل ، فهى تحدث فى جميع الأحوال تقريبا متخفية فى شكل بعض الواجبات المنزلية أو المجاملات الاجتماعية التى تظهر عند امعان النظر فيها انها لا تهدف الى أى غرض غير الدلالة على أن الزوجة لاتشغل نفسها ، ولا هى بحاجة الى أن تشغل نفسها ، بأى عمل مربح أو ذى فائدة مادية • وقد سبق أن لاحظنا تحت عنوان آداب السلوك ، أن القدر الأكبر من الواجبات المنزلية العادية التى تكرس لهـــا زوجات الطبقة الوسطى وقتهن وجهودهن ، تتسم بهذا الطابع • وهذا لا يعنى أن اهتمامها بشئون البيت من حيث تزيينه وتنظيفه لا يرضى الرجال الذين نشأوا على آداب الطبقة الوسطى • لكن الذوق الذى يعجبه القيـــام بهذه الأعمال المنزلية من تزيين وتنسيق ، هو الذوق الذى تربى على هدى قانون من قوانين السلوك تعجبه نفس هذه الأعمال التى تشهد لصاحبتها بأنها تبذل جهودا ضائعة • هذه الواجبات المنزلية تهدف الى مزيج منـــاسب من النظام والجمال ، والى أغراض أخرى تدخل فى باب الجمال بكل ما يحمله هـــذا اللفظ من معنى • ولا ننكر أن فى الامكان أحيانا تحقيق الأهداف التى لهـــا بعض القيمة الجمالية الحقيقية • وكل ما نؤكده هنا ـ فيما يتعلق بكل مباهج الحياة هذه ـ أن جهود الزوجة تسير على هدى تقاليد شكلها قانون عرفى يمجد تضييع الوقت والمال بطريقة استعراضية وفى غير طائل • فاذا ماتحقق الجمال أو الراحة ـ وتحقيقهما يأتى نوعا ما بطريق الصـــدفة ـ فيجب تحقيقهما بوسائل وطرق يرتضيها القانون الاقتصادى الخاص بالجهـــود الضائعة • وأشهر ما تتزين به أسرات الطبقة الوسطى وأكثره وجاهة هو ـ من جهة ـ المواد التى تستهلكها بطريقة ظاهرة أمام الغير ، وهو ـ من

جهة أخرى – الأشياء التى تقوم دليلا على أعمـــال الفراغ التى تؤديهـــا الزوجة ٠

والحاجة الى الاستهلاك التبعى على يدى الزوجة تبقى فعالة حتى فى درجة من درجات السلم الثرائى أدنى من الدرجة التى تتوقف عندها الحـاجة الى الفراغ التبعى ٠ فعند درجة من درجات هذا السلم يقل بعدها أو ينعـدم تظاهر الزوجة ببذل جهود لا طائل تحتها ، من أعمـال النظافة الظـاهرية وما شاكلها ، ولا تبذل عندها جهدا على سبل التظاهر بالفراغ، عند هذه الدرجة لا يزال الوقار يقتضى الزوجة أن تتظاهر باستهلاك بعض السلع استهلاكا مظهريا فى سبيل سمعة أهل البيت وربه ٠ وبذا أصبحت الزوجة – نتيجة لهذا التطور النهائى لنظام قديم – هى المستهلك الظاهرى لما ينتجـه الرجل من سلع ، بعد أن كانت فى بادىء الأمر مملوكة له وخادما ، من الناحيـة العملية والنظرية على السواء ٠ لكنها لا تزال ، من الناحية النظرية ، مملوكة له بلا جدال ، لأن القيام التقليدى بأداء أعمال الفراغ والاستهلاك بالتبعية هى العلامة الباقية من علامات الخادم الحر ٠

هذا الاستهلاك بالنيـابة الذى تمارســـه عائلات الطبقتين الوسطى والدنيا لا يمكن أن يعبر تعبيرا مباشرا عن نظام حياة الطبقة المترفة ٠ لأن الأصح هو أن نظام حياة الطبقة المترفة هنا يظهر بشكل جديد ٠ فالطبقة المترفة تقف على رأس السلم الاجتماعى فيما يختص بعلو المقام ، ومن هنـا كانت طرق حياتها ومستويات القيم عندها هى المعيار الذى يقـاس به مركز الفرد فى المجتمع ٠ وعلى جميع طبقات المجتمع التى يقل مركزها الاجتماعى عن الطبقة العليا أن تراعى هذه المستويات الى حد ما ٠ وقد أصبحت الحدود التى تفصل بين الطبقات فى المجتمعات الحديثة المتحضرة غامضة متداخلة ، وأينما كان هذا ، امتد أثر مستويات الوجاهة التى تفرضها الطبقة العليا الى أدنى طبقات الكيان الاجتماعى ، دو أن يقف فى سبيلها عائق ٠ والذى يحدث حينئذ أن ينظر أفراد كل طبقة الى نظام حياة الطبقة التى تعلوها ، وكأنه المثل الأعلى للوجاهة ، فتبذل كل ما فى طاقتها كى تصل الى مستوى هذا المثل الأعلى ٠ وعليهم أن يخضعوا ، ولو ظاهريا ، للقانون الذى تعـارف الناس عليه ، حتى لو أدى فشلهم فى هذا الى تعريض سمعتهم وكرامتهـم للدمار ٠

والأساس الذى يرتكز عليه فى النهاية حسن السـمعة فى أى مجتمع صناعى منظم ، هو سلطان المال ٠ ووسيلة استعراض سلطان المال ، وبالتالى بلوغ حسن السمعة والمحافظة عليها ، هى الفراغ والاستهلاك الواضحان ٠ وعلى هذا كانت كلتا هاتين الوسيلتين من الوسائل المحببة الى الناس من أعلى درجات السلم الاجتماعى الى أدنى درجة تستطيع ممارستها ٠ وفى هـذه

الدرجة الأخيرة التى تستطاع عندها تلك الممارسة ، تترك هذه المهمة للزوجة والأطفال . فاذا هبطنا بعد ذلك الى درجة تصبح عندها ممارسة الزوجة لأى شكل من أشكال الفراغ ، ولو تظاهريا ، أمرا غير مستطاع ، فان الاستهلاك المظهرى الواضح للمال يبقى ، وتقوم به الزوجة والأطفال . وكذلك الرجل من أهل المنزل يستطيع القيام بنصيب فى هذا المجال ، وهو فعلا يفعل ذلك فى المعتاد . فاذا هبطنا أدنى من ذلك الى مستوى الفاقة والطبقات التى تسكن أقذر الأحياء ، وجدنا أن الرجل ، ويليه الأطفال مباشرة ، يتوقفون فعلا عن استهلاك شىء قيم فى سبيل التظاهر ، وتبقى المرأة هى الشخص الوحيد فعلا الذى تبدو فى مظهره آثار شىء من النعمة . وليس فى المجتمع طبقة ، حتى ولا أشدها فقرا ، تستغنى عن جميع أشكال الاستهلاك المظهرى المعتادة . ولا يستطيع الناس ، الا تحت ضغط الحاجة الشديدة ، أن يتنازلوا عن آخر مظهر من مظاهر هذا الاستهلاك ، وانهم ليتحملون كثيرا من المشقة ومن القذارة قبل أن يطرحوا جانبا كل أداة من أدوات الزينة أو آخر مظهر من مظاهر وجاهة الثراء . فليست هناك طبقة أو دولة تذل نفسها أمام الاحتياجات المادية الى حد يجعلها تستغنى كلية عن هذه الاحتياجات العليا أو الروحية .

من الاستعراض الذى أسلفنا لتطور الفراغ والاستهلاك الظاهرين ، يتضح أن جدوى كل منهما فى تحقيق الصيت تكمن فى عنصر الاسراف الذى يشترك كان فيه . فهو فى حالة أحدهما تبذير فى الوقت والجهد ، وفى حالة الآخر تبذير فى المال . فكلاهما وسيلة لاستعراض الثراء ، وكلاهما فى نظر العرف الدارج متساويان . فالمفاضلة بينهما مسألة مفاضلة بين وسائل الاعلان فقط ، الا بمقدار ما قد تتأثر هذه المفاضلة بمستويات أخرى للثراء نابعة من مصدر مختلف . وعلى أساس الفائدة التى يحققها الاعلان قد يقع اختيار المرء على احدى الوسيلتين المذكورتين أو الأخرى خلال مراحل التقدم الاقتصادى المختلفة . والسؤال هو : أى الوسيلتين أشد تأثيرا فى الأشخاص الذين يراد لها أن تؤثر فيهم ؟ ان العرف كان دائما يجيب اجابات مختلفة فى الظروف المختلفة .

وطالما بقى المجتمع من الصغر والتماسك بحيث يتأثر بذيوع الصيت وحده ــ أى طالما كانت البيئة الانسانية التى يريد الفرد أن يوائم نفسه معها تقع فى دائرة معارفه الشخصية ودائرة الثرثرة التى يتناقلها الجيران ــ طالما كان هذا فان احدى الوسيلتين لا تقل أثرا عن الأخرى . فكلتاهما تخدم الغرض بنفس الدرجة خلال مراحل التطور الاجتماعى الأولى . لكن بعد أن يبلغ التمييز بين الطبقات مرحلة أعلى، ويصبح من الضرورى أن يذيع صيت

المرء فى بيئة انسانية أوسع ، يبدأ الاستهلاك (بصفته عاملا من عوامل الشهرة) فى التفوق على الفراغ كوسيلة عادية من وسائل حسن الاحدوثة . وهذا يصدق بصفة خاصة خلال المرحلة الاقتصادية السلمية الحديثة . فان وسائل المواصلات وتنقلات السكان فى الوقت الحاضر تعرض الفرد لأنظار عدد كبير من الناس لا يملكون وسيلة يحكمون بها على مركزه (وربما أيضا على حسن نشأته) غير استعراض ثروته التى يستطيع أن يعرضها حين يكون تحت أبصارهم مباشرة .

والتنظيم الصناعى الحديث يعمل فى نفس الاتجاه كذلك ، لكن بطريق آخر . فان ضرورات نظام الصناعة الحديثة كثيرا ما تجمع بين أفراد أسرات ليس بينهم أى اختلاط سوى ما يقتضيه وجودهم فى مسكن واحد . فجيران المرء ليسوا فى الغالب جيرانه من الناحية الاجتماعية ، بل قد لا يكونون حتى من معارفه . ومع ذلك فانه يقيم وزنا لحسن رأيهم فيه ، مع ان هذا الراى لا يزيد عن أن يكون عارضا . والوسيلة العملية الوحيدة التى يستطيع بها المرء أن يؤكد مقدرته المالية لهؤلاء الأشخاص الذين يشهدون حياته اليومية ولا يحسون بها ، هى استعراض قدرته على الشراء استعراضا لا يعرف الكلل . وفى المجتمعات الحديثة كثيرا ما يغشى الناس اجتماعات كبيرة يحضرها أقوام لا يعرفون عن حياة المرء اليومية شيئا ، ومن هذه الأماكن الكنائس والمسارح والمراقص والفنادق والمنتزهات والمتاجر وغيرها . ولكى يترك المرء فى هؤلاء المشاهدين العرضيين أثرا حسنا ويحتفظ بدمائته دائما أمام أعينهم ، يجب أن يترك ثراؤه طابعه بأحرف بارزة بحيث تلفت أنظار من يمر بها . فمن الواضح اذن أن التقدم الحديث يتجه الى زيادة أهمية الاستهلاك الظاهر على أهمية حياة الفراغ (كمظهر من مظاهر الوجاهة) .

ومن الملاحظ أيضا أن فائدة الاستهلاك الظاهرى كوسيلة من وسائل الصيت ، وكذلك فائدة الاحتفاظ به كعامل من عوامل الوجاهة ، تبلغ ذروتها فى طبقات المجتمع التى تكون فيها اتصالات الأفراد الشخصية على أوسعها ، وتنقلات السكان فيها على أشدها . والاستهلاك الظاهرى يستنفد من دخل ساكن المدن قدرا أكبر مما يستنفد من دخل ساكن الريف ، كما أنه أكثر حتمية فى المدن منه فى الريف . وينتج عن ذلك أن أولهما أشد من الثانى اعتمادا فى حياته على دخل يومه ، لكى يستطيع الاحتفاظ بمظهر مقبول . من هذا مثلا أن المزارع الأمريكى وزوجته وبناته أقل اتباعا لأحدث الأزياء فى ملابسهم وأقل « مدنية » فى سلوكهم من عائلة الصانع الذى يعيش فى المدينة ويتساوى دخله ودخل المزارع . وهذا لا يرجع الى أن سكان المدينة أكثر بطبيعتهم شغفا بالسرور العظيم الذى يبعث عليه الاستهلاك الظاهرى

للمال ، ولا الى أن سكان الريف أقل مراعاة لما يضفيه الثراء على صاحبه من الجاه • لكن تأثير هذا النوع من الدلالات التى تشهد للمرء بالثراء ، وكذا سرعة انتشار أثره من شخص الى شخص ، مؤكدان فى المدن أكثر مما هما فى الريف، وبذا يصبح المرء فى حاجة الى مواءمة نفسه مع هـــذا المستوى العالى المتعارف عليه • فمستوى الوجاهة فى المدينة أعلى ، اذا قارنا طبقة بالطبقة المساوية لها . ولذا كان على الانسان أن يشبع حاجته الى الوجاهة ولو اقتضاه ذلك أن يعيش على مستوى أقل من مستوى طبقته •

والاستهلاك عنصر محدد لمستوى المعيشة تزيد أهميته فى المدينة عنها فى الريف • فعند سكان الريف يفعل الادخار الى حد ما فعل الاستهلاك ، كما تفعل فعله أيضا وسائل الراحة المنزلية التى يذيع صيتها على ألسن الجيران الى حد يؤدى الغرض العام من الاستهلاك ، وهو أن يشـتهر المرء بالثراء • ووسائل الراحة المنزلية هذه ، وأعمال الراحة التى ينغمس فيها المرء - حيث يوجد انغماس - هما أيضا يدخلان ضمن عناصر الاستهلاك الظاهرى ، وكذلك يقال نفس الشيء عن الادخار • فالقدر القليل من المدخرات الذى تضعه طبقة الصناع جانبا ، لا شك يرجع الى حدما الى أن المدخرات فى حالة الصانع وسيلة أقل فعالية فى الاعلان عن مركزه بالنسبة الى البيئة التى يعيش فيها ، من مدخرات الشخص الذى يعيش فى المزرعـــة أو فى العزبة الصغيرة • فأحوال كل واحد من هؤلاء الأخيرين ، وبالأخص مستوى كل واحد من الناحية المالية ، معروفة لكل شخص آخـر • وهذه الاثـارة الاضافية التى تتعرض لها طبقة الصناع والزراع ، اذا نظرنا اليها على حدة - واذا نظرنا اليها فى بدايتها - قد لا تقلل من مقدار المدخرات تقليلا خطيرا، ولكن الآثار الناجمة عن تجمعها والتى تحدث عن طريق زيادة مستوى الانفاق وما ينتج عن هذا من الحيلولة دون الاتجـاه الى الادخار ، لا يمكن الا أن تكون كبيرة •

ومن الأمثلة الموضحة للطريقة التى يفعل بها قانون حسن السـمعة هذا فعله ، ما يحدث عندما يدعو بعض الأصدقاء بعضا الى الشراب والتدخين فى المحال العامة ، وهو أمر معتاد بين العمال والصناع فى المدن وبين الطبقة الوسطى والدنيامن الريفيين عامة • وفى وسعنا أن نذكرعمال طباعة الصحف كطبقة يحتل هذا النوع من الاستهلاك الظاهرى مكانة محببة الى نفوسـهم ، وله بينهم آثار معينة متميزة ، كثيرا ما نستهجنها • والعادات الغريبة التى تتميز بها هذه الطبقة ، فى هذا المجال ، تنسب بصـفة عامة الى نوع خاص غامض من الانحطاط الخلقى الذى يلصق بها ، أو ترجع الى أثر خلقى سيىء تتركه مهنتهم ، بطريقة غير محققة ، فيمن يمتهنونهـا • ويمكن أن نلخص أحوال الرجال العاملين فى حجرات التحرير والطبع فى دور الطباعة كما يلى :

فالمهارة التي يكتسبها العامل فى أية دار من دور الطبع أو أية مدينة ، من السهل أن تؤهله للعمل فى أية دار أو أية مدينة أخرى ، أو بمعنى آخر ان الدافع الناتج من أى تمرس خاص دافع بسيط . وهذه المهنة أيضا تحتاج الى أكثر من الذكاء المتوسط والمعلومات العادية . ولذا فان العاملين فيها هم عادة أكثر من غيرهم استعدادا للاستفادة من أى تغير طفيف فى درجة الحاجة اليهم من مكان الى مكان . ومن هنا كان الرباط الذى يربطهم بموطنهم ضعيفا . والأجور التى يتقاضاها العاملون فى هذه المهنة هى فى نفس الوقت أجور عالية بدرجة تجعل الانتقال من مكان الى مكان أمرا سهلا نسبيا . ونتيجة ذلك حركة كبيرة بين العمال المشتغلين بالطباعة ، بل قد تكون أكبر منها بين أية مجموعة من العمال تماثلها تحديدا وكثرة عدد . هؤلاء العمال يتعرفون دائما بمجموعات جديدة من الناس ، والعلاقات التى يخلقونها معهم علاقات عارضة ومؤقتة ، ولكنهم رغم ذلك يقيمون وزنا لرأى هؤلاء المعارف فيهم ، ولو مؤقتا . ومن هنا يدعوهم الميل الغريزى الى الظهور ، تعززه عواطف الزمالة الحلوة ، الى الانفاق عن سعة فى هذه الوجوه التى تخدم اغراضهم أتم خدمة . وهنا أيضا ـ كما هى الحال فى سائر المجالات ـ سرعان ما تصبح العادة تقليدا ساريا حالما تنال الاستحسان العام ، وبهذا تصبح جزءا من المقياس العام لأدب السلوك . والخطوة التالية هى جعل مقياس أدب السلوك هذا خطوة جديدة للتقدم فى نفس الاتجاه ، اذ لا قيمة لأن يلائم الفرد ملاءمة بسيطة لا روح فيها بين نفسه وبين مستوى من مستويات التبذير يستطيع كل من يعمل فى هذه الصناعة أن يبلغه بطريقة آلية .

من أجل هذا يمكن أن نرجع زيادة انتشار التبذير بين عمال الطباعة بدرجة تفوق انتشاره بين غيرهم من العمال ، يمكن أن نرجع هذا ـ الى حد ما على الأقل ـ الى زيادة سهولة التنقل من مكان الى آخر ، والى ما يصحب هذه المهنة من طابع التغير فى دائرة الأفراد الذين يعرفهم العامل ويتصل بهم . غير أن الدافع الأساسى لهذه الحاجة القصوى الى التبذير لا يخرج آخر الأمر عن أن يكون الرغبة فى اظهار النفوذ والمركز المالى ، الذى يدفع مالك الأرض الفرنسى الى الشح والتقتير ، ويغرى المليونير الأمريكى بتأسيس الكليات والمستشفيات والمتاحف ، فلو أن قانون الاستهلاك البين لم يتعرض لأى طارىء خارجى من خصائص الطبيعة البشرية يغير مجراه تغييرا كبيرا لكان من المستحيل منطقيا على من هم فى مثل ظروف طبقة أرباب الحرف والعمال الذين يعيشون اليوم فى المدن ، أن يدخروا شيئا من المال مهما كانت أجورهم أو دخولهم عالية .

لكن هناك مستويات أخرى لحسن الأحدوثة ، وقوانين أخرى لآداب السلوك يرغم الناس على التزامها بدرجة كبيرة أو صغيرة ، الى جانب

مستويات الثروة واستعراضها ، يتدخل بعضها لتأكيد القانون العام الأساسي الخاص بالتبذير البين ، أو لتحديده · فاذا نظرنا نظرة بسيطة الى أعمال الفراغ والى الاستهلاك البين لنعرف أيهما أقوى أثرا فى الاعلان عن مركز الفرد ، فمن المتوقع أن نجدهما فى مبدأ الأمر يقتسمان مجال التنافس على جمع المال · والمتوقع بعد ذلك أن تتضاءل أهمية الفراغ تدريجا فيسير الى الزوال كلما سار التقدم الاقتصادى وزاد عدد أفراد المجتمع ، وفى نفس الوقت تزيد أهمية الاستهلاك البين للسلع زيادة مطلقة وزيادة نسبية معا ، الى ان يمتص الانتاج جميعه ولا يبقى على شيء منه الا ما يكفى لمجرد البقاء. لكن الطريق الفعلى الذى سارت فيه خطى التقدم كان يختلف بعض الشيء عن هذا النظام المثالى · فان أعمال الفراغ كانت فى مبدأ الأمر تحتل المكان الأول ، وكان لها مركز يعلو كثيرا على مركز الاستهلاك التبديدى للسلع ، سواء من حيث كونها استعراضا مباشرا للثروة أو من حيث كونها عنصرا تقاس به آداب السلوك ، خلال طور الثقافة ذات المظهر السلمى · ومنذ تلك المرحلة وما تلاها ثبت الاستهلاك أقدامه حتى أصبح الآن يحتل المكانة الأولى بغير منازع ، رغم أنه لا يزال بعيدا عن أن يمتص كل انتاج يزيد على الحد الأدنى اللازم للبقاء ·

وتبوؤ أعمال الفراغ مركزها كوسيلة من وسائل الشهرة فى مرحلة ثقافية مبكرة يمكن اقتفاء أثره الى العهود الأولى التى كان الناس فيها يفرقون بين العمل الشريف والعمل الحقير · فأعمال الفراغ أعمال شريفة ، وهى من علامات الجاه لأنها تعفى من أداء الأعمال الحقيرة ، والتفريق القديم بين الطبقات الشريفة والطبقات الوضيعة قائم على تمييز تحاسدى بين المهن يقسمها الى رفيع ووضيع ، وهذا التمييز التقليدى يكبر ، خلال المراحل الاولى ذات المظهر السلمى ، حتى يصبح قانونا نافذا من قوانين السلوك · ويساعد على انتشاره أن الفراغ لا يزال دليلا على الثراء لا يقل فى دلالته عن الاستهلاك · والحقيقة أن أثره فى البيئات البشرية ذات العدد القليل ، والاستقرار النسبى التى يعيش فيها الأفراد خلال هذه المرحلة ، الحقيقة أن أثره فى هذه المرحلة فعال الى حد انه يعمل - بمساعدة التقليد القديم الذى يحط من قدر كل عمل منتج - على خلق طبقة كبيرة العدد من المترفين المعدمين ، بل انه يميل الى الحد من جهود المجتمع فى سبيل الانتاج فتقف عند الحد الأدنى اللازم لمجرد البقاء · والمجتمع يتجنب آثار هذا التحريم المطاق للانتاج ، لأن الرقيق الذى يعمل تحت ضغط الاكراه أكثر مما يعمل حبا فى اكتساب الجاه ، يرغم على انتاج محصول يزيد على المستوى الأدنى الذى تنتجه الطبقة العاملة وما ينتج عن ذلك من انخفاض نسبى فى أعمال الفراغ البين بصفتها أساسا يقوم عليه تقدير الناس ، يرجع بعضه الى الأثر

النسبي المتزايد للاستهلاك كمظهر للثروة ، ولكن من الممكن أيضا أن نرجعه الى عامل آخر خارجي ، بل مناقض الى حد ما لعادة التبذير البين .

هذا العامل الخارجي هو غريزة حب الاتقان . فهذه الغريزة ، اذا ساعدتها الظروف الأخرى ، تدفع الرجال الى النظر بعين الرضا الى الكفاية فى الانتاج والى كل ما ينفع الانسان ، وتدفعهم الى استهجان تبديد السلع أو الجهد . وغريزة حب الاتقان موجودة لدى جميع الرجال ، وتبرز حتى فى ظروف غير ملائمة على الاطلاق ، ولدرجة أنه مهما كان استهلاك أية سلعة من السلع بادى التبذير فى الواقع فلا بد على الأقل من حجة براقة تحاول أن تجعل له هدفا ظاهرا . وقد أشرنا فى فصل سابق الى الطريقة التى تتحول بها هذه الغريزة - فى ظروف معينة - الى رغبة فى الاستغلال والى تقسيم تحاسدى للطبقات الى راقية ووضيعة . أما فيما يختص بتعارضها وقانون التبذير البين ، فان غريزة حب الاتقان تنعكس فى الرغبة فى أداء الأعمال ذات المنفعة الأساسية ، بقدر ما تنعكس فى شعور دائم باستهجان كل ما هو عديم الجدوى واستحالته من الناحية الجمالية . ولما كانت هذه الغريزة بطبيعتها تشبه الحب الغريزى فان هديها يمس - أولا وبطريقة مباشرة - كل انتهاك لمقتضياتها . وهى لا تصل الى نقص حاجاتها الأساسية الا بدرجة أقل تأثيرا ، وبقدرة أقل فاعلية ، وهو أمر لا يمكن تقديره الا بعد تفكير طويل .

وطالما كان الأرقاء وحدهم هم الذين يؤدون جميع الأعمال ، فان الناس ينظرون دائما بعين الاحتقار الى كل جهد مثمر وينفرون منه الى درجة تعوق غريزة حب الاتقان عن أن تؤتى ثمارها من ناحية الاتقان ، لكن بعد أن تنتهى مرحلة الثقافة ذات المظهر السلمي (بما فيها من رق ومن تفريق فى المراكز الاجتماعية) وتأتى بعدها مرحلة الصناعة السلمية (وما يصحبها من عمال مأجورين يتناولون أجورهم نقدا) تبدأ هذه الغريزة فى أداء دورها بكفاية أتم ، فتبدأ حينئذ فى فرض نفسها على تفكير الرجال ونظرتهم الى كل شيء قيم ، وتفرض نفسها على الأقل بصفتها قانونا اضافيا من قوانين الرضاء النفسى . فاذا تركنا جميع الاعتبارات الخارجية جانبا ، وجدنا أن جميع الأشخاص (البالغين) الذين لا تنطوى نفوسهم على ميل الى تحقيق هدف معين ، أو الذين لا تدفعهم أنفسهم الى تشكيل مادة أو حقيقة أو علاقة تستفيد منها البشرية . هؤلاء الأشخاص جميعا لا يعدون أن يكونوا أقلية صائرة الى الزوال . وهذا الميل قد يطغى عليه الدافع القوى الى حب الشهرة عن طريق أعمال الفراغ وتجنب الأعمال المفيدة المعيبة ، وهى لهذا قد تعبر عن نفسها بأعمال مظهرية فقط ، كما هى الحال مثلا فى « الواجبات الاجتماعية » وفى الأعمال ذات المظهر الفنى أو العلمى ، وفى الاهتمام بشئون

المنزل وزخرفته وحياكة الملابس أو اصلاحها ، وفى حسن اختيار الهندام أو لعب الورق أو النزهة فى اليخوت أو لعب الجولف وغيره من الوان الرياضة. لكن كونها قد تنتهى - تحت ضغط الظروف - الى نوع من الفراغ التافه لا يقوم دليلا على انتفاء الغريزة الا بقدر ما يقوم اغراء الدجاجه باحتضان عدد من الكرات الخزفية دليلا على انتفاء غريزة الحضانة لدى الدجاج ٠

والذى يحدث فى الوقت الحاضر من محاولات يائسة للوصول الى نوع من النشاط الهادف يكون فى نفس الوقت بعيدا عن الانتاج المعيب الذى يتمخض عن أية منفعة للفرد او للمجموع ، هذا الذى يحدث يقوم دليلا على الفرق بين اتجاهات الطبقة المترفة الحديثة والطبقة المترفة التى كانت تعيش خلال المرحلة الثقافية ذات المظهر السلمى ٠ ففى المرحلة القديمة كانت سيادة نظام الرق والتمييز الاجتماعى - كما ذكرنا فيما سبق - تعمل بغير هوادة على عرقلة كل جهد يوجه الى أى غرض غير أعمال السلب الساذجة ، وكان لا يزال من الممكن ايجاد نوع من العمل يوجه اليه ميل الناس الى النشاط ، عن طريق العدوان الاضطرارى على الجماعات المعادية ومقاومتها ، او تحريضهم على الطبقات المستعبدة فى مجتمعهم ذاته ، وقد أفاد هذا فى تخفيف ضغط الطبقة المترفة وتحويل نشاطها بغير حاجة الى أداء عمل نافع فعلا أو حتى عمل نافع فى مظهره فقط ٠ وقد كانت مزاولة الصيد تؤدى نفس الغرض الى حد ما ٠ فلما تطورت الجماعة الى نظام صناعى سلمى ، ولما زادت فرص استغلال الناس للأراضى وقلت فرص الصيد فلم يبق منه الابقايا تافهة ، كان على الطاقة التى تبحث عن عمل هادف أن تجد لها متنفسا فى اتجاه آخر ٠ ومع اختفاء أعمال السخرة بدأت حدة الخجل الذى يستشعره الناس من بذل الجهود المثمرة فى الزوال ، وحينئذ بدأت غريزة حب الاتقان تثبت وجودها بدرجة زائدة من الصلابة والاصرار ٠

ولقد تغير « خط المقاومة الدنيا » بعض التغير ، وأصبحت الطاقة ، التى كانت فيما مضى تنفس عن نفسها عن طريق العدوان ، تتجه أحيانا الى اغراض تبدو فى ظاهرها مفيدة ، وأصبح الفراغ البين الذى لا هدف له امرا معيبا ، وبخاصة فى ذلك القسم من طبقة المترفين الذى تجعله أنسابه الشعبية يخالف تقاليد الطبقة المترفة ذات الأصل العريق ٠ لكن قانون « الوجاهة » الذى يستهجن كل عمل ينطوى على بذل جهد مثمر لا يزال قائما ولا يسمح بأداء أى عمل مفيد أو منتج ٠ والنتيجة أن تغيرا قد طرأ على أعمال الفراغ التى تزاولها الطبقة المترفة ، لكنه تغير شكلى أكثر منه حقيقيا، وتم التوفيق بين المقتضيات المتعارضة عن طريق التظاهر ، وظهر كثير من الآداب والواجبات الاجتماعية الدقيقة التى اتخذت طابع الرسميات ، وقامت كثير من الهيئات التى رسمت لنفسها أهدافا اصلاحية تبدو من خلال نظمها

الرسمية ومن أسمائها ، كما ظهر كثير من النشاط ومن الأقوال التى يستشف منها أن المتكلمين قد لا يكون لديهم من الوقت ما يسمح لهم بالتفكير فى قيمة عملهم من الناحية الاقتصادية ، وهذا التظاهر بأداء عمل هادف يصاحبه ويمتزج به عادة ـ ان لم يكن دائما ـ عنصر النشاط الهادف الذى يتجه نحو بعض الأغراض الجدية .

وهناك تغير مماثل حدث فى الدائرة الضيقة للأعمال المريحة (بالنيابة) فبدلا من الاقتصار على قضاء الوقت فى تعطل ظاهر ، كما كان يحدث فى عصور الحكم الأبوى الزاهرة ، نجد ربة البيت ، أثناء الأطوار السلمية المتقدمة ، تخصص وقتها للاهتمام بشئون البيت . وقد سبق أن تكلمنا عن المظاهر البارزة لهذا التطور فى الخدمة المنزلية .

وقد كان من المعلوم الواضح ـ خلال مرحلة تطور التبذير البين جميعها، سواء كان تبذيرا فى السلع او فى الخدمات أو فى الحياة البشرية ـ انه يجب ، من أجل المحافظة على حسن سمعة المستهلك ، أن يكون الاستهلاك لسلع كمالية ، لأن الاستهلاك يجب أن يكون تبديدا لكى يحافظ على حسن سمعة المستهلك . فلا قيمة لاستهلاك يقتصر على ضرورات الحياة ، الا حين مقارنته بما يستهلكه أولو الفقر المدقع الذين يعجزون حتى عن بلوغ المستوى الأدنى اللازم للبقاء . ولا يمكن أن ينتج عن مثل هذه المقارنة أى مستوى من مستويات الانفاق الا أتعس مستويات الاعتدال وأقبحها . ولا يزال فى الامكان تحديد مستوى معيشى يسمح بالمقارنة التحاسدية فى أمور أخرى غير الثراء. من ذلك على سبيل المثال المقارنة بين مظاهر الرقى الخلقى أو الجسمى أو العقلى أو الجمالى . والمقارنة فى هذه الوجوه جميعا أمر شائع فى الوقت الحاضر ، وهى عادة ترتبط بالمقارنة فى النواحى المالية ارتباطا يجعل من العسير التفريق بينها وبين هذه النواحى الأخيرة . وهذا يصدق بصفة خاصة فيما يتعلق بالتعبيرات السائدة عن الرقى أو الجمال ، حتى اننا غالبا ما نفهم فروقا على أنها جمالية أو عقلية ، بينما تكون فى حقيقتها فروقا مالية ليس الا .

واختيار لفظ « تبديد » هو اختيار يخطئه التوفيق من ناحية واحدة. فهذه الكلمة ، كما نستعملها فى حياتنا اليومية ، تنطوى على معنى من معانى الاستهجان . لكننا نستعملها هنا لعجزنا عن استعمال لفظ آخر يستطيع أن يعبر عن نفس المجموعة من العوامل ومن الظواهر ، ولا يجب أن نحمله على المحمل البغيض فنظنه ينطوى على تبديد غير مشروع للانتاج البشرى او الحياة البشرية . والتبديد الذى نتكلم عنه هو ، من حيث النظرية الاقتصادية ، تبديد لا يزيد فى مشروعيته ولا يقل عن أى نوع آخر من التبديد . ونحن هنا نسميه « تبديدا » لأن انفاقه لا يخدم الحياة الانسانية

ولا المصالح الانسانية بصفة عامة ، لا لأنه اهدار الجهد أو الانفاق أو سوء توجيههما كما يبدو من وجهة نظر المستهلك الفرد الذى يرضى بهذا التبديد. فهو اذا ارتضاه أغنانا عن التساؤل عن فائدته النسبية له اذا قارنا بينه وبين مظاهر الاستهلاك الأخرى التى لا نستهجنها لأنها تنطوى على التبديد . ومهما كان شكل الاستهلاك الذى يتخيره المستهلك ، ومهما كان الغرض الذى يرمى اليه من هذا الاختيار ، فانه يفيده لأنه تم بمحض اختياره . أما من وجهة نظر المستهلك الفرد فان مشكلة التبديد لا تظهر فى نطاق النظرية الاقتصادية ذاتها . وعلى ذلك فان استخدام لفظ « تبديد » على أنه مصطلح فنى ، لا ينطوى على استهجان للدوافع أو للأهداف التى يرمى اليها المستهلك، بمقتضى هذا القانون من قوانين التبديد البين .

لكن يجدر — على أسس أخرى — أن نذكر ان لفظ « تبديد » كما نستعمله فى حياتنا اليومية ، يوحى باستهجان اى عمل ذى طابع اتلافى . وهذا المعنى الذى يفهم بمقتضى العرف العام هو فى ذاته نابع من غريزة حب الاتقان . والاستهجان العام للتبديد معناه أن الرجل العادى لا بد — اذا أراد تحقيق الرضاء النفسانى — أن يرى فى كل جهد بشرى وفى كل متعة بشرية سموا بالحياة وبالرفاهية على وجه العموم . ولا بد لكل حقيقة اقتصادية — لكى تحظى بالموافقة الاجماعية — أن تكون لها منافع غير شخصية — منافع من وجهة النظر الانسانية الشاملة . فالمزايا النسبية أو التنافسية لفرد ما بالنسبة الى غيره لا ترضى الضمير الاقتصادى ، ومن أجل هذا لا يستطيع الانفاق التنافسى أن ينال موافقة هذا الضمير .

ولو أننا توخينا الدقة التامة لما كان هناك شىء يستحق أن يوصف بأنه «تبديد بين» الا الانفاق الذى على أسس من التفخر المالى التحاسدى. لكن ليس من الضرورى أن يعتبر التبديد تبديدا بهذا المعنى فى نظر الشخص الذى يتم على يديه الانفاق ، لكى تنطبق عليه هذه التسمية. فكثيرا مايحدث أن عنصرا من عناصر مستوى المعيشة يكون قد نشأ أول الأمر على أنه تبديد من أساسه ، ثم ينتهى به الأمر أن يصبح — فى رأى المستهلك — ضرورة من ضرورات الحياة ، وربما أصبح بهذه الطريقة لازما للمستهلك لزوم أى عنصر آخر من عناصر الانفاق الضرورية . ويمكننا أن نذكر ضمن هذه العناصر التى تدخل أحيانا فى هذا الباب فتصلح بذلك مثلا على الطريقة التى ينطبق عليها هذا المبدأ ، السجاجيد والبسط وأدوات المائدة المصنوعة من الفضة والخدمات التى يؤديها خدم المائدة والقبعات المصنوعة من الحرير والملابس المنشاة وكثيرا من المجوهرات والملابس . على أن لزوم هذه الأشياء لأى شخص بعد أن يعتادها لا يقوم حجة تبرر نعت نوع معين من الانفاق بأنه تبديد أو غير تبديد بالمعنى الفنى للكلمة . فالاختيار الذى يجب أن يخضع

له كل نوع من أنواع الانفاق قبل تقرير هـــذا الأمر هو ما اذا كان يؤدى مباشرة الى رفاهية الحياة البشرية ـ أى ما اذا كان يساعد على تقدم عملية الحياة من زاوية غير شخصية ، لأن هذا هو أساس الحكم النهائى على غريزة حب الاتقان ، وهذه الغريزة هى محكمة الاستئناف النهائية فى أية مسألة تتعلق بالواقع الاقتصادى أو الكفاية الاقتصـادية • وهو أمر يتعلق بالحكم النهائى الذى يصدر عن ذوق عام نزيه • فليست المسالة اذن هى ما اذا كان نوع معين من الانفاق يبعث ـ فى ظل الظروف السائدة المتعلقة بعادات الفرد والتقاليد الاجتماعية ـ على رضاء المستهلك ذاته أو على اطمئنـانه ، بل هى ما اذا كانت نتيجتها ، بصرف النظر عن الذوق المكتسب وعن قوانين السلوك والآداب التقليدية ، توفر مزيدا من الراحة ومن متع الحياة • فالانفـــاق التقليدى يجب أن يدخل فى باب « التبديد » ما دامت التقاليد التى يستند اليها ترجع فى أساسها الى عادة المفاضلة المالية التحاسدية ـ طالما كان الناس يدركون أنها لم تكن لتصبح عادة لازمة لو لم تستند الى هذا المبدأ من مبادىء الجاه القائم على الثراء أو على النجاح الاقتصادى النسبى •

وواضح أنه ليس من الضرورى أن يكون أى شكل بالذات من أشكال الانفاق تبديدا محضا حتى يدخل فى باب الاتلاف البين • فقد تكون سلعة من السلع مفيدة وتبديدية معا ، وقد تكون منفعتها للمستهلك نابعـــة من الاستهلاك والتبديد بنسـب غاية فى التبـــاين • وكثيرا ما يقترن هذان العنصران فى السلع الاستهلاكية ، بل والسلع الانتاجية ، وعليهما يقوم نفعها، مع أن عنصر التبديد ، بصفة عامة ، يميل الى الغلبة فى المواد الاستهلاكية ، بينما العكس هو الصحيح فى حالة المواد المخصصة للانتـــاج • بل ان من الممكن دائما ـ حتى فى الحالات التى تبدو لأول وهلة أنها لا تجدى الا فى التظاهر المحض ـ أن نستشف وجود بعض الأغراض النافعـــة منها ، ولو ظاهريا على الأقل • ومن جهة أخرى نرى أن آثار التبديد الواضح ، أو على الأقل آثار عادة التظاهر ، تبدو فى العادة واضحة عندما ننعم النظر اليها ، حتى فيما يتعلق بالآلات والعدد الخاصة التى أعدت لعمليات صناعية معينة ، كما تبدو واضحة فى أحط أنواع الصناعات البشرية • وربما كان من قبيل المجازفة أن نؤكد أن استخدام أية سلعة أو الانتفاع بأية خدمة ـ مهما بدا ان غرضها الأساسى وعنصرها الرئيسى هو التبـديد الواضح ـ لا ينطوى على أية منفعة اطلاقا • وربما كانت المجازفة أقل اذا قلنا عن أية سلعة ذات منفعة أساسية أن عنصر التبديد فيها لا علاقة له بقيمتها اطلاقا ، سواء كانت العلاقة مباشرة أو بعيدة •

الفصل الخامس
مستوى المعيشة المالى

ان الأغلبية العظمى من الناس فى أى مجتمع حديث لا تصدر ـ حين تنفق ما يزيد على الحد الضرورى لتحقيق الراحة المادية ـ عن محاولة للتبذير فى الاستهلاك الظاهرى ، بقدر ما تصدر عن رغبة فى أن تصل الى مستوى الوجاهة التقليدى وتحافظ عليه ، سواء بالنسبة لمقدار البضائع المستهلكة أو لنوعها . وهذا المستوى الذى يحرك هذه الرغبة ليس جامدا لا يتغير ، ولا يعمل الانسان للوصول اليه دون أن يوجد بعده مجال للاستزادة . فهذا المستوى مرن ، ولا سيما انه قابل للامتداد بغير حدود لو أتيح الوقت للتعود على أية زيادة فى المقدرة المالية وعلى اكتساب المران على مستوى الانفاق العالى الجديد الذى يلى هذه الزيادة . والانحطاط من مستوى انفاقى بعد أن نعتاده أصعب بكثير من الارتفاع بمستوى الانفاق استجابة لزيادة الثراء . فكثير من وجوه الانفاق المعتادة تتضح عند التحليل انها محض تبذير ، وبذلك لا تزيد على أن تكون شرفية ، لكنها بعد أن تندمج فى مستوى الاستهلاك المناسب وتكون بذلك قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من نظام حياة الانسان ، فان التخلى عنها لا يقل صعوبة عن التخلى عن أى وجه من وجوه الانفاق التى تعمل مباشرة على توفير الراحة المادية ، بل عن أى وجه قد يكون ضروريا لحفظ الحياة أو الصحة . وهذا يعنى أن الانفاق الذى يتصف بالرغبة فى حب الظهور أو التبذير أو الرغبة فى كسب الشرف ، والذى يوفر السعادة الروحية ، قد يصبح الاستغناء عنه أصعب من الاستغناء عن كثير من وجوه الانفاق التى توفر الاحتياجات الدنيا اللازمة للرخاء المادى أو لمجرد البقاء . ومن المعروف أن النزول من مستوى معيشى عال لا يقل صعوبة عن النزول من مستوى معيشى منخفض نسبيا . على أن الصعوبة فى الحالة الأولى صعوبة معنوية ، بينما هى فى الثانية قد تنطوى على انقاص للراحة المادية فى الحياة .

لكن بينما نرى التراجع صعبا ، نرى أن العودة الى مستوى انفاقى عال سهلة نسبيا ، بل الواقع أنها تتم كما لو كانت أمرا طبيعيا . وفى الحالات النادرة التى يحدث فيها أن يتخلف المرء عن زيادة استهلاكه الظاهر عندما

تتوفر له امكانيات هذه الزيادة ، فان ذلك يصبح أمرا يحتاج فى نظر الناس الى تفسير ، فاذا عجز عن التفسير فقد يعزى الى دوافع الشح غير اللائقة ، بينما ينظر الناس الى الاستجابة السريعة للانفاق عند ما تتوفر امكانياته على انها النتيجة الطبيعية . وهذا يدل على مستوى الانفاق الذى تسير خطانا عادة على هديه ليس هو متوسط المستوى العادى الذى بلغناه ، بل هو المستوى المثالى الذى لا نكاد نبلغه ، أو الذى لا نبلغه الا ببذل بعض الجهد . والباعث هو التنافس — أى المفاضلة التحاسدية التى تدفعنا الى أن نبز أولئك الناس الذين تعودنا أن نضع أنفسنا واياهم فى طبقة واحدة . والواقع أن نفس هذا الرأى ينطق به القول المشهور ، وهو أن كل طبقة تحسد الطبقة التالية لها فى السلم الاجتماعى مباشرة وتنافسها ، بينما يندر أن تقارن نفسها بالطبقات الأقل منها أو التى تسبقها بكثير . وهذا معناه ، بتعبير آخر ، ان المستوى اللائق فى الانفاق — كما هو فى اهداف التنافس الاخرى — يقرره ما تسير عليه الطبقة التى تعلونا فى المركز مباشرة . وهكذا ، وبهذه الطريقة يمكننا أن نتبع جميع قواعد النبل والوجاهة وجميع مستويات الاستهلاك — لا سيما فى أى مجتمع تكون فوارق الطبقات فيه غامضة نوعا ما — فنجدها تتدرج تدرجا غير محسوس من طرائق تفكير أعلى الطبقات الاجتماعية وأكثرها ثروة ، أى طبقة الأغنياء المترفين .

وهذه الطبقة هى التى تقرر بصفة عامة نوع نظام الحياة الذى يعتبره المجتمع ملائما أو شريفا ، ومن واجبها — عن طريق القدوة والمثال — أن تضع نظام الخلاص الاجتماعى هذا فى أحسن صوره وأتمها . لكن طبقة المترفين العليا لا تستطيع أن تمارس هذه الوظيفة شبه الكهنوتية الا فى حدود بعض القيود المادية . فهى لا تستطيع أن تحدث — حين تشاء — انقلابا فجائيا أو عكسيا لطرائق التفكير السائدة فيما يتعلق بأية وحدة من هذه المقتضيات ، لأن أى تغيير لا بد له من بعض الوقت لكى ينفذ الى الجماهير ويغير اتجاهاتها التى اعتادتها . ومما يتطلب الوقت بصفة خاصة تغيير عادات الطبقات التى تعيش بمنأى عن الطبقة التى تستطيع احداث التغيير . وهذه العملية تسير ببطء أكبر حيثما كان تنقل السكان أقل ، أو حيثما كانت الفوارق بين الطبقات المتعددة أوسع وأكثر حدة . لكن المجال يزداد اتساعا أمام الطبقة المترفة — اذا أتيح لها الوقت الكافى — لكى تحدث ما تشاء من التغيير فى قواعد السلوك ودقائق نظام المعيشة فى المجتمع ، بينما نجد أن التغيير الذى يمكن أن تدخله على قواعد الوجاهة الأساسية لا يمكن أن يتعدى الحدود التى يقبلها الناس . فمعاييرها وشريعتها تعتبر النهج الذى يجب أن تحتذيه جميع الطبقات الأقل منها . لكن عند اتخاذ هذا النهج الذى ينتقل من أعلى الى أسفل ، محددا قواعد السلوك المحترم وطرقه ومشكلة العادات والميول الروحية بين الطبقات الدنيا ، نجد أن هذا النهج المستمد

من مصادر يحتج بها ينتقل دائما بعد تحويره مسترشدا فى ذلك بقواعد التبذير المظهرى الذى تلطف منه غريزة الابداع بدرجات متفاوتة . ويجب أن نضيف الى هذه المعايير مبدأ آخر شاملا من مبادىء الطبيعة البشرية ، هو مبدأ الدافع العدوانى ، الذى يقع - من حيث انتشاره ومن حيث أنه باعث على الرضاء النفسانى - بين العاملين المذكورين . وسوف نتناول فيما بعد تأثير هذا العامل الأخير فى تشكيل نظام الحياة الذى تقبله الجماهير .

يتعين على قواعد السلوك المحترم اذن أن تتفق مع الظروف الاقتصادية والتقاليد ودرجة النضج الروحى للطبقة التى ينظم طرائق حياتها . ويجب أن نلاحظ بصفة خاصة أن هذه القواعد مهما كان مصدرها ، ومهما كانت درجة تمشيها مع مقتضيات الوجاهة الأساسية عند أول ظهورها ، فلن يكون من المستطاع المحافظة الشكلية على هذه القواعد فى جميع الظروف اذا اتضح أن هذه القواعد أصبحت بمضى الزمن أو بانتقالها الى طبقة أقل ثروة ، لا تتمشى مع أسس الحياة الرغدة التى تعارفت عليها الشعوب المتحضرة ، أى أنها أصبحت لا تخدم غرض المقارنة التحاسدية فى النجاح المالى .

وواضح أن معايير الانفاق هذه لها أثر كبير فى تحديد مستوى معيشة أى مجتمع وأية طبقة . ولا يقل عن هذا وضوحا أن مستوى المعيشة الذى يسود فى أى وقت أو فى أى مستوى اجتماعى معين ، له بدوره أثر كبير فيما يتعلق بالمظاهر التى يتخذها الانفاق الشرفى ، وفيما يتعلق بدرجة سيطرة هذه الحاجة العليا على الاستهلاك لدى أى شعب من الشعوب . فالقيود التى يفرضها فى هذه السبيل مستوى المعيشة المعتاد هى فى الأغلب ذات طابع سلبى ، وهى تكاد تعمل منفردة لتحول دون الانخفاض عن درجة الانفاق المظهرى الذى أصبح معتادا .

ان أى مستوى معيشى له قوة العادة ، وهو مقياس معتاد وطريقة للاستجابة لعوامل معينة . والصعوبة التى يلقاها المرء فى مستوى اعتاده هى صعوبة التخلص من عادة بعد رسوخها . والسهولة النسبية التى يستطاع بها رفع مستوى المعيشة معناها أن عملية الحياة عملية طاقة متكشفة ، وأنها على استعداد للتكشف فى اتجاه جديد أينما وحيثما نقصت المقاومة للتعبير عن النفس . لكن بعد أن تتكون عادة التعبير عن النفس عبر خط من خطوط المقاومة الضعيفة فان ذلك التعبير سيتخذ نفس المتنفس المعتاد حتى بعد أن يحدث فى البيئة تغيير يؤدى الى ارتفاع محسوس فى المقاومة الخارجية . وهذه السهولة المتزايدة فى التعبير فى اتجاه معين ، وهى ما يعبر عنها بالعادة ، قد تضعف المقاومة التى تهيئها الظروف الخارجية لسير الحياة فى اتجاه معين . وكما يوجد فرق بين العادات المختلفة أو بين طرق التعبير واتجاهاته المعتادة التى منها يتكون مستوى معيشة كل فرد ،

كذلك يوجد فرق كبير من حيث قوة المصابرة فى مواجهة ظروف معاكسة ودرجة العجز عن تجنب الانطلاق فى اتجاه معين .

ومعنى هذا فى لغة النظريات الاقتصادية السارية انه بينما ينفر الناس من اختزال نفقاتهم فى أى وجه من الوجوه نجدهم أكثر نفورا من الاقتصاد فى بعض الوجوه منهم فى بعض الوجوه الاخرى . بحيث انه بينما يجد الناس غضاضة فى الاستغناء عن بعض أبواب الانفاق التى اعتادوها نجدهم لا يستطيعون الاستغناء عن بعض أبواب أخرى الا بشق الأنفس . فان مواد الاستهلاك وأشكاله التى يتشبث بها المستهلك فى اصرار كبير هى ما تسمى فى العادة بضرورات الحياة أو المواد التى توفر المستوى الأدنى للبقاء . والمستوى الأدنى للبقاء لا يقوم بطبيعة الحال على عدد من السلع المعينة محددة النوع والقدر تحديدا لا حيدة عنه . ولكننا نستطيع — فيما يختص ببحثنا هذا — أن نقول انه يشمل عددا من السلع الاستهلاكية اللازمة لحفظ الحياة . ونستطيع أن نفترض أن هذا الحد الأدنى هو آخر مايتنازل عنه المرء اذا أرغم على الاستغناء عن بعض وجوه الانفاق . وهذا يعنى بطريقة عامة أن أقدم العادات التى تتحكم فى حياة الفرد وأكثرها تأصلا — العادات التى تمس وجوده ككائن حى هى أطولها بقاء وأكثرها قوة . وبعد هذه تأتى حاجات الانسان العليا — العادات التى اكتسبها الفرد أو المجموعة من الناس فى مرحلة تالية — تأتى هذه الحاجات بدرجات تختلف نوعا ما ولكنها لا تتغير أبدا . وبعض هذه الحاجات العليا ، كالتعود على استعمال بعض المنبهات مثلا أو الحاجة الى الخلاص (بمعناه الدينى) أو حسن السمعة ، قد تكون لها فى بعض الأحوال الأسبقية على الحاجات الدنيا أو الأولية . وعلى العموم ، كلما زادت درجة التعود وكلما طالت فترة ممارسة العادة دون توقف وكلما ارتبطت بعادات أخرى من العادات السابقة للحياة، زاد تشبث هذه العادة نفسها بالبقاء . والعادة تكون أقوى اذا كانت السمات الخاصة بالطبيعة البشرية التى يشملها أثر العادة ، أو كانت النزعات الفطرية المعينة التى تمارس عن طريق العادة ، سمات أو نزعات متعلقة فعلا والى درجة كبيرة بعملية الحياة أو مرتبطة بتاريخ حياة أى عصر بشرى بالذات .

والسهولة المتفاوتة الدرجات التى تتكون بها مختلف العادات عند مختلف الأشخاص، وكذلك النفور المتفاوت الدرجات الذى يحس به المرء اذا أرغم على التخلى عن بعض العادات ، يدلان على أن تكون بعض عادات معينة لا يرجع الى طول اعتيادها وحده ، فان الميول وسمات المزاج الموروثة لها فى تقرير مجموعة العادات التى تتحكم فى نظام حياة أى فرد أهمية لا تقل عن

أهمية طول فترة الاعتياد • وكذلك نوع الميول الوراثية، أو بعبارة أخرى نوع المزاج الذى يرجع الى نوع العنصر السائد فى أى مجتمع ، له أثر بعيد فى تقرير مدى وطريقة التعبير عن عمليات الحياة المرتبطة بالعادات فى أى مجتمع • ونستطيع أن ندلل على عظم الدور الذى تلعبه الميول الفطرية الموروثة فى سرعة تكون العادة لدى الأفراد وذلك بذكر السهولة المتناهية التى تتكون بها أحيانا عادة الافراط فى تعاطى المشروبات الروحية ، أو السهولة والحتمية المماثلتين اللتين تتكون بهما عادة التزام قواعد التقوى لدى الأشخاص الذين أوتوا مواهب خاصة فى هذه السبيل • وهذه الأداة نفسها نجدها فى تلك السهولة العجيبة التى يعتاد بها المرء على بيئة بشرية معينة ، وهى ما نعبر عنها بالحب الرومانتيكى •

والناس يختلفون من حيث الميول التى تنتقل اليهم ، أو من حيث السهولة النسبية التى يتفتح بها نشاط حياتهم فى اتجاهات خاصة ، والعادات التى تتفق مع ، أو تقوم على ، ميول معينة قوية نسبيا ، أو تتصف بسهولة نوعية كبيرة نسبيا فى التعبير عنها ، تصبح ذات أثر كبير فى رخاء الانسان • والدور الذى يلعبه هذا العنصر من عناصر النزعة الفطرية فى تقرير الصمود النسبى لمختلف العادات التى يتكون منها مستوى المعيشة ، من شأنه أن يفسر النفوز الشديد الذى يحس به المرء اذا أرغم على التخلى عن أى باب اعتاده من أبواب الانفاق الذى يتم على سبيل الاستهلاك المظهرى • والنزعات الفطرية أو الميول التى يمكن أن نعزو اليها أية عادة من هذا النوع هى تلك النزعات التى تدخل ممارستها فى باب التنافس • والجنوح الى التنافس – بغرض المفاضلة التحاسدية – متأصل فى الانسان منذ القدم ، وهو سمة ممتزجة بالطبيعة البشرية ، وهو سمة سرعان ما تنشط نشاطا ملحوظا وتؤكد نفسها تأكيدا شديدا فى اصرار كبير بأى شكل اعتادت أن تثبت به وجودها • فاذا انتهى المرء الى تكوين عادة محاولة التعبير عن طريق نوع معين من الانفاق الشرفى – عندما يعتاد المرء الاستجابة لأى نوع من أنواع الاثارة بنشاط من أى نوع وفى أى اتجاه ، فى هدى هذه الميول التنافسية الناشطة والبعيدة المدى – فان التخلى عن مثل هذا الانفاق المعتاد لا يمكن حدوثه الا على مضض شديد • ومن جهة أخرى كلما ساعدت حيازة الثروة على وضع المرء فى مركز يسمح له بتطوير عملية الحياة فى مجال أوسع وعلى مدى أكبر ، فان النزعات العنصرية القديمة تعبر عن نفسها بتقرير الاتجاه الذى يسير فيه التطوير الجديد للحياة • ثم ان الميول التى تعمل فى هذا السبيل فعلا بشكل من أشكال التعبير متصل بها ، يدعمها ايعاز صريح من نظام المعيشة السائد المعترف به ، والتى تتوفر لها موارد وفرص مادية تعين على ممارستها – هذه كلها لها أثر كبير فى تحديد الاتجاه الذى يتخذه النشاط الكامل للفرد من أجل

تأكيد وجوده • ومعنى هذا ، بتعبير أقصر ، أن زيادة مقدرة الفرد على الدفع (فى أى مجتمع يكون الاستهلاك المظهرى فيه عنصرا من عناصر نظام الحياة) يحتمل أن تتخذ طابع الانفاق فى بعض وجوه الاستهلاك المظهرى المتعارف عليها •

واذا استثنينا غريزة المحافظة على النفس ، فربما كان الميل الى المنافسة أقوى الدوافع الاقتصادية الحقيقية وأكثرها يقظة وصمودا • والميل الى المنافسة فى أى مجتمع صناعى يظهر فى المنافسة المالية • ومعنى هذا ، فيما يختص بالمجتمعات الغربية المتحضرة ، أنه يتخذ شكل التبذير المظهرى • فالحاجة الى التبذير المظهرى ، اذن ، على استعداد دائما لامتصاص أية زيادة فى الكفاية الانتاجية للمجتمع أو أية زيادة فيما تنتج من السلع ، بعد توفير ما يكفى لسد أشد الاحتياجات المادية لزوما • وحيث لا يتم ذلك، فى الظروف الحديثة ، يرجع السبب فى مخالفة القاعدة عادة الى أن معدل الزيادة فى ثروة الفرد كبيرة الى درجة لا يستطيع معها أن يرفع معدل زيادة الانفاق بنفس الدرجة ، أو قد يكون السبب أن الفرد الذى أصاب الثروة يرجىء الانفاق فى وجوه الاستهلاك المظهرى الى وقت آخر ـ والغرض من هذا عادة هو جعل جملة الانفاق الزائد الذى ينتويه أشد تأثيرا فيمن يشهدونه • وكلما ساعدت زيادة الكفاية الانتاجية على سهولة كسب وسائل المعيشة بمجهود أقل ، اتجهت طاقات الأفراد المجدين فى المجتمع الى بلوغ مستويات أعلى فى الاستهلاك المظهرى ، بدلا من تقليل جهودهم وقصرها على مجرد الحد الذى يوفر لهم الراحة ، فالجهود المبذولة لا تنقص كلما زادت الكفاية الانتاجية وجعلت التقليل من المجهود ممكنا ، ولكن الزيادة التى تحدث فى الانتاج تستخدم فى سد تلك الاحتياجات التى تعزى غالبا فى النظرية الاقتصادية الى الاحتياجات العليا أو الروحية ـ وهى احتياجات قابلة للزيادة دائما • وقد كان أثر هذا العنصر فى مستوى المعيشة هو الذى جعل جيمس ستيوارت ميل يقول « من المشكوك فيه الى الآن أن تكون جميع المخترعات الآلية التى عرفت الى اليوم قد خففت من الجهد اليومى الذى يبذله أى انسان • »

ومستوى الاستهلاك المقبول بين المجتمع أو الطبقة التى ينتمى اليها الفرد يحدد مستوى معيشته بدرجة كبيرة ، ويتم ذلك اما مباشرة بالتأثير فى ذوقه العام فيما يتعلق بالأمور الحسنة والصحيحة ، عن طريق اعتياد التفكير فيها واستيعاب نظام الحياة الذى ينتمى هذا المستوى اليه ، واما بطريقة غير مباشرة عن طريق اصرار الجماعة على التمشى مع مستوى الانفاق السائد ، باعتباره المستوى اللائق والذى يعاقب من يخالفه اما بالسقوط فى أعين الناس أو النبذ • وقبول مستوى المعيشة السائد وممارسته أمر مرغوب فيه وملائم معا ، الى درجة أنه كثيرا ما يصبح لازما لراحة الفرد

الخاصة ولنجاحه فى الحياة . ومستوى معيشة أية طبقة ـ فيما يتعلق بالتبذير المظهرى ـ يصل فى الارتفاع عادة الى الحد الذى تسمح به قدرة الطبقة على الكسب ، مع الاتجاه الى زيادته باستمرار . وعلى ذلك كان أثره فى جهود الأفراد هو توجيهها توجيها موحدا الى جمع أكبر قدر ممكن من الثروة والى معارضة كل عمل لا يكون من ورائه كسب مالى . وكذلك كان أثره على الاستهلاك هو أنه يعمل فى نفس الوقت على تركيزه فى الوجوه التى تبدو أكثر وضوحا لأعين المشاهدين الذين يسعى المرء الى نيل تقديرهم ، بينما نجد الميول والدوافع التى لا تنطوى ممارستها على الانفاق البين ، سواء فى الوقت أو فى المال ، مصيرها الى النسيان بسبب اهمال استعمالها .

وقد أدى هذا التفضيل للاستهلاك المظهرى الى جعل الحياة المنزلية لمعظم الطبقات حقيرة نسبيا ، اذا قورنت بالبهاء الذى يبدو به ذلك القسم من حياتهم الذى يظهرون به أمام الملأ . ومن النتائج الثانوية لهذا التفضيل نفسه أن الناس عادة يخفون حياتهم الخاصة عن أعين الناظرين، فيعزفون عن كل اختلاط بجيرانهم فى كل ما يتعلق بكل نوع من الاستهلاك يستطيعون ممارسته فى الخفاء دون خشية من ملامة . من هنا كان انطواء الناس فى معظم المجتمعات الصناعية المتقدمة ، فى كل ما يتعلق بحياتهم المنزلية ، ومن هنا أيضا كانت عادة العزلة والتحفظ ، وهى من أكبر مظاهر الاحتشام السائد بين الطبقات العليا فى جميع المجتمعات . كذلك نستطيع أن ننسب انخفاض نسبة المواليد بين الطبقات التى تلقى مقتضيات الانفاق المظهرى عبئا ثقيلا على كواهلها ، نستطيع أن ننسب هذا الانخفاض الى مطالب مستوى معيشى يقوم على التبذير المظهرى . فان الاستهلاك المظهرى وما يتبعه من زيادة النفقات التى تتطلبها تربية طفل تربية لائقة ، بالغة الضخامة وتقوم حائلا منيعا دون انجاب الأطفال . وقد يكون هذا العامل هو أقوى موانع مالتس أثرا .

وأثر عامل مستوى المعيشة هذا ، سواء من حيث الاقتصاد فى عناصر الاستهلاك الخفية التى توفر الراحة المادية ، أو من حيث قلة الأطفال أو انعدامهم ، قد نستطيع أن نلحظه على أحسن صوره بين الطبقات التى تشتغل بالمهن العلمية . فقد جرى العرف على وضع هذه الطبقة فى مركز اجتماعى أعلى مما يسمح به مركزها المالى ، وذلك بسبب ما يفترض وجوده فيها من امتياز ومواهب نادرة ومعارف تتميز بها حياتها وعلى ذلك فدرجة الانفاق اللائق فيما يختص بهم عالية نسبيا ، ومن أجل هذا لا تترك أمامهم الا مجالا ضيقا جدا للانفاق على مطالب المعيشة الاخرى . وقد ارغمتهم الظروف على أن يصبح ذوقهم العادى فيما يتعلق بما هو حسن وصحيح فى هذه الأمور ؛ وكذلك ما يتوقعه المجتمع من مستوى مالى لائق برجال العلم ،

بعض نتائج تفضيل الاستهلاك المظهرى

أرغمتهم الظروف على أن يصبح هذان الاعتباران من العلو بمكان اذا قيسا بدرجة الثراء والقدرة على الكسب السائدتين فى هذه الطبقة ، بالنسبة الى الطبقات الأخرى من غير أهل العلم الذين يعتبرون اسميا مساوين لها من الناحية الاجتماعية • والرجال الذين يشتغلون بمهن علمية ، فى أى مجتمع حديث لا تكون فيه هذه المهن احتكارا لرجال الدين ، تضطرهم الظروف بالرغم منهم الى الاختلاط بطبقات أعلى منهم من الناحية المالية • ثم ان المستوى العالى للثراء السائد بين هذه الطبقات العليا يتسرب الى طبقة العلماء دون أن يفقد من شدته قدرا يذكر ، ويتبع ذلك أنه لا توجد بين المجتمع طبقة تنفق فى أبواب التبديد المظهرى نسبة من دخلها تزيد على ما ينفقه هؤلاء •

الفصل السادس

القواعد المالية للذوق

سبق أن كررنا التحذير اكثر من مرة ، من أنه بينما نجد أن النمط المنظم للاستهلاك هو الى حد كبير مقتضيات الاسراف المظهرى ، فاننا لا يجب أن نفهم من هذا أن الباعث الذى يتصرف بمقتضاه المستهلك فى اية حالة معينة هو هذا المبدأ بشكله الظاهر الصريح . فالباعث له عادة هو الرغبة فى مجاراة العرف القائم كى يتجنب الملاحظة النابية والتعليق غير المرضى ، وأن يرقى بمعيشته الى مستويات السلوك المتعارف عليها من حيث نوع المواد المستهلكة ومقدارها ودرجتها ، وكذلك من حيث صرف وقته وجهده فى الوجوه اللائقة . والتعود على مجاراة هذا العرف يدخل فى أكثر الاحوال ضمن بواعث المستهلك ، وله اثر مباشر فى تقييد استهلاكه ، لا سيما ما يكون منه أمام اعين الناس . لكننا نستطيع ان نلحظ قدرا كبيرا من التبذير ايضا فى الاستهلاك الذى لا تقع عليه أعين الغرباء الا قليلا - كما هى الحال مثلا فى الملابس الداخلية وأصناف الطعام وأدوات المطبخ وغيرها من الأدوات المنزلية التى تستخدم من أجل الانتفاع بها لا من أجل التظاهر . ونظرة دقيقة الى كل هذه الادوات النافعة تكشف عن مظاهر معينـــة تضيف الى تكاليف السلع المذكورة وتزيد قيمتها التجارية ، ولكنها لا تزيد بنفس النسبة من درجة الانتفاع بها فى الاغراض المادية التى نعلم انها صنعت من اجلها قبل اى شيء آخر .

فى ظل الاشراف الدقيق لقانون الاسراف المظهرى فى بعض النواحى المختارة ، ينمو قانون لقواعد الاستهلاك المتعارف عليها ، من شانه ان يجعل المستهلك يتمسك بمستوى معين من مستويات التبذير فى استهلاك سلعه وفى صرف وقته وجهده . ونمو هذا العرف المحدد ذو أثر مباشر على الحياة الاقتصادية ، ولكن له كذلك أثرا بعيدا غير مباشر على سلوك الناس فى نواح اخرى ايضا . فقواعد التفكير فيما يتعلق بالتعبير عن الحياة فى اتجاه معين لا بد أن تؤثر فى نظرتنا المعتاده لما هو طيب وحق فى الحياة من نواح أخرى كذلك ، لان المصلحة الاقتصادية لا توجد متمـــيزة ومنفصلة عن سائر المصالح فى طرائق تفكيرنا ذات التركيب العضوى المعقد التى تتكون منهـا

مادة حياة الفرد الواعيـــة . وقد سبق أن ضربنا مثلا لعلاقتهـــا بقواعد الشهرة .

ومبدا الاسراف المظهرى هو المرشد الهادى فى تكوين عادات التفكير فيما هو حق وطيب فى الحياة وفى المتاع . وهذا المبدأ حين يفعـــل هذا يتخطى قواعد السلوك الأخرى التى لا تكون لها علاقة بقواعد الترف المبنية على أساس مالى ، ولكن يكون لها – بطريقة غير مباشرة او عرضية – مغزى اقتصادى كبير نوعا . وعلى ذلك فان قواعد الاسراف الذى يقصد به التفاخر قد تؤثر مباشرة او من بعيد فى الاحساس بالواجب وفى الذوق الجمـــالى وتقدير قيمة الأشياء، واللياقة الدينية والتقدير العلمى للحـق . وليست هناك ضرورة تقتضى الدخول هنا فى مناقشة النقط المعينة التى عندها – او الطريقة المعينة التى بها – يتعارض قانون الانفاق الشرفى وقوانين السلوك الخلقى . فهذا من الأمور التى لقيت كثيرا من الاهتمام والتوضيح على أيدى أولئك الذين يقتضيهم واجبهم أن يرقبـــوا ويلفتوا النظر الى كل مخالفـــة لقانون الأخلاق المعترف به . وفى المجتمعات الحديثـة ، حيث نظام الملكية الخاصة هو المظهر القانونى والاقتصادى الســائد فى المجتمع ، نجد قداسة الملكية الخاصة مظهرا أساسيا لقانون الأخلاق . ولا حاجة الى أن نؤكد أو نوضح أن عادة الاحتفاظ بالممتلكات الخاصة دون المساس بها تتعارض وعادة أخرى هى عادة البحث عن الثروة من أجل الشهرة التى ينالها المرء عن طريق استهلاكها المظهرى . ومعظم الاعتداء على الممتلكات الخـاصة ، لا سيما الاعتداءات الكبيرة ، تدخل فى هذا الباب . ومن المعروف أيضا أن المعتدى على الملكية الخاصة اعتداء يمكنه من الاستيلاء على قدر كبير منها ، لا ينال فى العادة أقصى العقوبة أو أقصى التثريب الذى يستحقه ذنبه على أســاس قانون الأخلاق وحده . فاللص أو المختلس الذى جمـع عن طريق الحرام ثروة كبيرة لديه فرصة للافلات من ســلطة القانون أكبر من فرصة اللص الصغير ، كذلك يستطيع هـــذا أن ينال حسن السمعة بسبب ثروته التى جمعها وبسبب حسن انفاقه لممتلكاته التى اقتناها بطرق غير مشروعة ، فان حسن انفاقه لما اغتصب له أثر طيب فى نفوس الذين يقدرون مراعاة حسن السلوك ، ويقلل فى نظرهم من بشاعة الجرم الخلقى الذى ارتكبه . كذلك نستطيع ان نذكر ، وهذا أمر كبير الصلة بالموضوع ، اننا جميعا نميل الى مغفرة الاعتداء على الممتلكات اذا كان المعتـــدى قد صدر فى ذلك عن ذلك الباعث الجدير بالتقدير ، الا وهو توفير وسائل الحياة الكريمة لزوجتـــه وأولاده . فاذا كانت الزوجة ، فضلا عن ذلك ، قد نشأت فى أحضان النعمة ، فان هذا يعتبر ظرفا اضافيا مخففا . أى اننا على استعداد لاغتفار مثل هذا الاعتداء ما دام الباعث عليه هو الدافع الشريف الذى يمكن لزوجة المعتدى أن تقوم نيابة عنه باستهلاك الوقت والمال بالقدر الذى يتطلبـــه المستوى

المالى اللائق . وفى مثل هذه الحالة تكون عادة الرضاء عن درجة الاسراف المظهرى المعتادة متعارضـــة مع عادة استهجان الاعتـــداء على الملكية ، الى درجة انها أحيانا تثير فى نفوسنا الشك فيمـا اذا كان الجزاء الواجب هو المدح أو القدح . والغريب أن هذا صحيح حيثما انطوى الفعل الشائن على عنصر ضخم من عناصر العدوان أو القرصنة .

وهذا الموضوع لا يحتاج الى مزيد من الاسترسال فيه هنا ، ولكن قد لا يكون من غير اللائق أن نذكر أن كل مجموعة القوانين الخلقية التى تتعلق بمفهوم الملكية التى لا يجوز الاعتداء عليها هى ذاتها بقيـــة منطقية للقيم التقليدية للثروة . ويجب أن نضيف أن هذه الثروة التى نعتبرها مقدسـة تنال التقدير من أجل اكتساب حسن السمعة عن طريق استهلاكها استهلاكا مظهـــريا .

وسوف نتناول أثر جاه المال على الروح العلمية او التطلع الى العلم ، بشىء من التفصيل فى فصـــل آخر . وكذلك لا توجـد ضرورة تدعو الى التطويل فى الكلام عما يختص بروح التقوى او الكفاية فى الطقوس او سمو المقام الدينى فى هذا المجال ، فهذا ايضا سوف يأتى ذكره عرضا فى فصـل تال . ومع ذلك فان عادة الانفاق فى سبيل كسب حسن السمعة له أثر كبير فى تكييف الأذواق العامة فيما يتعلق بالصحيح واللائق من الأمور المقدسة . ومن هنا نستطيع ان نشير الى علاقة مبدأ الاسراف المظهرى ببعض الطقوس والآراء الدينية الشائعة .

من الواضح أن قواعد الاسراف المظهرى يمكن ان تفسر قدرا كبيرا مما نستطيع أن نسميه « الاستهلاك ابتغاء وجه الله » ، كما هى الحال فى التبرع لانشاء دور العبادة أو فى لبس الملابس الكهنوتية الفضفاضة ، وما اليها . بل اننا نجد ، حتى فى المعتقدات الحديثة ، التى يعزى الى آلهتها انها تفضل المعابد التى لا تبنى بالأيدى ، نجد فى هذه المعتقدات أن المبانى المقدسـة وغيرها مما يتعلق بالعقيدة ، تبنى وتزين بطريقـــة يظهر فيها قدر كبير من الانفاق التبديدى . ولسنا فى حاجة الى كثير من الملاحظة او التدقيق — وأى منهما يفى بالغرض — لكى نتأكد ان الروعة الباهظة التكاليف التى تبدو فى دور العبادة لها أثر كبير فى رفع معنويات المتعبد وترقيتها ، ولكن هذا الأثر نفسه يحدث عندما نفكر فى الاحساس بالخجل الوضيع الذى يشعر به كل من يشاهد مظاهر الفقر والقذارة التى تحيط بمكان العبادة . ويجب ان يكون كل مايتعلق بالعبادة لا غبار عليه من الناحية المالية ، وهذا أمر ضرورى مهما كانت نظرتنا الى هذه الأماكن التى تحيط بمكان العبادة من حيث قيمتها فى الأمور الدينية أو غيرها .

الاستهلاك ابتغاء وجه الله

وقد يكون من المناسب ايضا ان نذكر انه فى جميع المجتمعات ، وبخاصة حيث لا يكون مستوى النظافة فى المساكن عاليا ، نجد أن قدس الاقداس أرقى زخرفة وأكثر تبديرا ظاهرا فيما يختص بعمارته وزينته ، من مساكن الذين يعمرونه للعبادة . وهذا يصدق على معظم المذاهب والعقائد سواء كانت مسيحية أو وثنية ، ولكنه يصدق بدرجة خاصة على العقائد الأقدم والأتم نضجا . وقدس الأقداس فى نفس الوقت لا يوفر لمرتاديه راحة جسمية بل قد لا يوفر شيئا منها على الاطلاق . والحقيقة أن المكان المقدس لا يقتصر فقط على أنه لا يقدم لمرتاديه الا قليلا من الراحة المادية اذا قورن بمساكنهم المتواضعة ، بل أن جميع الرجال يحسون ان الادراك الصحيح لما هو حق وجميل وصالح يقتضى ان يخلو كل ما ينفق على أماكن العبادة من كل ما يوفر الراحة المتعبد خلوا ظاهرا . فاذا سمحنا بادخال اى عنصر من عناصر الراحة الى المبنى فلا اقل من أن يتوارى بدقة تحت ستار من التقشف الظاهرى. وفى أشهر دور العبادة الحديثة التى لا يألو منشئوها جهدا فى انفاق اى قدر من المال على انشائها ، نجد مبدأ التقشف مبالغا فيه الى حد يجعل أثاثه وسيلة لاشاعة الرهبة ، خصوصا فى مظهره. وهناك قليل من الناس لهم احساس مرهف فيما يختص باستهلاك المال فى سبيل العبادة ، ولا يرون فى هذا التقشف شيئا من الحق أو الجمال . فاستهلاك المال فى سبيل العبادة هو من قبيل الاستهلاك بالنيابة . وقانون التقشف فى أسباب العبادة قائم على أساس ما للاستهلاك التبديدى الواضح من شرف فى نظر الناس ، يسنده المبدأ القائل بأن الاستهلاك بالنيابة لا يجب ظاهريا أن يؤدى الى راحة المستهلك بالنيابة .

والأماكن المقدسة وماتجهز به من الرياش لها بعض مظاهر هذا التقشف فى معظم العقائد التى لا تعتقد أن القديس او الاله الذى يقام الهيكل باسمه موجود فيه ويستخدم الرياش فى اشباع ما يعزى اليه من ذوقه المحب للترف . ويختلف الأمر نوعا ما فى هذه الناحية فى تلك العقائد التى تعزو الى المعبود نوعا من الحياة أقرب الى نوع الحياة الأرضية التى يحياها أى زعيم مقدس - أى التى تفرض أنه يستخدم شخصيا هذه السلع الاستهلاكية . ففى هذه الحالة يتخذ بناء الهيكل المقدس وتجهيزاته الطابع الذى يضفى على السلع التى ينتفع بها السيد أو المالك فى الاستهلاك الظاهر . ومن جهة أخرى ، وحيث تستخدم الأدوات المقدسة لخدمة المعبود فقط ، أى حيث تستخدم نيابة عنه على أيدى عباده ، فهنا نجد الأدوات المقدسة تأخذ الطابع الخليق بالسلع التى يقصد منها الاستهلاك بالنيابة فقط .

ففى الحالة الأخيرة يخطط الهيكل والأدوات المقدسة بحيث لا تعمل على راحة المستهلك بالنيابة أو على متعته ، أو تؤدى بحال من الأحوال الى

الاعتقاد بأن هدف استهلاكها هو راحة المستهلك . فان الاستهلاك بالنيابة لا يهدف الى استمتاع المستهلك ، بل الى الشهرة المالية لاولئك الذين يحدث لمصلحتهم الاستهلاك . ومن أجل هذا كانت الملابس الكهنوتية باهظة الثمن ومنمقة وغير مريحة الى حد كبير . وفى الثقافات التى لا تفترض فى خادم المعبود أن يقوم على خدمته بصفة متلازمة ، نجد الهيكل والأدوات المقدسة ذات طابع تقشفى غير مريح . وهذا فى رأى الناس ما يجب ان يكون .

ومبدأ الاسراف لا ينتهك مجال القوانين الخاصة بطقوس العبادة فى تحديد مستوى التبذير اللائق بأمور العبادة فقط . فهو يتدخل فى طرق العبادة كما يتدخل فى وسائلها ، ويؤثر فى أعمال الفراغ بالنيابة كما يؤثر فى الاستهلاك بالنيابة . وتصرف رجال الدين فى احسن حالاته يتم فى عزلة وبغير جهد أو اهتمام ، ولا تشوبه شائبة من اللذة الجسدية . وهذا يصدق ـ بدرجات متفاوتة طبعا ـ على مختلف العقائد والمذاهب ، ولكن دلائل الاستهلاك المظهرى للوقت تبدو واضحة فى حياة رجال الدين فى جميع العقائد التى تتخيل معبودها فى صورة انسان .

ومبدأ الفراغ بالنيابة السائد نفسه يبدو واضحا فى التفصيلات الخارجية لطقوس العبادة . ولسنا بحاجة الى الاشارة اليها الا لنزيدها وضوحا أمام من يرونها . فجميع الطقوس تميل الى ان تتحول الى نوع من الصيغ المتكررة . وهذا التحول الى صيغ اكثر وضوحا فى العقائد التى اكتمل نموها وأصبح لها فى نفس الوقت حياة وملابس كهنوتية أكثر تقشفا وتنمقا وصرامة . لكنها تبدو أيضا فى أشكال العبادة وطرائقها فى المذاهب الحديثة الأكثر تسامحا فيما يتعلق بمظهر الكهنة والملابس والهياكل . وتلاوة الصلاة ـ أو تلاوة « الخدمة » كما يعبر عنها فى الانجليزية ، (ولفظ « الخدمة » هنا يحمل معنى ذا مغزى من حيث النقطة التى نحن بصددها) تصير أكثر آلية كلما تقدمت بالمذهب السنون وصار اكثر استقرارا ، وآلية الصلاة هذه تبعث على اتم الارتياح فى نفوس المؤمنين الصادقين . وهذا أمر له ما يبرره ، لان كونها آلية معناه الصريح أن المعبود الذى تؤدى الصلاة ابتغاء مرضاته يسر سرورا يزيد على القدر الضرورى الذى يتطلبه من خدمه . وهؤلاء الخدم غير منتجين ، وهذه صفة تنطوى على معانى التشريف لمولاهم . وليست بنا حاجة الى ذكر التشابه الكبير فى هذه النقطة بين وظيفة القسيس ووظيفة الخادم الذى يلبس حلة مميزة . ومما يرضى الشعور بما هو لائق من الأمور أن مهمة القسيس ومهمة الساعى كلتيهما تتم بطريقة شكلية فقط ، فلا يجب أن ينطوى أداء وظيفة القسيس على شىء من الرشاقة أو المهارة يمكن أن يفهم منه أن له قدرة على اتقان عمله .

ومن الطبيعى انه يوجد فى كل هذه الاعمال ما ينم عن مزاج المعبود وذوقه وميوله وطرق حياته التى يعزوها اليه العابدون الذين يعيشون فى ظل قوانين القواعد المالية المتعلقة بحسن الأحدوثة . وقد عمل مبدأ التبديد المبين ، عن طريق تأثيره فى الاتجاه الذى يسيطر على طرق تفكير الناس، على تشكيل فكرة المتعبدين عن معبودهم وعن العلاقة التى تربط الناس به . ومن الطبيعى ان العقائد الساذجة هى التى تضفى على معبودها اكبر قدر من البهاء المالى ، ولكنه مع ذلك واضح جلى فى جميع المعتقدات . فان جميع الشعوب فى اية مرحلة ثقافية او اية درجة من درجات الرقى ، يسرها غاية السرور أن تزيد شيئا الى ما تعرفه عن شخصية معبوداتهم المحيطة بهم . وهم عندما يعملون خيالهم بهذه الطريقة ليساعدهم على اكمال الصورة عن مكان المعبود وطريقة حياته ، ينسبون اليه فى العادة جميع الصفات التى يعتقدون أنها تخلق المثل الأعلى للانسان الكامل . وعندما يرغبون الاتصال بالمعبود فان طرائق التقرب ووسائله تكون اقرب ما يكون شبها بالمثل الاعلى للمعبود كما يتخيله الناس . وهم يحسون انهم عندما يقفون بين يدى المعبود فعليهم أن يفعلوا ذلك فى أتم احتشام ولأحسن هدف ، وذلك بطرق خاصة معروفة وفى ظروف مادية معينة ، تليق فى العرف العام بطبيعة المعبود ، وهذا المثل الأعلى لما جرى عليه العرف العام خاصا بالسلوك اللائق فى مثل مناسبات الاتصال هذه ، من الطبيعى أن يتأثر الى درجة كبيرة بالمفهوم العام للسلوك الانسانى الواجب اتباعه فى كل مناسبة للقاء كريم . لهذا نرى من العبث ان نحاول تحليل آداب العبادة بأن ننسب جميع الشواهد الدالة على وجود مستوى مالى للشهرة ، نسبة مباشرة صريحة ، الى قانون التنافس المالى . ولهذا أيضا نرى من العبث أن ننسب الى المعبود ، كما يفهم الناس عامة ، شدة التمسك بالمستوى المالى وتجنب البيئة القذرة واستنكارها لمجرد أنها لا تليق بمقامه من الناحية المالية .

ومع ذلك ، ومع المبالغة فى التساهل ، يبدو ان جميع قواعد الشهرة المالية تؤثر ، بطريق مباشر وغير مباشر ، تأثيرا ماديا فيما يتخيله الناس من صفات المعبود ، كما تؤثر فى تصورهم لامثل الطرق والظروف واصلحها للتقرب اليه . فالشعور السائد هو أن المعبود يجب أن يسلك فى حياته طرقا غاية فى الوقار والفراغ . وكلما صور الناس مقام المعبود تصويرا شاعريا ، بحثا عن السمو بالعقيدة أو ارضاء المعبود ، حاول مؤلفو الترانيم بطبيعة الحال أن يثيروا خيال السامعين بتصوير العرش زاخرا بمظاهر الأبهة والسلطان يحف به عدد كبير من الكهان . وفى مثل هذا التصوير للعرش السماوى نرى أن وظيفة هؤلاء الكهان هى الفراغ التبعى ، اذ يستنفدون وقتهم وجهدهم الى درجة كبيرة فيما لا طائل تحته من ترديد صفات المعبود الفذة ومآثره ، بينما يتلألأ المكان المحيط بالعرش ببريق أنفس

المعادن وأندر الأحجار الكريمة • والقوانين المالية لا تتدخل الى حد هــذه المبالغة فى تصوير المثل الأعلى للمعبود الا فى التعبيرات غير المهذبة عن صورته• ومن الحالات التى تبين فيها هذه المبالغة ما نراه بين زنوج الجنوب (يقصد جنوب الولايات المتحدة) • فان مؤلفى الترانيم عندهم لا يستطيعون ان ينزلوا بخيالهم الى شىء يقل قيمة عن الذهب ، ولهذا نجــد تمســكهم بالجمال المالى يتمخض عن واقع أصــفر فاقع لا يستسيغه ذوق وقور • ومع ذلك فقد لا تكون هناك عقيدة لم يلجأ معتنقوها الى القيم المالية يزيدون بها من كفاية الطقوس التى تعين الناس على فهم الحقيقــــة عن أجهزة العبادة •

كذلك يشعر الناس – ويلتزمون بهذا الشــعور – أن الكهنة الذين يقومون على خدمة المعبود لا يجوز لهم الاشتغال باية مهنــة منتجة ، وان العمل مهما يكن نوعه – اية مهنة ذات نفع للانسان – لا يجوز لهم اداؤها فى حضرة المعبود او فى حــدود المكان المقدس ، وان من يمثــل بين يديه يجب أن يكون قد تطهــر من كل مظهــر دنيــوى للعمــل المنتج عالق بلباسه أو بشخصه ، وأن يكون قد تدثر بملابس ذات دلالة تخالف دلالة ملابسه فى الحياة اليومية ، وأنه لا يجوز لأى شخص أن يقوم فى أيام العطلة التى تخصص لتكريم المعبود او الاتصال به بأى عمل له فائدة للانسان • بل ان عائلات الكهنة من العلمانيين ذوى القربى التائية يفرض عليهم أن يلزموا الفراغ التبعى يوما واحدا من كل اسبوع •

وأثر القوانين الخاصة بالوجاهة المالية نجده واضحا فى أعمال الناس الذين لا علم لهم بما هو صحيح ولائق فى الآداب الدينية وفى علاقتهم بالمعبود ، سواء كانت هذه القوانين قد عملت ، بطريق مباشر أو غير مبــاشر ، على تصويرهم للمعبود •

وقد كان لقوانين الوجاهة هذه تأثير مماثل ، لكنه أبعد أثرا وأكثــر تحديدا ، على الذوق العام لجمال السلع المستهلكة أو منفعتها • فمقتضيات السلوك المالى قد أثرت بدرجة كبيرة فى تقديرنا لجمال الأشياء الجميلة ومنفعتها • فتفضيل السلع بقدر ما ينطوى عليه استهلاكهــا من اسراف مظهرى ، والشعور بنفعها يتناسبان الى حد ما وما تنطوى عليه من تبديد وعدم تلاؤم مع استخداماتها الظاهرة •

ومنفعة الأشياء التى نقدرها من أجل جمالها تعتمد كثيرا على ارتفاع أثمانها • ونستطيع أن نوضح مدى هذا الاعتماد بمثل معروف جيدا • فملعقة من الفضة مصنوعة باليد وتتراوح قيمتها بين عشرة دولارات وعشرين دولارا ، لا تزيد فى العادة نفعا – بالمعنى الأصلى للفظ – عن أخرى مصنوعة بالآلات من بعض المعادن الخسيسة – مثل الألومنيوم – ولا تتعدى قيمتها نحو عشرة

سنتات أو عشرين سنتا ، وأولى الأداتين فى الواقع وسيلة أقل فائدة فى القيام بالخدمة الظاهرة لهما من الثانية .

على أن هناك اعتراضا واضحا على هذا القول ، وهو اننا حين ننظر الى الأمر من هذه الزاوية نتغاضى عن احدى الفوائد الهامة للملعقة الغالية الثمن ، ان لم تكن اهم فوائدها . فالملعقة المصنوعة باليد ترضى ذوقنا وشعورنا بالجمال ، بينما المصنوعة بالآلة من المعدن الخسيس لا يزيد نفعها على كونها اداة تقوم بخدمتها بكفاية . ولا ريب أن هذا الاعتراض يطابق الواقع ، لكن قليلا من التفكير كفيل بأن يظهر أن الاعتراض يبدو منطقيا ولكنه ليس قاطعا. اذ يبدو (١) أنه بينما المعدنان المختلفان اللذان صنعت منهما الملعقتان يتوفر فيهما النفع والجمال بالنسبة للغرض الذى يستعملان فيه ، الا أن معدن الملعقة المصنوعة باليد تزيد قيمته مائة مرة على قيمة المعدن الخسيس ، دون أن يكون ذلك راجعا الى زيادة كبيرة فى الجمال أو اللون ، ودون أية زيادة تذكر من حيث الفائدة المادية ، (٢) اذا اتضح بعد الفحص الدقيق أن الملعقة التى فرض أنها مصنوعة باليد ليست فى الحقيقة الا تقليدا دقيقا للسلع المصنوعة يدويا ، ولكنها تقليد اتقنت صناعته بحيث تبدو كذلك فى شكلها وسطحها لأى انسان الا من تفحصها بعين مدربة ، اذا اتضح ذلك فان نفع هذه الأداة ، بما فيه ذلك الرضاء الذى يحس به مستعملها ، لمجرد اعتقاده أنها أداة من أدوات الجمال ، يهبط فورا بمقدار ثمانين أو تسعين فى المائة ، أو يزيد ، (٣) فاذا بدت الملعقتان ، فى نظر الفاحص المدقق تدقيقا وثيقا نوعا ، متشابهتين فى مظهرهما الى درجة لا تجعل تمييزهما ممكنا الا عن طريق خفة وزن الملعقة الرخيصة فقط ، فان هذا التشابه فى الشكل واللون لن يزيد من قيمة الملعقة المصنوعة آليا ، أو يزيد من شعور مستعملها ، عند تأملها ، زيادة تذكر ، طالما أنها ليست شيئا جديدا عليه ، وطالما أن فى مقدوره حيازتها بقيمة اسمية .

وما يقال عن الملعقتين يقال عن كل ما عداهما . فالرضاء العظيم الذى ينبعث من استعمال وتأمل المنتجات الغالية الثمن ، والمفروض فيها الجمال ، هو غالبا والى درجة كبيرة منبعث من سرورنا بالشىء النفيس الذى يتخفى عادة تحت اسم السرور بالجمال . وزيادة تقديرنا للسلع الأغلى ثمنا هو تقدير لارتفاع قيمتها الترفية أكثر مما هو تقدير مجرد لجمالها . فان مقتضيات الاسراف المظهرى لا تبرز بوضوح ، فى أكثر الأحوال ، بالنسبة لتحديد قواعد الذوق ، ولكنها رغم ذلك توجد فى شكل قواعد الزامية سائدة ودائبة العمل – عن طريق الاختيار – على تشكيل وتدعيم شعورنا بما هو جميل ، وتمييزنا لما يستحق – حقا – أن نعده جميلا وما لا يستحق .

وهذه النقطة بالذات هى التى يلتقى عندها ما هو جميل وما هو شرفى ، ويمتزجان بحيث يصعب عندها التمييز بين صفة المنفعة وصفة التبذير فى أية حالة معينة بالذات ، فكثيرا ما يحدث ان أداة من الأدوات التى تحقق الغرض الشرفى من الاسراف المظهرى هى فى نفس الوقت أداة جميلة المنظر . كذلك طريقة صنعها التى تتحقق بها فائدتها فى الغرض الأول قد تسبغ على الأداة ، بل هى فى الغالب تسبغ عليها فعلا ، نوعا من جمال الشكل واللون . وهذه المسألة يزيدها تعقيدا أن كثيرا من الأدوات ، كالأحجار الكريمة والمعادن النفيسة وغيرها من أدوات التزين والتحلى ، تستمر فائدتها كعناصر من عناصر الاسراف المظهرى من منفعتها الأولى كأدوات من أدوات الجمال . فالذهب مثلا له قيمة كبيرة من حيث الجمال الحسى ، وكثير جدا من الأعمال الفنية التى تحوز التقدير العظيم – ان لم يكن أغلبها – هى فى نفس الوقت على درجة كبيرة من الجمال ، ولو أن جمالها هذا كثيرا ما يقترن بقيمتها المادية . وهذا القول يصدق أيضا على كثير من الأدوات التى تستعمل فى الملبس وبعض المناظر الطبيعية ، كما يصدق بدرجة أقل على أشياء أخرى كثيرة . ولو لم يكن هذا الجمال الحسى الذى تنطق به هذه الأشياء لما رغب أحد فى اقتنائها لذاتها ، ولما كانت دون غيرها اشياء يتباهى بها مقتنوها ومستعملوها . لكن منفعتها لمقتنيها ترجع عادة الى الشرف الذى يضفيه اقتناؤها واستهلاكها أو الى ما تجنبه صاحبها من سوء السمعة ، أكثر مما ترجع الى أصالة جمالها .

وهذه الأدوات جميلة المظهر ، ومن هنا كانت فائدتها من هذه الناحية ، بصرف النظر عن فوائدها من النواحى الأخرى . وهى على هذا الاعتبار ذات قيمة لمن يستطيع حيازتها او احتكارها ، ولهذا يتطلع الناس الى حيازتها على أنها ممتلكات قيمة . كما أن متعة حيازتها تبعث فى نفس حائزها الشعور بالتفوق المالى فى نفس الوقت الذى يعمل فيه تأمله اياها على ارضاء حاسة تقديره للجمال . لكن جمال هذه الأدوات، بالمعنى البسيط لهذا اللفظ، هو الدافع – وليس الأساس – لاحتكارها او لقيمتها التجارية . « فمع عظم الجمال الحسى للجواهر الا أن ندرتها وارتفاع أثمانها يضفى عليها نوعا من الامتياز لم يكن يتوفر لها لو كانت رخيصة » . والحقيقة أن هناك قليلا من الدوافع الى امتلاك مثل هذه الأدوات الجميلة واحتكارها ، الا ما كان مرجعه الى طابع التفاخر بصفتها من علامات الاسراف المظهرى . ومعظم الأشياء التى ينطبق عليها هذا الوصف ، باستثناء ما كان منها من أدوات الزينة الشخصية ، تخدم كثيرا من الأعراض الأخرى بنفس الدرجة التى تخدم بها هذا الغرض التفاخرى ، سواء كانت فى حيازة الشخص الذى ينظر اليها أو لم تكن . وحتى فيما يختص بأدوات الزينة الشخصية ، يجب أن نزيد أن هدفها الرئيسى هو فى أنها تضفى مزيدا من البهاء على لابسها او مالكها اذا قورن بغيره ممن لا

يستطيعون حيازتها . والفائدة التى نحصل عليها من الأشياء الجميلة لا تزيد زيادة كبيرة أو عامة لمجرد امتلاكنا اياها .

والتعميم الذى يقوم عليه بحثنا الى الآن هو ان اية مادة ذات قيمة يجب - لكى ترضى ذوقنا الجمالى - ان تتفق ومقتضيات الجمال وارتفاع الثمن كليهما . لكن هذا ليس كل شيء . فان ارتفاع الأثمان يؤثر فوق ذلك على أذواقنا الى درجة تمتزج عندها درجات ارتفاع الثمن فى أذهاننا بصفات الجمال فى هذه المادة فتنطبع نتيجة هذا فى أذهاننا على أنها تقدير للجمال فحسب ، وتكون النتيجة ان تصبح درجات الجمال مفهومة على أنها صفات الجمال للمادة الغالية الثمن . وهذه الدرجات الجمالية ترضينا بصفتها من علامات الأشياء النفيسة التى نتباهى بها ، ومن هنا يمتزج الرضاء الذى تبعثه فى نفوسنا بذلك الرضاء الذى يبعثه جمال شكلها ولونها . ولهذا كثيرا ما نعلن عن المادة الجميلة المظهر مثلا أنها جميلة الى حد الكمال ، مع أننا كثيرا ما نجد ان قيمتها الحقيقية لا تسمح بغير التعبير عنها بأنها اداة للمباهاة المالية .

وهذا المزج والخلط بين عناصر ارتفاع الأثمان والجمال ربما كان أوضح ما يكون فى أدوات الملبس وأثاث المنزل . وقانون التفاخر فى أدوات الملبس هو الذى يقرر أى أنواع الملابس والوانها ومادتها ومظهرها العام هى التى تصبح مقبولة فى نظر الانسان فى أى وقت معين ، وكل خروج على هذا القانون لا ترضى عنه اذواقنا كما لو كان خروجا على الحق . كما أن الرضاء الذى ننظر به الى الملابس التى تتفق والطراز الحديث لا يشوبه شيء من التظاهر بأى حال من الأحوال . فنحن على استعداد دائما أن نحس بشعور الرضاء عن الملابس التى تتفق والطراز السائد ، وهو شعور ليس فيه شيء من النفاق. فالملابس الخشنة والألوان الصارخة ، مثلا ، تؤذى أذواقنا أحيانا عندما يكون الطراز السائد هو الملابس المصنوعة من مواد راقية لامعة وألوان غير صارخة. وقبعة جميلة من قبعات هذا الموسم لا شك ترضى ذوقنا اليوم أكثر من قبعة لا تقل عنها جمالا لكنها من طراز كان سائدا فى العام الماضى ، على أننا لو نظرنا اليهما بعد ربع قرن مثلا لكان من أصعب الأشياء فيما أعتقد أن نفضل احداهما على الأخرى . وكذلك نستطيع أن نذكر أيضا أننا اذا نظرنا اليهما من حيث ملاءمتهما للجسم البشرى وحدها فان اللمعة الجميلة التى تبدو فى قبعة الرجل الأنيق ، أو فى حذائه الجلدى ، ليس فيهما من الجمال شيء يزيد على ما فى لمعة الأكمام المهلهلة ، ومع ذلك فليس هناك شك فى ان جميع أفراد الطبقة العالية (فى المجتمعات الغربية المتحضرة) تتمسك تمسكا شديدا وغريزيا بالأمر الأول على أنه من أكثر الأمور جمالا ، وتتجنب الثانى على أنه منفر لكل حاسة من الحواس . ومن المشكوك فيه كثيرا أننا نستطيع

اغراء أى انسان بأن يلبس مثل هذه القبعة التى تلبسها المجتمعات المتحضرة الا لدافع قهرى قائم على أسس غير الأسس الجمالية ·

وزيادة تعويدنا لأنفسنا على أن ننظر بعين التقدير الى كل ما يميز البضائع الغالية ، وزيادة تعودنا على أن نقرن الجمال وحسن السمعة ، تكون نتيجتهما ان السلعة الجميلة غير الغالية الثمن تعتبر فى نظرنا سلعة غير جميلة · ومن قبيل هذا ما يحدث ، مثلا ، من أن بعض الزهور الجميلة تزدريها العين باعتبارها من الأعشاب التى لا ترتاح العين لرؤيتها ، ومن أن بعض زهور أخرى من التى تستطاع زراعتها بسهولة نسبية تقبلها ـ بل وتعجب بها ـ الدرجات الدنيا من الطبقة الوسطى ، الذين لا يستطيعون شراء أنواع أخرى اغلى ثمنا · لكن هذه الأنواع انفسها تأنف منها الطبقة ذات اليسار التى تستطيع شراء الزهور الغالية الثمن والتى أهلتها تربيتها الى درجة عالية من درجات تذوق الجمال فيما تعرضه محلات بيع الزهور ، بينما لا تزال هناك انواع أخرى من الزهور لا تزيد على هذه جمالا ويتكلف انتاجها نفقات كثيرة تجتذب قدرا كبيرا من اعجاب المغرمين بالزهور الذين اكتملت أذواقهم فى بيئات شديدة المحافظة على حسن الأدب ·

وهذا التفاوت فى مسائل الذوق الذى نشاهده بين طبقة وأخرى من طبقات المجتمع ، نشاهده أيضا فيما يتعلق بأنواع أخرى كثيرة من المواد الاستهلاكية ، كما هى الحال مثلا فيما يتعلق بالأثاث والمساكن والمتنزهات والحدائق · وهذا التفاوت فى النظر الى ما هو جميل من هذه الأنواع المنوعة من الأشياء ليس تفاوتا فى المعايير التى يحكم الذوق الجمالى على أساسها · وليس هذا اختلافا جوهريا فى المواهب من حيث تقديرها للجمال ، بل هو بالحرى اختلاف فى معايير حسن السمعة ، وهى المعايير التى تحدد أى نوع من مواد الاستهلاك اليق بالطبقة التى ينتمى اليها الشخص الذى يختار من بين هذه الأشياء · فهو اختلاف فى تقاليد التملك فيما يختص بأنواع الأشياء التى يستطيع الفرد استهلاكها وتدخل فى باب الذوق والفن ، دون ان يكون فى هذا الاختيار اى حظ من قدره · وهذه التقاليد تتحدد ـ بدرجة كبيرة أو قليلة من الدقة ـ على أساس المستوى المالى لحياة الطبقة التى ينتمى اليها الفرد ، مع قدر طفيف من التجاوز يمكن تعليله على أسس أخرى

وفى الحياة اليومية كثير من الشواهد العجيبة على الطريقة التى يختلف بها قانون الجمال عند النظر الى الأدوات التى نستعملها ، من طبقة من الناس الى أخرى ، وكذلك عن الطريقة التى ينحرف بها الذوق الجمالى المتعارف عليه عن الطريق الذى يمليه حب الاشتهار بالثراء · ومن هذا القبيل نرى المروج الخضراء والحديقة المنزلية أو المتنزه الذى سويت أعشابه بعناية يستهوى أذواق الشعوب الغربية ، ويبدو أنها تستهوى بصفة خاصة أذواق الطبقات

الميسورة فى المجتمعات التى تزيد فيها نسبة العنصر الأشقر ذى الرؤوس الطويلة زيادة ملحوظة . ولا ريب أن هذه الروح تنطوى على عنصر من عناصر الجمال الحسى هو - ببساطة - نوع من لادراك الباطن ، ولا شك أنها بصفتها هذه تروق لجميع الأجناس وجميع الطبقات بطريقة مباشرة ، لكنها قد تكون اكثر جمالا بلا شك فى عين الأشقر ذى الرأس المستطيل أكثر مما هى فى أعين معظم الأجناس الأخرى من البشر . وهذا التقدير العظيم الذى تحظى به رقعة من الأرض الخضراء لدى هذا الفريق اكثر مما تحظى به لدى بقية السكان ، مضافا اليه مظاهر أخرى يمتاز بها مزاج العنصر الأشقر ذى الرءوس المستطيلة، يقوم دليلا على أن هذا العنصر الجنسى كان فى وقت من الأوقات - وعلى مدى أزمان طويلة - عنصرا رعويا يقطن اقليما ذا مناخ رطب . فالمرج الذى سويت أعشابه بعناية يبدو جميلا فى أعين قوم يميلون بالوراثة الى سهولة الاحساس بالرضا عند تأمل مرج أو مرعى معتنى به عناية كافية .

والمرج هو من حيث الغرض الجمالى مرعى للبقر ، وفى بعض الأحوال فى وقتنا الحاضر - حيثما تساعد الظروف الملابسة على استبعاد شـبهة حب التدبير ، تتحقق الأحلام التى يتغنى بها العنصر الأشقر ذو الرأس المستطيل بامتلاك بقرة وتركها ترعى فى مروجه أو أملاكه ، وفى مثل هذه الحال نرى الواحد منهم يتخير بقرة من نوع غالى الثمن ، وحينئذ نرى شـبهة حب الاقتصاد ، وهى التهمة التى تكاد تقترن فى جميع الأحوال بتربية البقرة ، تتنافى مع ما يقترن بتربية هذا الحيوان لأجل الزينة أو الهواية . لذلك نجد فى جميع الأحوال فائدة البقرة كـأداة تعبر عن حسن الذوق أمـرا يجب استبعاده - اللهم الا اذا كانت مظاهر الترف المحيطة بها تقوم دليلا على عكس هذا . واذا كان الميل الى نوع من الحيوانات الرعوية شديدا لدرجة يصعب معها التغلب عليه ، فكثيرا ما يحل محل البقرة حيوان آخر يقل عنها كثيرا أو قليلا كالغزال أو الوعل أو ما اليهما من الحيوانات الغريبة . وهذه الحيوانات التى تستبدل بالبقرة ، ولو أنها اقل من البقرة جمالا فى عين الرجل الغربى ذى الميول الرعوية ، الا أنها تفضلها فى مثل هذه الأحوال ، من أجل أنها أغلى ثمنا وأقل فائدة الى حد كبير ، ومن أجل ما يتبع ذلك من اشتهار مالكهـا بالثراء ، مع أنها ليست مربحة لا حقيقة ولا تصورا .

والمتنزهات العامة هى بطبيعة الحال نوع من المروج ، وهى على احسن الفروض نوع من المراعى . ومثل هذه المتنزهات تتم صيانتها بالطبـع عن طريق رعى الحيوان لما بها من العشب ، والماشية التى تسرح على العشب هى عامل يضيف الى المرعى عنصرا جديدا لا يقلل من جماله . وهذا أمر يشعر به أى شخص يكون قد شاهد مرعى نال نصيبا كافيا من العناية . لكن مما يجدر ذكره ، على سبيل التعبير عن عنصر الثراء فى الذوق العام ، أنه يندر أن يلجأ

الناس الى هذه الطريقة – طريقة اطلاق الماشية ترعى أرض الملاعب العامة – للعناية بها ، على أن خير ما يستطيع العامل الماهر أن يفعلـــه تحت اشراف رئيس متمرن هو الوصول بالمتنزه الى شيء قريب الشبه بأرض المراعى . لكن النتيجة النهائية لا تصل أبدا الى مستوى الجمال الفنى الذى تتمخض عنه عملية الرعى ذاتها . لكن العرف العام لا يرى فى قطيع الماشية الا دليلا على الرغبة فى التوفير والاستفادة ، لدرجة ان ظهوره فى أرض الترفيـه العامة يصبح شيئا غثا لا يحتمل . وهذه الطريقة من طرق العناية بالملاعب العامة طريقة رخيصة ، وهى لذلك غير لائقة .

ومن هذا القبيل مظهر آخر من المظاهر الخاصة بالملاعب العامة ، فهناك استعراض مقصود للاسراف يصحبه تظاهر بالبساطة والانتفاع . والملاعب الخاصة أيضا تكشف عن نفس هذه الفراسة حيثما كان مالكها أو مديرها ممن تطورت اذواقهم فى ظل العادات التى تسيطر على حياة الطبقة الوسطى ، أو فى ظل تقاليد الطبقة العليا أيام طفولة الجيل الذى يسير الآن الى الزوال . لكن الملاعب التى تناسب الذوق الذى شبت عليه الطبقة العليا فى وقتنا الحاضر ، لا تظهر فيها تلك الملامح بنفس الدرجة . وهذا الاختـــلاف فى الذوق بين الجيل الماضى والجيل الصاعد من الطبقة المهذبة مرده الى الوضع الاقتصادى المتغير . وهناك اختلاف مشابه نستطيع ملاحظته من نواح أخرى ، كمـــا نستطيع أن نلاحظه فى الأغراض المقصودة من المحافظة على أراضى الترفيـه العامة . ففى هذه البلاد (يقصد أمريكا) ، كما فى كثير غيرها ، يوجد قسم كبير من السكان ، أو هو كان يوجد الى ما قبل نصف القـــرن الأخيـــر ، كان يمتلك من الثروة ما ينفى عنه شبهة الجرى وراء التوفير . وقد كان أفراد ذلك القسم الصغير من السكان – بسبب عدم كفاية وسائل المواصلات – موزعين فى جهات متفرقة بعيدين عن الاتصال بعضهم ببعض ، ولذلك لم يكن هناك أساس يقوم عليه ذوق عام غير مكترث بالتبذير . لهذا لم تجد ثورة اذواق الطبقة المهذبة ضد الرغبة الشائعة فى التوفير ما يكبح جماحها . وحيثما استطاع الذوق الجمالى الاصـــيل ان يكشف عن نفسـه فى جهات متفرقة فيظهر الرضا عن ملابســات الاقتصاد أو التوفير ، فانـه حينئذ ينقصه القبول الاجتماعى الذى لا يستطيع منحه الا عـدد كبير من الناس ذوى العقليات المتجانسـة . لهذا لم يكن للطبقة الراقيــة راى عام ذو وزن يستطيع ان يغض الطرف عن دلائل الرغبة فى التوفير التى قد تبـدو فى المحافظة على الملاعب ، ولم يكن هناك بالتالى اختـلاف ذو وزن بين المثل الاعلى للطبقة المترفة والطبقة الوسطى الدنيا فى نظرتها الى الاراضى التى تخصص للمتعة . فكلتا الطبقتين قد أقامت مثلها العليـــا ونصب أعينهـا الخوف من ان تتهم بالفقر او بالحرص على المال .

واليوم نرى تشعبا فى المثل العليـا قد أخذ فى الظهور . فالقسم من الطبقة المترفة الذى كان دائما معفى من العمل ومن هموم المال مدى جيل او اكثر ، قد أصبح اليوم من الكثرة بحيث يستطيع ان يكون له راى فيما يتعلق بالذوق ـ ثم ان سهولة تنقلات اعضاء هذا القسم قـد زادت من سهولة خلق « تماسك اجتماعى » بين افراده . وهذه الطبقة الممتازة تعتبر البعد عن التوفير امرا عاديا لدرجة انه قد فقد كثيرا من فائدته كأساس لقياس السمعة المالية . من اجل هذا نجد قوانين الذوق لدى الطبقـة الراقية فى هذه الأيام لا ترى ضرورة ملحـة لدوام التظاهر بالتبذير ودوام التقيد بالابتعاد عن مظاهر الاقتصاد . ومن هنا نرى نزوعا الى كل ما هـو ريفى المظهر وما هو طبيعى ، يبدو فى المتنـزهات وفى الملاعب على هـذه المستويات الاجتماعية والثقافية العالية . وهذا النزوع هو الى حد كبير مظهر لغريزة حب الاتقان ، وهى تؤدى عملها بدرجات متفاوته من التوافق ، ويندر أن تكون بعيدة بعدا كليا عن التأثر بالمؤثرات الخارجية ، وقد تتدرج فى بعض الأحيان الى شىء لا يختلف كثيرا عن ذلك التظاهر بحب الطابع الريفى الذى أشرنا اليه آنفا .

وهناك ميل شديد ، يبدو حتى فى أذواق الطبقـة الوسطى ، الى بعض المبتكرات المفيدة التى يتم استخدامها عن التبذير الواضـح ، ولكنها مع ذلك تقتنى تحقيقا لقانون التبذير الذى لا يرمى الى الاشتهار بالثراء ، وهو لهذا يؤدى غرضه بطرق ووسائل منوعة تبعد عنه شبهة النفعية ـ ومن هذه المبتكرات الأسوار التى تبنى على طراز ريفى ، والقنـاطر والخمائل والمظلات ، وما اليها من المظاهر التى يقصد منها الى التجميل .

ومن طرق التظاهر بالانتفاع ـ وقد تكون اكثرها شرودا عن مستلزمات الاقتصاد ـ استعمال الأسوار والتكعيبات المصنوعـة من الحديد المطروق على طراز ريفى وانشاء الطرق المتعرجة عبر الارض المستوية .

ان النخبة من الطبقة المترفة قد تخطت طور الانتفاع بأنواع الجمـال المالى ذات الفائدة الزائفة ، وذلك من بعض النواحى على الاقل . لكن اذواق الذين دخلوا حديثا فى عداد الطبقة المترفة الحقيقية ، واذواق الطبقـة الوسطى والدنيا ، لا تزال بحاجة الى جمال مالى يحل محل الجمال الحسى حتى فى تلك الاشياء التى تنال الاعجاب من اجل ما بها من جمال طبيعى خاص بها .

والذوق العام فى هذه الأمور تمكن مشاهدته فى التقدير الكبير الشائع لفن تشذيب الحدائق ، وفى أحواض الزهور التقليدية فى الحدائق العامة . وقد يكون من أحسن الشواهد التى يمكن سردها على غلبـة هذا الجمال المالى على الجمال الحسى فى أذواق الطبقة الوسطى ، ما يبـدو فى اعادة

تخطيط الملاعب التى كان يشغلها اخيرا المعرض الكولمبى . فهذا الدليل من شأنه ان يؤيد ما ذهبنا اليه من أن الحاجة الى التبذير الذى يكسب لصاحبه حسن السمعة لا تزال على أشدها حتى حيثما يجتنب كل تظاهر بالاسراف . فان التأثير الفنى الذى تم فعلا خلال عملية اعادة التخطيط قد ابتعد نوعا ما عما كان يحدث لو ان هذه العملية قد عهد بها الى أناس لا يسيرون على هدى قوانين الذوق المالية . وحتى النخبة الممتازة من اهل المدينة ترقب خطوات العمل برضاء لا حدود له ، مما يدل على أن هناك تباينا قليلا - ان كان هناك تباين على الاطلاق - بين اذواق الطبقة العليا والطبقتين الوسطى والدنيا من اهل المدينة - فالشعور بالجمال عند سكان هذه المدينة التى تمثل الثقافة المالية الراقية ، حريص على ان لا يحيد عن مبدئه الثقافى العظيم وهو الحرص على التظاهر بالتبذير .

وحب الطبيعة ، وهو نفسه قد يكون نابعا من قانون راق من قوانين الذوق ، يعبر عن نفسه أحيانا بطرق غير متوقعة ، على هدى قانون الجمال المالى هذا ، ويؤدى الى نتائج قد تبدو - لمن لا يتأملها مليا - غير متجانسة. فمثلا عادة غرس الاشجار فى المناطق العارية عنها بهذه البلاد ، وهى عادة يحبذها الجميع ، قد امتدت مزاولتها - بصفتها بابا من أبواب الانفاق المشرف - الى مناطق تكثر بها الأشجار الكثيفه ، حتى لم يعد من الأمور غير العادية أن ترى قرية أو فلاحا فى المنطقة التى تغطيها الأشجار يجتث من الأرض أشجارها الأصلية ليغرس محلها فورا فسائل من أنواع دخيلة يزرعها فى انحاء المزرعة او تزرعها القرية على طول شوارعها . وبهذه الطريقة قد تجتث غابة كاملة من اشجار البلوط أو الفرغار او الزان او البندق البرازيلى او الشوكران أو التامول ، كى يخلو مكانها لغرس فسائل الاسفندان اللين أو الحور أو الصفصاف . فهناك شعور بان ما ينطوى عليه ترك أشجار الغابة على حالها من دلالة على حب تجنب الانفاق ، ينأى بالمرء عن الوقار الذى يستوجب عمل شيء يؤدى غرضا من اغراض الجمال أو الشرف .

ومثل هذه الأمور الشائعة التى يسترشد فيها الذوق بالسمعة المالية ، يمكن أن نتتبع آثارها فى المستويات السائدة للجمال فى الحيوان ، وقد سبقت الاشارة الى الدور الذى يلعبه هذا القانون الذوقى الذى يحدد للبقرة مستواها الجمالى عند الناس . ومثل هذا يمكن ان يقال عن الحيوانات الاليفة الاخرى ، على قدر فائدتها للمجتمع ، كالطيور المنزلية مثلا والخنازير والماشية والاغنام والماعز وخيول الجر . فهذه جميعا من نوع المواد الانتاجية وتؤدى دورا نافعا بل ومربحا فى أغلب الاحوال . ومن أجل هذا ليس من السهل أن ننسب اليها شيئا من الجمال . لكن الأمر يختلف فيما يتعلق بالحيوانات المنزلية التى لا تخدم فى العادة غرضا ما

كالحمام والببغاوات وغيرها من طيور القفص ، والقطط والكلاب والخيل السريعة . فهذه فى العادة من مواد الاستهلاك المظهرى . وهى لهذا ذات طبيعة شرفية ، ونستطيع حقا ان نعتبرها جميلة . وهذه الفصائل من الحيوان هى عادة محل اعجاب الطبقات العليا ، بينما الطبقة الدنيا ماليا ـ والأقلية الممتازة من الطبقة المترفة التى كفرت منذ زمن بالقانون القاسى الذى يستنكر الاقتصاد ـ ترى الجمال فى كل انواع الحيوان على السواء دون أن يكون هناك خط فاصل يضع حدودا مالية دقيقة بين ما هو جميل وما هو دميم .

اما فى حالة الحيوانات المنزلية التى تربى ليعرف عن صاحبها الثراء وتعتبر جميلة ، فهناك أساس آخر للتقويم يجب أن نتناوله بالكلام . ففيما عدا الطيور التى تدخل فى عداد الحيوانات الأليفة التى تتم تربيتها عن ثراء صاحبها ، والتى اكتسبت منزلتها بين هذا النوع من الحيوان لسبب واحد هو كونها لا تدر ربحا ، فان الحيوانات التى تستحق الذكر بصفة خاصة هى القطط والكلاب والخيل السريعة . والقطط اقل قيمة فى هذا المجال من النوعين الآخرين اللذين ذكرناهما توا ، لأنها أقل منهما استهلاكا للمال ، بل انها قد تؤدى بعض الاغراض المفيدة احيانا . ومزاج القط فى نفس الوقت غير ملائم من حيث فائدته للأغراض الشرفية ، فهو يعيش مع الانسان على قدم المساواة ، ولا يدرى شيئا عن علاقة المنزلة الاجتماعية التى هى الأساس القديم الذى يقوم عليه كل تمييز فى المقام والشرف والسمعة ، بالاضافة الى انه ليس عاملا سهلا من عوامل الموازنة القائمة على التحاسد بين مالكه وبين جيرانه . وهناك استثناء لهذه القاعدة الأخيرة نجده فى اقتناء السلالات النادرة الجميلة مثل قطط أنقره التى لها قيمة شرفية على أساس أنها غالية الثمن وأن لها لذلك حقا خاصا فى أن تسمى جميلة على اسس مالية .

وللكلب مزايا سواء من حيث فائدته أو من حيث المواهب المزاجية الخاصة ، وكثيرا ما يقال عنه انه صديق الانسان ، وكثيرا ما ذكر ذكاؤه واخلاصه بالثناء . ومعنى هذا أن الكلب هو خادم الانسان وأن له موهبة الخضوع الأعمى وسرعة العبد الى فهم مزاج سيده . والى جانب هذه الصفات التى تلائمه جيدا من حيث علائق المنزلة الاجتماعية ـ والتى لا بد من أجل غرضنا الحاضر أن تعتبر صفات نافعة ـ نجد أن الكلب له بعض خصائص لها قيمة جمالية أكثر غموضا . فهو أقذر الحيوانات الأليفة جسما وأحطها عادات . من أجل هذا نراه يتقرب من صاحبه بطريقة ملؤها الخضوع والمداهنة ، مع الاستعداد لالحاق الأذى والمتاعب بكل من عداه . فالكلب اذن يتطلب رضاءنا عن طريق استرضاء حبنا للسيادة ، ولما كان هو أيضا

عاملا من عوامل التبذير ولا يؤدى فى العادة غرضا نافعـــا ، فان له فى نظر الناس مكانة أكيدة كعامل من عوامل حسن الســــمعة • والكلب فى نفس الوقت يقترن فى خيالنا بالقنص ـ وهو حـــده ، تستحق الجزاء وتعبير عن الدوافع العدوانية التى تعتبر من أمارات الشرف •

ونحن اذا نظرنا الى الكلب من هذه الزاوية ، فان ما قد يكون له من جمال فى الشكل ورشاقة فى الحركة ، وما قد ينسب اليــــه من الصفات العقلية ، كلها أمور يعرفها الجميع ويبالغون فى التغنى بها • بل ان سلالات الكلاب التى استولدها الهواة وأصبحت ذات أشكال غاية فى القبح ، أصبح كثير من الناس يعتبرونها جميلة • وهذه السلالات من الكلاب ـ كغيرها من الحيوانات التى يربيها الهواة ـ تتدرج فى أسعارها وفى درجات جمالهـــا تدرجا يتناسب الى حـــد ما مع غرابة أشكالها ودرجة ابتعـــاد الشكل عن المألوف فى أية حالة خاصة • وهنا وفيما يتعلق بهذا الأمر ، نرى أن التمييز فى أوجه الاستفادة على أساس غرابة الشكل وابتعاده عن المألوف يمكن أن يتحول فيقوم على أساس ندرة النــــوع وما يستتبعه ذلك من غلاء ثمنه • والقيمة التجارية لدرجة المسخ فى أشـــكال الفصـــيلة الكلبية ، كالذى نراه سائدا فى أشكال الكلاب المنزلية التى يقتنيها الرجال والنساء على السواء ، تقوم على النفقات الباهظة التى يتطلبها انتاجها ، بينما قيمتها عند مقتنيهـــا تقوم أساسا على فوائدها كدليل على التبديد الواضح للمال • ومن هنـــا ، وبطريقة غير مباشرة ، صارت لها قيمة اجتماعيه بسبب ما يستلزمه اقتناؤها من انفاق للمال • وهكذا أصبحت تحوز الاعجاب وتعرف بالجمال • ولمـــا كانت كل رعاية تمنح لهذه الحيوانات لا يمكن بحال من الأحـــوال أن تكون مربحة أو مفيدة ، فانها تكون أيضا من أسباب حسن السمعة • ولما كانت عادة بذل الرعاية لها بالتالى غير مستهجنة فانها قد تتطور الى محبـــة عادية شديدة المتانة وذات طبيعة يشوبها قدر كبير من الاحسان • وهكذا نجد فى المحبة التى يبديها الناس للحيوان الأليف ، ان قانون الاسراف موجـود الى حد بعيد بدرجة ما ، كقانون يوجه العاطفة ويشكلها فى تخير هدفها • ومثل هذا أيضا صحيح ، كما سنرى وشيكا ، فيما يتعلق بالمحبة التى تبذلهـــا للناس أيضا ، ولو أن الطريقة التى يعمل بها القانون فى تلك الحالة يختلف نوعا ما •

والحال فيما يتعلق بالحصان السريع تشبه حال الكلب كثيرا • فهو على العموم باهظ النفقات ، أو كثير التكاليف قليل الفائدة ـ من الناحيـــة الانتاجية • فان تكن له قيمة انتاجية ، من حيث توفير الرخاء للمجتمع أو تسهيل سبل الحياة للانسان ، فانها تأتى فى شكل استعراض للقوة وسرعة الحركة اللتين تروقان للذوق الجمالى العام • هذه بطبيعة الحال منفعـــة أساسية • فالحصان لم يوهب الاستعداد الروحى للتبعيـــة الذليلة بالقدر

الذى وهبه الكلب ، ولكنه يستجيب استجابة فعالة لنزوات صاحبه اذا اراد تسخير القوى الحيوانية فيما حوله لفائدته وحسب اختياره ، ويعكس عن طريقهما ما فى شخصيته من قدرة على السيطرة. فالحصان السريع قد يكون حصان سباق ، ممتازا أو غير ممتاز. وبهذه الصفة تتحقق فائدته لصاحبه ففائدة الحصان السريع تأتى الى حد كبير من قيمته كوسيلة لرفع قدر صاحبه ، لأن مما يرضى عند صاحبه حب التسلط والسيادة أن يرى حصانه يفوق حصان جاره • ولما لم تكن هذه الفائدة مربحة ، بل هى على العموم تدخل فى باب الاتلاف ، وبطريقة بادية للعيان كذلك ، فانها بذلك تكون من دواعى الشرف ، ومن هنا تكسب الحصان السريع مركزا ممتازا كعامل من عوامل الزهو لصاحبه • أضف الى ذلك أن حصان السباق الحقيقى له أيضا فائدة فخرية غير منتجة تأتى من كونه أداة من أدوات القمار •

فالحصان السريع اذن محظوظ من الناحية الجمالية ، من حيث أن قانون حسن السمعة المالية يجيز تقدير ما قد يتوافر له من جمال الشكل أو الفائدة • وفى وجوده ينعكس قانون الاسراف المظهرى والدليل المؤيد لحب السيطرة والتفوق • والحصان ، الى جانب هذا ، حيوان جميل ، ولو أن حصان السباق لا يبدو كذلك لا فى أعين أولئك الذين لا ينتمون الى طائفة هواة خيل السباق ولا الى أولئك الذين يتوقف ذوقهم الجمالى على حكم هواة خيل السباق • ويبدو أن هذا الذوق الذى لم تتح له التنمية الكافية يرى أن أجمل حصان هو الذى مر بتطور جذرى يقل عما مر به حصان السباق خلال عملية الانتخاب التى تمت أثناء عملية التطوير التى قام بها مربو هذا الحيوان • ومع ذلك فانه عندما يريد كاتب او خطيب ـ لا سيما من أولئك الذين تبدو فصاحتهم تافهة ـ أن يدلل على رشاقة الحيوان ومنافعه ، من الناحية الخطابية ، فانه فى العادة يذكر الحصان ، وعادة ما يتعمد قبل الانتهاء من خطابه أن يوحى الى السامعين بأنه يقصد حصان السباق •

ويجب أن نشير الى أنه عند ترتيب درجات الأنواع المختلفة من الخيل ومن الكلاب ، الأمر الذى يصادفه المرء حتى بين الناس ذوى الأذواق التى لم تنل حظا كبيرا من التنمية فى مثل هذه الأمور ، يستطيع المرء أن يكتشف عن أثر آخر مباشر وواضح من آثار قواعد الشهرة المالية لدى الطبقة المترفة• ففى هذه البلاد مثلا (أمريكا) نرى أذواق الطبقة المترفة قد تأثرت فى مفاهيمها الى حد ما بالعادات والتقاليد السائدة ـ أو التى يعتقد أنها سائدة ـ بين الطبقة المترفة فى بريطانيا • وهذا فيما يتعلق بالكلاب صحيح الى درجة أقل مما هو فيما يتعلق بالخيل • ففى الخيل ، لا سيما خيل الركوب ـ التى لا تخدم على أحسن الفروض الا غرض التظاهر بالاتلاف ـ

نجد أن جمال الحصان يتناسب مع مقدار ما هو انجليزى ، اذ أن الطبقة المترفة الانجليزية - من حيث ما يتعلق بمفاهيم حسن السمعة - هى الطبقة المترفة العليا فى هذه البلاد (أمريكا) ، ومن هنا كانت هى المثل الذى تحتذيه الطبقات الأقل منها درجة • وهذه المحاكاة فى طرائق ادراك الجمال والحكم على الذوق ليس من الضرورى أن تتمخض عن حكم قائم على التحيز او على النفاق والمحاكاة • فان التحيز اذا قام على هذا الأساس حكم على الذوق خطير بقدر ما هو خطير اذا قام على أى أساس آخر • والفرق هو أن هذا الذوق تحيز لما هو حق من ناحية حسن السمعة لا لما هو حق من ناحية الجمال •

ويجب أن نقرر ان المحاكاة تمتد الى أكثر من الذوق الجمالى البادى فى جسم الحصان فحسب ، فانها تشمل أيضا فن ركوب الخيل والملابس المزركشة التى يلبسها الراكب ، حتى أن الجلسة الصحيحة أو الرشيقة يحددها كذلك العرف الانجليزى كما تحددها الطريقة التى يخطر بها الحصان •

ولكى نبين الى أى حد قد تلعب الصدفة دورا فى تكييف الظروف التى تقرر ما يليق وما لا يليق من وجهة نظر القانون المالى للجمال ، نستطيع أن نذكر أن جلسة الرجل الانجليزى فوق ظهر الجواد ، ومشية الجواد المضنية التى استوجبت تلك الجلسة ، هما من بقايا الزمن الذى كانت الطرق الانجليزية فيه من الرداءة ، بسبب الأوحال والقاذورات ، بحيث كان اختراقها شبه مستحيل على حصان يسير بخطوات مريحة ، حتى أن شخصا يتمتع بذوق راق فى الفروسية يركب اليوم حصانا غليظ الخلقة أبتر الذيل ، ويجلس فوقه جلسة متعبة ويسير بخطى مضنية ، وذلك لأن الطرق الانجليزية كانت خلال معظم سنوات القرن الماضى فى حالة يستحيل معها اختراقها على جواد يسير بخطى تشبه خطى الخيل ، أو على حيوان تؤهله بنيته للسير بسهولة على الأرض الصلبة المكشوفة التى يتميز بها الموطن الأصلى للحصان •

ولم يقتصر تأثر قوانين الذوق بقوانين الشهرة المالية على ما يتعلق بالمواد الاستهلاكية وحدها - بما فيها الحيوانات المنزلية ، ففى وسعنا أن نقول شيئا من هذا القبيل عن الجمال فى الأشخاص • ولكى نتجنب كل ما يمكن أن يكون موضعا للتناقض ، سوف لا نقيم وزنا فى هذا المجال لما قد يكون هناك من تحيز شائع للمظهر المبجل والطلعة المهيبة التى جرى العرف الدارج على أن يقرنهما بالثراء عند كبار الرجال • فهذه السمات معروفة الى حد ما بأنها علامات مؤكدة على الجمال الشخصى • لكن هناك ، من جهة أخرى ، عناصر خاصة للجمال فى الأنثى تنضوى تحت هذا الاسم

وذات طابع خاص ومحدد ، لدرجة أنه يسمح بتقديره تقديرا مفصلا . ومن القواعد المقررة تقريبا أن المجتمعات التى ما زالت فى طور التنمية الاقتصادية والتى تتوقف قيمة المرأة عند الطبقة الراقية فيها على مقدار ما تؤدى من الخدمات ، تصبح فيها المرأة القوية ذات الأطراف الطويلة هى المثل الأعلى للجمال الأنثوى . فأساس التقدير هو قوة البنية ، بينما تقاطيع الوجه ليس لها الا قيمة ثانوية . ومن الأمثلة المعروفة جيدا على هذا النموذج الجمالى لدى الثقافات العدوانية الأولى ، ما ورد عن العذارى فى أشعار هوميروس .

هذا المثل الأعلى يعتريه التغير فى أدوار التطور التالية ، عندما تصبح الزوجة لدى الطبقات العليا زوجة بلا عمل . حينئذ نرى المثل الأعلى يشمل لخصائص التى تستتبعها أو التى تأثرت بها حياة الدعة المفروضة على الزوجة . فالمثل الأعلى الذى تقبله الجماعات فى مثل هذه الظروف يمكن أن نراه فيما جاء من وصف النساء الجميلات على لسان الشعراء والكتاب فى عصور الفروسية . فقد جرى العرف التقليدى فى تلك الأزمان على أن المرأة ذات الأصل العريق يجب أن تخضع لحماية دائمة وأن تعفى اعفاء تاما من أداء أى عمل نافع . وقد كان المثل الأعلى للجمال الذى تمخض عنه عصر الفروسية يهتم قبل كل شىء بتقاطيع الوجه ويتركز على دقته وعلى دقة اليدين والقدمين ، وعلى القوام الرشيق ، وعلى الوسط الأهيف بصفة خاصة . وفى الوصف التصويرى لنساء ذلك العصر ، وفيما جاء فى التقليد الخيالى لفكر عصر الفروسية وشعره ، نرى الوسط يضمر حتى ليوحى بالوهن البالغ . ونفس هذا المثل الأعلى لا يزال باقيا عند قسم كبير من الناس فى المجتمعات الصناعية الحديثة . ولكن يجب أن نذكر أن تشبثه باق على أشده بين أقل المجتمعات الحديثة تقدما من الناحية الاقتصادية والمدنية ، وهى التى لا تزال تحتفظ بأكبر قدر من مقومات الثقافة العدوانية ومستوياتها . ومعنى هذا أن المثل الأعلى لعصور الفروسية لا يزال باقيا فى أحسن حالاته لدى تلك المجتمعات التى يمكن أن نعتبرها أقل المجتمعات تقدما . ولا تزال هناك بقايا من هذا المثل الخيالى الباهت تظهر بكثرة فى أذواق الطبقات الميسورة فى دول القارة الأوروبية .

وفى المجتمعات الحديثة التى بلغت مستويات عليا فى التنمية الصناعية ، نرى الطبقات المترفة العليا قد جمعت من الثروة ما يجعلها تضع نساءها فى مراكز تنأى بهن عن شبهة القيام بأى عمل منتج . وهنا نجد مركز النساء كمستهلكات بالتبعية قد أخذ يفقد أهميته فى نظر معظم الناس . وكانت نتيجة هذا أن المثل الأعلى للمرأة الجميلة قد أخذ يتغير فيعود مرة أخرى ، من المرأة ذات القوام الرقيق الى درجة توحى بأنها مريضة ،

وذات التكوين الشفاف البالغ في رقته ، الى امرأة من الطراز القديم لا تجحد وجود يديها وقدميها ، بل لا تجحد في الواقع الحقائق المادية الغليظة الأخرى فيما يتعلق بشخصها • وفي خلال مراحل التطور الاقتصادى تحول المثل الأعلى للجمال عند الشعوب ذات الثقافة الغربية من المرأة ذات المظهر الجسمانى الى السيدة ، وهو اليوم بسبيله الى التحول ثانيا الى المرأة الأولى، وكل هذا استجابة لتغير ظروف المنافسة المالية . فقد كانت مقتضيات المنافسة فى وقت من الاوقات تتطلب العبيد الأصحاء ، وكانت فى أوقات أخرى تتطلب استعراضا للبطالة بالتبعية ، وبالتالى عجزا واضحا عن أداء أى عمل • لكن الموقف قد بدأ اليوم يتعدى هذه المقتضيات ، اذ أن ظروف التقدم العظيم فى الصناعة الحديثة قد جعلت التعطل بين النساء ممكنا حتى فى بعض المستويات الأدنى بالنسبة لسلم الاحترام والشهرة ، بحيث لم يعد هذا التعطل علامة حاسمة على المركز المالى المرموق •

وفيما عدا التحديد العام الذى يفرضه قانون الاسراف المظهرى على المثل الأعلى لجمال الأنثى ، نجد هناك عنصرا آخر أو عنصرين يستحقان ذكرا خاصا لأنهما يوضحان كيف يستطيع هذا القانون أن يتحكم تحكما شديدا فى ذوق الرجال عن جمال الأنثى • وقد سبقت الاشارة الى أنه فى خلال مراحل التطور الاقتصادى التى يعتبر التعطل البين فيها وسيلة من وسائل حسن السمعة ، يصبح المثل الأعلى لجمال المرأة فى الأيدى والأقدام الدقيقة الصغيرة والوسط الأهيف • هذه المظاهر وما اليها من عيوب التكوين التى تقترن بها فى العادة ، من شأنها أن تنم عن عجز صاحبتها عن بذل أى جهد منتج ، وهى من أجل هذا لا بد ان تبقى بلا عمل وعالة على صاحبها ، فهى غير ذات منفعة وتتطلب كثيرا من النفقة ، ومن هنا كانت ذات قيمة لأنها دليل قائم على أن صاحبها ذو مركز مالى متين • وينتج من هذا أن المرأة فى هذه المرحلة الثقافية تفكر فى تغيير شخصيتها لتكون أكثر مسايرة لمقتضيات أذواق العصر الراقية • وعلى هدى قانون اللياقة المالية يرى الرجال فى المظاهر المصطنعة الناتجة عن هذا التغيير أمورا تثير اعجابهم ، كالوسط الضيق المشدود الذى لبث زمنا طويلا موضع الاعجاب فى المجتمعات ذات الثقافة الغربية ، وكأقدام الصينيين المشوهة • وكل هذه الأشياء لا شك تشويه منفر فى نظر الذوق الذى لم يتعودها ، وتتطلب من الانسان قدرا من التعود قبل أن يستطيع الرضاء بها • ومع ذلك فلا مجال للشك فى أنها تعجب الرجال الذين ألفوا التفكير فيها على أنها من دواعى الفخر التى تجيزها مقتضيات الشهرة المالية • فهى من عناصر الجمال المالى والثقافى التى أصبحت تلعب دورها بصفتها من مقومات المثل الأعلى للأنوثة •

والعلاقة التى نشير اليها هنا بين القيمــــة الجمالية للاشياء وبين قيمتها المالية القائمة على التحاسد ، ليس لها بطبيعة الحال وجود فى ذهن من يقوم بعملية التقييم . وطالما أن الشخص الذى يصدر حكما قائما على الذوق يضع نصب عينيه أن الشىء موضوع الجمال الذى يفكر فيه هو من علامات التبذير والشهرة المالية ، وانه لذلك يمكن من الناحية القانونيـة اعتباره جميلا ، فلن يكون حكمه على الذوق حكما أصـيلا ، ولا يستحق الاهتمام من هذه الناحية . أما العلاقة التى تستحق الاهتمام بين الشهرة وبين الجمال المعروف عن الأشياء ، فتوجد فى تأثير الشـــهرة على طرائق تفكير الشخص الذى يقوم بالتقييم . فهو قد اعتاد اصدار أحكام على قيمة عدد من الأشياء المنوعة - اقتصادية وخلقية وجمالية وشرفيـــة - تتعلق بالأعمال التى يجب عليه أن يقوم بها ، واتجاهه الى الثنـــاء على شىء معين على أساس آخر سوف يكون له أثر على درجة تقديره لهذا الشىء اذا أراد أن يقدره على أساس الجمال . وهذا صحيح بدرجة أخص فيما يتعلق بالتقدير على أسس ترتبط بعامل الجمال ارتباطها بعامل الشهرة . فالتقدير من أجل الأغراض الجمالية والتقدير من أجل أغراض الشهرة لا يقف أحدهما بمعزل عن الآخر بالقدر الذى قد يظنه بعض الناس . والخلط فى الأمر عرضة للحدوث بصفة خاصة بين هذين النوعين من التقييم ، لأن قيمة الشىء من حيث كونه عاملا من عوامل الشهرة لا يسهل فى العادة تمييزها أثناء الكلام باستعمال مصطلحات وصفية خاصة . وينتج من هذا أن المصطلحات التى جرى العرف على استعمالها للدلالة على عناصر جمالية تستعمل للدلالة على هـذا العنصر الغامض من عناصر المنزلة المالية ، ومن السهل أن يأتى فى أعقـــاب ذلك اختلاط فى الآراء . وبهذه الطريقة تندمج متطلبات الشهرة فى المفهوم العام بمتطلبات الذوق الجمالى ، فلا يستسيغ الجمال غير المصـحوب بأمارات حسن السمعة المتعارف عليها . لكن متطلبات الشهرة المـالية ومتطلبات الجمال عند هذا الذوق الساذج لا يتطابقان تطابقـــا كبيرا . لذلك كان استبعاد غير اللائقين ماليا من محيطنا يستتبع استبعادا كليـــا أو جزئيا لذلك العدد الكبير من عناصر الجمال التى قد لا تطابق المتطلبات المالية .

ومعايير الذوق الأساسية نشأت منذ أزمان سحيقة ، بل ربما تكون قد سبقت ظهور القوانين المالية التى نحن بصدد بحثها هنا . ونتيجة لذلك - وبسبب قوة تكيف طرائق تفكير الناس فى الماضى تكيفا قائما على تخير ما هو أنسب - فانه يحدث أن متطلبات الجمال وحدها يمكن اشباعهـــا بوسائل غير باهظة التكاليف وبتراكيب يفهم الغرض منها بسهولة وتفهم الطريقة التى تؤدى بها ذلك الغرض .

وقد يكون من المناسب هنـــا أن نستعيد الوضـــع السيكولوجى الحديث ، اذ يبدو ان جمال الشكل مسالة تتعلق بسهولة الادراك والمقارنة بالمعرفة السابقة . وقد تكون فى مأمن من الخطأ اذا جعلنا هذه الدعوى أعم من ذلك . فاذا كان التجريد يقوم على الترابط والايعاز و « التعبير » على انها جميعا عناصر الجمال ، فان الجمال اذن فى اى جسم تقع عليه العين معناه أن العقل قد أسرع بمزاولة قدرته على الادراك والمقارنة بما سـبق من معرفة فى الاتجاه الذى يهيئه له هذا الجسم بالذات . لكن الاتجـاهات التى يزاول العقل فيها هذه القدرة بسهولة ، أو التى تعبر فيها هذه القدرة عن نفسها بسهولة ، هى الاتجاهات التى عمل الاعتياد الطويل الوثيق على تهيئة العقل للميل اليها . وفيما يتعلق بعناصر الجمال الأساسية ، نرى هذا الاعتياد اعتيادا وثيقـا وطويلا الى حد انه لم يعمل على اغراء العقل بالنزوع الى اختيار الشكل المذكور فحسب ، بل عمل كذلك على استحسان التكوين الفسيولوجى والوظيفة الفسيولوجية . وبقدر ما تدخـل المصلحة الاقتصـادية فى تركيب الجمال ، تدخل كذلك بايعـاز او تعبير عن كفايته لغرض من الأغراض وكمظهر من مظـاهر الصـلاحية لعمليـة الحيـاة . وهذا التعبير عن السهولة الاقتصادية أو المنفعة الاقتصـادية لأية أداة من الأدوات .. وهى ما يمكن التعبير عنها بالجمال الاقتصادى للأداة ـ يمكن ان نؤديه على احسن وجه عندما نعبر بدقة وبغير غموض عن دورها وعن مدى خدمتها للأهداف المادية فى الحياة .

وعلى هذا الأساس نرى أن الأداة البسيطة غير المنمقة هى من بين الأدوات النافعة أفضلها من الناحية الجمالية . لكن لما كان قانون الشـهرة المـالية يرفض ما كان غير باهظ الثمن من الأدوات المخصصـة للاستهلاك الفردى ، كان لزاما أن نبحث عن اشباع رغبتنا فى الأشـياء الجميلة عن طريق التوفيق بين هذين الاتجاهين ، فالواجب أن نخادع قوانين الجمال بحيلة تبدو فى ظاهرها تبذيرا اتلافيا مشرفا ، بينما هى فى نفس الوقت تفى بمطالب حواسنا الناقدة عن الأشياء النافعة والجميلة ، أو على الأقل تفى بمطالب بعض العادات التى قد اصبحت تقوم مقام هذه الحواس . ومثل هـذه الاحساسات الاضافية الخاصة بالذوق الاعجـاب بكل شىء مسـتحدث ، ويساعد على ذلك حب الاستطلاع الذى ينظر به الناس الى كل مبتكر يخلب اللب وينم عن العبقرية . ومن هنا يحدث أن جميع الأشـياء التى يدعى الناس أنها جميلة ، والتى تؤدى الغرض من استخدامها بصفتها هذه ، تبدو فيها عبقرية عظيمة فى التصميم ، وتعتبر مذهلة لمن يراها ـ أى أنها تبعث فيه الحيرة بما توحى من شعور غير مترابط بأنها فوق مستوى المعقول ـ

فى نفس الوقت الذى تقوم فيه شاهدا على أنها قد استلزمت كثيرا من الجهد فوق الجهد الذى كان يكفى لابلاغها درجة الكفاية التى تجعلها تؤدى الغرض الاقتصادى الواضح من استعمالها •

من الممكن توضيح هذا بمثل نورده من خارج مجال عاداتنا واتصالاتنا اليومية ، وبالتالى من خارج مجال ميولنا اليومية • هذا المثل هو معاطف الريش العجيبة التى يستعملها أهل هاواى ، وأيدى القواديم المطعمة التى يستعملها أهالى كثير من جزر بولينيزيا فى حفلاتهم الدينية • هذه الأشياء لا يستطيع أحد أن ينكر جمالها ، سواء من حيث أنها تسر الناظرين بجمال تركيبها وشكلها ولونها • أو من حيث أنها شاهد على المهارة الفائقة والعبقرية فى التصميم والتركيب . لكن هذه الأدوات فى نفس الوقت لا تستطيع اداء اى غرض اقتصادى آخر • ثم ان تطور العبقرية التى تأخذ بالألباب ، على هدى قانون الجهد الضائع ، لا يتمخض فى جميع الأحوال عن مثل هذه النتيجة الباهرة ، اذ قد تكون النتيجة فى كثير من الأحيان كبتا تاما لجميع العناصر التى تصمد للاختبار بصفتها تعبيرا عن الجمال أو عن المنفعة وتعويضا عن شواهد العبقرية والجهد الضائعين اللذين تسندهما تفاهة واضحة ، حتى يأتى وقت يصبح فيه كثير من الأشياء التى نحيط بها أنفسنا فى حياتنا اليومية ، بل وكثير من أدوات الملبس والزينة اليومية ، تصبح جميعا من الأشياء التى لا يمكن احتمالها الا تحت ضغط التقاليد الموروثة . والأمثلة على هذا الاتجاه فى الاستعاضة بالعبقرية وغلاء الثمن عن الجمال وعن الفائدة ، يمكن أن نشاهدها مثلا فى فن عمارة المنازل ، وفى الفنون والزخارف المنزلية ، وفى كثير من أدوات الملبس ، لا سيما ملابس النساء ورجال الدين .

ان قواعد الجمال تستدعى التعبير عن النوع • لكن الغرابة التى تلازم مطالب الاسراف المظهرى تتعارض مع قواعد الجمال هذه . ذلك لأنها تجعل حكمنا على الأشياء من ظواهرها مجموعة من الأمزجة الذاتية • ثم ان الأمزجة الذاتية تخضع للرقابة الانتخابية لقانون التشبث بالأشياء ذات الأثمان الباهظة •

وعملية المواءمة الانتخابية بين التصميمات المختلفة وبين هدف الاسراف المظهرى والاستعاضة بالجمال المالى عن الجمال الفنى ، كانت فعالة الأثر بصفة عامة فى تقدم فن العمارة • وقد يكون من أصعب الأمور أن نجد مسكنا متمدينا حديثا أو مبنى عاما يستطيع ان يفاخر باكثر من انه اقل قبحا نسبيا فى نظر أى شخص يفرق بين عناصر الجمال وعناصر التبديد الشرفى• فالتنوع الذى ليس له حدود فى واجهات العمارات الاستغلالية ، والمنازل التى تسكنها الطبقات الراقية فى مدننا ، هو تنوع لا حدود له فى محنة

المعمار وفى الأعمال التى لا ينتج عنها الا المتاعب ذات التكاليف الباهظة . واذا نظرنا الى الحوائط الميتة لجوانب تلك المبانى وفى مؤخرتها التى تركت دون أن تمسها يد الفنـان ، اذا نظرنا اليها على أنها من الأشـياء الجميلة وجدناها أحسن ما فى البناء من مظاهر .

والذى ذكرناه عن تأثير قانون الاسراف المظهـرى على قوانين الذوق ينطبق ايضا ـ بدرجة قليلة من التغيير فى المصطلحات ـ على تأثيره فى آرائنا عن منفعة الأشياء فى تحقيق أغراض أخرى غير الغرض الجمالى . فالناس تنتج البضائع وتستهلكها كوسيلة للاستمتاع التام بالحياة البشرية ، وتقوم فائدتها فى المكان الأول على مقدار كفايتها لهذا الفرض . والفرض هو فى المكان الأول استمتاع الفرد بحياته استمتاعا مطلقا . لكن ميل الانسان الى ان يفضل غيره قد حول استهلاك الملابس الى وسيلة من وسائل المقارنة التحاسدية ، ولهذا أضاف الى البضائع الاستهلاكية فائدة أخـرى ثانوية ، فجعلها من شواهد القدرة النسبية على الدفع . وهذه الفائدة غير المباشرة أو الثانوية للبضائع الاستهلاكية تضفى على الاستهلاك طابعا شرفيا ، كمـا تضفى هذا الطابع أيضا فى نفس الوقت على البضائع التى تخدم هذا الغرض التنافسى من أغراض الاستهلاك . فاستهلاك البضـائع الغالية الثمن يوجب الاحترام، والبضائع التى تحوى عنصرا هاما ينم عن ارتفاع ثمنها فوق القدر الذى يجعلها تحقق الفائدة الظاهرة من استعمالها ، هى بضائع تكسب لصاحبهـا الفخار . وعلى ذلك كانت علامات غلاء الثمن فى البضائع من العلامات التى تزيد من قدرها ـ اى تزيد فى أهميتها الكبيرة لخدمة الغرض التحاسدى غير المباشر الذى يحققه استهلاكها . وعكس هذا صحيح . أى أن البضائع تكون من دواعى الحطة ، وبالتالى غير جذابة ، اذا كانت تنم عن التمسـك الشديد بنواحى الفائدة وحدها دون أن يبدو فيها جانب من جوانب الاسراف يستطيع أن يميل بها ميلا ملائما عند المقارنة التحاسدية . فهذه المنفعة غير المباشرة تضفى كثيرا من قيمتها على الأنواع الراقية من البضائع . واذا كان لمادة من المود أن تحقق الفائدة التى يرجوها منها الذوق المثقف ، فلا بد ان تحتوى على عنصر من عناصر هذه المنفعة غير المباشرة .

ومع ان الأصل فى استنكار الناس لمستويات المعيشة التى لا تتسم بالتبذير ، قد يرجع الى انها كانت تنم عن عدم القدرة على انفاق الكثير من المال ، وانها كانت بذلك تنم عن فشل فى النواحى المالية ، فان الأمر ينتهى بهم الى استقباح الأشياء الرخيصة على اعتبار أنها فى حقيقتها شـائنة أو مستهجنة لأنها رخيصة . وبمرور الزمن كان كل جيل يأخذ عن سابقه هذا التقليد الذى يعتبر التبذير من امارات علو المقـام ، وكان كل جيل بدوره يزيد من قوة هذا القانون الخاص بما لانفاق المال عن سـعة فى استهلاك

البضائع من التأثير فى رفع اقدار الناس . وهكذا سارت الأمور حتى بلغنا آخر الأمر درجة من الاقتناع بتفاهة البضائع غير الغالية حتى لم يعد لدينا اى ريب فى صحة المثل القائل (كل رخيص حقير) . وهذه العادة التى نقضى بالرضا عن الأشياء الغالية والنفور من الأشياء الرخيصة قد تأصلت فى نفوسنا الى حد جعلنا نتمسك غريزيا بقدر ولو محدود من الاسراف التبديدى فى كل ما نستهلكه ، حتى فى حالة البضائع التى نستهلكها بيننا وبين انفسنا دون اى احتمال لعرضها امام انظار الغير . فنحن جميعا نشعر ، شعورا صادقا لا ريب فيه ، أننا نرتفع نفسانيا اذا تناولنا طعامنا اليومى فى اوان من الفضة مشغولة باليد او فى أطباق من الصينى مزخرفة باليد (ولو أنها كثيرا ما تكون ذات قيمة فنية مشكوك فيها) ، موضوعة على مفرش للمائدة من التيل القيم ، حتى لو فعلنا كل هذا فى خلوة وبين انفسنا بمعزل عن اهلنا انفسهم . وكل نكوص عن مستوى المعيشة الذى اعتدنا اعتباره لائقا من هذه الناحية ، يعتبر مساسا مؤلما بجلالنا الانسانى . ولهذا أيضا أصبحت الشموع على موائد العشاء فى الاثنى عشر عاما الأخيرة مصدرا للاضاءة اكثر بهجة من سواه ، فقد اصبح ضوء الشموع اليوم يعتبر اهدأ واقل ايذاء للعين التى اعتادته من ضوء الزيت أو الغاز او الكهرباء . ولكن هذا القول لم يكن من السهل قوله منذ ثلاثين سنة عندما كانت الشموع ارخص وسائل الاضاءة التى يمكن توفيرها للاستعمال المنزلى ، بالاضافة الى ان الشموع حتى فى أيامنا هذه لا توفر ضوءا مقبولا ولا كافيا لأى غرض آخر غير الاضاءة فى الحفلات .

وقد لخص أحد الساسة المحنكين ممن لا يزالون على قيد الحياة ، فحوى هذا الموضوع برمته حينما قال : « ان الملبس الرخيص يجعل لابسه رخيصا » ، وقد لا يكون هناك انسان لا يحس بقوة الاقناع التى يشتمل عليها هذا القول .

وعادة التطلع فى البضائع الى علامات تشير الى الغلاء الزائد فى ثمنها ، والى الرغبة فى أن تحقق كل بضاعة فائدة لمصلحة الأغراض غير المباشرة أو التحاسدية ، هذه العادة تؤدى الى تغيير فى المستويات التى تقاس على أساسها فائدة البضائع . فعنصر التفاخر وعنصر الفائدة غير المحدودة ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر فى تقدير المستهلك لقيمة البضاعة ، وهذان العاملان مجتمعين تتكون منهما المنفعة التى نحققها من استهلاك البضائع ، والتى لايمكن فصل بعضها عن بعض . وعلى أساس هذا المستوى الجديد الذى نقيس به مقدار النفع الذى نناله من الأشياء ، لا نجد بضاعة تستطيع أن تحوز الاعجاب بسبب كفايتها المادية وحدها . فاذا كان لها ان تحوز الكفاية والرضا فى عين المستهلك فيجب أن يتوفر فيها عنصر التفاخر

كذلك . وقد نتج عن هذا ان اصبح منتجو البضائع الاستهلاكية يوجهون جهودهم الى انتاج بضائع يتوفر فيها عنصر التفاخر هذا ، وهم يفعلون ذلك بكل سرور وهمة، لأنهم انفسهم واقعون تحت سلطان هذا المستوى الذى تقدر على اساسه قيمة البضائع، ويعتريهم شعور صادق بالألم اذا راوا بضاعة ينقصها التجهيز اللائق الذى يكسبها صفة تفاخرية . ومن هنا لم نعد اليوم نرى بضائع من اى نوع لا تحتوى على هذا العنصر التفاخرى بدرجة ما . فاذا كان هناك مستهلك يلح - على طريقة ديوجينيس - فى طلب استبعاد كل عنصر من عناصر التفاخر او الاسراف من المواد التى يستهلكها ، فلن يستطيع الحصول من الأسواق الحديثة على ابسط حاجة من حاجاته ، بل الواقع انه حتى لو لجأ الى توفير حاجاته عن طريق جهوده الشخصية فسوف يجد من الصعب - ان لم يكن من المستحيل - ان يجرد نفسه من طرائق التفكير الشائعة فى هذا المجال ، وسوف يستحيل عليه ان يوفر لنفسه ضرورات الحياة التى تكفى استهلاك يوم واحد ، دون أن تقوده الغريزة والسهو الى ان يبذل فى البضاعة التى انتجتها يداه شيئا من الجهد الاضافى ليكسبها عنصرا من عناصر التفاخر والزخرف .

من المعروف ان الذى يشترى البضائع النافعة فى أسواق القطاعى يتأثر فى اختياره بمظهر البضاعة ومهارة الصنعة اكثر مما يتأثر بأية علامة جوهرية تدل على حسن ادائها للفرض من استخدامها . فالبضائع يجب - لكى يقبل عليها المشترون - أن تعكس قدرا كبيرا من الجهد الذى بذل لكى يكسبها مظهرا من مظاهر غلاء الثمن ، الى جانب ما يكسبها من الكفاية المادية لأداء هذا الفرض . وهذه العادة التى تجعل من الارتفاع الواضح فى الثمن قانونا من قوانين النفع ، تؤدى بطبيعة الحال الى رفع التكاليف النهائية للمواد الاستهلاكية ، وتجعلنا نأخذ حذرنا من البضاعة الرخيصة عندما تقنعنا بأن قيمة الشىء تتعلق الى حد ما بغلاء ثمنه . وهناك فى العادة مجهود يبذله المستهلك دائما للحصول على البضائع النافعة له بأقل ثمن يستطيع الحصول عليها به ، لكن ما تقضى به الرغبة الشائعة فى دفع ثمن ظاهر الارتفاع كدليل على قيمة البضاعة وكجزء لا يتجزأ من مقدار نفعها ، يجعله يرفض اية بضاعة لا يبدو فيها قدر كبير من مظاهر الاسراف التبديدى ، لأنها تبدو حينئذ فى نظره دون المستوى اللائق به .

ويجب أن نزيد ايضا أن ملامح البضائع الاستهلاكية التى يستقر فى المفهوم العام أنها دليل على حسن أدائها الغرض منها ، والتى أشرنا اليها هنا على أنها من عناصر الاسراف التبديدى ، تروق فى عين المستهلك أيضا على أسس أخرى غير ارتفاع الثمن وحده ، فهى عادة تقوم شاهدا على المهارة وحسن الصنعة ، حتى لو لم تسهم فى زيادة الفائدة منها زيادة كبيرة .

ولا شك ان شيئا من هذا القبيل هو الأساس الذى يجعل اية علامة خاصة من العلامات التى تساعد على التفاخر تحوز رضاء اغلبية الناس وتجعلهم يتهافتون على اقتناء البضائع التى تحتوى على تلك العلامات ، ويجعلها بعد ذلك تحتفظ بمكانتها كعنصر لا ينفصل من العناصر التى تؤثر فى قيمة البضاعة . واستعراض مهارة الصنعة فى أداة من الأدوات انما يسر العين بصفته هذه ليس الا ، حتى حيث تكون النتيجة البعيدة ـ التى لم نتعرض لها الى الآن ـ تافهة . فان تأمل الأشياء التى تبدو فيها مهارة الصنعة فيه ارضاء للذوق الفنى ، لكن علينا ان نضيف أيضا أنه ليس هناك دليل كهذا على المهارة الصناعية أو على المواءمة العبقرية الفعلية بين الوسيلة والغاية يستطيع على المدى الطويل ان يحوز استحسان المستهلك المتحضر الحديث ما لم يتفق وقانون الاسراف المظهرى .

وهذا الرأى الذى نبديه هنا يحدد مركز المنتجات الآلية فى الاقتصاد الخاص بالاستهلاك . ونقطة الخلاف الرئيسى بين منتجات الآلات والمنتجات اليدوية التى تحقق الأغراض نفسها تنحصر عادة فى ان الأولى تحقق الغرض الرئيسى منها تحقيقا أتم ، فهى منتجات اكثر كمالا وفيها من المواءمة بين الوسيلة والغاية قدر اكبر . لكن هذا امر لا يعفيها من التحقير والغبن ، لأنها لا تصمد أمام اختبار التبديد المشرف . فالصناعة باليد طريقة من طرق الانتاج اكثر اسرافا ، ومن هنا كانت المنتجات التى تصنع بهذه الطريقة اكثر فائدة فيما يتعلق بالشهرة المالية ، ومن هنا تصبح العلامات الدالة على أن سلعة من السلع قد صنعت باليد علامات مشرفة ، والسلع التى تحمل هذه العلامات تصبح ذات قيمة أعلى من قيمة مثيلاتها التى اخرجتها الآلات . والعلامات الشرفية التى تدل على انالسلعة منانتاج اليد هى عادة ـ ان لم تكن دائما ـ عيوب أو شذوذ فى نسيج المادة المصنوعة باليد تنم عن الموضع الذى اخطأ عنده الصانع فى تنفيذ التصميم . وعلى ذلك يكون أساس تفوق السلع المصنوعة باليد هو درجة من درجات الرداءة . و وهذه الدرجة لا يجب أن تزيد بحيث يظهر فيها قصور عن الانفاق ، لأن هذا سيقوم دليلا على التكلفة الرخيصة ، ولا يجب ان تقل بحيث تنم عن الدقة المثالية التى لا تحققها الا الآلات ، لأن هذا سيقوم دليلا على التكلفة الرخيصة كذلك .

وتقدير هذه الشواهد الدالة على الرداءة المرغوبة التى تكسب البضائع اليدوية قيمتها وجمالها البالغين فى أعين الطبقة المهذبة ، مسألة تتعلق بدقة التمييز . وهى تقتضى التدريب وتنمية طرائق التفكير الصحيحة فيما يختص بما يمكن أن يسمى « فراسة اختيار السلع » . والسلع التى تنتجها الآلات من أجل الاستعمال اليومى كثيرا ما تحوز الاعجاب والتفضيل من جانب العامة وغير ذوى الحسب الذين لا يفكرون مليا فى آداب السلوك فيما يتعلق

الاستهلاك الأنيق ، وذلك على أساس اتقانها البالغ دون سواه . وانحطاط اثمان السلع الآلية يقوم دليلا على ان الكمال الناتج عن المهارة وحسن الصنعة الذى يشتمل عليه كل ابتكار باهظ التكاليف فى التجهيز النهائى للسلعة لا يكفى فى حد ذاته ليضمن لها القبول والاستحسان الدائم ، لان الابتكار لا بد أن يتفق وقانون الاسراف المظهرى . وأى مظهر من المظاهر التى نحكم بها على قيمة سلعة من السلع ، مهما كان جميلا فى حد ذاته ، ومهما كان محققا للرغبة فى الانتفاع بالسلعة ، فانه لن يحوز القبول اذا كان فيه ما يمس قانون الشهرة المالية هذا .

وهذه الخسة الظاهرة أو عدم النظافة فى السلع المعدة للاستهلاك ، والتى ترجع الى شيوعها ، أو بتعبير آخر الى قلة تكاليف انتاجها ، من الأمور التى يأخذها بعض الناس مأخذ الجد البالغ . والاعتراض على السلع التى تنتجها الآلات كثيرا ما يكون على هيئة اعتراض على شيوعها ، لان ما هو شائع يكون (ماليا) فى متناول كثير من الناس ، ولذلك كان استهلاكه غير مشرف ما دام مقصرا عن تحقيق أهداف المقارنة التحاسدية بين مستهلكه وبين غيره من المستهلكين . ولذلك كان استهلاك – أو حتى منظر – مثل هذه السلع يقترن دائما بما ينم عن المستويات الأدنى للحيـاة البشرية ، وكلما تأملها الانسان خرج منها بشعور جارف بالحقارة بغيض غاية البغض ومؤلم غاية الألم لأى شخص رقيق الحس . والأشخاص ذوو الأذواق النامية الذين لا يملكون الموهبة أو العادة أو الدافع على التمييز بين أسس الأحكام المختلفة التى يصدرونها بناء على أذواقهم ، نجد أحكامهم القائمة على اعتبارات الشرف تندمج فى أحكامهم القائمة على اعتبارات الجمال أو النفع – بالطريقة التى ذكرناها . والحكم المعقد الناتج من هذا يكون بمثابة حكم على جمال السلعة أو على نفعها ، وهذا أمر يتوقف على ميول من يصدر الحكم أو على مصلحته التى تجعله ينظر الى السلعة من هـذه الزاوية أو تلك . وكثيرا ما يحدث من هذا أن تعتبر علامات الشعبية أو انخفاض السعر علامة مؤكدة على عدم الكفاية الفنية ، وكثيرا ما رتبت السلع من ناحية الكفاية الفنية من جهة ، والقبح الفنى من جهة أخرى ، ويكون الترتيب قائما على هـذا الأساس للاسترشاد به فى مسائل الذوق .

والسلع الرخيصـة او غير اللائقـة من مواد الاستهلاك اليومى فى المجتمعات الصناعية الحديثة ، هى عادة – كما سبق أن ذكرنا – من منتجات الآلات . والطابع الخاص لمظاهر السلع الآلية اذا قارناها بالسلع اليدوية ، هو أنها أعظم اتقانا من ناحية الصناعة وأعظم دقة فى تفاصيل تنفيـذ التصميم . ومن هنا يتأتى أن مظاهر النقص البادية فى السلع اليدوية تعتبر علامات على السمو من الناحية الجمالية او الناحيـة النفعية ، أو

كلتيهما ، ما دامت من العلامات التى تشرف من يستعملها ، ومن هنا نشا التفخيم لكل ما يحتوى على بعض العيوب ، ذلك التفخيم الذى كان جون رسكن John Ruskin ووليم موريس William Morris من المتشدقين به والمتحمسين له فى زمانهما ، وعلى هذا الأساس تحمس الناس من بعدهما الى اليوم للدعاية لمظاهر النقص البادية فى السلع وللجهود الضائعة (فى انتاجها يدويا) . ومن هنا ايضا جاءت الدعاية للعودة الى الانتاج اليدوى والصناعة المنزلية . والكثير من أعمال هذا الفريق من الناس وآرائه الذى يمكن أن ينطبق عليه هذا الوصف كان من المستحيل الدعاية له فى الزمن الذى لم تكن فيه السلع ذات المظهر الأكمل هى الأرخص .

وكل شىء نقوله هنا ، او نستطيع ان نقوله ، موجه بطبيعة الحال الى القيمة الاقتصادية لهذه المدرسة من مدارس التعاليم الجمالية وحدها . وما نقوله لا يجب أن يؤخذ على انه بخس لقيمة هذه التعاليم ، فانما هو أساسا عرض لخصائص نزعة هـذه التعاليم وتأثيرها على الاستهلاك وعلى انتاج السلع الاستهلاكية .

وربما كانت صناعة الكتب التى انشغل بها موريس خلال السنوات الاخيرة من حياته هى خير مانستشهد به على الطريقة التى اثرت بهـا هذه النزعة الذوقية على الانتاج . لكن الذى يصدق الى حد كبير على انتاج مطبعة كلمسكت (1) Kelmscott يصدق بدرجة تقل قليلا عند تطبيقه على الناحية الفنية فى صناعة الكتب فى الايام الاخيرة بصفة عامة ، من حيث حروف الطباعة والورق والرسـوم التوضيحية ومواد التجليد والتجليـد نفسه . ودعـوى التفـوق الذى ينسب الى احـدث المنتجـات فى صناعة الكتب تقوم من بعض الوجـوه على درجـة التقارب بينها وبين خشونة الصنعة التى كانت سائدة عندما كانت صناعة الكتب صراعا غامضا مع مواد غير مطاوعة ، يقوم به المختصون بواسطة ادوات غير كافية . وقد كانت هذه الكتب أغلى ثمنا لانها كانت تتطلب عملا يدويا ، ثم انها أيضا أقـل صلاحية للاستعمال من الكتب التى اخرجت بهدف المنفعة وحدها ، ومن هنا تستطيع ان تفاخر بأنها تلائم قدرة الشارى على استهلاك ما يريد ، كما تلائم قدرته على بذل الوقت والجهد . وعلى هذا الأساس نرى دور الطباعة اليوم تعود الى النموذج « القديم » ونماذج اخرى من حروف الطباعة عفى عليها الزمن بدرجة قليلـة او كبيرة واصبحت اقل سـهولة فى قراءتها ، وتضفى على الصفحات طابع « عدم الاتقان » أكثر من الحروف « الحديثة » ، بل ان المجلة العلمية التى ليس لها فى الظاهر من هدف سوى اتباع احدى

---

(1) يبدو من سياق الكلام ان هذا اسم المطبعة التى كـان يعمـل بهـا مـوريس المذكور . المترجم

الطرق لعرض المادة التى تتصل بعلمها ، تتقيد بمقتضيات هذا الجمال المالى الى درجة انها تطبع مناقشاتها العلمية بحروف من الطراز القديم على ورق مدموغ ذى حواف غير مسواة . ولكن الكتب التى لا تهتم ظاهريا بالعرض المثمر لمحتوياتها وحده ، تذهب فى هذا المجال بطبيعة الحال ، الى حد أبعد ، ففيها نجد حروف الطباعة من طراز أردأ نوعا ، ونراها مطبوعة على ورق مدموغ باليد ذى حواف غير منتظمة وهوامش عريضة واوراق لم تفصل اطرافها ، ومجلدة بطريقة تدل على ان جهدا قد بذل لاظهارها بمظهر عدم الاتقان والتفاهة البالغة . وقد سارت مطبعة كلمسكت فى هذا المضمار شوطا كبيرا الى حد السخافة - اذا نظرنا الى الموضوع من وجهة نظر المنفعة المجردة وحدها - فأصدرت كتبا للاستعمال الحديث طبعتها حسب طريقة الهجاء البائدة بحروف سوداء ومجلدة برق الغزال الطرى المزود بأحزمة من الجلد . ومن المظاهر المميزة الأخرى التى تحدد المكانة الاقتصادية لصناعة الكتب من الناحية الفنية ، أن تلك الكتب الاكثر رشاقة لا يطبع منها - فى أحسن الأحوال - غير عدد محدود من النسخ . والواقع ان طبع عدد محدود ضمان - ولو انه ضمان بدائى - لأن يعتبر الكتاب نادرا وانه لهذا قد تكلف كثيرا ومن هنا يتسم مقتنيه بالقدرة المالية .

والجاذبية الخاصة لهذه الكتب فى نظر المشترين ذوى الأذواق المهذبة لا تنبع بالطبع من الشعور الساذج بارتفاع ثمنها وزيادة قبحها . ففى هذه الحالة ، كما فى الحالة المشابهة لها الخاصة بأفضلية الأدوات المصنوعة باليد على المصنوعة بالآلات ، نجد أن اساس التفضيل هو الامتياز الأصيل المنسوب الى السلعة الأعلى ثمنا والأقبح منظرا . والامتياز الأصيل الذى ينسب الى الكتاب الذى يشبه ما كانت تخرجه العمليات القديمة البائدة ينظر اليه على أنه قبل كل شىء أداة نفع ممتازة من الناحية الفنية . ولكن ليس من غير الشائع ان نجد احد هواة الكتب المهذبين يؤكد ان الكتاب ذا الاخراج القبيح هو ايضا الاكثر نفعا كأداة من أدوات الكلمة المطبوعة . وهذا الراى يقوم على اساس صحيح الى حد ما فيما يتعلق بالقيمة الفنية الممتازة للكتاب الزرى . فان الكتاب قد وضع تصميمه على أساس الجمال وحده وعادة ما يصيب مصممه بعض النجاح فى تحقيق هذا الغرض . على ان الذى نريد أن نؤكده هنا هو أن قانون الذوق الذى يعمل المصمم على هداه هو قانون نما فى ظل قانون الاسراف المظهرى وان هذا القانون يعمل - بطريقة الانتخاب - على استبعاد اى قانون من قوانين الاسراف لا يتفق ومطالبه . ومعنى هذا انه بينما الكتاب الزرى قد يكون جميلا ، الا أن الحدود التى يعمل المصمم فى نطاقها مقيدة بمطالب من نوع غير فنى . فاذا كان الكتاب الذى يخرجه المصمم جميلا فلا بد ان يكون ايضا باهظ الثمن وغير صالح

لتحقيق الفرض الظاهرى منه . على ان قانون الذوق لم يتشكل ، فى حالة مصمم الكتب ، تشكلا نهائيا بقانون الاسراف فى شكله الأول . فان القانون يجىء الى حد ما مطابقا لذلك التعبير الثانوى عن المزاج العدوانى ، من تبجيل كل ما هو قديم او بائد ، والذى يسمى فى بعض الأحيان قانون التمسك بالقديم ، او الكلاسيكية .

وقد يكون من اصعب الأمور – من حيث النظرية الجمالية – ان لم يكن من غير الممكن عمليا ، ان نرسم خطا فاصلا بين قانون الكلاسيكية ، اى تعظيم القديم ، وقانون الجمال . فمن حيث الفرض الجمالى لا توجد ضرورة تذكر لرسم هذا الخط ، بل الحقيقة انه لا يجب أن يكون . اما من أجل نظرية الذوق فان التعبير عن مثل أعلى متفق عليه فى الكلاسيكية ، مهما كان الأساس الذى يقوم عليه الاتفاق ، قد يعتبر عنصرا من عناصر الجمال ، دون ان يكون هناك اى جدال فى شرعيته . لكن لا يبدو ان هذا التمييز يدخل فى نطاق غرضنا الحالى – وهو تقرير الأسس الاقتصادية التى تشتمل عليها قوانين الذوق ومقدار اثرها فى توزيع السلع واستهلاكها .

ومركز السلع التى تنتجها الآلات فى خطة الاستهلاك يعين على توضيح طبيعة العلاقة التى توجد بين قانون الاسراف المظهرى وقواعد الاستهلاك الشائعة فى المجتمع . وهذا القانون لا اثر له كمبدأ من مبادىء التجديد او الابتكار ، لا فى أمور الفن والذوق بالذات ، ولا فيما يتعلق بالذوق الشائع الخاص بمقدار الانتفاع بالسلع ، ولا يمتد اثره الى المستقبل على انه مبدأ خلاق يعمل على التجديد ويضيف مواد استهلاكية جديدة وعناصر جديدة غالية الثمن . والمبدأ الذى نعنيه هو – من ناحية خاصة – قانون سلبى اكثر مما هو قانون ايجابى . ومبدأ من مبادىء التنظيم اكثر مما هو مبدأ خلاق ، وهو لا يكاد يخلق أو يبدع اى عرف او عادة بطريقة مباشرة بل يقتصر عمله على الاختيار . والاسراف المظهرى لا يهيىء اساسا للتنويع أو التقدم بطريقة مباشرة ، لكن التلاؤم مع مطالبه شرط لبقاء أى تجديد يمكن ادخاله على اية أسس أخرى . ومهما كانت الطريقة التى تنشأ بها قوانين الانفاق وعاداته وطرائقه ، فانها جميعا تخضع لفعل قانون الشهرة هذا ولأثره فى اختيار الأصلح . ودرجة مطابقتها لما يتطلبه هذا القانون هى بمثابة اختبار لصلاحها للبقاء فى مجال التنافس بينها وبين سواها من العادات والتقاليد . فاذا تساوت جميع الظروف فان العادات التى تبدو أكثر اسرافا لا اثر لها فى نشأة هذه التغيرات بل ينحصر أثرها فى استمرار الأوضاع التى تصلح للبقاء اثناء سيادة هذه العادات . وهى تعمل على ابقاء الأصلح لا على خلق ما هو مقبول . ووظيفتها هى تجربة كل شىء والتمسك بما يحقق أغراضها .

الفصل السابع

الملبس بصفته معبراً عن الثقافة المالية

قد يكون من المناسب هنا ، على سبيل التمثيل ، أن نبين ببعض التفصيل الى اى حد تنطبق المبادىء الاقتصادية التى عرضنا لها الى الآن على الحقائق اليومية فى ناحية من نواحى عملية الحياة . وقد لا يستطيع اى اتجاه من اتجاهات الاستهلاك أن يقدم لنا مثالا أوفى بهذا الغرض من الانفاق على الملابس . فقاعدة الاسراف المظهرى بالنسبة للسلع هى التى تعرب عن نفسها بصفة خاصة فى امور الملبس ، ولو ان المبادىء الاخرى المتصلة بهذه القاعدة والتى تتعلق بالشهرة المالية ، نجد ما يعبر عنها ايضا بنفس الوسائل - وهناك طرق اخرى لعرض مقدرة الشخص المالية امام انظار الناس تحقق الغرض منها بكفاية ، وطرق اخرى يذيع صيتها ويجرى وراءها الناس دائما فى كل مكان ، لكن الانفاق على الملابس له هذه الميزة فوق معظم الطرق الأخرى ، وهى أن ملبسنا معروض دائما امام الأنظار ، ويقوم شاهدا على مستوانا المالى من أول نظرة يلقيها علينا المشاهدون . كما أنه صحيح كذلك أن الانفاق الذى نطبقه فى سبيل الظهور أكثر وضوحا وربما كان أكثر شيوعا فى باب الملبس منه فى اى باب آخر من أبواب الاستهلاك . وليس من الصعب على اى انسان أن يعترف بأن القدر الاكبر مما تنفقه جميع الطبقات على الملبس يهدف الى اكساب صاحبه مظهرا محترما أكثر مما يهدف الى وقاية النفس . وقد لا يكون هناك موضع آخر يحس المرء فيه بشعور الرثاثة كما يحس به عندما يعجز عن بلوغ المستوى الذى تعارف عليه المجتمع فى امور الأزياء . وهذا يصدق على الأزياء بدرجة أكبر مما يصدق على معظم ابواب الاستهلاك ، مما يجعل الناس يعرضون انفسهم لقدر كبير من الحرمان من وسائل الراحة او ضرورات الحياة لكى يوفروا لأنفسهم ما يرونه قدرا لائقا من الاستهلاك التبديدى ، حتى انه ليس من غير المعتاد ان نرى الناس فى أنواع من المناخ قاسية يلبسون ملابس غير مناسبة لكى يظهروا فى ملبس محترم . ثم ان القيمة التجارية للمواد التى تستعمل فى الملبس فى اى مجتمع حديث تأتى من مطابقتها للطراز الشائع ومن شهرتها ، اكثر كثيرا

مما تأتى من المنفعة التى تحققها لشخص لابسها . والحاجة الى الملابس هى ، فو ق كل شيء ، حاجة « اسمى » او « روحية » .

وهذه الحاجة الروحية الى الملبس ليست كلهـا ولا فى أساسها جنوحا ساذجا الى استعراض القدرة على الانفاق . فقانون الاسراف المظهرى يحدد طريق الانفاق على الملبس ، كما يحدد طرق الانفـاق على ما عـداه ، بتحديد قوانين الذوق والأناقة . وفى الأحوال العادية يكون الدافع الذى يحس به اللابس او الشارى للملابس التى تنم عن الاسراف المظهرى . هو دافع الحاجة الى مراعاة العادات القائمة ، وبلوغ مستوى الذوق والوجاهة المتعارف عليه . ولا يقتصر الأمر على وجوب خضوع الانسان لقانون العرف السائد فى المجتمع فيما يتعلق بالملبس ، من أجل أن يتجنب المهانة التى يتعرض لها من تقولات الناس وملاحظاتهم الجارحة ، ولو أن هذا الدافع نفسه ذو وزن كبير ، لكنا الى جانب هذا ، نجد مقتضيات التبذير راسخة فى طرائق تفكيرنا فيما يتعلق بالملبس ، حتى أننا نستقبح بالغريزة أى نوع من الملبس غير باهظ الثمن ، أو نشعر دون روية أو تحليل ان ما هو غير باهظ الثمن لا بد أن يكون حقيرا . والمثل الذى يقول « الملبس الرخيص يجعل الرجل رخيصا » أو الذى يقول « شيء رخيص وحقير » يصدق فى مفهوم الناس على الملبس أكثر مما يصدق حتى على مواد الاستهلاك الأخرى . واية سلعة رخيصة الثمن تعتبر ـ على أساس الذوق والمنفعة كليهما ـ سلعة حقيرة ، وذلك اتباعا للحكمة القائلة «شيء رخيص وحقير» . فنحن نرى الأشياء جميلة ، كما نراها نافعة،بدرجة تتناسب نوعا ما مع ارتفاع ثمنها . ونحن جميعا ، باستثناء عدد قليل لا يؤبه به ، نرى الأداة الغالية المشغولة باليد من أدوات الملبس تفضل ـ من حيث جمالها وفائدتها ـ أداة تشبهها ولكنها تقل عنها ثمنا ، مهما كانت درجـة تقليد الأداة الزائفة للأصل الثمين . والذى ينفر منه احساسنا فى الأداة الزائفة لا يرجع الى أنها احط شكلا أو لونا ، ولا هو فى الحقيقة يرجع بحال من الأحوال الى مظهرها الذى تقتحمه العين . فان الأداة التى لا تعجب المرء قد تكون متقنة التقليد لدرجة تجعلها تجوز على الفحص غير الدقيق ، ومع ذلك فان قيمتها الجمالية ، وكذلك قيمتها التجارية، تتناقص فجأة حالما ينكشف تقليدها . ليس هذا فحسب ، بل قد نستطيع أن نؤكـد ـ دون أن نخشى معارضة تذكر ، ان القيمة الجمالية لأداة من أدوات الملبس ، اذا عرف انها مقلدة ، تهبط هبوطا يتناسب نوعا ما مع قلة ثمنها عن ثمن الأداة الأصلية . فهى تفقد منزلتها الجمالية لأنها تهبط الى منزلة مالية احط .

لكن مهمة الملابس كشاهد على مقدرة الشخص على الدفع ، لا تنتهى عند مجرد الدلالة على أن لابسها يستهلك سلعا قيمة تزيد على القدر اللازم لراحته الجسمية . فان مجرد الاسراف المظهرى بالنسبة للملابس ذو أثر فعال

ومرض فى حد ذاته ، وهو دليل كاف من اول نظرة على نجاح الشخص فى الأعمال المالية ، وبالتالى دليل من اول نظرة على مركزه الاجتماعى . ولكن الملبس له فوائد أخرى اكثر نفاذا وابعد أثرا من هذه الدلالة المباشرة الفجة على الاستهلاك التبديدى وحده . فاذا كان هذا التبديد ــ الى جانب دلالته على ان الشارى قادر على الاستهلاك بسخاء وبغير مراعاة للاقتصاد ــ يستطيع ايضا ان يدل فى نفس الوقت على انه ليس فى حاجة الى العمل فى سبيل كسب عيشه ، كان ذلك تأييدا عظيما لعلو مركزه الاجتماعى . واذن فملابسنا ــ لكى تحقق الغرض منها تحقيقا فعالا ــ لا يجب أن تكون غالية الثمن فحسب، بل يجب ايضا ان تقوم دليلا لكل من يشاهدها على ان لابسها لايقوم بأى نوع من الأعمال الانتاجية . وفى خلال عملية التطور التى ساعدت نظام ملبسنا على التقدم حتى اصبحت تتلاءم مع الفرض منها هذا التلاؤم التام ، لقيت هذه الدلالة الثانوية ما تستحق من الاهتمام . ونحن لو القينا نظرة فاحصة على نوع الملابس التى جرى العرف العام على اعتبارها رشيقة ، لوجدناها قد صممت فى كل خطوة على أساس أن تقر فى نفس مشاهدها أن لابسها لا يقوم عادة بأى جهد مثمر . وليس هناك ريب فى أن الملبس لا يمكن اعتباره رشيقا، بل ولا لائقا ، اذا كان به من الكدر أو البلى ما ينم عن أن صاحبه يؤدى أعمالا يدوية . ثم ان الأثر الجميل الذى تتركه فى نفوسنا الملابس الأنيقة النظيفة يرجع اساسا ــ ان لم يكن دائما ــ الى انها توحى بأن صاحبها يتمتع بالفراغ ، أى ليس له أية صلة شخصية بأية عملية صناعية من أى نوع . وكثير من الفتنة التى تكتنف الحذاء الجلدى ذا اللمعة الدائمة ، والقماش النظيف الخالى من البقع ، والقبعة المستديرة البراقة ، وعصا السير ، التى تزيد من عظمة الرجل المهذب التليدة ، انما تأتى من دلالتها القاطعة على أن لابسها لا يستطيع ، وهو يلبسها ، أن يمد يده الى أى عمل يفيد الانسان فائدة مباشرة وعاجلة . والملبس الرشيق يؤدى وظيفة الرشاقة لا من حيث انه غالى الثمن فحسب ، بل لأنه ايضا من أمارات التمتع بالفراغ . فهو لا يدل فقط على أن لابسه يستطيع شراء سلع ذات قيمة عالية نسبيا ، ولكنه يدل فى الوقت نفسه على أنه يستطيع أن يستهلك دون أن ينتج .

وملابس النساء تذهب الى مدى ابعد من ملابس الرجال فى دلالتها على أن التى تلبسها بعيدة عن كل عمل منتج . ولسنا فى حاجة الى برهان يؤيد الحكم العام على أن أرشق أنواع القبعات النسائية تذهب الى مدى أبعد من قبعات الرجال العالية فى سبيل جعل كل نوع من انواع العمل مستحيلا على لابستها . وحذاء المرأة يضيف ما يسمى الكعب الفرنسى الى شواهد الفراغ الاجبارى الذى تشهد به لمعة الحذاء ، لأن من الواضح أن هذا الكعب العالى يجعل كل نوع من أنواع العمل اليدوى ، حتى ابسطها واكثرها

ضرورة ، من الصعوبة بمكان • ومثل هذا يصدق ، بل والى درجة أكبر ، على تنورة المراة وسائر أجزاء الثياب التى تدخل فى الملابس النسائية . والسبب الرئيسى الذى يجعلنا نتمسك بالتنورة هو بالضبط ما يلى : انها باهظة الثمن وانها تعوق حركة لابستها فى كل لفتة وتقعد بها عن كل جهد نافع • ومثل هذا صحيح فيما يتعلق بعادة النساء فى ترك شعورهن تطول بدرجة كبيرة •

لكن ملابس المراة لاتقتصر على انها تبز ملابس الرجل العصرى فى درجة دلالتها على عدم القيام بأى عمل • فهى تضيف أيضا مظهرا فريدا ومميزا يختلف فى نوعه عن اى شىء اعتاد الرجال ممارسته . وهذا المظهر هو مجموعة المبتكرات التى يعتبر مشد الخصر نموذجا مثاليا لها . فالمشد ، من حيث النظرية الاقتصادية ، تشويه أساسى تتحمله المراة بهدف تقليل حيويتها وجعلها باستمرار غير صالحة للعمل بدرجة واضحة . صحيح أن هذا المشد ينال من الجاذبية الشخصية لمن تلبسه ، ولكن ما تخسره المراة فى هذا المجال يعوضه ما تكسبه فى مجال الوجاهة التى تنالها بسبب الزيادة الواضحة فى عرض قدرتها على الانفاق وعجزها عن العمل • وقد نستطيع أن نقرر بصراحة أن أنوثة الملابس النسائية يمكن تفسيرها ، فى واقع الأمر، على أنها تعويق فعال تقوم به الملابس النسائية ، لكل جهد مثمر • وهذا الفرق بين ملابس الرجال وملابس النساء قد اقتصرنا على الاشارة اليه هنا على أنه مظهر مميز ، وسوف نتعرض وشيكا لبحث الأساس الذى قام عليه •

الى هنا اذن نجد أن مبدأ الاسراف المظهرى هو المعيار الشامل والسائد فى الملابس • ويلى هذا المعيار ، ويكمله ، معيار ثان هو مبدأ الفراغ البين • وهذا المعيار يظهر — من حيث شكل الملابس — على هيئة ابتكارات متنوعة تهدف جميعا الى الدلالة على أن لابسها لا يقوم ، وليس بوسعه ، على قدر ما يستدل من ملابسه ، أن يقوم بأى عمل منتج • وعلاوة على هذين الميدانين نجد مبدأ ثالثا قد لا يقل عنهما اثرا ، ويمكن أن يلحظه اى شخص يولى هذا الأمر ولو قليلا من التأمل . فالملابس لا يجب أن يبين عن الاسراف المظهرى وتقييد حرية الحركة فحسب ، بل يجب فى نفس الوقت أن يتمشى مع أحدث طراز • ولم يحدث أن استطاع أحد الى الآن أن يقدم تفسيرا شافيا لنظرية التغير المستمر فى أطرزة الملابس • فالمقتضيات الملحة التى تضطرنا الى لبس الملابس التى تتمشى مع العرف السائد ، وكذلك التغير المستمر من موسم الى موسم فى أساليب الأزياء ، أمران معروفان جيدا لكل انسان • لكن نظرية هذا التتابع والتغير المستمر لم يهتد اليها أحد الى اليوم • ونحن نستطيع بالطبع أن نقدم تفسيرا صحيحا ومطابقا للواقع تماما ، وهو أن مبدأ التجديد هذا هو معيار آخر مكمل لقانون الاسراف المظهرى • ومن

الواضح انه لو لم يتح لكل ثوب أن يلبس غير فترة قصيرة ، ولو لم تخرج ملابس الموسم الماضى لتستعمل فى الموسم الحاضر ، لزاد الانفاق التبديدى على الملبس زيادة كبيرة . هذا أمر صحيح فى حد ذاته ، ولكنه لا يزيد على ان يكون تفسيرا سلبيا ، وكل ما نستطيع أن نفيده من هذا القول هو أن معيار الاسراف المظهرى يتحكم بطريقة فعالة فى كل ما يتعلق بالملبس الى حد ان أى تغيير فى نوع الطراز يجب أن يلائم مقتضيات الاسراف . ولكن هذا لا يفسر لنا الدافع على احداث وقبول التغيير فى الأطرزة السائدة ، كما انه يقصر عن أن يفسر لماذا كان أى طراز بالذات فى أى وقت بالذات ضرورة ملزمة الى القدر الذى نعرفه .

ولكى نبحث عن مبدأ نستطيع أن نعتبره دافعا الى الخلق والتجديد فى الأطرزة ، لا بد لنا ان نعود القهقرى الى الدافع البدائى غير الاقتصادى الذى دعا الى ارتداء الملابس ، وهو مبدأ التزين . فنحن نستطيع – دون ان ندخل فى جدل طويل عن كيف ولماذا يثبت هذا الدافع وجوده على هدى قانون الاسراف – نحن نستطيع ان نقرر عموما ان كل تجديد تسلسلى فى الأطرزة هو محاولة للوصول الى نوع من المظهر يكون احسن قبولا فى تقديرنا للشكل واللون والتأثير ، من الطراز السابق الذى حل هو محله . والأطرزة المتغيرة هى تعبير عن الجرى غير المستقر وراء شىء يرضى شعورنا بالجمال . ولكن لما كان كل تجديد خاضعا لتأثير قانون الاسراف المظهرى – ذلك التأثير الذى من شأنه ان يبقى على الأصلح ويقضى على الأقل صلاحا – فان المجال الذى يستطيع التغيير ان يحدث فى حدوده ، مجال ضيق نوعا ، لأن الجديد لا يجب فقط ان يكون اجمل ، أو ربما لا يجب أن يكون اقل قبحا فى اغلب الأحوال ، من سابقه ، بل يجب أيضا ان يسمو الى المستوى التبديدى المفهوم .

وقد يبدو لأول وهلة ان نتيجة مثل هذا الصراع الذى يدور بلا هوادة فى سبيل بلوغ المستوى الجمالى فى الملبس يجب أن تكون اقترابا تدريجيا من الكمال الفنى . وقد يتوقع المرء بالطبع ان تعكس الأطرزة اتجاها محددا نحو شكل خاص أو أكثر من أشكال الملابس يلائم جسم الانسان بشكل واضح . بل ربما كان لدينا اليوم اسباب وجيهة تجعلنا نشعر ان الأطرزة – بعد كل ما بذل على الملبس من مهارات وجهود طول هذه السنين العديدة – يجب ان تكون قد بلغت حدا من الكمال النسبى واستقرارا نسبيا قريبا جدا من نموذج فنى دائم نستطيع التمسك به . ولكن هذا ليس هو الواقع ، بل الحقيقة أن من المجازفة أن نؤكد أن اطرزة اليوم أكثر فى الواقع ملاءمة من الأطرزة التى كانت سائدة منذ عشر سنوات أو من اطرزة عشرين سنة مضت أو خمسين أو مائة . ومن جهة أخرى يذهب البعض الى حد بعيد فى التأكيد –

دون أن يلقوا معارضة ـ ان الأطرزة التى كانت سائدة منذ الفى سنة كانت أكثر ملاءمة من الملابس العصرية المتقنة التى تبذل فى اخراجها جهود مضنية .

وهكذا نجد أن تعليل الأطرزة الذى قدمناه هنا لايفسر الأمر تفسيرا كاملا ، وعلينا ان نذهب فى محاولة التعليل الى مدى أبعد . ومن المعروف جيدا ان بعض الأطرزة الخاصة وانواعا من الملبس ذات استقرار نسبى ، قد تم تصميمها فى جهات مختلفة من العالم ، كما هى الحال مثلا عند اليابانيين والصينيين وغيرهم من الشعوب الشرقية ، وكذا عند اليونان والرومان وغيرهم من شعوب الشرق القديمة ، وكذلك أيضا فى العصور التالية ، عند الفلاحين فى كل دولة أوروبية تقريبا . وهذه الملابس الوطنية أو الشعبية يقرر النقاد الأكفاء فى معظم الأحوال أنها أكثر ملاءمة وأرقى ذوقا من الأزياء الحضرية الحديثة المتقلبة ، وأنها فى نفس الوقت أيضا ، أو على الأقل هى فى العادة أقل اسرافا فى مظهرها ، أى أن من السهل أن نلحظ فى تكوينها عناصر أخرى غير استعراض ارتفاع أثمانها .

وهذه الأزياء ذات الاستقرار النسبى تقتصر على العموم ، والى حد كبير على مناطق محلية صغيرة ، وتختلف اختلافا يتدرج قليلا قليلا من مكان الى مكان . وهى فى كل حالة قد صممتها شعوب أو طبقات افقر منا ، وبخاصة أنهم ينتمون الى دول وجهات وازمان كان فيها السكان ، او على الأقل طبقة السكان التى صممت الملابس المذكورة ، متجانسين وثابتين وغير متنقلين . ومعنى هذا أن الملابس الثابتة التى تصمد لاختبار الزمن والنقد ، قد تم تصميمها فى ظروف كان قانون الاسراف المظهرى فيها ذا سلطان اقل من سلطانه فى المدن الكبيرة الحديثة المتحضرة حيث يستطيع السكان الأثرياء المتنقلون أن يسرعوا خطى التغير فيما يتعلق بطراز الملابس . ثم أن الدول والطبقات التى صممت ملابس ثابتة وفنية كانت ظروفها بحيث جعلت التنافس المالى بينها يتبع طريق التنافس فى الفراغ البين بدلا من أن يكون فى الاستهلاك البين للسلع . وعلى ذلك يصح أن نقول بصفة عامة ان طراز الملابس أقل مايكون ثباتا وملاءمة فى تلك المجتمعات التى يكون فيها قانون الاسراف المظهرى للسلع أقوى ما يكون ، كما هى الحال فى مجتمعنا (يقصد الولايات المتحدة) وكل هذا يشير الى وجود تعارض بين الاسراف وبين الملابس التى يتوفر فيها الفن . أما من حيث الواقع العملى فان معيار الاسراف المظهرى لا يتلاءم وضرورة كون الملبس جميلا أو مناسبا . وهذا التعارض يهيىء لنا تفسيرا للتغيير المضطرب فى الطراز الذى لا يستطيع قانون الاسراف ولا قانون الجمال وحده أن يفسره .

ان معيار الوجاهة يتطلب ان يكون الملبس شاهدا على الانفاق التبديدى
ولكن كل اسراف منفر للذوق الوطنى . وقد قيل عن القانون السيكولوجى
انه يقرر أن جميع الرجال ــ وربما النساء الى حد اكبر ــ يمقتون التبديد عبثا
سواء فى الجهد او فى المال ، تماما كما كان يقال فى وقت من الأوقات عن
الطبيعة انها تمقت الفراغ . لكن مبدأ الاسراف المظهرى يقتضى انفاقا بادى
العبث ، ولهذا فان ماينتج عن هذا من الاسراف البين على الملبس اسراف
قبيح حقا . ولهذا نجد كل جزء يزاد او يتغير فى الملبس عند احداث أى
تجديد فى طرازه ، انما هو محاولة لتجنب كل نقد موجه اليه ، وذلك بادخال
ابتكار يجعله يبدو محققا لبعض اهداف اخرى ، فى نفس الوقت الذى
تعمل فيه مقتضيات الاسراف المظهرى على اخفاء القصد من هذه الابتكارات
حتى لا تبدو اكثر من مجرد مظهر شفاف يخفى وراءه الفرض الحقيقى . بل
اننا نجد أن طراز الملبس ــ حتى حيث يجمح به الخيال بكل حريته ــ يندر
ان يخلو ، اذا خلا على الاطلاق ، من التظاهر بأنه يحقق بعض النفع الواضح .
على أن فائدة الأجزاء الجديدة التى تضاف الى الملبس لتجعله يطابق الطراز
الجديد ، هى فى جميع الأحوال ادعاء غير مستور ، وسرعان ما تبدو تفاهتها
لناظرينا بدرجة تجعلنا لانطيقها ، وحينئذ نهرب منها الى طراز جديد . ولكن
الطراز الجديد يجب أن يتلاءم ومقتضيات الاسراف والتفاهة اللتين تضمنان
لصاحبهما الاشتهار بالثراء . وسرعان ما تصبح تفاهته فى نظرنا شيئا
مستقبحا بقدر ما كانت سابقتها ، والعلاج الوحيد الذى يسمح لنا به قانون
التبذير هو البحث عن متنفس فى تصميم جديد لا يقل عن هذا تفاهة ولا
يقل الناس عزوفا عن التمسك به . ومن هنا جاء الاستقباح والتغير المستمر
فى طراز الملابس .

والآن ، وقد انتهينا من تفسير ظاهرة الأطرزة المتقلبة ، فان علينا ان
نجعل التفسير يطابق حقائق الحياة اليومية . ومن بين هذه الحقائق اليومية
الميل المعروف الذى يبديه جميع الرجال فى أى وقت معين الى الطراز الشائع
فى ذلك الوقت . فان الطراز الجديد المستحدث يتهافت الناس على اتباعه
فى موسم من المواسم ، ثم ، وعلى الأقل طالما كان لايزال حديثا ، يراه الناس
عموما جميلا وجذابا . فالناس يشعرون بأن الطراز الجديد جذاب ، وهذا
يرجع ، من بعض الوجوه ، الى الشعور بالراحة الذى يتركه فينا بسبب انه
يختلف عن سابقه ، ويرجع من بعض الوجوه الأخرى الى أنه اكتسب السمعة
الجديدة . وقانون الوجاهة ، كما ذكرنا فى الفصل السابق ، يشكل أذواقنا
الى حد ما ، بحيث أن أى شىء يعتبر فى ضوء هذا القانون مناسبا حتى تبلى
جدته ، أو حتى تتحول كفالته للشهرة الى تصميم جديد مبتكر يحقق نفس
الغرض العام . ومن الشواهد على أن الجمال ــ أو « البهاء » ــ الذى ينسب

الى اى طراز يتهافت الناس عليه فى اى وقت بالذات لا يعدو أن يكون جمالا كاذبا وعارضا ، أن أحدا من الأطرزة الكثيرة المتقلبة لا يصمد للزمن . ولو ارجعنا البصر الى ما قبل ست سنوات او أكثر لوجدنا أن أحسن أطرزتنا حينذاك تبدو فى نظرنا اليوم مضحكة ، ان لم تكن قبيحة . وكلفنا العابر باى شيء مستحدث ، يقوم على اسس غير الأسس الجمالية ، ولا يبقى الا بالقدر الذى لايسمح لذوقنا الجمالى الدائم أن يثبت نفوذه ويلفظ هذا الابتكار الجديد الذى لايهضم .

وعملية تحول المجتمع من الغرام بالطراز الجميل الحديث الى النفور منه تستغرق وقتا يطول أو يقصر ، وطول الوقت الذى يلزم فى أية حالة بالذات يتناسب عكسيا مع درجة قبح الطراز المذكور . وهذه العلاقة الزمنية بين القبح والتقلب فى الطراز تهيىء لنا أساسا لكى نستنتج أنه كلما زادت سرعة تعاقب الأطرزة وزحزحة بعضها بعضا ، كانت أكثر تنفيرا للذوق السليم . وعلى ذلك نستطيع أن نفرض أنه كلما قطع المجتمع - وخصوصا الطبقات الثرية منه - شوطا أبعد فى الثراء وكثرة التنقل وفى زيادة العلاقات الانسانية ، زاد قانون الاسراف المظهرى تأكيدا لسلطانه فى شئون الملبس وزاد اتجاه الذوق الجمالى الى أن يتعطل أو أن يغطى عليه قانون الشهرة المالية ، وزادت سرعة تقلب الأطرزة وتغيرها ، وزاد الناس استقباحا للأطرزة المتغيرة التى يخلف بعضها بعضا فى ذيوع الصيت ونفورا منها .

ولاتزال هناك فى نظرية الملابس هذه نقطة واحدة على الأقل لابد من بحثها . فمعظم النقط التى ذكرناها تنطبق على ملابس الرجال كما تنطبق على ملابس النساء ، ولو أنها فى العصر الحديث تنطبق فى كل شيء على ملابس النساء بدرجة أقوى مما تنطبق على ملابس الرجال . لكن ملابس النساء تختلف عن ملابس الرجال اختلافا اساسيا فى نقطة واحدة . فملابس النساء تتمسك تمسكا أشد وأوضح بكل مظهر من المظاهر التى تدل على أن لابستها معفاة من القيام بأى عمل انتاجى يتسم بالخشونة أو غير قادرة عليه . وهذه الخاصية المميزة لملابس النساء ذات أهمية لا من حيث أنها تكمل نظرية الملبس فحسب ، لكن أيضا من حيث أنها تثبت ما ذكرناه عن مركز النساء الاقتصادى ، فى الماضى وفى الحاضر على السواء .

وقد كانت وظيفة المرأة فى خلال التطور الاقتصادى ، كما رأينا أثناء بحث مركز المرأة تحت عنوان الفراغ بالتبعية والاستهلاك بالتبعية ، أن تستهلك السلع نيابة عن رب الأسرة ، وكان تصميم ملابسها يتم على أساس تحقيق هذا الفرض . وقد نشأ عن هذا أن صار القيام بعمل انتاجى ظاهر ينظر اليه بشكل خاص ، على أنه مهين للمرأة المحترمة ، ولهذا كان لابد من

بذل الجهود المضنية فى تصميم ملابس النساء حتى تدخل فى روع من يراها الحقيقة الواقعة (وهى فى الواقع خرافة) وهى أن من تلبس هذا الملبس لا تقوم عادة - وليس فى مقدورها أن تقوم - بأى عمل نافع . فان الآداب العامة تقتضى من المراة المحترمة ان تمتنع دائما عن بذل اى جهد منتج وان تستعرض فراغها أكثر مما يفعل الرجال الذين ينتمون لطبقتها الاجتماعية . وان الألم ليحز فى نفوسنا لو عرفنا ان امراة راقية النشأة اضطرت - لكى تكسب قوتها - الى القيام بعمل نافع . فهذا ليس « مجال المراة ». فمجال المراة فى منزلها الذى عليها أن «تجمله» ، وعليها ان تكون «أهم ما يزينه» . فليس من المعتاد ان يقال عن رب العائلة انه زينة اهل المنزل . ومظهر المراة هذا ، اذا نظرنا اليه مقترنا بالحقيقة الأخرى ، وهى أن الأناقة تقتضى اهتماما شديدا باستعراض الاسراف فى الملبس وغيره من مظاهر زينة المراة ، هذا المظهر يؤيد وجهة النظر التى اشرنا اليها فيما سبق .

ولما كان نظامنا الاجتماعى قد تطور عن النظام الأبوى القديم فانه يقتضى من المراة بصفة خاصة أن تستعرض قدرة العائلة على الشراء . وحسن سمعة العائلة التى هى جزء منها يجب - حسب ما يقضى به نظام الحياة المتحضر الحديث - أن يكون موضع اهتمام المراة الخاص ، وعلى ذلك يجب أن تكون خطة الانفاق المشرف والفراغ البين ، وهما اهم عاملين يحفظان للأسرة سمعتها الطيبة ، أهم ما تعنى به المراة ، وهذا الاهتمام بالاسراف المظهرى للسلع والجهد ، وهذه الخطة المثلى للانفاق المشرف - كما تفصح عن نفسها فى حياة اغنى الطبقات - يجب عادة أن تكون الوظيفة الاقتصادية الوحيدة للمراة .

وفى مرحلة التطور الاقتصادى التى كانت المراة فيها متاعا للرجل بكل معنى الكلمة ، كان استعراض الفراغ البين والاستهلاك البين جزءا من المنفعة المطلوب من المراة اداؤها ، اذ لما لم تكن المراة سيدة نفسها فان الفراغ البين والانفاق البين كانا من دواعى الشرف لسيدها لا لنفسها ، ومن هنا جرى العرف على أن ربة البيت كلما كانت أكثر بذخا واقل انتاجا فيما يبدو ، كانت حياتها أكثر تشريفا لرب العائلة وأكثر أثرا فى اكسابه حسن السمعة الى حد ان المراة كان يطلب منها لا أن تكون شاهدا على حياة الدعة فحسب ، بل ان تجعل نفسها ايضا عاجزة عن القيام بأى نشاط مثمر .

وفى هذه النقطة بالذات نرى ملبس الرجل يقل عن ملبس المراة ، وهو أمر له ما يبرره . فالاسراف المظهرى والفراغ البين يجلبان حسن السمعة لأنهما دليل القدرة المالية ، والقدرة المالية تكسب صاحبها الشرف وحسن السمعة لأنها ، عند تحليلها آخر الأمر ، شاهد على النجاح والقدرة الفائقة ،

ومن هنا كانت دلائل التبديد والفراغ التى يبديها الفرد بالأصالة عن نفسه لا تستطيع أن تتخذ المظهر أو تبلغ المدى الذى يجعل منها دليلا على العجز أو الشقاء من جانبه ، لأن الظهور بمثل هذا المظهر لن ينم فى هذه الحالة عن السمو ، بل عن النقص ، وبهذا يقضى على الغرض منه • وعلى ذلك فحيثما كان الانسان ، عادة أو فى المتوسط ، يذهب فى الانفاق التبديدى والتظاهر بالامتناع عن العمل الى المدى الذى يستعرض به متاعبه أو عجزه الجسمانى الذى تحمله باختياره ، فان النتيجة العاجلة لهذا أن يفهم الناس ان هذا الشخص لا يقوم بهذا الانفاق التبديدى ولا يتحمل ذلك العجز لفائدة شخصية يصيبها من حيث الشهرة المالية ، بل لفائدة شخص آخر يعيش هو عالة عليه من الناحية الاقتصادية ، وهذه العلاقة يجب عند تحليلها التحليل الأخير ان تتلخص من حيث النظرية الاقتصادية ، فى أنها علاقة عبودية •

ولنطبق هذا التعميم الآن على أزياء النساء ، ونعرض الموضوع فى عبارات محددة : فالكعب العالى والتنورة والقبعة غير العملية والمشد الذى تلبسه المرأة حول خصرها والتغاضى العام عن كل مضايقة يتحملها اللابس ، وهو مظهر واضح فى كل أزياء النساء المتحضرات ، هى كلها أمور عديدة تشهد بأن المرأة فى نظام الحياة المتحضر الحديث ، لا تزال نظريا تعتمد على الرجل من الناحية الاقتصادية ، وانها لا تزال ، وربما من ناحية وهمية الى حد كبير ، متاع الرجل • والسبب الواضح فى كل هذا الفراغ البين والزى الذى ينم عن الاسراف من جانب النساء ، يرجع الى انهن خدم موكول اليهن ، عند توزيع الوظائف الاقتصادية ، القيام باستعراض قدرة سيدهن على الانفاق •

وهناك شبه واضح من هذه الناحية بين أزياء النساء وأزياء خدم المنازل ، لاسيما الخدم الذين يتخذون لهم زيا خاصا مميزا • ففى كليهما استعراض متقن للاسراف الذى لا داعى له ، وفى كليهما أيضا اغفال ملحوظ لراحة لابسه الجسمانية • لكن زى السيدات يذهب فى تعمده المحكم للدلالة على الفراغ ، ان لم يكن على العجز الجسمانى ، الذى يعيش فيه صاحبه ، الى حد أبعد من زى الخدم • وهذا هو ما يجب أن يكون ، لأن ربة البيت هى نظريا رئيسة خدم المنزل ، وذلك بمقتضى النظام المثالى للثقافة المالية •

والى جانب الخدم ، الذين ينطبق عليهم هذا الاسم فى العرف العام ، توجد طبقة أخرى من الناس — على الأقل — يجعلهم زيهم شبيهين بطبقة الخدم ، ويشتمل على كثير من المظاهر التى تكسب الأزياء النسائية مظهرها الأنثوى • هذه هى طائفة رجال الدين • فملابس القسس تعكس ، بدرجة

كبيرة ، جميع المظاهر التى اوضحنا انها تقوم دليلا على منزلة الخدم وعلى حياة التبعية . فملابس القسس نفسها منمقة وغريبة المنظر وغير لائقة وغير مريحة للابسها الى حد المضايقة ، من الناحية الظاهرية على الأقل ، وهى فى غرابة هذه الصفات تبز عادات القسس اليومية . والقسيس فى نفس الوقت مفروض فيه أن يمتنع عن بذل اى جهد مثمر وان يحتفظ فى حضرة الناس بملامح جامدة لا تلين ، مما يشبه ، الى حد كبير ، ما يفعل خادم المنزل المدرب تدريبا كافيا ، ووجه القسيس الحليق هو أمر آخر له نفس الأثر . وهذا الشبه بين طبقة القسس وطبقة الخدم الخصوصيين فى السلوك وفى الملبس يرجع الى الشبه بين الطبقتين من حيث الواجبات الاقتصادية . فالقسيس فى النظرية الاقتصادية ، خادم خاص يقوم ، فى المفهوم العام ، على خدمة الرب الذى يلبس هو الزى الخاص بخدمته . وهذا الزى ذو طابع باهظ الثمن الى حد كبير ، وهذا ما يجب ان يتوافر فيه لكى يعرض عظمة سيده المقدس عرضا لائقا . لكنه قد صمم بحيث يدل على أن ارتداءه لا يوفر الا قليلا او لا يوفر شيئا من الراحة البدنية للابسه ، لأنه سلعة من سلع الاستهلاك بالتبعية ، وطيب السمعة الذى ينبع من ارتدائه يعود الى السيد الغائب ، لا الى الخادم التابع .

والخط الذى يفصل بين أزياء النساء والقسس والخدم من جهة ، وأزياء الرجال من الجهة الأخرى ، لا يراعى دائما فى الواقع ، لكن يندر أن نجد أحدا ينكر انه موجود دائما فى طرائق تفكير الناس بدرجة محددة الى حد ما. هناك ايضا بطبيعة الحال رجال لاينتمون الى هذه الطبقات ، وعددهم غير قليل ، يدفعهم تمسكهم الشديد بالأزياء الغالية الأنيقة الى تخطى هذا الخط الوهمى الذى يميز بين ملابس النساء وملابس الرجال ، بحيث يتخذون لأنفسهم زيا قد صمم دون شك لكى يضايق جسم لابسه ، لكن كل واحد منا يقرر دون تردد أن مثل هذا الزى على جسم رجل هو خروج على العرف المألوف . وقد اعتدنا أن نقول ان مثل هذا الزى «مخنث» ، واحيانا يسمع الواحد منا ملاحظة يبديها بعض الناس عن شخص مهذب يلبس ملبسا متأنقا فيقولون انه يلبس ملبسا أنيقا كملبس الخدم .

و «تقليعة» مشد الخصر استثناء ظاهر من القاعدة التى أوردناها هنا أكثر تفصيلا ، خصوصا أنها تعكس اتجاها واضحا نوعا ما فى التطورات الاخيرة التى حدثت فى الأزياء .

و «تقليعة» مشد الخصر استثناء ظاهر من القاعدة التى أوردناها هنا كمثال . على أن الدراسة الدقيقة تبين ان هذا الاستثناء الظاهر هو فى حقيقته تثبيت للقاعدة التى تقول ان اية « تقليعة » جديدة فى اى عنصر او مظهر خاص بالأزياء ، تتوقف على الدور الذى تقوم به كشاهد على المنزلة المالية . ومن المعروف جيدا أن مشد الخصر لا يستعمل لدى المجتمعات

الأكثر تقدما من الناحية الصناعية ، الا بين طبقات اجتماعية محددة تحديدا واضحا . فنساء الطبقات الفقيرة ، خصوصا بين سكان الريف ، لا تستعملنه عادة الا كأداة من أدوات الترف أيام العطلات . فنساء هذه الطبقات ملزمات بأداء أعمال شاقة ، فاذا أردن التظاهر بالبطالة ، على حساب تعذيب أجسادهن بالملابس الضيقة ، فلن يجديهن هذا من هذه الناحية الا قليلا. اما استعمال الملابس الضيقة أثناء العطلات فيرجع الى تقليد قانون الأناقة السائد بين نساء الطبقة الراقية . فاذا تدرجنا الى أعلى فوق مستوى الحرمان المنخفض هذا وفوق مستوى العمل اليدوى ، فاننا نجد أن مشد الخصر كان الى ما قبل جيل أو جيلين لا غنى عنه تقريبا لجميع نساء الطبقات المحترمة ، بما فى ذلك اكثرهن ثراء وشهرة . وقد بقيت هذه القاعدة سارية طالما لم تكن قد ظهرت بعد طبقة كبيرة من الناس الذين أثروا ثراء يضعهم فوق اية شبهة من حاجة الى اداء اى عمل يدوى . وهى فى نفس الوقت من كثرة العدد بحيث تجعل من نفسها طبقة اجتماعية واحدة قائمة بذاتها منفصلة عن غيرها ، بحيث يمكن لكثرة عددها أن تكون أساسا تقوم عليه قواعد سلوكية خاصة داخل نطاق الطبقة ، تمليها طرق التفكير السائدة بين افرادها وحدهم . وقد نمت الآن طبقة من المترفين الذين يملكون ثروة طائلة بحيث أن أى اتهام لهم بأنهم مضطرون الى أداء عمل يدوى يصبح اتهاما باطلا لا يمسهم منه اى ضرر . وعلى ذلك فقد كان مآل مشد الخصر بين هذه الطبقة هو الاهمال الى حد كبير .

فاذا كانت هناك استثناءات من قاعدة التخلى عن مشد الخصر هذه فهى ظاهرية اكثر منها حقيقة ، وتشمل الاستثناءات الطبقات الغنية فى الدول ذات الكيان الصناعى المنخفض — وهى الدول القديمة شبه الصناعية — كما تشمل الذين دخلوا حديثا فى زمرة الأثرياء فى المجتمعات الصناعية الأكثر تقدما . فهؤلاء الأخيرون لم يتح لهم الوقت الكافى لانتزاع أنفسهم من قوانين الذوق الشعبية وقواعد حسن السمعة التى ورثوها عن طبقتهم السابقة ذات المستوى المالى الأدنى . فالاستمساك باستعمال مشد الخصر ليس قليل الوجود مثلا فى المدن الامريكية التى ظهرت وأصابت الثراء الفاحش فجأة . واذا جاز لنا ان نستعمل لفظ «الترفع» على انه تعبير فنى دون أن نحمله على محمل مستقبح ، استطعنا أن نقول أن استعمال المشد يبقى ، الى درجة كبيرة ، خلال فترة «الترفع» — اى فترة التردد والتحول من ثقافة مالية وضيعة الى ثقافة مالية أعلى ، ومعنى هذا أن المشد يبقى فى كل البلاد التى توارثته حينا طالما كان يؤدى الفرض منه كشاهد على الفراغ المشرف من حيث كونه دليلا على عجز لابسه من الناحية الجسمية . وهذه القاعدة تسرى بالطبع على أنواع أخرى من العيوب ومن المبتكرات التى ترمى الى استعراض عجز الفرد عن العمل .

وتنطبق نفس القواعد تقريبا على ابواب الاستهلاك الظاهرى المنوعة ، والحقيقة ان أشياء مشابهة تنطبق فيما يبدو الى درجة قليلة على مظاهر مختلفة تتعلق بالأزياء ، خصوصا اذا كانت هذه المظاهر تنطوى على مضايقة واضحة ، او تظاهر بالمضايقة للابسها . وهناك اتجاه واضح خلال مائة السنة الأخيرة ، فى تطور أزياء الرجال بصفة خاصة ، يميل الى التخلى عن ابواب الاسراف والعلامات التى تنم عن الفراغ وكانت بالضرورة مصدر مضايقة ، تلك الأبواب التى ربما حققت غرضا مستحبا فى زمانها ولكن بقاءها اليوم بين الطبقة العليا يعتبر شيئا زائدا عما تقتضيه الضرورة . ومن قبيل هذه الأبواب مثلا ، استعمال الشعر المستعار وتبييضه بمسحوق ابيض ، واستعمال الشرائط المذهبة والاحتفاظ بالوجه حليقا دائما . وقد حدث فى السنوات الأخيرة أن بدات المجتمعات الراقية تعود قليلا الى الوجه الحليق ، لكن هذا قد يكون تقليدا انتقاليا غير حكيم للأسلوب الذى كان يلتزم به الخدم الخصوصيون ، وربما جاز لنا أن نتوقع لهـا أن تذهب فى نفس الطريق الذى ذهب فيه شعر أجدادنا المستعار المرشوش بالمسحوق الأبيض .

هذه الأمارات وغيرها مما يشبهها فى دلالتها الصارخة ـ لكل من يشاهدها ـ على تفاهة الأشخاص الذين يستخدمونها ، قد حلت محلها اليوم طرق أخرى أرق منها تؤدى نفس الغرض ، وهى طرق لا تقل وضوحا أمام النظرة المدربة التى تتمتع بها تلك النخبة القليلة من الأفراد الذين تهدف الى التأثير فيهم تأثيرا حسنا . أما طريقة الاعلان الفجة القديمة فقد احتفظت بمكانتها طالما كان جمهور المشاهدين الذى يبغى المستعرض ارضاءه كبير العدد بالنسبة للمجتمع الذى لم تكن دربته تسمح له بملاحظة التنويعات البسيطة التى تطرأ على علامات الثروة والفراغ . وطريقة الاعـلان يعتورها التهذيب عندما تنشأ طبقة ثرية كبيرة العدد يتوفر لها الفراغ الكافى الذى يساعدها على اكتساب المهارة فى فهم مغزى مظاهر الاسراف الأكثر دقة . فالملابس « الصارخة » تصبح منفرة لأصحاب الذوق الرقيق ، على اعتبار أنها برهان واضح على رغبة لا ضرورة لها فى الفات النظر والتأثير فى أصحاب الذوق غير الرقيق . أما الشخص ذو النشأة العالية فلا يهتم اهتمـاما يذكر الا بالتقدير المشرف الذى يبديه نحوه أفراد طبقته الراقية ذوو الأذواق المهذبة . فاذا زاد عدد أفراد الطبقة الثرية المتمتعة بالفراغ زيادة كبيرة ، أو اتسع مجال اتصال بعض أفرادها ببعض اتساعا عظيما يجعل منها بيئة بشرية تحقق أغراضها الشرفية ، فحينئذ يظهر الاتجاه الى استبعاد عناصر السكان الدنيا من محيطها ، حتى لو كانوا مجرد مشاهدين يبتغى نيل اعجابهم أو اذلالهم . ونتيجة هذا كله تهذيب للوسائل ، بالبحث عن مبتكرات أكثر رقة والنجوء

الى نظام مهذب لتصميم الأزياء • وعندما تقوم الطبقة المترفة الراقية عنده باتخاذ الخطوات الأولى فى كل أمر يتعلق بآداب السلوك فان أثر هذا على باقى طبقات المجتمع أيضا يكون تهذيبا تدريجيا لأساليب الأزياء • وكلما زاد المجتمع ثروة وثقافة يتم استعراض القدرة على الشراء عن طريق وسـائل تحتاج الى تمييز أدق من جانب المشاهد • وهذا التمييز المهذب بين طرق الاعلان هو فى الحقيقة عنصر كبير جدا من عناصر الثقافة المالية الراقية •

الفصل الثامن

الإعفاء الصناعي والمحافظة

حياة الانسان في المجتمع ، مثلها مثل حياة أى نوع آخر تماما ، هى صراع من أجل البقاء ، وهى لذلك عملية ملاءمة عن طريق الانتخاب • وتطور الكيان الاجتماعي كان دائما عملية انتخاب طبيعي لنظم الحياة • والتطور الذى حدث، ولا يزال يحدث في النظم الانسانية والطبع الانساني يمكن ارجاعه بوجه عام الى عملية انتخاب طبيعي لأصلح طرائق التفكير والى عملية تلاؤم الأفراد تلاؤما اجباريا مع بيئة كانت دائمة التغير تبعا لنمو المجتمع وللنظم المتغيرة التى عاش الناس في ظلها • وليست النظم مجرد نتيجة لعملية الانتخاب والتلاؤم التى تقوم بتشكيل أنواع الميول والقدرات السائدة أو الشائعة ، بل هى فى نفس الوقت طرق خاصة من طرق الحياة ومن العلاقات الانسانية ، ومن أجل ذلك كانت بدورها عوامل فعالة فى عملية الانتخاب ، ومن أجل ذلك تساعد النظم المتغيرة بدورها على عملية انتخاب أخرى للأفراد الذين وهبوا أصلح الميول العقلية ، وعلى عملية تلاؤم أخرى بين الميول والعادات الفردية وبين البيئة المتغيرة عن طريق تكوين نظم جديدة للحياة •

ان القوى التى عملت على تشكيل الحياة البشرية والكيان الاجتماعي يمكن دون شك أن نرجعها فى النهاية الى الأنسجة الحية والبيئة المادية • لكننا نستطيع ، فيما يتعلق بالموضوع الذى نتناوله ، ان نعبر عن هذه القوى على أحسن وجه بأنها عبارة عن بيئة ، بشرية وغير بشرية ، وكائن بشرى ذى كيان مادى وعقلى محدد الى درجة ما ، وهذا الكائن البشرى فى مجموعه أو فى المتوسط متغير بدرجة ما ، تغيرا يخضع أساسا دون ريب الى عملية انتخاب تعمل على المحافظة على التغيرات الملائمة • وقد تكون المحافظة على التغيرات الملائمة هى الى درجة كبيرة احتفاظا انتخابيا بالأنواع البشرية • ففى تاريخ حياة أى مجتمع يتكون سكانه من خليط من عناصر بشرية مختلفة ، نجد واحدا من عدة عناصر صامدة ومستقرة نسبيا من حيث صفاتها الجسمية والخلقية ، هو الذى يصل الى مركز الرياسة فى أى وقت معين • فان الموقف ، بما فيه من نظم سائدة فى أى وقت معين ، يساعد على بقاء نوع واحد من الشخصيات وسيادته ، بتفضيله على ما عداه • ونوع الرجال الذين ينتخبون بهذه الطريقة

ليحفظوا ويطوروا النظام الذى ورثوه عن أسلافهم يتولون تشكيل هذه النظم بدرجة عظيمة ، تشكيلا يلائم رغباتهم • لكن اذا صرفنا النظر عن الاختيار بين أنواع من الرجال وطرائق من طرق التفكير مستقرة نسبيا ، فلا ريب أن هناك عملية أخرى من عمليات المواءمة الانتخابية لطرائق التفكير تعمل فى نفس الوقت داخل النطاق العام للقدرات الذى يمتاز به العنصر البشرى السائد أو العناصر السائدة • وقد يكون هناك تنوع فى الطباع الأساسية لأى شعب من الشعوب ، جاء عن طريق الانتخاب بين أنواع مستقرة نسبيا ، لكن هناك أيضا تنوع يرجع الى التلاؤم فى التفصيلات داخل نطاق النوع نفسه ، والى الاختيار بين وجهات نظر حياتية معينة فيما يتعلق بأية علاقة اجتماعية بالذات ، أو مجموعة من العلاقات •

وفيما يتعلق بالبحث الذى نتناوله ، فان السؤال الخاص بطبيعة التلاؤم ـ وهل هو أساسا اختيار بين أنواع مستقرة من المزاج والطباع ، أو هل هو أساسا تلاؤم بين أساليب الناس فى التفكير وبين الظروف المتغيرة ـ مثل هذا السؤال أقل أهمية من حقيقة أن النظم تتغير وتتطور باستمرار بطريقة أو بأخرى • والنظم لا مفر لها من التغير بتغير الظروف ، لأن لها طبيعة الاستجابة الاعتيادية للبواعث التى تقدمها هذه البيئة المتغيرة • وتطور هذه النظم هو تطور المجتمع • والنظم فى حقيقتها هى أساليب التفكير السائدة المتصلة بعلاقات معينة أو وظائف معينة للفرد أو للمجتمع ونظام الحياة ، الذى هو مجموع النظم السائدة فى أى وقت بالذات أو فى أية مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمع ، يمكن ، من الناحية السيكولوجية ، تعريفها تعريفا شاملا بأنها اتجاه روحى سائد أو نظرية سائدة من نظريات الحياة • أما من حيث مظاهرها العامة ، فان هذه الميول الروحية أو هذه النظرية اذا حللناها تحليلا دقيقا ، يمكن ارجاعها الى نوع سائد من الصفات •

والظروف السائدة اليوم تحدد شكل نظم الغد عن طريق عملية انتخابية قاهرة ، بالتأثير فى نظرة الناس الاعتيادية الى الأمور ، وبالتالى بتغيير وجهات النظر والاتجاهات الفكرية المتوارثة عن الماضى ، أو بتأييدها ، والنظم (اى أساليب التفكير) التى يسترشد بها الناس فى حياتهم ، يرثونها بهذه الطريقة عن زمان مضى قبل زمانهم بوقت طال أو قصر ، ولكنها على أية حال قد تطورت نحو الكمال فى الماضى وآلت اليهم منه • والنظم هى نتاج العملية السابقة ، وهى متلائمة مع ظروف سابقة ، ولذلك لا تتفق اتفاقا تاما مع مقتضيات الحاضر • وعملية التلاؤم الانتخابى هذه لا تستطيع فى واقع الأمر أن تساير الظروف الدائمة التغير التى يوجد فيها المجتمع فى وقت معين ، فان البيئة والظروف ومقتضيات الحياة التى تملى التلاؤم وتنفذ الانتخاب ، تتغير من يوم الى يوم ، وكل وضع تال من أوضاع المجتمع يتجه بدوره الى التقادم

والنسيان بمجرد استقراره . فكلما خطا المجتمع خطوة فى سبيل التطور فان هذه الخطوة ذاتها هى تغير فى الوضع يقتضى تغيرا جديدا ويصبح نقطة تحول جديد الى خطوة جديدة فى التلاؤم ، وهكذا دواليك بغير نهاية .

من الواجب اذن ، ولو انها حقيقة واضحة طال الكلام فيها ، أن نشير الى أن نظم اليوم — أو نظام الحياة الحاضر الذى يرضى عنه الناس — لا تلائم الظروف الحالية ملاءمة تامة . وفى نفس الوقت نرى ان عادات الناس الفكرية القائمة تميل الى البقاء الى ما لانهاية ، الا حيثما تضطرها الظروف الى التغير فهذه النظم التى توارثها النـــاس عن السلف : هذه الأساليب فى التفكير ووجهات النظر والاتجاهات العقلية والقدرات وما اليها ، هى أذن فى ذاتها عامل من عوامل المحافظة على القديم . وهى بهذا تعتبر عامل القصور الذاتى أو الاستمرار الاجتماعى ، أو الاستمرار السيكولوجى أو المحافظة على الوضع القائم .

والكيان الاجتماعى يتغير ويتطور ويوائم نفسه مع الظروف المتغيرة عن طريق واحد دون سواه هو تغير أساليب التفكير لدى طبقات المجتمع المتنوعة ، أو هو ، بعد التحليل الدقيق ، طريق تغير أساليب التفكير لدى الأفراد الذين يتكون منهم المجتمع . وتطور المجتمع هو فى حقيقته عملية ملاءمة عقلية من جانب الأفراد وتحت ضغط الظروف التى لاتستطيع الاستمرار فى استساغة أساليب التفكير التى نشأت فى ظل مجموعة من الظروف الماضية وتلاءمت معها . ولا يهمنا هنا ما اذا كانت عملية التلاؤم هذه هى عمليـــة انتخاب واستمرار عناصر بشرية قوية معينة أو هى عملية تواؤم فردية وتوارث صفات مكتسبة .

والتطور الاجتماعى ، وخاصة اذا نظرنا اليه من ناحيـــة النظــرية الاقتصادية ، عبارة عن تقدم متتابع الى درجة كبيرة جدا من « التوفيق بين علاقاتنا الداخلية والخارجية» ، ولكن هذاالتوفيق لا يبلغ الاستقرارا النهائى أبدا ، لأن العلاقات الخارجية عرضة للتغير المستمر نتيجة للتغير التطورى المستمر الذى يعترى « العلاقات الداخلية » . لكن درجة الاقتراب من التوفيق التام قد تزيد أو تنقص تبعا للسهولة التى يتم بها التوفيق . وكل تعديل فى اساليب تفكير الناس لكى تتلاءم مع وضع متغير ، لا يتم على اية حال الا متأخرا وعلى مضض ، والا تحت ضغط يمليه وضع جديد لا يستسيغ الأفكار السائدة . وتعديل النظم والآراء المعتادة لكى تلائم بيئة متغيرة ، يحدث استجابة لضغط خارجى ، وهو فى طبيعته يشبه الاستجابة لقوة دافعة . وعلى ذلك فان حرية التوفيق وسهولته ، أو بتعبير آخر قدرة الكيان الاجتماعى على النمو ، تتوقف الى حد كبير على مقدار الحرية التى تؤثر بها الأوضاع فى اى وقت على كل فرد فى المجتمع — أى درجة تعرض كل فرد لقوى البيئة القاهرة .

فاذا بقي قسم أو طبقة من المجتمع بمنأى عن آثار البيئة الى درجة كبيرة ، فان هذا القسم من المجتمع ، أو هذه الطبقة ، يوائم فى بطء بين آرائه ونظام حياته وبين الوضع العام المتغير ، فهو يميل من هذه الناحية الى تأخير عملية التحول الاجتماعى • والطبقة المترفة الثرية هى بمنأى عن تأثير القوى الاقتصادية التى تعمل على التغير والتعديل • ومن الممكن أن يقال ان القوى التى تعمل على تعديل الأنظمة ، لا سيما فى حالة مجتمع صناعى حديث ، هى عند التحليل النهائى ، قوى اقتصادية محضة •

ويمكن النظر الى أى مجتمع على أنه جهاز صناعى أو اقتصادي يتكون كيانه مما يسمى بنظمه الاقتصادية • وهذه النظم هى الأساليب المعتادة التى تسير بمقتضاها عملية حياة المجتمع فى علاقتها بالبيئة المادية التى يعيش فيها • فاذا رأينا أساليب معينة من أساليب تطور النشـاط البشرى فى هذه البيئة بالذات ، قد أصبحت متقدمة منهذه الوجهة ، فان حياةالمجتمع سوف تسير فى هذه الاتجاهات العادية بشىء من السهولة • وسوف يسخر المجتمع قوى البيئة فى تحقيق أغراضه فى الحياة باتباع أساليب تعلمها أسلافه فى الماضى وأودعوها تلك النظم •

لكن كلما زاد عدد السكان ، وكلما زادت معلومات الانسان ومهارتهفى توجيه قوى الطبيعة ، فان وسائل العلاقات المعتادة بين أفراد المجتمـع والوسائل المعتادة التى تسير بها عملية حياة المجتمع باكمله لاتتمخض عن نفس النتيجة التى كانت تتمخض عنها من قبل • كما أن نتائج الحياة لا توزع بنفس الطريقة أو بنفس الدرجة من الفعلية بين مختلف أعضاء المجتمع كما كان الأمر من قبل • فلو أن النظام الذى كانت عملية المجتمع تسير بمقتضاه فى ظل الظروف القديمة كان يتمخض عن أحسن النتائج التى يمكن بلوغها فى ظل هذه الظروف من حيث كفاية عملية حياة المجتمع وسهولتها ، فان نظام الحياة نفسه اذا لم يتغير لا يمكن أن يتمخض عن أحسن النتائج الممكنة من هذه الوجهة فى ظل الظروف التى تغيرت • ففى ظل الظروف التى تغيرت ــ ظروف السكان والمهارات والمعلومات ــ قد لا تكون سهولة الحياة كما يعيشها الناس تبعا لنظم الحياة التقليدية أقل مما كانت فى ظل الظروف السابقة • لكن المحتمل دائما هو أنها قد تكون أقل مما كان ينبغى أن تكون ، لو أن النظام قد تغير بحيث يتلاءم مع الظروف بعد تغيرها •

والجماعة تتكون من أفراد ، وحياة الجماعة هى حياة الأفراد يعيشونها على انفراد ، ولو فى الظاهر على الأقل • ونظام الحياة الذى ترتضيه الجماعة هو الاجماع الذى ينعقد عليه رأى مجموع الأفراد فيما هو حق ولائق ونافع

حياة الجماعة هي حياة الافراد

وجميل من الأمور التى تتعلق بالحياة البشرية · وعندما يعاد تنظيم ظروف الحياة التى تنشأ عن تغير طريقة معالجة الانسان للبيئة ، فان النتيجة لا تكون تغيرا منتظما لدرجة سهولة حياة الفريق بأسره · وقد تزيد الظروف الجديدة من سهولة الحياة أمام الفريق بأسره ، ولكن اعادة التنظيم يتبعه عادة نقص فى سهولة سبل الحياة ، أو التمتع الكامل بها ، أمام بعض أفراد الفريق · وأى تطور فى الطرق الفنية أو فى عدد السكان أو فى التنظيم الصناعى سوف يقتضى من بعض أفراد الفريق على الأقل تغيير أساليب حياتهم لكى ينتقلوا بسهولة وكفاية الى الظروف الصناعية الجديدة · وهم عندما يفعلون هذا سوف لا يقدرون على التلاؤم والأفكار الجديدة المكتسبة ، فلا يميزون بسهولة ما هو حق وما هو جميل من أساليب الحياة الجديدة ·

وأى شخص يراد منه تغيير أساليب حياته وعلاقاته المعتادة بين جنسه سوف يشعر بالفرق الهائل بين أساليب الحياة التى تتطلبها منه مقتضيات الحياة التى ظهرت حديثا وبين أسلوب الحياة التقليدى الذى اعتاده · والأفراد الذين يجدون أنفسهم فى هذا الوضع هم الذين يتعرضون لأقوى الدوافع لتنظيم أسلوب الحياة الجديدة ، وهم أكثر الناس استعدادا للاقتناع بقبول المسئوليات الجديدة ، والحاجة الى مقومات الحياة الضرورية هى التى تضع الناس فى مثل هذا الوضع · والضغط الذى تمارسه البيئة على الفريق ويقضى بتعديل نظام الحياة التى يحياها يؤثر على أفراد الفريق فى شكل مطالب مالية · وبسبب هذه الحقيقة ــ حقيقة كون العوامل الخارجية تأخذ الى حد كبير شكل المطالب المالية أو الاقتصادية ــ بسبب هذه الحقيقة نستطيع أن نقول أن القوى التى لها وزن فى تعديل النظم فى أى مجتمع صناعى حديث هى فى أساسها عوامل اقتصادية ، أو نقول بتحديد أكبر ، ان هذه القوى تكون على شكل ضغط اقتصادى · ومثل هذا التعديل الذى نعنيه هنا هو فى أساسه تعديل فى وجهات نظر الناس الى ما هو حق ، والسبيل التى يتم بها التعديل فى ادراك الناس لما هو طيب وحق هى فى الغالب ، الحاف المطالب المالية ·

وأى تغير فى آراء الناس بالنظر الى ما هو طيب وحق فى الحياة البشرية ، لا يتم فى أحسن الأحوال الا ببطء · وهذا يصدق بصفة خاصة على أى تغيير فى الاتجاه الذى يسمى تقدما ، اى فى الاتجاه الذى يبتعد عن الأوضاع القديمة ــ من الوضع الذى يمكن اعتباره نقطة الانطلاق عند أية خطوة من خطى تطور المجتمع اجتماعيا · أما النكوص والعودة الى وضع طال اعتياد الجنس البشرى عليه فى الزمن القديم ، فأمر يسير ، وهذا يصدق

ولودة عامل الاعتقاد

بصفة خاصة فى حالة ما اذا كان الابتعاد عن هذا الوضع القديم غير راجع فى الأصل الى حلول نوع بشرى جديد لا يتفق مزاجه والوضع القديم الذى كان قائما .

والمرحلة الثقافية التى سبقت المرحلة الحاضرة مباشرة فى تاريخ الحضارة الغربية هى التى أطلقنا عليها هنا اسم المرحلة ذات المظهر السلمى . ففى هذه المرحلة ذات المظهر السلمى يكون قانون المنزلة الاجتماعية هو المظهر الغالب فى نظام الحياة . ولسنا بحاجة الى أن نشير الى مقدار استعداد الرجال فى وقتنا الحاضر للعود الى سيادة المعانى الروحية وأداء الخدمات الشخصية التى كانت من مميزات ذلك الزمن . بل نستطيع بالحرى أن نقول أن هذا الاستعداد قد توقف بسبب المطالب الاقتصادية ، ولم تحل محله ميول عقلية تتلاءم تلاؤما تاما مع هذه المطالب التى ظهرت حديثا . ويبدو أن مرحلتى التطور الاقتصادى العدوانية والسلمية المظهر قد بقيتا فترة طويلة من تاريخ حياة جميع العناصر البشرية التى يتكون منها السكان ذوو الثقافة الغربية . ومن هنا بلغت النزعات والاتجاهات العقلية التى تتميز بها هذه المرحلة حدا من الثبات بحيث يصبح الانتكاس السريع نحو المظاهر العامة للتكوين السيكولوجى المرتبط بهذه الفترة أمرا لا بد منه لأية طبقة أو مجتمع لا يكون واقعا تحت سلطان القوى التى تساعد على الاحتفاظ بطرائق التفكير المستحدثة .

ومن المعروف جيدا أنه لو انعزل بعض الأفراد ، بل لو انعزلت مجموعات من الناس كبيرة العدد ، عن ثقافة صناعية عالية وعاشوا فى بيئة ثقافية أدنى ، أو فى وضع اقتصادى ذى طابع بدائى ، فانهم سرعان ما تبدو عليهم دلائل الانتكاس الى المظاهر الروحية التى يتميز بها الطابع العدوانى . ويبدو من المحتمل أن العنصر الأوروبى الأشقر ذا الرأس المستطيل يستطيع الارتداد الى الهمجية بسهولة أكبر مما تستطيع العناصر البشرية الأخرى التى يشترك معها هذا العنصر فى الثقافة الغربية . وهناك أمثلة كثيرة على مثل هذا الارتداد حدثت على نطاق صغير فى تاريخ الهجرة والاستعمار الحديث . ولولا خشية الاساءة الى شعور الوطنية المتعصبة ، وهو من المظاهر المميزة للثقافة العدوانية ، وغالبا ما يكون وجوده أظهر دليل على انتكاس المجتمعات الحديثة ، لضربنا من المستعمرات الامريكية مثلا على هذا الانتكاس الذى حدث على نطاق كبير بدرجة غير عادية ، ولو أنه لم يكن انتكاسا بعيد المدى .

والطبقة المترفة تقف الى حد كبير بمنجى من ضغط تلك المطالب الاقتصادية السائدة فى أى مجتمع صناعى حديث بالغ التنظيم . ومطالب الصراع على ضرورات الحياة اقل الحافا على هذه الطبقة منها على اية طبقة

الرحلة ذات المظهر السلمى

ارتداد انتكاس المظاهر

اخرى ، وبناء على هذا الوضع الممتاز يجب ان نتوقع منهـا أن تكون اقل طبقات المجتمع استجابة للمطالب التى يفرضها الوضع من أجل الاستمرار فى تنمية النظم والتلاؤم مع الوضع الصناعى المتغير • فالطبقة المترفة هى الطبقة المحافظة ، والمطالب التى يفرضها وضع المجتمع من الناحية الاقتصادية العامة لا يحسها أفراد هذه الطبقة بدرجة كبيرة أو مباشرة ، ولن يقتضيهم احد ـ تحت تهديد الاتهام بالتقصير ـ أن يغيروا طرائق حيـاتهم وآراءهم النظرية عن العالم الخارجى لكى تلائم ما تقتضيه الأساليب الصناعيـة المتغيرة ، لأنهم ليسوا جزءا أساسيا من المجتمع الصناعى • وعلى ذلك نجد ان هذه المطالب ليس من السهل أن تبعث فى أفراد هذه الطبقة ذلك القدر من الضيق بالأوضاع القائمة الذى يستطيع دون سواه أن يجعل اية مجموعة من الناس تتخلى عن آرائها وطرق معيشتها التى اعتادتها • ودور الطبقة المترفة فى التطور الاجتماعى هو ابطاء خطاه والمحافظة على القديم المنبوذ • وهذا الرأى ليس جديدا بأى حال ، فقد كان منذ زمن طويل ـ ولا يزال ـ من الأمور الشائعة لدى الرأى العام •

والاعتقاد السائد بأن الطبقة الغنية محافظة بطبيعتها قد تقبله الرأى العام منذ مدة دون مساعدة كبيرة من أى رأى نظرى خاص بوضع هذه الطبقة من التطور الثقافى وعلاقتها به • فاذا كان هناك ما نعلل به تمسك هـذه الطبقة بالقديم فهو على العموم سبب تحاسدى يجعل هذه الطبقة الغنيـة تعارض كل تجديد لأن لها مصلحة خفية من نوع تافه فى الاحتفاظ بالظروف الراهنة • وهذا التفسير الذى نقدمه هنا لا ينطوى على دافع هين الشأن ، فان معارضة هذه الطبقة لأى تغيير فى النظام الاقتصادى معارضـة غريزية ولا تستند أساسا الى أى حساب شخصى للمنافع المادية • فهى كراهيـة غريزية لأى تحول عن الأسلوب الاعتيادى فى أداء الأشياء أو النظر اليهـا ـ كراهية شائعة لدى جميع الرجال ، ولا سبيل الى التغلب عليهـا الا تحت ضغط الظروف • فكل تغيير فى طرائق الحياة والتفكير أمر غير مستساغ • والفرق من هذه الناحية بين الرجل الغنى والرجل العادى ليس فى الدافع الذى يحض على التمسك بالقديم ، بقدر ما هو فى التعرض للقوى الاقتصادية التى ترغم الانسان على التغيير • فأفراد الطبقة الثرية لا يستجيبون لمطالب التجديد بنفس السهولة التى يستجيب بها غيرهم ممن هم ليسوا مضطرين الى هذا •

هذه المحافظة من جانب الطبقة الغنية هى من المظاهر الواضحة الى حد جعلها تعتبر حتى من علامات الاحترام • فانه لما كانت المحافظة من الأمور التى تتميز بها الطبقة الغنية التى هى بالتالى القسـم الاكثر احتراما من المجتمع ، فقد اكتسبت هذه المحافظة ما يجعلها من علامات الشرف أو الزينة،

السلوك المحافظ عند الطبقة المترفة

وأصبحت من الأمور الراسخة المتوارثة حتى أصبح التمسك بالآراء المحافظة يعتبر أمرا مسلما به ، وذلك من حيث رأينا عن الاحترام ، وهو فرض لازم على كل من يريد أن يحيا حياة لاغبار عليها من حيث السمعة الاجتماعية . ولما كانت المحافظة على القديم علامة مميزة من علامات الطبقة الراقية ، فهى اذن من الأمور اللائقة ، لكن التجديد ، على عكس ذلك ، من الأمور المستهجنة لأنه من خصائص الطبقة الدنيا . وأول العناصر ، وأكثرها بعدا عن التفكير فى ذلك النفور والامتعاض الذى يجعلنا ننفض من حول المجددين الاجتماعيين هو ذلك الاحساس بأن التجديد شيء غير كريم ، الى حد أننا حتى فى الحالات التى نقر فيها بالمزايا العظيمة للقضية التى يدافع عنها المتكلم – كما يحدث بسهولة عندما تكون العيوب التى يسعى لعلاجها بعيدة بعدا كافيا من حيث الزمان أو المكان أو التأثير الشخصى – لا يسع الانسان مع ذلك الا أن يشعر بأن الداعى الى التجديد شخص يستحسن عدم الاختلاط الاجتماعى به ، لأن الاتصال به أمر مكروه على الأقل ، فالتجديد نوع من السلوك غير مستحسن .

ولما كانت عادات الطبقة المترفة الثرية وأعمالها وآراؤها تتخذ سمة القانون السلوكى لسائر طبقات المجتمع ، فان هذه الحقيقة تزيد تأثير هذه الطبقة المحافظة قوة وانتشارا ، وتفرض على جميع الأشخاص المحترمين أن يتبعوا خطاهم . حتى ان طبقة الأثرياء ، بحكم مركزها الممتاز كممثلة لآداب السلوك العالى ، تصبح ذات أثر يعمل على تأخير خطى التطور الاجتماعى ، ويزيد كثيرا على مجرد ما تهيئه لها قوتها العددية من أثر ، ويؤدى احتذاء مثلها ، الذى أصبح بمثابة العرف الموروث ، الى زيادة تشديد مقاومة سائر الطبقات الأخرى لأى تجديد ، والى تركيز ميول الناس على الأوضاع القديمة التى توارثوها من جيل سابق .

وهناك طريقة ثانية يعمل بها نفوذ الطبقة المترفة فى ذات الاتجاه ، وذلك من حيث تعويق المجتمع عن تخير نظام للمعيشة أكثر ملاءمة لمقتضيات العصر . وهذه الطريقة الثانية التى تتجلى بها قيادة الطبقة الراقية ليست بالضبط من قبيل المحافظة الغريزية والمعارضة لكل رأى حديث التى ذكرناها الآن ، ولكن لا بأس من أن نتناولها هنا بالكلام ، حيث أنها على الأقل تتفق مع الميول العقلية المحافظة فى أنها تعمل على تعويق التجديد وتطور الكيان الاجتماعى . ودستور العادات القائمة والعرف والمعاملات الذى يسود فى وقت بالذات وفى مجتمع بالذات ، فيه قدر كبير من خصائص الوحدة العضوية ، بحيث أن أى تغيير كبير فى ناحية منه يستلزم قدرا من التغيير أو التعديل فى نواح أخرى كذلك ، ان لم يستلزم تنظيما جديدا على طول الخط . فاذا حدث تغيير لا يؤثر تأثيرا مباشرا الا فى ناحية صغيرة من

تعويق المجتمع عن تخير نظام للمعيشة

النظام فان ما يحدث من الاضطراب فى دستور العادات القائم قد يمر دون
ان يلحظه أحد . لكن من الأسلم ، حتى فى مثل هذه الناحية ، أن نقول ان
النظام العام لا بد أن يتعرض من جراء هذا لاضطراب بعيد الأثر الى حد كبير
أو قليل . فاذا حدث من جهة أخرى أن كان الاصلاح المنشود ينطوى على
تعطيل أو تغيير شامل لقاعدة ذات أهمية قصوى من قواعد النظام السائد
فان الناس يحسون فورا أن اضطرابا سوف يعترى النظام بأكمله، ويشعرون
أن تعديل البناء ليلائم الوضع الجديد ، اذا قام على عنصر واحد من أهم
عناصره ، لا بد ان يكون أمرا شاقا ومتعبا ، ان لم يكن مشكوكا فى نجاحه .

ولكى نقدر الصعوبة التى ينطوى عليها مثل هذا التغيير الأساسى فى
مظهر فرد من مظاهر نظام الحياة السائد ، فما علينا الا أن ننادى فى أى بلد
من البلدان ذات الحضارة الغربية ، بالقضاء على نظام الزوجة الواحدة أو
نظام النسب الى الأب أو نظام الملكية الخاصة أو الايمان بوجود الله ، أو
نتصور أن أحدا نادى بالقضاء على عبادة السلف فى الصين ، أو بالغاء نظام
الطبقات فى الهند ، أو بالغاء الرق فى أفريقية ، أو بالمساواة بين المرأة
والرجل فى العالم الاسلامى(١) . ولسنا فى حاجة الى أى جدل لكى نثبت
أن اضطراب الكيان العام للعادات والتقاليد فى أية حالة من هذه الحالات
لابد أن يكون اضطرابا بالغا . ولكى نستحدث مثل هذا التجديد لا بد ايضا
أن يحدث فى أساليب تفكير الناس تغيير شامل فى كل ما يتعلق بنواح
أخرى من النظام غير الناحية التى ذكرناها بالذات . وسوف تبلغ مقاومة
الناس لمثل هذا التجديد حد الاحجام عن الأخذ بنظام فى الحياة غريب من
أساسه . .

والنفور الذى يحسه الناس الطيبون من أية دعوة الى التخلى عن أساليب
معيشة درجوا عليها ، هو حقيقة من الحقائق التى يشعرون بها كل يوم ـ
فليس من غير المعتاد أن تسمع الأشخاص الذين يقدمون للمجتمع النصح
الخالص لوجه الخير أو يوجهون اليه العتاب الرقيق ، ليس من غير المعتاد
أن تسمع هؤلاء الناس يرفعون عقائرهم بالتحذير من الآثار السيئة البعيدة
المدى التى يتعرض لها المجتمع من جراء تغيرات تافهة ، من مثل حرمان
الكنيسة الانجليكانية من بعض المظاهر ، أو زيادة تسهيل الطلاق أو منح
المرأة حق التصويت ، أو تحريم صناعة المشروبات المخدرة وبيعها ، أو الغاء
المواريث أو تقييدها . . . وهلم جرا . فأى واحد من هذه التجديدات عرضة

---

(١) هذا مثل صارخ من امثلة جهل الغربيين بما يجرى فى غير بلادهم ، لان هذا الكاتب ـ مع حداثة كتابة هذا ـ لم يعلم ان هذه المساواة قد نادى بها الناس فى العالم الاسلامى منذ نيف ونصف قرن ، وانها قد استقرت منذ مدة فى كثير من البلاد الاسلامية .

المترجم

ـ كما يدعون ـ لأن « يهز الكيان الاجتماعى من أساسه » ، و « يهوى بالمجتمع الى درك من الفوضى » ، و « يقلب أسس الأخلاق » و « يجعل الحياة لا تطاق » و « يقوض نظام الطبيعة » .. الى غير ذلك . وهذه الطرق من طرق التعبير هى لا شك من قبيل المغالاة الشديدة التى توهم السامعين بأن موضوع الكلام له نتائج أخطر كثيرا مما هى فى حقيقتها ، لكنها فى نفس الوقت ـ كغيرها من أنواع المغالاة ـ شواهد على الشعور الشديد بخطورة النتائج التى ينوى تصويرها . من هنا يشعر السامعون أن عواقب هذه التجديدات وأشباهها فى قلب نظام الحياة السائد أخطر بكثير من التغيير البسيط فى تدبير واحد منفصل من سلسلة من التدابير ، لمصلحة أفراد المجتمع . وما ينطبق ـ بهذا القدر من الوضوح ـ على التغييرات ذات الأهمية القصوى ينطبق ـ بوضوح أقل ـ على التغييرات ذات الأهمية المباشرة الأقل. والاعتراض على التغيير هو ، الى حد كبير ، اعتراض على المشقة التى يتحملها المرء فى عملية التعديل التى يستلزمها أى تغيير معين . وهذا التماسك بين أية مجموعة من النظم لأية ثقافة بالذات أو أى شعب بالذات يزيد فى شدة المقاومة الغريزية التى يبديها الناس لأى تغيير فى أساليب تفكير المجتمع ، حتى فى الامور التى لو نظرنا اليها على انفراد لوجدناها ذات أهمية قليلة .

وقد كانت احدى نتائج هذا النفور الزائد ، الذى يرجع الى تماسك النظم الانسانية ، أن أى تجديد يستدعى من المجهود العصبى فى سبيل تنفيذ التعديل اللازم ، أكثر مما كان يستدعى لو لم يكن هذا التماسك . وليس الأمر قاصرا على أن أى تغيير فى أساليب التفكير السائد أمر غير مستساغ . بل ان عملية تعديل نظرية الحياة المتعارف عليها ينطوى على قدر من المجهود العقلى ـ مجهود طويل وشاق لكى يحتفظ الانسان بمركزه فى الأوضاع الجديدة . وهذه العملية تتطلب بذل شىء من الجهد ، ومن هنا تنطوى . لكى تتم على أحسن وجه ، على بذل قدر من الطاقة فوق ما يبذل فى الصراع اليومى من أجل البقاء . وينتج من هذا بالتالى أن الجوع والمتاعب الجسمية لا تقل أثرا فى تعويق التطور عن حياة الرخاء التى تحول دون التذمر بقطع الطريق على كل فرصة له . والذين يعانون الفقر الشديد وجميع الناس الذين يستنفدون كل جهدهم فى الصراع من أجل كسب قوت يومهم ، محافظون لأنهم لا يستطيعون بذل جهد فى التفكير فيما يأتى بعد غد ، بالضبط كما أن ذوى الثراء الفاحش محافظون لأنهم لا يجدون فرصة تذكر للتذمر من الوضع كما هو عليه اليوم .

ونستنتج من هذا الرأى أن نظام الطبقة المترفة يعمل على جعل الطبقات الدنيا محافظة عن طريق سلبهم كل ما يستطيعون سلبه من ضرورات الحياة، وبالتالى تقليل استهلاكهم وتقليل ما يستطيعون بذله من الجهد تبعا لذلك ،

الى حد يجعلهم عاجزين عن بذل الجهد لمعرفة طرائق تفكير جديدة واعتناقها. فتراكم الثروة عند الطرف الأعلى من السلم الثرائى يعنى حرمانا عند الطرف الأدنى منه • ومن الأمور المعروفة جيدا أن درجـــة كبيرة من الحرمان بين مجموع الشعب ، حيثما كانت ، هى خطر شديد على أى تجديد •

هذا الأثر الحرمانى المباشر لعدم المساواة فى توزيع الثروة يدعمه أثر غير مباشر يؤدى الى نفس النتيجة • والأسلوب الذى لا بد من احتذائه ، الذى تفرضه الطبقة الراقية فى تحديد قوانين الوجاهة يعمل كما ذكرنا على تشجيع الاستهلاك البين • وانتشار الاستهـلاك البين كعنصر رئيسى يحدد مستوى الوجاهة لدى جميع الطبقات ، لا يمكن بالطبع أن نرجعه كلية الى أثر مثال الطبقة المترفة الثرية ، لكن ممارسته والتمسك به يسندهما مثال الطبقة المترفة من غير شك • ومقتضيات الوجاهة فى هذا الأمر كثيرة جدا وملزمة جدا ، الى حد أننا نجد الفائض الذى يمكن الاستغناء عنه من مـواد الاستهلاك – حتى بين طبقات مركزها المالى من القوة بحيث يسمح باستهلاك سلع تزيد كثيرا على القدر الضرورى للحد الأدنى للبقاء – نقول أن هـذا القدر الفائض ، بعد سد الحاجات المـادية الضرورية ، كثيرا ما يذهب فى سبيل استعراض الوجاهة بدلا من أن يذهب فى سبيل زيادة الراحة المادية والاستمتاع بالحياة • زد على هذا أن فائض الطاقة التى يمكن بذلها ، يحتمل أيضا أن يبذل فى سبيل الحصول على سـلع تخدم غرض الاستهلاك البين أو غرض الاكتناز البين • والنتيجة هى أن مقتضيات الوجاهة المالية تميل الى: (١) ألا تترك الا الحد الأدنى للبقاء لينفق فى غير الاستهلاك البين ، (٢) أن تمتص أى فائض من الطـاقة قد يكون متيسرا بعـد توفير مجرد الحاجات المادية اللازمة للحياة • وحاصل كل هذا هو دعم الاتجاه العـام للمجتمع نحو المحافظة على الأوضاع القائمة • فنظام الطبقة المترفة يعـوق التطور الثقافى بطريقة مباشرة (١) بسبب القصور الذاتى المعروف عن الطبقة ذاتها ، (٢) وبسبب المثل الذى تضربه للناس فى الاســتهلاك البين وفى المحافظة • وبطريقة غير مباشرة ، (٣) بسبب ذلك العرف المتبع فى عـدم المساواة فى توزيع الثروة وموارد العيش ، وهو العرف الذى يقوم عليـه النظام نفسه •

ويجب أن نضيف الى هذا أن الطبقة المترفة لها أيضا مصلحة مادية فى ترك كل شىء على ما هو عليه . فهـذه الطبقة تتمتع ، مهما كانت الظروف السائدة فى أى وقت معين ، بمركز ممتاز ، وكل خروج على النظام القائم قد تكون له نتائج مدمرة لهذه الطبقة ، بخلاف الاحتفاظ بالوضع الراهن • ولهذا نجد أن ميول هذه الطبقة ، من حيث دوافع مصلحتها الطبقيـة دون سواها ، هى ترك الأوضاع القائمة وشأنها • وهذا الدافع القائم على المصلحة

عمل مقتضيات الوجاهة المالية هي:

أهداف المحافظة

من شأنه أن يدعم ميلها الغريزى الشديد ، وبذلك يجعلها أشد محافظة مما كان ينتظر منها لولا هذا الدافع .

كل هذا بطبيعة الحال لا يعنى شيئا من حيث المدح أو القدح فى دور الطبقة المترفة كمؤيدة للاحتفاظ بالأوضاع القائمة أو لانتكاس الكيان الاجتماعى ، أو كأداة لهما . فان ما تبديه من المقاومة قد يكون مفيدا أو قد يكون عكس ذلك . وسواء كان هذا أو ذاك فى أية حالة بالذات ، فان المسألة تتعلق بالدراسة والحاجة أكثر مما تتعلق بالنظرية العامة . فقد يكون هناك قدر من الصحة فى الرأى الذى كثيرا ما يعبر عنه المتكلمون باسم العناصر المحافظة (وهذه مسألة تتعلق بالسياسة) وهو أن التجديد الاجتماعى والتجريب خليقان بأن يدفعا المجتمع دفعا سريعا الى أوضاع غير مستقرة ولا تطاق ، لولا الوقفات القوية الصامدة التى تقفها الطبقة المحافظة الميسورة فى وجه التجديد الذى لايمكن أن تكون له نتيجة سوى التذمر ورد الفعل الذى تأتى على أعقابه الكوارث . على أن كل هذا خارج عن نطاق بحثنا الحاضر .

لكن الطبقة المترفة تعمل بطبيعتها دائما على مقاومة ذلك التلاؤم البيئى الذى نسميه التقدم أو التطور الاجتماعى ، وذلك بصرف النظر عن استنكارنا لهذا ، وبصرف النظر عما اذا كانت مثل هذه المقاومة لكل تجديد متسرع أمرا لا مناص منه . ونستطيع أن نجمل الاتجاه الذى يميز هذه الطبقة بالمثل القائل « كل ما هو موجود صحيح » ، مع أن قانون الانتخاب الطبيعى عندما نطبقه على النظم الانسانية ينطبق بوضوح بالحقيقة التى تقول « كل ما هو موجود خطأ » . وهذا لا يعنى أن النظم الموجودة اليوم غير ملائمة أصلا لأهداف الحياة اليوم ، لكنها ، دائما وحسب ما تقضى به طبيعة الأشياء ، خطأ الى حد ما . فهى نتيجة تعديل ناقص الى حد ما فى طرائق الحياة لكى تلائم وضعا كان سائدا فى لحظة من لحظات التطور الماضى ، وهى من أجل هذا خطأ بقدر يزيد على الفترة التى تفصل بين الوضع الحاضر والوضع السابق . ولفظا « خطأ » و « صواب » يستعملان هنا طبعا دون أن نحملهما أى انعكاس لما يجب أو لا يجب أن يكون ، فهما يستعملان فقط من وجهة النظر التطورية المحايدة ، ويقصد بهما الدلالة على التلاؤم أو عدم التلاؤم مع العملية التطورية الفعالة . ونظام الطبقة المترفة بحكم مصلحة الطبقة وغريزتها ، وبحكم كونها مثالا تميل الطبقات الأخرى الى احتذائه ، يعمل على استمرار عدم التلاؤم الموجود فى النظم ، بل انه يحبذ العودة الى وضع من الأوضاع القديمة التى عفى عليها الزمن الى حد ما ، الى وضع لا يزال أبعد عن التلاؤم مع ضرورات الحياة فى ظل النظام القائم حتى من النظام القديم المقبول الذى أخذه المجتمع عن الماضى القريب .

النظم القائمة نتيجة تعديل ناقص

لكن بالرغم من كل ما يقوله الناس فى أحاديثهم عن الأيام الجميلة الماضية ، فلا تزال الحقيقة أن الأنظمة تتغير وتتطور ، فهناك اضافات جديدة مستمرة الى العادات وأساليب التفكير ، وتلاؤم بين العادات وطرق المعيشة قائمة على الاختيار • وعلينا أن نقول شيئا عن دور الطبقة المترفة فى توجيه هذه الاضافات وفى تعويقها على السواء • لكننا لا نستطيع هنا أن نقول الا قليلا عن علاقتها بتطور الأنظمة ، الا حيث يمس هذا التطور النظم التى هى ـ أولا ومباشرة ـ ذات طابع اقتصادى • وهذه النظم ـ أى الكيان الاقتصادى ـ نستطيع أن نميز منها بالتقريب قسمين أو نوعين ، حسب فائدتها لأحد غرضين متباينين من أغراض الحياة الاقتصادية •

فاذا أردنا ان نستخدم الاصطلاح الكلاسيكى ، فهى نظم للكسب او للانتاج ، اما اذا رجعنا الى مصطلحات سبق استعمالها بالفعل فى مناسبة اخرى بالفصول السابقة ، فهى نظم مالية او صناعية ، او استخدمنا مصطلحات اخرى مغايرة ، فهى نظم تهدف الى خدمة المصالح الاقتصادية ، تحاسدية كانت او غير تحاسدية . والنوع الاول يتعلق « بالتجارة » ، اما الأخير فبالصناعة ، مع استعمال هذه الكلمة الأخيرة بمعناها الآلى . والأنواع الأخيرة لا تعتبر فى العادة نظما ، وهذا يرجع بدرجة كبيرة الى انها ليست ذات أهمية مباشرة للطبقة الحاكمة ، ومن هنا يندر ان تكون موضع تشريع او اتفاق مدروس . فاذا ما اولاها الناس اهتماما فانهم يتناولونها عادة من جانبها المالى أو التجارى ، لأن هذا هو جانب الحياة الاقتصادية التى تجذب قبل غيرها اهتمام الناس فى وقتنا الحاضر ، لا سيما اهتمام الطبقات العليا ، فليس لدى هذه الطبقات الا امور قليلة يمكن ان تشغل بالهم خلاف الاهتمام بالجوانب التجارية ، كما ان هذه الطبقات هى التى يلقى على كاهلها فى نفس الوقت عبء القيام على مصالح المجتمع .

وعلاقة الطبقة المترفة (اى الطبقة ذات الأملاك التى لا تؤدى عملا) بالعملية الاقتصادية ، هى علاقة مالية ـ علاقة حيازة لا علاقة انتاج ، علاقة استغلال لا علاقة خدمة . وقد يكون دورهم الاقتصادى بالطبع من الأهمية بمكان ـ بطريقة غير مباشرة ـ لعملية الحياة الاقتصادية ، ولسنا نقصد هنا ابدا الى الانتقاص من الدور الاقتصادى الذى تلعبه الطبقة ذات الاملاك او كبار رجال الصناعة . فان غرضنا لا يعدو ان يكون الاشارة الى ماهية طبيعة علاقة هذه الطبقات بالعملية الصناعية والنظم الاقتصادية . اذ ان دورهم ذو طبيعة طفيلية ، ومصلحتهم هى توجيه كل شىء يستطيعون توجيهه لمصلحتهم الخاصة والاحتفاظ بكل ما تملكه ايديهم . ولقد تطورت جميع تقاليد عالم التجارة تحت الاشراف الفعلى لهذا المبدأ العدوانى او الطفيلى . وهى تقاليد خاصة بالامتلاك ، اشتقت منذ امد بعيد او قريب عن

الثقافة العدوانية القديمة . لكن هذه النظم المالية لا تلائم الوضع الحاضر ملاءمة تامة ، لأنها قد تطورت فى ظل نظام مضى يختلف نوعا ما عن النظام الحاضر ، ولهذا ليست على درجة كبيرة من الصلاحية ، حتى من الناحية المالية . فان الحياة الصناعية المتغيرة تتطلب طرقا مختلفة للحيازة ، والطبقات الممولة لها بعض المصلحة فى تعديل النظم المالية بحيث تعطى خير النتائج بالنسبة للحصول على ذلك الكسب الخاص الذى يتمشى مع استمرار العملية الصناعية التى منها يأتى هذا الكسب .. ومن هنا كان هناك اتجاه مستمر من جانب الطبقة المترفة لتوجه التطور فى النظم وجهة تتفق مع الأهداف المالية التى تشكل الحياة الاقتصادية للطبقة المترفة .

ويبدو اثر المصلحة المادية والمصالح المالية ، فى تطور النظم ، فى التشريعات والاتفاقات التى تهدف الى حماية الملكية وسريان العقود وتسهيل المعاملات المالية وضمان المصالح الشخصية . ومن هذا القبيل ايضا التغييرات التى تتعلق بالافلاس والحراسة والمسئولية المحدودة وأعمال البنوك والنقد ، واتحادات العمال وأصحاب الأعمال ، والاحتكارات والتجمعات . وكل قانون أو تقليد من هذا النوع له نتائج مباشرة على طبقة المالكين وحدهم ، وبمقدار ما يملكون ، أو بمعنى آخر بمقدار يتناسب مع مركزهم فى الطبقة المترفة . ولكن هذه الاتفاقات التى تتعلق بالحياة التجارية لها أخطر الآثار المباشرة فى عملية الصناعة وفى حياة المجتمع . ولهذا نجد طبقة الأغنياء عند توجيهها التطور الصناعى من هذه الناحية تخدم غرضا ذا اهمية خطيرة للمجتمع ، لا فى الاحتفاظ بالوضع الاجتماعى القائم فقط ، لكن فى تشكيل العملية الصناعية ذاتها كذلك .

والهدف المباشر لهذا الكيان التنظيمى المالى وتطويره هو زيادة تسهيل الاستغلال السلمى المنظم ، لكن آثاره ذات المدى البعيد تفوق هذا الغرض المباشر كثيرا . فمباشرة الأعمال المالية فى يسر زائد لا تسمح للصناعة المتقدمة ان تسير دون اى اضطراب فحسب ، بل ان ما يتبع ذلك من استبعاد الاضطراب والتعقيد الذى يستدعى الحكمة وحسن البصر بأمور الحياة اليومية يعمل ايضا على جعل الطبقة الممولة نفسها لا ضرورة لها . فحالما تستقر المعاملات المالية وتسير فى سهولة روتينية فمن السهل حينئذ الاستغناء عن الرئيس المشرف على الصناعة ، لكن هذا الاستغناء لا يجىء الا فى المستقبل البعيد ، كما لا يخفى . وكل التحسينات التى تحدث لخير المصالح المالية فى النظم الحديثة ، تؤدى ، فى مجال آخر ، الى احلال الشركات المساهمة التى لا روح لها محل المالك ، وبهذا تعمل ايضا على امكان الاستغناء عن دور الطبقة المترفة فى التملك . ومن هنا ايضا ، وبطريقة غير مباشرة ، كان اتجاه تطور النظم الاقتصادية الذى تحدده مصالح الطبقة المترفة ذا نتائج صناعية بالغة الاهمية .

الفصل التاسع

المحافظة على الصفات القديمة

ليس للنظام الذى تسير عليه الطبقة المترفة اثر فى البناء الاجتماعى فحسب بل وفى خلق كل عضو من أعضاء المجتمع . فبمجرد قبول اتجاه معين أو رأى معين كمستوى أو معيار واجب الاتباع فى الحياة ، فانه يؤثر فى خلق افراد المجتمع الذى ارتضاه وبشكل الى حد ما عاداتهم فى التفكير ويهيمن على تطور استعداداتهم وميولهم من أجل اختيار الصالح منها . ويتم بعض هذا الأثر بتعديل عادات كل الأفراد عن طريق التعليم والارغام ، كما يتم بعضه الآخر باقصاء الأفراد والسلالات غير الصالحة . وهؤلاء الأفراد الذين لا يسايرون أساليب الحياة التى ارتضاها المجتمع يبعدون الى حد ما ويكبح جماحهم . وبهذه الطريقة صار مبدا التنافس المالى ومبدأ الاعفاء الصناعى شريعة الحياة ، كما أصبحا عاملين قويين لهما بعض الأهمية فى الحالة التى يكيف الناس انفسهم لها .

ويؤثر هذان المبدآن العريضان الخاصان بالاسراف المظهرى والاعفاء الصناعى فى التطور الثقافى عن طريق توجيه عادات الناس فى التفكير ، ومن ثم عن طريق ضبط نمو المنظمات ، وكذلك عن طريق المحافظة على بعض السمات المنتمية للطبيعة البشرية التى تؤدى الى رفاهة الحياة كما تراها الطبقة المترفة وبهذا يسيطر هذان المبدآن على الطباع الفعالة فى المجتمع . وينزع نظام الطبقة المترفة فى تشكيل خلق الانسان دائما الى الابقاء على العادات الروحية والطبيعة البشرية الأولى . واثره فى طباع المجتمع هو الحد من التطور الروحى . ويتجه هذا النظام فى مرحلة الثقافة الحديثة بنوع خاص الى المحافظة على القديم بصفة عامة . وهذا الراى معروف تماما ولكنه قد يبدو جديدا فى استعماله حاليا . ولذلك قد يكون من الضرورى عرض الأسباب المنطقية التى دعت اليه حتى ولو كان فى ذلك بعض التكرار الممل وذكر أشياء لا جديد فيها .

والتطور الاجتماعى عملية تكييف انتخابى للطباع وعادات التفكير تحت ضغط ظروف الحياة المرتبطة بها . وتكييف عادات التفكير هو عبارة عن نمو الأنظمة . ولكن تطور الأنظمة يحدث معه فى نفس الوقت تغيير جوهرى عظيم . فان عادات الناس لا تتغير بتغير الظروف فحسب ، بل ان تلك

ظروف الحياة . ويعتقد علماء السلالات البشرية المحدثون أن هذا التغير فى الطبيعة البشرية عبارة عن عملية انتخاب من بين عدة انواع من سلالات او عناصر سلالات ثابتة ودائمة . ويميل الناس الى العودة الى حد ما الى نوع آخر من الطبيعة البشرية أو الى العمل على غرس صـــفات تطابق فى ملامحها الأساسية حالة كانت سائدة فى الزمن الماضى ، وتختلف عن الحالة السائدة فى الزمن الحاضر . وتوجد عدة انواع سـلالية ثابتـة نسبيا من الجنس البشرى فى الشعوب ذات الثقافة الغربية . ولكن هـذه الأنواع السلالية ما زالت متشابهة الى يومنا هذا ، لا كاشكال جامدة لاتتغير ولكل منها طابع دقيق متميز ، بل على هيئة عدد من الصفات المتنوعة الى حد ما . ولقد نتج بعض التغير فى الأنواع السلالية ابان عملية الانتخاب الطويلة التى مرت على الأنواع العديدة ومولديها فى اثناء نمو الثقافة فى عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية .

وهـذا التغير الحتمى فى الأنواع نفسها ، بسبب عمليـة الانتخاب الطويلة والاتجاه الثابت ،لم يلحظه الكتاب الذين بحثوا فى تسلسل السلالات ملاحظة تامة . ويقتصر البحث هنا على صفتين أساسيتين مختلفتين فى الطبيعة البشرية وناتجتين أخيرا عن التكييف الانتخابى للأنواع السلالية فى الثقافة الغربية . والنقطة الهامة الآن هى بحث الأثر المحتمل للحالة الحاضرة فى استمرار التغير فى احدى هاتين الصفتين المختلفتين او فى الأخرى .

ومن الممكن تلخيص الوضـــع من الناحيـة السلالية ، وتحـاشى التفاصيل ، الا ما لم يكن عنه غنى ، لعرض بيان بسيط واضح لا يصلح لأى غرض آخر عن الأنواع السـلالية وتفرعاتها وطرق العـودة اليها وبقائها . والانسان فى مجتمعاتنا الصناعية يغلب أن يكون نتاج احد الأنواع الثلاثة السلالية الأساسية : النوع المستطيل الرأس أو الجمجمة ، أبيض البشرة ، والنوع الأسمر قصير الرأس عريض الجمجمة ، ونوع البحر المتوسط ، وذلك مع التغاضى عن العناصر الصغيرة والبعيدة عن ثقافتنا . الا ان الرجوع الى الوراء فى كل هذه الأنواع السلالية الأساسية يقودنا الى واحد على الأقل من الاتجاهين الرئيسيين : الصفة المسالمة والصفة العدوانية . والصفة الأولى من هاتين الصفتين المتميزتين اقرب الى اصل الجنس فى كل حالة اذ انه الممثل الأصلى لنوعه كما كان فى العصر الأول للحياة المشتركة التى يمكن الحصول على دليل عليها سـواء أكان اثريا ام سيكولوجيـا . وهذه الصفة تمثل أجداد الانسان المتحضر الحالى فى طور الحياة المسالم الهمجى الذى سـبق الثقافـة العدوانية ونظام المراكز الاجتماعية وظهور المنافسـة المالية . اما الصفة الثانية اى العدوانية فتعتبر استمرارا لتطور اكثر حداثة

للأنواع السلالية الأساسية وللأنواع التى تولدت عنها وذلك عن طريق التكييف الانتخابى ابان نظام الثقافة العدوانية وثقافة التنافس الحديثة فى الطور شبه المسالم او الثقافة المالية الأصلية .

وبمقتضى قوانين الوراثة المعروفة يمكن ان تبقى بعض الظواهر من طور ماض بعيد او قريب . وفى الحالة العادية ، او فى المتوسط ، اذا تحول النوع ، فان صفات النوع تنقل تقريبا كما كانت فى الماضى القريب ــ وهى التى تسمى بالحاضر الموروث . والحاضر الموروث تمثله الثقافة العدوانية فى فترتها الأخيرة والثقافة شبه المسالمة الحديثة .

وبسبب طبيعة الانسان المتغيرة وهى خاصية هذه الثقافة الحديثة الموروثة العدوانية وشبه العدوانية والتى ما زالت قائمة ، يميل الانسان العصرى المتحضر الى غرس صفات جديدة فى الحالات العادية . ويحتاج هذا الرأى الى بعض المحددات فيما يخص أبناء الطبقات الذليلة او المغلوبة على امرها فى العصور البربرية ، الا أن المحددات المطلوبة قد لا تكون كبيرة كما قد يظهر لأول وهلة . ويبدو ان صفة التنافس العدوانى لم تبلغ درجة كبيرة من الثبات لدى كل الناس بصفة عامة ، اى ان الطبيعة البشرية التى ورثها الانسان المتحضر فى الغرب ليست واحدة تقريبا من ناحية درجة او قوة الاستعدادات والميول المختلفة التى تكونها . والانسان فى الحاضر الموروث له عادات قديمة الى حد ما كما يظهر من المتطلبات الأخيرة للحياة الاجتماعية ، والنوع الذى يميل الانسان العصرى الى الرجوع اليه غالبا ، حسب قانون التغير ، هو نوع من الطبيعة البشرية الأكثر قدما . ومن ناحية اخرى اذا اخذنا فى الاعتبار السمات الأصلية التى تبدو فى الأفراد والتى تختلف عن الصفات العدوانية السائدة فان الصفات قبل العدوانية تبدو اكثر ثباتا واعظم تناسقا فى توزيع عناصر الطباع او فى قوتها النسبية .

وهذا التشعب فى الطبيعة البشرية الموروثة بين صفات النوع السلالى فى العصور الأولى وصفاته فى العصور الحديثة وهى التى يميل الانسان الى ابرازها ، يعترضه ويبهمه تشعب مماثل بين النوعين او الأنواع السلالية الأساسية التى تتكون منها الشعوب الغربية . والواقع ان الأفراد فى هذه المجتمعات يعتبرون فى كل الحالات مولدين من العناصر السلالية السائدة والتى اتحدت بنسب مختلفة مما ادى الى كونهم يميلون الى اخذ بعض الصفات من هذا النوع السلالى او ذاك . وتختلف هذه الأنواع السلالية فى الطباع بصورة تشبه الى حد ما الاختلاف بين الصفات العدوانية والصفات قبل العدوانية للأنواع : فالنوع الأبيض يظهر من خصائص الطباع العدوانية او على الأقل من صفات العنف فيها اكثر من النوع الاسمر وبخاصة نوع

البحر المتوسط . وعندما يؤدى نمو الانظمة او عندما تبين الصفات الفعالة في مجتمع معين ابتعادا عن الطبيعة العدوانية للبشر فانه قد يستحيل التاكد من ان هذا الابتعاد يدل على الرجوع الى الصفات قبل العدوانية ، فقد يرجع ذلك الى تغلب أحد العناصر السلالية « الدنيا » فى المجتمع . على انه يبدو ، وان كان الدليل غير قاطع ، ان التغيرات فى الطباع الفعالة فى المجتمعات العصرية لا ترجع كلية الى اى انتخاب بين الأنواع السلالية الثابتة ، بل يبدو انها ترجع الى حد كبير الى الاختيار من بين الصفات العدوانية والصفات المسالمة لأنواع كثيرة .

وليس هذا الراى الخاص بتطور الانسان المعاصر ضروريا لبحثنا ، وستبقى النتائج العامة لاستخدام هذه الآراء الخاصة بالتكييف الانتخابى صحيحة فى جوهرها اذا حل جديد محل مفاهيم واصطلاحات داروين وسبنسر الأولى . وفى هذه الظروف يصبح من الممكن التساهل فى استعمال الاصطلاحات . فلفظ « نوع » يستعمل بدون تقيد ليدل على تنوع الطباع التى قد لا ينظر اليها علماء السلالات البشرية الا على أنها صفات تافهة للنوع وليست انواعا سلالية واضحة . وحيثما يتضح أن البحث يستلزم تمييزا أدق فان الجهد الذى سيبذل فى سبيل تحقيق ذلك سيفصح عن نفسه فى سياق الكلام .

والأنواع السلالية الحالية هى مشتقات من الأنواع العنصرية البدائية . ولقد طرا عليها بعض التغيير وبلغت درجة من الثبات فى صورتها المتغيرة فى ظل النظام والثقافة البربرية . وانسان الحاضر الموروث سواء كان وضيعا او رفيعا هو عبارة عن النوع البربرى والعناصر السلالية التى يتكون منها . الا أن هذا النوع البربرى لم يبلغ أعلى درجات التجانس أو الثبات . ورغم أن الثقافة البربرية فى الأطوار العدوانية وشبه المسالمة استمرت مدة طويلة الا ان تلك المدة لم تكن كافية كما لم تكن ثابتة فى مميزاتها الى حد يكفى ليهيىء ثباتا متناهيا للنوع . وكثيرا ما يحدث خروج على الطبيعة البربرية للبشر ، وكثيرا ما نشاهد ذلك فى هذه الأيام ، وذلك لأن ظروف الحياة العصرية لا تعمل باستمرار على قمع اى خروج على القواعد البربرية والطباع العدوانية يكون غير متفق مع كل اغراض الحياة المتحضرة وبخاصة اغراض الصناعة الحديثة .

والابتعاد عن الطبيعة البشرية للحاضر الموروث يحدث فى الغالب نتيجة للرجوع الى صفة بدائية لنفس النوع . وهذه الصفات البدائية تمثل الطباع التى تميز الطور البدائى للبربرية المسالمة . وظروف الحياة وأهداف الجهود التى كانت سائدة قبل ظهور الثقافة البربرية شكلت الطبيعة البشرية

وثبتتها من ناحية الصفات الأساسية . والانسان العصرى يميل الى الرجوع الى تلك الصفات القديمة العنصرية فى حالة الانحراف عن الطبيعة البشرية للحاضر الموروث . ويبدو ان الظروف التى كان الناس يعيشون فى ظلها فى أعظم الأطوار بدائية فى الحياة الاجتماعية التى يمكن أن تسمى بحق انسانية ، كانت من النوع المسالم ، ويبدو ان أخلاق الناس اى طباعهم واتجاههم الروحى فى هذه الظروف البدائية ونظمها كانت من النوع المسالم الذى لايميل الى العدوان ، ولكن ذلك لم يكن يعنى الكسل . ويمكن بالنسبة لهذا البحث اعتبار هذا الطور الثقافى المسالم بداية طور التقدم الاجتماعى . وفيما يخص هذا البحث يبدو ان الصفة الروحية المميزة لهذا الطور الأولى الافتراضى من الثقافة كانت احساسا غامضا وغير واضح بتماسك الجماعة ، يعبر عن نفسه الى حد كبير بالعطف اللطيف - ولكن من غير جهد - على كل ما يجعل الحياة هينة وباحساس بالنفور من كل ما يعترض طريق الحياة او يذهب ببهائها . ولما كان هذا الاحساس كامنا فى كل عادات التفكير لدى الانسان البدائى فقد كان لاهتمامه بكل مايفيد النوع قوة قاهرة عظيمة فى حياته ، وفى طريقة اتصاله العادى بغيره من اعضاء المجتمع .

وتبدو آثار هذا الطور الأولى المسالم من الثقافة ضعيفة وغير مؤكدة اذا اقتصرنا على النظر الى الدليل القاطع على وجودها فى العادات والآراء المألوفة فى الحاضر التاريخى سواء فى المجتمعات المتحضرة او غير المتحضرة ، وانما يبدو دليل غير مشكوك فيه على وجودها فى البقايا السيكولوجية وفى بعض السمات الثابتة والمألوفة فى خلق الانسان . وربما تبقى هذه السمات الى حد ما فى تلك العناصر السلالية التى لم تكن تلعب دورا رئيسيا ابان الثقافة العدوانية . وقد أصبحت السمات التى كانت صالحة لعادات الحياة البدائية عديمة النفع نسبيا فى تنازع الأفراد من أجل البقاء فى مرحلة الثقافة البربرية وقد كبتت وأبعدت تلك العناصر أو تلك المجموعات السلالية التى جعلتها طباعها اقل صلاحية للحياة العدوانية .

وفى أثناء الانتقال الى الثقافة العدوانية تغير - الى حد ما - نوع الكفاح من أجل البقاء من كفاح لحماية الجماعة ضد بيئة غير بشرية الى كفاح ضد بيئة بشرية . وقد صحب هذا التغيير بغض متزايد وشعور بالعداء بين أفراد الجماعة ، وكانت ظروف النجاح ، وكذلك ظروف البقاء فى الجماعة ، تتغير الى حد ما ، وكان الاتجاه الروحى السائد فى الجماعة يتغير تدريجيا وتبرزه مجموعة مختلفة من الاستعدادات والميول ليصبح لها السيادة الشرعية فى أسلوب الحياة المقبول . ومن هذه السمات البالية التى تعتبر من آثار الطور الثقافى المسالم غريزة تماسك العنصر التى نسميها الضمير ،

وتشمل الشعور بالصدق والمساواة وغريزة حب التفوق فى صورتها البسيطة التى لا تثير البغضاء .

ولا بد من اعادة شرح الطبيعة البشرية من ناحية العادات على ضوء علم الحياة وعلم النفس الحديثين . وعند اعادة الشرح فان الشرح الموجز السابق يوضح المكان المخصص لهذه السمات واساسها . وهذه العادات شائعة الى حد لا يمكن ان تعزى معه الى اثر نظام حديث أو نظام استمر لوقت قصير . والسهولة التى تبرز بها هذه السمات فى الحياة الحديثة والعصرية على هذه السمات تثبت ان هذه العادات من الآثار الباقية من نظام قديم للغاية وانها من التعاليم التى كان الناس يضطرون الى عدم العمل بها فى الظروف المتغيرة فى الزمن الحديث ، والطريقة التى تثبت بها هذه السمات وجودها فى كل مكان تقريبا اذا ما خف ضغط الضرورات الخاصة تؤكد ان العملية التى ثبتت بها السمات وامتزجت فى التكوين الروحى للنوع لا بد قد استغرقت زمنا طويلا جدا نسبيا وبدون توقف . وهذا الموضوع لا مجال فيه للتساؤل عما اذا كانت هذه عملية تعويد بالمعنى القديم للكلمة أو عملية تكييف انتخابى للعنصر .

وضرورات الحياة وسماتها فى ظل ذلك النظام الخاص بالمراكز والأفراد ، والتناقض الطبقى الذى يشمل فترة كاملة من بدء الثقافة العدوانية الى العصر الحالى تثبت أن سمات الطباع التى هى موضوع البحث لم تستطع الظهور والثبات خلال تلك الفترة . ومن المحتمل تماما ان هذه السمات انحدرت من أسلوب بدائى فى الحياة وعاشت خلال فترة الثقافة العدوانية وشبه المسالمة دون أن تظهرها وتثبتها هذه الثقافة الحديثة . ويظهر انها مميزات وراثية للجنس وانها تثبت رغم المطالب المتغيرة للنجاح فى ظل أطوار الثقافة العدوانية والمالية الحديثة . ويبدو أنها استمرت بدرجة من التشبث فى اثناء التحول الى سمات وراثية موجودة بدرجة ما فى كل فرد من افراد النوع وان لها اساسا عريضا يساعد على استمرارها فى كل عنصر .

وهذه الصفة المتصلة بالجنس او العنصر لا تستبعد بسرعة حتى فى ظل عملية انتخاب تشبه فى قسوتها وطول مدتها تلك التى مرت بها السمات موضوع البحث خلال الأطوار العدوانية وشبه المسالمة . وهذه السمات المسالمة لا تمت بصلة الى اساليب الحياة البربرية واهدافها . والصفة البارزة فى الثقافة البربرية هى التنافس المستمر والعداء بين الطبقات والأفراد ، وهذا النظام القائم على التنافس لا يشجع الأفراد ذوى السمات المسالمة وذرياتهم الا الى حد ضئيل ، ولذلك يميل الى استبعاد هذه السمات ، ويبدو

انه اضعفها الى حد كبير فى الشعوب التى كانت خاضعة له . وحتى حيثما لا توقع العقوبة القصوى جزاء عدم الامتثال لطباع النوع البربرى فان القمع يحدث دائما للافراد غير المتثلين وذرياتهم ولو الى حد ما . وحينما تكون الحياة هى الى حد كبير عبارة عن التنازع بين افراد المجتمع فان التحلى الظاهر بالسمات المسالمة القديمة يعرقل جهود الفرد فى كفاحه من اجل الحياة .

وفى ظل اى تطور ثقافى معروف غير الطور البدائى الافتراضى الذى تحدثنا عنه هنا ، نجد مزايا دماثة الخلق والمساواة ومشاركة الغير وجدانيا بلا تفرقة بين الأفراد لا تساعد كثيرا على رخاء الحياة . والتحلى بها قد يحمى الفرد من سوء معاملة الأغلبية التى تصر على قليل من هذه الأسس فى مثلهم الأعلى للانسان العادى ورغم هذا الأثر السلبى وغير المباشر فان الانسان يكون اسعد حالا فى ظل نظام المنافسة كلما قل تمسكه بهذه الصفات . فقد يقال ان التحرر من الضمير ، ومشاركة الغير وجدانيا ، ومن الأمانة ، ومن المبالاة بالحياة تساعد الى حد كبير نوعا ما على النجاح فى الثقافة المالية . فان الانسان الذى احرز نجاحا عظيما فى كل الأزمنة كان من هذا الطراز ، اللهم الا اذا استثنينا من كان نجاحه فى غير مجال الثروة او الجاه ، وحينئذ لا تعتبر الأمانة افضل سياسة الا فى حدود ضيقة وفى مفهوم المستر بيكويك دون سواه .

والمفهوم – من وجهة نظر الحياة فى ظل الظروف العصرية المتحضرة فى مجتمع الثقافة الغربية المستنير – ان الانسان البدائى البربرى لم يحرز نجاحا كبيرا فى المرحلة قبل العدوانية ، وهو الانسان الذى حاولنا ان نصف طباعه بايجاز فيما ذكرنا اعلاه . وحتى من ناحية اغراض تلك الثقافة المفترضة التى يستند اليها ثبات هذا الطراز من الطبيعة البشرية ، وحتى من ناحية اهداف المجتمع البدائى المسالم فان لهذا الانسان البدائى من النقائص الاقتصادية الكثيرة الظاهرة مثل ما له من الفضائل الاقتصادية ، كما يتضح لأى انسان لايفسد رايه التحيز الناشىء عن الشعور بالزمالة البشرية. فهو فى أحسن حالاته انسان ماهر لا يصلح لشىء . ويؤخذ على هذا النوع من الخلق البدائى افتراضا الضعف وعدم الكفاية وقلة المهارة والقدرة على المبادأة واللطف فى تراخ واستسلام والميل للروحانية بدرجة طفيفة . وعلاوة على ذلك فان هذا النوع يتصف بصفات اخرى لها بعض الأهمية فى أسلوب الحياة الجماعية ، لأنها تساعد على سهولة الحياة فى المجتمع ، وهى الصدق والمسالمة والمحبة وعدم الميل الى التنافس واثارة البغضاء بين الناس .

ويصحب ظهور الطور العدوانى فى الحياة تغيير فيما يتطلبه خلق الانسان الناجح ، وتحتاج العادات الى ان تكيف نفسها حسب الضرورات

الجديدة فى ظل الأسلوب الجديد للعلاقات الانسانية . ويتطلب استمرار النشاط الانسانى والذى سبق ان ظهر فى الصفات المميزة للحياة البدائية التى تحدثنا عنها من قبـل ـ ان يعبر هذا النشاط عن نفسه فى عدد جديد من الاستجابات لبواعث متغيرة . فالأساليب التى كانت تيسر الحياة والتى كانت تتلاءم كثيرا مع الظروف المـاضية أصبحت غير صـالحة للظروف الجديدة . فقد كانت الحالة تتميز بالمحبة النسبية أو عدم تنوع المصالح ـ اما الآن فتتميز بالتنافس الذى تزداد كل يوم شـدته وتضيق دائرته . والصفات التى تميز اطوار الثقافة العدوانية والأطوار التالية والتى تدل على انواع الانسان الذى يصلح للبقاء فى ظل نظام المراكز الاجتماعية هى (فى صورتها الأولية) العنف والأنانية وعدم الولاء للعشرة والكذب ـ والالتجاء جهارا الى القوة والتدليس .

وفى ظل نظام المنافسة القاسى الذى استغرق زمنا طويلا عمل انتخاب الأنواع السـلالية على تهيئة السيادة المؤكدة بقاء لتلك العناصر السلالية التى كانت تملك تلك الصفات . وفى نفس الوقت لم تفقد العادات المتاصلة التى اكتسبت فى العصور الأولى بعض فوائدها لأغراض حياة الجماعة ولم يبطل عملها نهائيا .

ويجـدر بنا ان نذكر ان الأوربيين الذين ينتمون الى النوع الأبيض مدينون بنفوذهم القوى وتفوقهم فى الثقافة الحديثة الى تحليهم بدرجة غير عادية بالصفات المميزة للانسان العدوانى . وهذه المميزات الروحية بالاضافة الى النشاط الجسمانى الجم الذى يحتمل أن يكون ناتجا عن الانتخاب من بين المجموعات وبين الذريات ، تعمل غالبا على وضع أى عنصر سلالى فى مركز الطبقة المترفة او المتفوقة وبخاصة خلال الأطوار الأولى لظهور نظام الطبقة المترفة . ولا يعنى ذلك أن هـــذه القدرات اذا اجتمعت فى أى فرد تضمن له نجاحا شخصيا عظيما . فالشروط اللازمة لنجاح اى فرد فى النظام القـائم على المنافسة ليست بالضرورة الشروط اللازمة لنجاح اية طبقة . فنجاح اية طبقة او جماعة يستلزم شدة التعصب للطائفة او الولاء للزعيم أو التمسك بعقيدة ، بينما يستطيع الفرد المتنافس تحقيق غاياته اذا جمع بين النشاط والمباداة والأنانية والاحتيال ـ وهى صفات البربرى ـ وعدم الولاء او التعصب للطائفة الذى يتصف به الانسان الهمجى ـ وبهذه المناسبة يلاحظ ان الذين احرزوا نجاحا عظيما (نابوليونيا) على اسـاس الأنانية الشديدة والتجرد من الضمير كثيرا ماكانت لهم الخصائص البدنية للنوع الأسمر اكثر مما لهم من خصائص النوع الأبيض . ومع ذلك يبدو أن نسبة كبيرة من الذين احرزوا نجاحا متوسطا على أساس الأنانية ينتمون جسمانيا الى العنصر السلالى الأخير .

وتؤدى الطباع المنبعثة من العادات العدوانية الى بقاء حياة الأفراد ورخائها فى ظل نظام قائم على التنافس ، وتؤدى فى نفس الوقت الى بقاء الجماعة ونجاحها اذا كانت حياة الجماعة تقوم كذلك على التنافس الشديد مع الجماعات الأخرى . الا ان تطور الحياة الاقتصادية فى المجتمعات الاكثر تقدما من الناحية الصناعية يؤدى الآن الى أن مصلحة المجتمع اصبحت لا تتفق وتنافس الأفراد من أجل مصالحهم الذاتية . وهذه المجتمعات الصناعية المتقدمة لم تعد بصفة عامة تتنافس من اجل سبل الحياة او من اجل الحق فى العيش — اللهم الا فى الحالات التى تدفع فيها النزعات الوحشية الطبقات الحاكمة فيها الى ممارسة تقاليد الحرب والنهب . ولم تعد هذه المجتمعات عدوة لبعضها البعض بحكم الظروف او بحكم التقاليد والطباع ، واصبحت مصالحها المادية — فيما عدا المصالح الناتجة عن حسن سمعة الجماعة فى بعض الأحيان — ليست غير متعارضة وحسب ، بل ان نجاح اى مجتمع منها يساعد بلا ريب على انتعاش الحياة فى اى مجتمع آخر داخل الجماعة فى الوقت الحاضر وفى المستقبل . ولم يعد لأى منها اية مصلحة مادية فى التغلب على غيرها . ولا ينطبق هذا تماما على الأفراد وعلاقاتهم بعضهم ببعض .

والمصالح المشتركة فى اى مجتمع عصرى تتركز فى الكفاية الصناعية . ويخدم الفرد أهداف المجتمع بقدر كفايته فى الأعمال التى تسمى عادة الناجية . وخير ما يؤدى الى خدمة الجماعة هى الأمانة والجد والمسالمة والمحبة والتجرد من الأنانية ومعرفة العلاقات السببية والالمام بها من غير حشر المعتقدات الروحانية ومن غير الميل الى الاتكال على التدخل فى مجرى الحوادث من جانب أية قوة طبيعية خارقة للطبيعة . ولسنا فى حاجة الى التحدث عن الجمال والسمو الخلقى ، او الجدارة العامة وحسن السمعة التى تضفيها تلك الصفات على الطبيعة البشرية ، وليس هناك ما يدعو كثيرا الى التحمس لصورة الحياة الجماعية التى تنتج عن سيادة هذه الصفات ، الا ان هذا خارج عن الموضوع . وخير ما يضمن نجاح الأعمال فى مجتمع صناعى عصرى هو التمسك بتلك الصفات . ويتوقف النجاح على مقدار تمسك الناس بها . والتحلى بها ضرورى الى حد ما لتنظيم الصناعة العصرية تنظيما مقبولا يتلاءم مع الظروف الحالية . وعندما تتمسك بها او بمعظمها الأجهزة المعقدة الشاملة المسالمة فى جوهرها والبديعة التنظيم فى المجتمع الصناعى العصرى فانها تؤدى عملها على خير وجه . ولكنها توجد لدى الانسان العدوانى بدرجة تقل كثيرا عن القدر الضرورى لتحقيق اغراض الحياة الاجتماعية المعاصرة .

ومن ناحية اخرى فان خير ما يخدم المصلحة العاجلة للفرد فى ظل النظام القائم على التنافس ، هو الدهاء والتخلى عن المبادىء الخلقية فى

ادارة الأعمال . والصفات التى سبق ذكرها كمعين على تحقيق مصالح المجتمع ضررها اكبر من نفعها للفرد اذ ان تحليه بها يحول نشاطه الى اغراض أخرى غير الكسب المالى ، ويوجهه أيضا فى سعيه للكسب الى طرق فى الصناعة طويلة وعقيمة ، بدلا من استعمال الدهاء المتحرر من كل قيد . فهى تعوق دائما تقدم الفرد فى الصناعة . وفى النظام القائم على التنافس يتبارى اعضاء المجتمع الصناعى العصرى بعضهم مع بعض ، ويحقق كل منهم مصلحته الذاتية العاجلة تحقيقا كاملا اذا ما تجرد من الضمير فاصبح قادرا على خداع اخوانه وايذائهم كلما واتته الفرصة ، كل ذلك فى هدوء ومن غير جلبة .

وقد سبق أن لاحظنا أن النظم الاقتصادية الحديثة تنطوى تحت نوعين واضحين تقريبا : المالى والصناعى . وينطبق هذا تماما على العمالة ، اذ يشمل النوع الأول العمالة التى تعنى بالملكية أو جمع المال . ويشمل الثانى العمالة التى تعنى بالصناعة والانتاج . وكما تناولنا نمو الأنظمة فسنتناول العمالة . وتتركز المصالح الاقتصادية للطبقة المترفة فى الأعمال المالية ، اما المصالح الاقتصادية للطبقات العاملة فتتصل بكلا النوعين من الأعمال ، ولكنها تتصل بالأعمال الصناعية بصفة خاصة . والدخول فى زمرة الطبقة المترفة يأتى عن طريق الاشتغال بالأعمال المالية .

نوعين من النظم الاقتصادية الحديثة

وهذان النوعان من الأعمال يختلفان اختلافا جوهريا من ناحية الاستعدادات المطلوبة لكل منهما ، كما أن التدريب الذى يوفره كل منهما يختلف عن الآخر اختلافا تاما . فقواعد الأعمال المالية تعمل على المحافظة على بعض الصفات والنزعات العدوانية وغرسها ، ويتم تحقيق ذلك بتعليم الأفراد والطبقات المشتغلة بتلك الأعمال ، وقمع الأفراد غير الصالحين من هذه الناحية واقصائهم . وبمقدار ما تصاغ عادات الناس فى التفكير فى القالب المطلوب نتيجة للتنافس على جمع المال والممتلكات ، وبمقدار ما تنحصر أعمالهم الاقتصادية فى ملكية الثروة كما يفهم من أساس قيمتها التبادلية وادارتها عن طريق تبادل القيم تساعد خبرتهم فى الحياة الاقتصادية على استمرار الطباع وعادات التفكير العدوانية وتعظيمها . وفى النظام المسالم الحديث لا شك أن الأعمال المالية تدعم بصفة خاصة الحد المسالم من العادات ، والنزعات العدائية ، اى أن الأعمال المالية تكسب صاحبها مهارة فى الطرق المتنوعة للاحتيال أكثر مما تكسبه فى الطرق البالية للاغتصاب بالاكراه .

وهذه الأعمال المالية التى ترعى الطباع العدوانية هى الأعمال التى تعنى بالملكية ــ الوظيفة المباشرة للطبقات المترفة ــ وبالأعمال الاضافية الخاصة بجمع المال واكتنازه، وتنطوى تحتها تلك الطبقة من الأشخاص وتلك

السلسلة من الواجبات فى العمليـة الاقتصـادية اللتين تعنيـان بملكية المشروعات التى تضطلع بها الصناعة المتنافسـة وبخاصـة فى النـواحى الأساسية للادارة الاقتصادية التى تسمى عمليات الادارة المالية . ويمكن ان يضاف اليها الجزء الأكبر من الأعمال التجارية . وينظم هذه الواجبات ويشرف على حسن ادائها وايضاحها المكتب الاقتصادى لمدير الصناعة ، الذى له من الدهاء اكثر مما له من الذكاء . اما ادارته فمالية اكثر منها صناعية ، من النوع المسموح به عادة فى الصناعة ـ اما التفاصيل الحقيقية الخاصة بالانتاج والتنظيم الصناعى فيقوم بها مرءوسون ذوو خبرة عملية اقل ، وهم رجال موهوبون فى أمور الصناعة اكثر منهم فى الادارة ـ وتشارك فى نفس النزعة الى صوغ الطبيعة البشرية بالتقليم والانتخاب الأعمال العادية غير الاقتصادية كالأعمال السياسية والكنسية والحربية ، وهى لذلك تحسب من الأعمال المالية .

وللأعمال المالية أيضا درجة من الاحتـرام اعلى من درجة الأعمال الصناعية ، ولذلك تعمل الطبقة المترفة بما لها من سمعة طيبة على دعم مكانة تلك النزعات التى تخدم الأغراض التى تثير البغضاء والحسد بين الناس ـ كما ان اسلوب تلك الطبقة فى حياة البذخ يساعد على بقاء الصفات والنزعات العدوانية . ويتدرج الاحترام باختـلاف الأعمال . فالأعمال التى تتصل مباشرة وعلى نطاق واسع بالملكية هى أكثر الأعمال الاقتصـادية الأصلية احتراما . ويليها فى تقدير النـاس تلك الأعمال التابعـة مباشرة للملكية وادارة العمليات المالية مثل الأعمال المصرفية والقانونية . فالأعمال المصرفية توحى بالملكية الكبيرة ، ولا ريب أن هذه الحقيقة هى التى تضفى عليهـا المهابة . ومهنة القانون لا تتضمن ملكية كبيرة ، ولكن نظرا لعدم فائدتها الا فى اثارة المنافسـة فان لها مركزا كبيرا فى الخطة التقليـدية . فالمحامى يشتغل بصـفة خاصة فى أعمال التدليس العدوانية سواء فى انجازها أو فى التغلب عليها . ولذلك فالنجاح فى هذه المهنة دليل على الاتصاف بذلك الدهاء البربرى الذى كان دائما يدعو الى احترام الناس وخوفهم . والأعمال التجارية لا تنال الاحترام كلية ما لم تنطو على عنصر كبير من الملكية وعنصر صغير من المنفعة . ويرتفع شانها بعض الشىء أو ينحط بنسبة ما تؤديه من خدمات للطبقات العليـا والطبقات الدنيـا من الشعب . ولذلك فحرفة المتاجرة بالقطاعى فى الضروريات الدنيا للحياة تنزل الى مستوى الحرف اليدوية والعمل فى المصانع . ولا شك ان احترام الناس للعمل اليدوى بل للعمل الخاص بادارة العمليات الميكانيكية ضئيل نسبيا .

ولابـد من تحديد ماسبق قوله عن التدريب الذى توفـره الأعمال المالية . اذ كلما اتسـع نطاق المشروعات الصناعية قل ما تلاقيـه الادارة

المالية من تلاعب وتنافس ذكى ، اى انه نظرا لتزايد عدد الأفراد المتصلين بهذه الناحية من الحياة الاقتصادية يصبح العمل روتينيا ويقل فيه الايحاء المباشر بخداع المنافسين أو استغلالهم . وغالبا ما يمتد التحرر من العادات العدوانية الناجم عن ذلك الى المرءوسيين فى العمل . وهذا التعديل فى التدريب لا يسمى فى الحقيقة واجبات الملكية والادارة .

والوضع يختلف بالنسبة لأولئك الأفراد - أو الطبقات - الذين يشتغلون بعمليات الانتاج الفنية واليدوية . فحياتهم اليومية ليست - الى نفس الدرجة - ميدانا للتعود على البواعث والحركات التى تثير المنافسة والبغضاء فى النواحى المالية من الصناعة . وهؤلاء يلتزمون دائما بفهم الحقائق والنتائج الآلية وتنسيقها ، ويعرفون قيمة أهداف الحياة الانسانية وما يؤدونه فى سبيل تحقيقها . وفيما يتعلق بهذا القسم من السكان تعمل الصناعة بما تلقيه من دروس وبطريقة الانتخاب على تكييف أساليب التفكير لدى المتصلين بها اتصالا مباشرا لأغراض الحياة المشتركة الخالية من الكراهية والحسد . ولذلك تعمل الصناعة على المسارعة بتخليهم عن النزعات والميول العدوانية الواضحة المنحدرة بالوراثة والتقاليد من الماضى الهمجى للجنس البشرى .

وعلى ذلك فان التدريب على الحياة الاقتصادية فى المجتمع ليس نوعا واحدا فى كل صوره . والنشاط الاقتصادى الذى يعنى مباشرة بالمنافسة المالية يعمل على المحافظة على بعض الصفات العدوانية ، بينما الأعمال الصناعية التى تتصل اتصالا مباشرا بانتاج السلع تعمل فى الغالب على عكس ذلك . الا اننا يجب ان نلاحظ بالنسبة للمشتغلين بهذا النوع من الأعمال انهم جميعا تقريبا يهتمون الى حد ما بشئون المنافسة المالية (كما فى التحديد التنافسى للأجور والمرتبات وشراء السلع الاستهلاكية مثلا) ولذلك فالتمييز الذى ذكرناه لأنواع الوظائف ليس تمييزا دقيقا ومحددا لأنواع الأفراد .

واعمال الطبقات المترفة فى الصناعة الحديثة من شأنها أن تعمل على بقاء بعض العادات والنزعات العدوانية. وعلى قدر اسهام أفراد تلك الطبقات فى الأعمال الصناعية فان تدريبهم يساعدهم على الاحتفاظ بالطباع العدوانية. لكننا نستطيع من جهة أخرى أن نقول ان الأفراد الذين يمكنهم وضعهم من ان يعيشوا فى يسر قد يحتفظون بخصائصهم وينشرونها حتى لو كانوا يختلفون كثيرا عن عامة الناس جسميا وخلقيا . ولدى تلك الطبقات الثرية فرص كثيرة للابقاء على الصفات الخلقية الأصلية ونقلها . والطبقة المترفة بعيدة الى حد ما عن مقتضيات الظروف الصناعية ، ولذلك يمكن ان يبدى افرادها قدرا كبيرا غير عادى من الرجوع الى المزاج السلمى أو الهمجى . وفى

وسع هؤلاء الأفراد الشاذين او المرتدين الى الطباع الاصلية ان يظهروا نشاطهم وفق الأساليب السلمية دون ان يخشوا قمعا او نبذا سريعا كما يحدث فى الحرف الدنيا .

والواقع ان شيئا من هذا القبيل يبدو حقيقيا . فمثلا فى الطبقات العليا يوجد كثير من الأفراد تدفعهم ميولهم الى عمل الخير ، كما ان هذه الطبقات تعمل ـ بما تبديه من آراء ـ على تأييد الجهود التى تبذل فى سبيل الاصلاح والتحسين . ثم ان كثيرا من هذه الجهود الخيرية والاصلاحية تدل على تلك المهارة اللطيفة والتشتت الفكرى اللذين هما من خصائص الهمجيين البدائيين . الا انه ما زال من المشكوك فيه ان هذه الحقائق تقوم دليلا على أن الرجوع الى الصفات القديمة يحدث فى الطبقات العليا اكثر مما يحدث فى الطبقات الدنيا . وحتى اذا كانت هذه الميول فى الطبقات الفقيرة فليس من السهل اظهارها ، اذ تعوزها الوسيلة والوقت والقوة اللازمة للتعبير عنها . والدليل على هذه الحقائق يصعب التسليم به لأول وهلة .

ولا بد ـ الى جانب التحديد السابق ـ من ملاحظة أن الطبقة المترفة فى هذه الأيام تعتبر من الذين اصابوا توفيقا فى المسائل المالية ، ومن أجل ذلك يفترض فيهم انهم مبرزون فى الصفات العدوانية . والدخول فى زمرة الطبقة المترفة تمهد له الأعمال المالية التى تعمل عن طريق الانتخاب والتكييف على الا يدخل فى زمرة هذه الطبقة الا من يستطيع من الناحية المالية ان يجوز الاختبار فى الصفات العدوانية . وعندما تظهر اية صفة من صفات الطبيعة البشرية غير العدوانية فى تصرفات هؤلاء الناس فانها غالبا مايقضى عليها . ولكى يحافظ الفرد على مركزه فى هذه الطبقة فلا بد ان يتحلى بالطباع المالية ، والا فانه يبدد ثروته ويفقد مكانته فى الحال . والأمثلة على ذلك كثيرة .

ويحتفظ كيان الطبقة المترفة بقوته عن طريق عملية انتخاب دائبة تعمل على أن تسحب من بين الطبقة الدنيا من كان من افرادها يصلح بدرجة كبيرة للمنافسة المالية الباغية . ولا بد للانسان الطموح ، لكى يصل الى مكان فى هذه الطبقة ، لا من قدر مناسب من الكفاية المالية فحسب ، بل من قدر عظيم من هذه الكفاية لكى يتغلب على الصعاب المادية التى تعترض طريق ارتقائه ، فالحوادث المعوقة كثيرة .

ولا شك ان عملية الدخول الى زمرة هذه الطبقة بطريق الانتخاب عملية دائبة منذ عرف التنافس المالى ، او بعبارة اخرى منذ ظهور نظام الطبقة المترفة ، الا ان الأساس الدقيق للانتخاب لم يكن دائما واحدا ، ولذلك

فان عملية الانتخاب لم تكن تأتى دائما بنفس النتائج . وفي الطور الهمجى البدائي ، أو الطور العدواني ، كان اختبار الصلاحية هو اختبار للجراءة بالمعنى البسيط لهذه الكلمة . ويجب على المرشح لهـذه الطبقة ان يكون مخلصـا لعشيرته ، مرهوب الجانب ، شرسـا ، عديم الضمير ، متشبثا بآرائه . ولقد كانت هذه الصفات هى التى يعتد بها فى جمع الثروة وفى حق الملكية . وكان الأساس الاقتصادى للطبقة المترفة فى ذلك الوقت ، كما كان فى العصور التالية له ، امتلاك الثروة . الا أن طرق جمع المال والمواهب اللازمة للحصول عليه تغيرت بعض الشىء منـذ العصور الأولى للثقافة العدوانية . ونتيجة لعملية الانتخاب كانت الصفات السـائدة فى الطبقة المترفة فى عصور الهمجيـة الأولى هى البغى الصريح والاهتمام الشديد بالمكانة الاجتماعية وحرية الالتجاء الى التدليس . وكان أعضاء هذه الطبقة يحافظون على مكانتهم بما يقومون به من أعمال جريئة . وقد وصل المجتمع فى الثقافة الهمجيـة الحديثـة الى أساليب ثابتة لجمع المال فى ظل النظام شبه السلمى للمكانة الاجتماعية ، اذ حل محل العـدوان البسيط والعنف الشديد المطلق ، الدهاء والاحتيال كأفضل وسيلة مقبولة لجمع المال . ولذلك أصبحت الطبقة المترفة تحافظ على مجموعة أخرى من النزعات والميول . فما زال البغى المتعجرف والتعالى والاهتمام الشديد بالمكانة الاجتماعية من الصفات البارزة فى تلك الطبقة . ولقد بقيت هـذه الصفات فى تقاليدنا « فضائل ارستقراطية » مثالية ، لكن كانت تقترن بها صفات مالية أقل ضراوة ، منها التعقل والحزم والمخادعة . وبمرور الزمن قرب الطور المسالم الحديث للثقافة المالية واصبحت لهذه الصفات والعادات الاخيرة اهمية نسبية فى تحقيق الأهداف المالية وأهمية أكثـر نسبيا فى عملية الانتخاب التى يتم بها الاندماج فى الطبقة المترفة .

الدهاء والحيلة بديل العدوانية

وقد تغير أساس الانتخاب حتى أصبحت الكفايات التى تؤهل الآن للانضمام الى تلك الطبقة هى الكفايات المالية فقط . ولم يبق من الصفات البربرية العدوانية الا الاصرار على تنفيذ الفرض أو التمسك بالهدف الذى يميز الانسان العدواني البربرى الناجح من الهمجى المسالم الذى حل محله . الا انه لا يمكن أن يقال ان هذه الصفة تميز انسانا من الطبقة العليا ناجحا فى الأعمال المالية من انسان من الطبقة الدنيـا الصـناعية . اذ ان التدريب والانتخاب اللذين تتعرض لهما الطبقة الدنيا فى الحياة الصناعية الحديثة يضفيان أهمية حاسمة بدرجة متشابهة على هذه الصفة والأفضل أن يقال ان الاصرار على تنفيذ الفـرض يميز هاتين الطبقتين من طبقتين أخريين : العـاجز الذى لا يعمل شيئا للصالح العام ، والمنحرف عن الطريق المستقيم فى الطبقة الدنيا . فمن ناحية الكفاية الطبيعية يشبه الرجل المالى الرجل المنحرف تماما كما يشبه الصانع الرجل اللطيف عديم الحيلة العاجز

عن الاعتماد على نفسه . فالرجل المالى الأمثل يشبه الرجل المنحرف الأمثل فى تجرده من الضمير بتحويله السلع والأشخاص لأغراضه الذاتية ، وفى تجرده القاسى من تقدير شعور ورغبات غيره من الناس ، ولما يترتب على أعماله من آثار بعيدة ، الا أنه يختلف عنه فى شدة احساسه بالمركز الاجتماعى وفى تدبره للعواقب ومثابرته على العمل لتحقيق هدف بعيد .
وتظهر الصلة بين هذين النوعين من الطباع فى الميل الى اللهو والميسر وفى حب التنافس بغير هدف . ويظهر الرجل المالى المثالى ايضا صلة عجيبة بالرجل المنحرف فى أحد الانحرافات الملازمة للطبيعة البشرية . فالانسان المنحرف يعتقد عادة فى الخرافات وفى الحظ والتعاويذ وفى الطيرة واعمال السحر والشعوذة . وحيثما تكون الظروف ملائمة يعبر هذا الميل عن نفسه بالحماس الدينى فى خشوع ومراعاة الشعائر الدينية بكل دقة .. وقد يكون من الأفضل وصف هذا الميل بانه من مظاهر التدين اكثر منه من الدين . وتشبه طباع المنحرف من هذه الناحية طباع الطبقات المالية المترفة أكثر مما تشبه طباع الصانع أو العاجز عديم الحيلة .

والحياة فى المجتمع الصناعى الحديث ، أو بعبارة أخرى فى ظل الثقافة المالية ، تعمل عن طريق الانتخاب على اظهار بعض الاستعدادات والميول والمحافظة عليها . وليس الاتجاه الحالى فى عملية الانتخاب مجرد العودة الى نوع سلالى معين وثابت ، فهو ينزع الى اجراء تعديل فى الطبيعة البشرية يختلف من بعض الوجوه عن اى نوع او صفة انحدرت من الماضى . والتطور لا يهدف الى تحقيق شىء واحد . فالطباع التى يعمل التطور على تثبيتها لأنها تتفق والمستوى المطلوب تختلف عن الصفات القديمة فى الطبيعة البشرية فى ان هدفها اكثر ثباتا واعظم وحدة ، وأن المثابرة على بذل الجهد لتحقيقه اعظم . وفيما يخص النظرية الاقتصادية تهدف عملية الانتخاب بصفة عامة الى شىء واحد رغم النزعات الصغيرة ذات الأهمية العظمى التى تنحرف عن سير التطور . ولكن اذا استثنينا هذا الاتجاه العام فان الطريق الذى يسير فيه التطور ليس واحدا . فمن ناحية النظرية الاقتصادية يسير التطور فى حالات اخرى فى اتجاهين مختلفين . ومن ناحية المحافظة عن طريق عملية الانتخاب على القدرات او الاستعدادات فى الأفراد يمكن تسمية هذين الاتجاهين بالمالى والصناعى . ومن ناحية المحافظة على النزعات والميول الروحية يمكن تسميتهما بالعدائى أو الأنانى والمسالم او الاقتصادى . ومن ناحية الميل الذهنى أو العلمى لاتجاهى التطور يمكن ان يوصف اولهما بانه الراى الشخصى فى الادارة او الصلة النوعية او المركز أو الأهمية ، ويوصف الثانى بانه وجهة نظر غير شخصية فى النتيجة أو الصلة الكمية او الكفاية الآلية او الفائدة .

وتستدعى الأعمال المالية فى الغالب النوع الأول من هذه الميول والاستعدادات وتعمل بطريقة الانتخاب على المحافظة عليها فى الناس . اما الأعمال الصناعية فتستدعى النوع الثانى وتعمل على المحافظة عليه ، وسيثبت التحليل النفسانى المستفيض ان كلا من هاتين المجموعتين من الاستعدادات والميول ما هى الا التعبير بصور متعددة عن ميل خلقى معين . فالاستعدادات والارادة والمصالح التى تتضمنها المجموعة الأولى عبارة عن تعبيرات عن صفة معينة فى الطبيعة البشرية نتيجة لوحدة الفرد او وحدانيته . وهذا ينطبق تماما على المجموعة الثانية . فالمجموعتان يمكن أن تفهما على انهما اتجاهان اختباريان فى الحياة حتى يميل الانسان الى احداهما الى حد ما . وتنزع الحياة المالية بصفة عامة الى المحافظة على الطباع البربرية ولكن مع احلال التدليس والتروى محل الميل الى الضرر المادى الذى يتميز به الانسان البربرى البدائى . ولا يحل الخداع محل الاتلاف الا بدرجة غير مؤكدة . وفى الأعمال المالية تجرى عملية الانتخاب فى هذا الاتجاه دائما ، الا ان نظام الحياة المالية — فيما عدا التنافس على الربح — لا يعمل دائما كذلك . ونظام الحياة العصرية فى استهلاك الزمن والسلع لا يعمل بصراحة على قضاء الصفات الارستقراطية أو على احتضان الصفات البورجوازية . والخطة التقليدية للعيشة المحترمة تستدعى كثرة العمل بالصفات البربرية الأولى . ولقد سبق التحدث بشىء من الاسهاب عن هذه الخطة التقليدية فى الحياة فى الفصول السابقة وسيزيد الاسهاب فى الفصول الأخيرة .

ويبدو مما قيل أن حياة الطبقة المترفة وخطتها فى الحياة لا بد ان تساعدا على المحافظة على الطباع البربرية ، وبخاصة الصفات شبه المسالمة او البورجوازية ، ولكنها تساعد أيضا على المحافظة على الصفات البربرية الى حد ما . ولذلك فمن الممكن — اذا لم تكن هناك عوامل مزعجة — تبين اختلاف الطباع فى طبقات المجتمع . فالصفات الارستقراطية والبورجوازية، اى الصفات الهدامة والمالية لا بد ان توجد فى الغالب فى الطبقات العليا ، والصفات الصناعية اى الصفات المسالمة توجد غالبا فى الطبقات العاملة فى الصناعة الميكانيكية . وهذا صحيح بصفة عامة لكن غير مؤكدة . ولكن هناك صعوبة فى اختبار هذه الحقيقة ، كما ان نتائج مثل هذا الاختبار غير مؤكدة بالدرجة المرجوة . وهذا الفشل الجزئى له عدة أسباب معينة . فكل الطبقات تشترك الى حد ما فى الصراع المالى ، وفى كل الطبقات توجد للصفات المالية اهمية فى نجاح الفرد وبقائه . وحيثما تسود الثقافة المالية تسير عملية الانتخاب — التى تشكل عادات الناس فى التفكير والتى تقرر بقاء السلالات المتنافسة تقريبا على قاعدة الصلاحية فى الحصول على المال . ولذلك فلولا الحقيقة التى تقرر ان الكفاية المالية لا تتفق بصفة عامة مع الكفاية الصناعية لاتجهت عملية الانتخاب فى كل الأعمال الى سيادة الطباع

المالية الكاملة ، وتكون النتيجة اعتبار « الرجل الاقتصادى » هو النوع العادى والنهائى للطبيعة البشرية . الا ان الرجل الاقتصادى الذى لا يهمه الا مصلحته الذاتية والذى يتحلى بأى صفة انسانية غير الفطنة . لا يصلح لتحقيق اهداف الصناعة الحديثة .

وتتطلب الصناعة الحديثة اهتماما غير ذاتى وغير عدائى بالعمل القائم . وبدون ذلك يستحيل القيام بالعمليات الدقيقة فى الصناعة ، بل ويستحيل فى الواقع فهمها . وهذا الاهتمام بالعمل يميز العامل من المجرم من ناحية ومن مدير الصناعة من ناحية اخرى . ولما كان لا بد من اداء العمل من اجل استمرار الحيـاة فى المجتمع فان عملية الانتخـاب تشجع الاستعدادات الروحية للعمل فى عدد معين من الأعمال . ومع ذلك فلا بد من التسليم بان عملية الانتخاب لاقصاء الصفات المالية فى الأعمال الصناعية عملية غير مؤكدة ، وبانه لذلك بقيت الطباع البربرية فى هذه الاعمال . ولهذا السبب لا يمكن التمييز حاليا بين خلق الطبقة المترفة وخلق عامة الناس من هذه الناحية .

ومما يزيد ابهام الموضوع الخاص بالتمييز الطبقى من ناحية التكوين الروحى أن جميع طبقـات المجتمع تكتسب عـادات فى الحياة ، وان هذه العادات تشبه بعض الصفات الموروثة تمـاما وتعمل فى نفس الوقت على اظهار تلك الصفات فى كل الناس ، وعادة ما تكون هذه العادات المكتسبة او الصفات الخلقية المنتحلة ذات طـابع ارستقراطى . وان المركز الذى اكتسبته الطبقـة المترفة كمثال يحتـذى لنيل الاحترام فرض كثيرا من خصائص نظريتهم فى الحياة على الطبقـات الدنيا ، مما يؤدى دائمـا الى المثابرة الى حد ما على غرس تلك الصفات الارستقراطية فى المجتمع . ولهذا السبب ايضا فان لهذه الصفات فرصة للبقاء بين الناس افضل مما لو لم تكن اقتداء بالطبقة المترفة . ومن الممكن ذكر طبقة خدم البيوت كوسيلة هامة لنقل الآراء الارستقراطية فى الحياة ومن ثم والى حد ما نقـل الصـفات الخلقية القديمة الى الطبقات الدنيا . فهؤلاء الخدم تتشكل آراؤهم فى الخير والجمال باتصالهم بسادتهم من الطبقة العليا وينقلون هذه الأفكار الى اخوانهم من الطبقات الدنيا وبذلك ينشرون المثل العليا لتلك الطبقات بين المجتمع بدون اضاعة وقت كان من المحتمل ضياعه لو لم توجد هذه الوسيلة. وللمثل « من شابه سيده فما ظلم » اهمية اعظم مما يقدر عادة لسرعة قبول عامة الناس لكثير من اسس ثقافة الطبقة العليا .

وهنـاك ايضـا عدد آخر من الحقـائق التى تؤدى الى الاقلال من الاختلافات الطبقية الخاصة ببقاء الصفات المالية . فالصراع المالى يخلق طبقة كثيرة العدد سيئة التغذية . وسوء التغذية هذا يعنى عدم كفـاية

ضروريات الحياة أو المال اللازم لتكاليف الحياة المتواضعة ، مما يؤدى فى الحالين الى صراع اضطرارى عنيف على الوسائل التى يقضى بها الحاجات اليومية سواء كانت مادية او سامية والجهود التى يبذلها الانسان للتغلب على الفروق تقتضى استعمال كل نشاطه . فهو يعمل كل ما فى وسعه لتحقيق اغراضه الذاتية التى تضر بالغير ، وتزداد أنانيته باستمرار . وبذلك تأخذ الصفات الصناعية فى الزوال نتيجة لعدم استعمالها . ولذلك فان الطبقة المترفة بالأسلوب الذى تضعه للمعاملات المالية وبأخذها من الطبقات الدنيا كل ما يمكنها من وسائل الحياة تعمل بطريقة غير مباشرة على المحافظة على الصفات المالية فى الناس . وينتج عن ذلك أن الطبقات الدنيا تأخذ أولا صورة الطبيعة البشرية الخاصة بالطبقات العليا وحدها .

ولذلك فالفرق فى الطباع ـ كما يبدو ـ ليس كبيرا بين الطبقات العليا والدنيا . الا انه يبدو ايضا أن انعدام هذا الفرق يرجع الى حد كبير الى الاقتداء بالطبقة المترفة والى قبول عامة الناس لتلك المبادىء العريضة الخاصة بالاسراف الفاحش والتنافس المالى التى يقوم عليها نظام الطبقة المترفة ويعمل هذا النظام على الاقلال من الكفاية الصناعية فى المجتمع وعلى تأخير تكيف الطبيعة البشرية لتلائم ضرورات الحياة الصناعية الحديثة . ويؤثر فى الطبيعة البشرية السائدة او الفعالة بشكل يعمل على المحافظة عليها ، وذلك :

١ ـ بنقل الصفات القديمة عن طريق الوراثة داخل الطبقة ، وكذلك حيثما ينقل دم الطبقة المترفة الى خارجها .

٢ ـ وبالمحافظة على التقاليد المرعية فى النظام القديم وتقويتها ، مما يجعل فرص بقاء الصفات البربرية أعظم أيضا خارج نطاق الانتقال عن طريق الدم من الطبقة المترفة .

الا أنه لم يبذل الا جهد ضئيل ـ اذا كانت هناك جهود قد بذلت على الاطلاق ـ فى سبيل جمع واستيعاب البيانات ذات الأهمية الخاصة فى موضوع بقاء أو استبقاء الصفات الكامنة فى انسان العصور الحديثة . ولذلك فالبيانات الواضحة التى تقدم لتأييد الرأى المذكور قليلة ، وذلك الى جانب عرض بيانات غير مترابطة لتلك الحقائق المعروفة التى حصلنا عليها ومع أن هـذا العرض قد يكون مملا ولا جديد فيه الا أنه رغم ذلك يبدو ضروريا لاتمام البحث حتى بالصورة الضعيفة التى ذكر بها ، ولذلك فقد يكون من الانصاف أن نطلب شيئا من التسامح بالنسبة للفصول التالية التى تعرض بيانا مجزأ من هذا النوع .

الفصل العاشر

المخلفات الحديثة المتبقية من طباع الجراة

تعيش الطبقة العاطلة المترفة على هامش المجتمع الصناعي ، وليست فى داخله . وصلتها بالصناعة مالية أكثر منها صناعية . والانضمام اليها يأتى من استعمال المواهب المالية ، أى من استعمال المواهب للحصول على المال ، بدلا من استعمال القدرة على أداء خدمات عامة ٠ ولذلك فعملية الانتخاب تقوم بعملية تصفية مستمرة للناس الذين يكونون الطبقة المترفة ٠ ويسير هذا الانتخاب على قاعدة الصلاحية للأعمال المالية ٠ الا أن أسلوب هذه الطبقة فى الحياة هو الى حد كبير تراث الماضى ويشتمل على كثير من عادات الطور البربرى البدائى ومثله ٠ وهذا الأسلوب البربرى القديم يفرض نفسه أيضا الى حد ما على الطبقات الدنيا ٠ ويعمل أسلوب الحياة بدوره ـ أى العادات والتقاليد ـ بطريقة الانتخاب وبالتعليم ، على تشكيل المادة الانسانية ٠ ويهدف هذا العمل فى الغالب الى المحافظة على الصفات والعادات والمثل العليا التى تنتمى الى العصر البربرى البدائى ـ أى عصر الجراة والحياة العدوانية .

وان أعظم تعبير صريح ذاتى عن الطبيعة البشرية القديمة التى تميز الانسان فى الطور العدوانى لهو نزعته الأصيلة للقتال ٠ وغالبا ما تسمى هذه النزعة فى الحالات التى يكون فيها العمل العدوانى جماعيا ، بالروح الحربية أو بالوطنية كما سميت فيما بعد ٠ ولا يحتاج الأمر الى التأكيد بأن الطبقة المترفة بالوراثة فى بلاد أوربا المتحضرة تنزع الى الحرب بدرجة أكبر من الطبقات المتوسطة ٠ وفى الحق ان الطبقة المترفة تدعى الامتياز على غيرها فى سبيل المفاخرة ، على أن ذلك ولا ريب قائم على بعض الأسباب ٠ فالحرب عمل شريف ، وللشجاعة الحربية تقدير عظيم فى نظر عامة الناس ٠ وهذا الاعجاب بالشجاعة الحربية هو فى حد ذاته أكبر دليل على الطباع العدوانية فى عشاق الحرب ٠ والتحمس للحرب والطباع العدوانية التى تدل عليه تنتشران الى أكبر حد بين الطبقات العليا وبخاصة الطبقة المترفة بالوراثة ٠ وعلاوة على ذلك فان عمل الطبقة العليا الجدى الظاهر هو الادارة ، وهذه أيضا عمل عدوانى فى أصلها وتطورها ٠

والطبقة الوحيدة التى استطاعت أن تنازع الطبقة المترفة بالوراثة شرف النزعة الحربية هم المنحرفون فى الطبقة الدنيا • وفى الأوقات العادية لاتعنى الطبقات الصناعية بالأمور الحربية الا قليلا . وعندما لا نثار هؤلاء الناس العاديون الذين يكونون القوة الفعالة فى المجتمع الصناعى فانهم يرفضون الاشتباك فى أى حرب غير دفاعية • وفى الحق أنهم يستجيبون بشىء من البطء الى الدعوة المهيجة التى تطلب اتخاذ موقف الدفاع •

وفى المجتمعات الأكثر حضارة أو المتقدمة صناعيا يمكن القول بأن نزعة العدوان الحربى لا وجود لها بين عامة الناس • وليس معنى ذلك أن الروح الحربية لاتوجد بصورة عنيفة بين عدد كبير من أفراد الطبقات الصناعية ، وليس معنى ذلك أن نار الحماسة الحربية لاتشتعل الى حين فى عامة الناس استجابة لدعوة مهيجة كما يشاهد فى هذه الأيام فى أكثر من مملكة فى أوربا وفى أمريكا فى الوقت الحاضر • ولكن فيما عدا هذه الأسباب التى تدعو الى تمجيد الأعمال الحربية مؤقتا ، وفيما عدا هؤلاء الافراد ذوى الطباع القديمة العدوانية وبعض أفراد الطبقات العليا والدنيا الذين لهم نفس هذه الطباع ، فان عدم التحمس للحرب فى أى مجتمع متحضر حدث عظيم الى حد يجعله موضعا للتندر ، اللهم الا ضد الغزو الحقيقى • وتؤدى عادات عامة الناس واستعداداتهم الى اظهار نشاطهم فى أعمال أخرى اقل روعة من الحرب •

وهذا الاختلاف الطبقى فى الطباع قد يرجع الى حد ما الى الاختلاف فى وراثة الصفات المكتسبة فى الطبقات العديدة ولكن يبدو أيضا أنه يطابق الاختلاف فى الأصل السلالى • وهذا الاختلاف الطبقى أقل وضوحا فى هذه الناحية فى البلاد التى يعتبر أهلها من جنس واحد نسبيا معا مما هو فى البلاد التى تختلف فيها العناصر السلالية التى تتكون منها الطبقات العديدة فى المجتمع اختلافا كبيرا • ويلاحظ بهذه المناسبة أن من ينضمون فى العصور الحديثة الى الطبقات المترفة فى البلاد التى من النوع الثانى يظهرون بصفة عامة روحا حربية أقل من معاصريهم من سلالة الارستقراطيين القدماء • وهؤلاء الأعضاء الجدد خرجوا من صفوف عامة الناس من عهد قريب • ويرجع اندماجهم فى الطبقات المترفة الى ممارسة صفات ونزعات لايمكن أن تعد من الجراة بمعناها القديم •

وعلاوة على النشاط الحربى الحقيقى فان نظام المبارزة تعبير آخر عن ذلك الميل العظيم للقتال • والمبارزة نظام متبع فى الطبقة المترفة • وهى فى جوهرها التجاء متعمد للقتال كحل نهائى للخلاف فى الراى • وفى المجتمعات المتحضرة لا تنتشر المبارزة كظاهرة طبيعية الا حيث توجد طبقة مترفة بالوراثة وغالبا ما تقتصر على أعضائها • ويستثنى من ذلك :

١ ـ ضباط الجيش والبحرية وهم فى العادة من افراد الطبقة المترفة ، وفى نفس الوقت يدربون بصفة خاصة على التفكير العدوانى .

٢ ـ والمنحرفون فى الطبقة الدنيا الذين لهم نفس النزعات والعادات العدوانية اما بالوراثة أو بالتدريب أو بهما معا . ولا يلجأ فى العادة الى العراك كوسيلة لفض الخلاف فى الرأى نهائيا الا ابن الطبقة العليا والعربيد . أما الرجل العادى فلا يقاتل فى العادة الا عندما تعمل شدة الانفعال الوقتى أو شدة السكر على منع العادات الأكثر تعقيدا من الاستجابة للدوافع التى تثير الغضب والسخط ، اذ أنه فى هذه الحالة يعود الى الصور البسيطة لغريزة اثبات الذات ، أى أنه يعود الى حين ، وبدون تفكير الى عادة ذهنية قديمة .

ونظام المبارزة كوسيلة لفض المنازعات والمسائل الخطيرة المتعلقة بالاولوية تجعل القتال الخاص دون استشارة بمثابة التزام اجتماعى تحتمه رغبة الانسان فى نيل احترام الناس . ومن أمثلة هذا النوع من العادات المتأصلة فى الطبقة المترفة مبارزة الطلاب الألمان التى تعتبر من بقايا مظاهر الفروسية . ويوجد فى كل البلاد التزام اجتماعى مماثل ، ولو أنه أقل فى مظهره بين المنحرفين فى الطبقة الدنيا أو فى الطبقة المترفة الزائفة ، يوجب على العربيد أن يثبت رجولته فى قتال لاداعى له مع زملائه . وهذه العادة منتشرة فى المجتمع بين الأولاد من كل الطبقات . فالولد فى العادة يعرف أنه وزملاءه ينالون من الاحترام على قدر قدرتهم النسبية على القتال . وفى مجتمع الأولاد لايوجد عادة أساس أمين لتقدير مدى احترام أى فرد منهم يشذ عن العرف فلا يقاتل أو لايستطيع القتال اذا دعى اليه .

وينطبق هذا الوصف بصفة خاصة على الأولاد الذين تخطوا سن الرشد بقليل ، ولكنه لايناسب طباع الأطفال ابان الطفولة أو سنوات ماقبل البلوغ التى يعتمد الأطفال فيها على أمهاتهم فى كل شأن من شئون حياتهم اليومية . وفى هذه المرحلة الاولى من الحياة يقل الاعتداء على الغير كما يقل الميل الى الخصام . والانتقال من هذا الخلق المسالم الى الخلق العدوانى الخبيث والضار فى الحالات الخطيرة ، تدريجى . ويتم استيعاب عدد أكبر من هذه الاستعدادات والنزعات فى حالة بعض الأفراد عنها فى حالات أخرى . والطفل سواء أكان ولدا أم بنتا أقل فى المرحلة الأولى من نموه ميلا الى المبادأة بالعدوان لاثبات ذاته والى عزل نفسه ومصالحه عن البيئة التى يعيش فيها ، ويكون كثير الخجل والتهيب وسريع التأثر بالزجر وفى حاجة الى الأصدقاء . وفى الحالات العادية تتحول هذه الطباع الى طباع الفتوة بزوال مظاهر الطفولة تدريجيا ولكن بدرجة سريعة نوعا ما ، ولو أن هناك ايضا حالات لا تظهر فيها مطلقا المظاهر العدوانية لحياة الفتيان ، أو يكون ظهورها بدرجة ضئيلة وغير واضحة .

اما بالنسبة للبنات فمن النادر ان يتم الانتقـــال الى الدور العدوانى بنفس الدرجة التى يتم بها انتقال الأولاد · وفى كثير من الحالات لايكون هناك انتقال على الاطلاق · وفى هذه الحالات يكون الانتقال من الطفولة الى المراهقة والنضج عبارة عن عملية تغيير تدريجى مستمر من الاهتمام بأغراض الطفولة ونزعاتها الى الاهتمام بأغراض حياة البلوغ وأعمالها وعلاقاتها · وقلما تظهر فترة الشراسة فى البنات ، لكن فى الحالات التى تظهر فيهـــا يكون الميل الى الشراسة والعزلة خفيفا فى العادة ·

وفترة الشراسة تظهر بوضوح فى الولد ، وتستمر بعض الوقت ولكنها تنتهى عادة عند البلوغ · وقد تحتاج هذه الجملة الى بعض الأدلة المادية · فالحالات التى لايتم فيها الانتقال او التى يكون الانتقال فيها جزئيـــا من الطباع الصبيانية الى **طباع البالغين** ، ليست نادرة · والمقصـــود من طباع البالغين الطباع العادية للافراد البالغين فى الحياة الصناعية الحديثة الذين يؤدون بعض الخدمات لتحقيق أهداف عملية الحياة الاجتمـــاعية والذين يكونون كما يقال ، الفئة الفعالة فى المجتمع الصناعى ·

ويتنوع التكوين السلالى للأوربيين · ففى بعض الحالات نرى الطبقات الدنيا نفسها تتكون الى حد كبير من العنصر الأبيض المعكر للسلام ، بينما فى حالات أخرى يوجد هذا العنصر السلالى غالبا فى الطبقة المترفة بالوراثة ويقل انتشار عادة القتال بين أبناء الطبقة العاملة فى هذه الحالة الأخيرة عن انتشارها بين ابناء الطبقة العليا فى مثل هذا المجتمع أو الطبقة الدنيا او المجتمع الأول ·

واذا ثبتت صحة هذا الرأى الخاص بطباع أبناء الطبقات العاملـــة بعد دراسته بدقة تامة فان ذلك لابد أن يزيد من قوة الرأى القائل بأن الطباع المحبه للقتال هى الى حد كبير من المميزات العنصرية ، وأنها داخلة فى تكوين النوع السلالى ــ النوع الأبيض ــ للطبقة العليا صاحبة السيادة فى البلاد الأوربية اكثر مما هى فى أنواع الطبقات الدنيا الخاضعة التى تكون غالبية السكان فى هذه البلاد ·

وطباع الأولاد قد لا تمت بصلة قوية الى موضوع الجراة التى تتصف بها عدة طبقات فى المجتمع ، الا أن لها بعض الأهمية فى أنها تبين أن هذه النزعة للقتال ترجع الى طباع أقدم كثيرا من تلك التى يتصف بها الانسان البالغ العادى فى الطبقات الصناعية · ويمثل الطفل فى ذلك كما فى كثير من مظاهر الطفولة الأخرى بعض المراحل الأولى فى تطور الانسان البالغ ولو بصورة مصغرة · وعلى حسب هذا التفسير يعتبر ميل الولد الى الأعمال العدوانية والعزلة عن الناس ارتدادا مؤقتا الى الطبقـــة البشرية التى تتفق

والثقافة البربرية الأولى أى الثقافة العدوانية . وفى هذه الحالة كما فى كثير غيرها تدل أخلاق الطبقة المترفة والطبقة المنحرفة على استمرار بعض الصفات العادية فى الطفولة والشباب والعادية أيضا فى أطوار الثقافة الأولى على الظهور فى طور المراهقة . ومالم يرجع الاختلاف كلية الى اختلاف اساسى بين الأنواع السلالية الثابتة فان الصفات التى تميز المنحرف المختال والسيد المترف المتأنق من عامة الناس هى الى حد ما دلائل على التطور الروحى غير الكامل . فهى تبين طورا ناقصا اذا ماقورن بطور النمو الذى حصل عليه البالغون العاديون فى المجتمع الصناعى الحديث . وسيظهر حالا أن التكوين الروحى الصبيانى لهؤلاء الممثلين للطبقات الاجتماعية العليا والدنيا يبرز أيضا فى شكل صفات أخرى قديمة غير هذا الميل الى الأعمال العدوانية والعزلة .

ولكى يكون هناك مجال للشك فى أن الطباع المحبة للقتال تمثل أساسا مرحلة عدم اكتمال النمو نذكر المشاغبات التى لا هدف لها والمبنية على المزاح ولكنها منظمة ومتقنة الى حد ما الشائعة بين تلاميذ المدارس فى سن مابين الطفولة الحقة والرجولة اليافعة . فهذه المشاغبات تقتصر فى الأحوال العادية على فترة المراهقة ، وتقل فى عددها وشدتها عندما يدخل الفتى فى حياة البلوغ ولذلك فهى بصفة عامة ، تمثل فى حياة الفرد الخطوات التى سارت عليها الجماعة فى الانتقال من الحياة العدوانية الى حياة أكثر استقرارا . وفى كثير من الحالات ينتهى النمو الروحى للفرد قبل خروجه من المرحلة الصبيانية . وفى هذه الحالات تبقى طباع حب القتال طوال العمر ولذلك فهؤلاء الأفراد الذين يبلغون فى النهاية مبلغ الرجال فى التطور الروحى يجتازون أحد الأطوار القديمة الذى يطابق المستوى الروحى الدائم للمحبين للقتال والألعاب الرياضية . ولا شك أن الأفراد المتباينين يبلغون النضج والرشد من هذه الناحية بدرجات متفاوتة ، أما الذين يعجزون عن بلوغ ذلك فيبقون رواسب غير مذابة للانسانية الفجة فى المجتمع الصناعى الحديث ، ولفشل عملية التكيف الانتخابى التى تؤدى الى زيادة الكفاية الصناعية وكمال الحياة فى المجتمع .

ويظهر عدم الاكتمال فى التطور الخلقى المشار اليه لا باشتراك البالغين جديا فى الأعمال الصبيانية العدوانية فحسب بل وفى معاونة البالغين للصبيان على تلك الأعمال وتحريضهم عليها . وبذلك يساعد على تكوين عادات الشراسة التى قد تبقى حية فى الأطوار المتأخرة من حياة الجيل الناشىء وبذلك يقف حجر عثرة فى سبيل أية حركة تهدف الى خلق طباع أكثر هدوءا ونفعا فى المجتمع . فاذا كان الانسان ذو الميول العدوانية فى مركز يؤهله لتوجيه تطور العادات لدى المراهقين فى المجتمع فان أثره

فى المحافظة على صفات الجراة والارتداد اليها قد يكون عظيما جدا . وهذا يضفى أهمية مثلا على الرعاية التامةالتى يسبغها كثير من القسيسين وغيرهم من دعامات المجتمع على « منظمات الشباب » وما يماثلها من المنظمات الشبيهة بالحربية . وينطبق هذا على تشجيع نمو « الروح الجامعية » وألعاب القوى الجامعية وماشابهها فى معاهد العلم العليا .

وتنطوى مظاهر الطباع العدوانية هذه تحت لواء أعمال الشراسة . وبعضها تعبيرات بسيطة غير متعمدة للنزعات العدوانية التى يتباهى بها البعض وبعضها أعمال متعمدة يهدف صاحبها من جرائها الى أن يشتهر بالبسالة . وينطبق هذا الوصف على كل أنواع الألعاب الرياضية ـ التى تشتمل على الملاكمة ومصارعة الثيران والعاب القوى والصيد وسباق الزوارق والعاب المهارة ـ حتى لو لم يدخل فيها عنصر القوة البدنية . ولقد أخرج الانسان بمهارته الألعاب الرياضية من نطاق الأعمال العدوانية الى أعمال تقوم على المكر والخديعة . وسبب الانهماك فى الألعاب الرياضية التكوين الروحى القديم أى تمكن نزعة المباهاة العدوانية فى الانسان بدرجة كبيرة نسبيا . ويظهر الميل الشديد للمغامرة واصابة الغير بالضرر بصفة خاصة فى تلك الأعمال التى تسمى عادة بالألعاب الرياضية .

ولربما كان أصح ، أو على الأقل أكثر وضوحا ، أن الألعاب الرياضية تبين ـ أكثر من التعبيرات الأخرى عن المباهاة العدوانية ـ أن الطباع التى تدفع الناس اليها هى فى جوهرها طباع صبيانية . ولذلك يدل الانهماك فى الألعاب الرياضية الى حد غير مألوف على عدم اكتمال التطور فى طبيعة الانسان الخلقية . وسرعان مايرى الانسان هذا الخلق الصبيانى الغريب فى الرياضيين اذا ماوجه انتباهه الى مايبدونه فى نشاطهم الرياضى من حب التظاهر . ويشترك مع الألعاب الرياضية فى حب التظاهر الألعاب والأعمال التى يميل اليها الأطفال عادة وبخاصة الأولاد . وحب التظاهر لايكون بدرجة واحدة فى كل الألعاب الرياضية . وهو واضح فى الألعاب الرياضية الأصلية وفى مباريات العاب القوى بدرجة اكبر مما هو فى العاب المهارة التى يقوم بها اللاعبون وهم جالسون . ولو أن هذه القاعدة قد لاتنطبق عليها كلها بدرجة واحدة . اذ يلاحظ مثلا أنه حتى الرجال الوديعون العمليون الذين يخرجون للصيد يميلون الى أخذ مقدار من الأسلحة والمهمات يزيد على اللازم ليوهموا أنفسهم بخطورة عملهم . ويميل أيضا هؤلاء الصيادون الى الاختيال والتبختر فى مشيتهم والى شدة المبالغة فى الحركات التى يتطلبها الصيد ، سواء أكانت للانسحاب أم الهجوم . وكذلك يوجد فى الألعاب الرياضية دائما قدر من الاختيال والتبختر والتظاهر وهى ما تبين الخصائص المسرحية لهذه الأعمال . وبهذه المناسبة فان الألفاظ والتعبيرات المستعملة فى

المسابقات الرياضية هى الى حد كبير تعبيرات حربية مستمدة من المصطلحات الفنية الحربية . واستعمال مصطلحات خاصة فى اى عمل ربما يقوم دليلا على أن هذا العمل يقوم على التظاهر الكاذب اللهم الا اذا كان استعمال هذه المصطلحات ضروريا لسرية الأعلام .

وهناك خاصية أخرى تختلف بها الألعاب الرياضية عن المبارزات وما يماثلها من أعمال الشغب ، هى أنها تسمح بالقول بأن بواعث أخرى خلاف النزعة الى أعمال العنف والعدوان هى التى تدفع اليها. واذا كان هناك أى باعث آخر فى حالة معينة فمن المحتمل أن يكون ضئيلا الا ان الأسباب الأخرى التى تبرر الانكباب على الألعاب الرياضية تكون أحيانا فى الحقيقة اسبابا مساعدة . ولقد اعتاد الرياضيون ـ الصيادون على اختلاف أنواعهم ـ الى حد ما، القول بأن الباعث على هوايتهم المفضلة هو حب الطبيعة والحاجة الى تجديد النشاط وما شابه ذلك . ولا ريب ان هذه البواعث مألوفة وأنها تضفى شيئا من الاغراء على الحياة الرياضية الا أنها ليست البواعث الأساسية. اذ أن من الممكن سد هذه المطالب الصورية دون بذل الجهود المنظمة للقضاء على حياة تلك المخلوقات التى هى احدى الخصائص الأساسية لتلك الطبيعة التى يحبها الرياضيون . وفى الواقع أن أعظم أثر ملحوظ لنشاط الرياضيين هو اقفار الطبيعة تماما نتيجة لقتلهم كل مايستطيعون من الكائنات الحية .

ومع ذلك فهناك أساس لادعاء الرياضيين بأن أفضل السبل لسد حاجتهم الى تجديد النشاط والاتصال بالطبيعة فى ظل التقاليد القائمة هو السبيل الذى يسلكونه . فلقد فرض الاقتداء بالطبقة المترفة ذات الطباع العدوانية فيما مضى بعض قواعد التربية الصالحة ، ثم تمسك بها ممثلو تلك الطبقة تمسكا تاما . وهذه القواعد لا تسمح لهم ـ من غير لوم ـ بالعمل على الاتصال بالطبيعة بوسائل أخرى . وقد تغير وضع الألعاب الرياضية من عمل شريف موروث عن الثقافة العدوانية يعتبر أرقى أنواع العمل لسد أوقات الفروغ اليومى فأصبحت النوع الوحيد للنشاط الذى يمارس فى الخلاء ويتفق والتقاليد الاجتماعية . ولذلك فقد تكون الحاجة الى تجديد النشاط والحياة الخلوية من البواعث المباشرة على الصيد فى البر والبحر . وهناك سبب غير مباشر يحتم العمل على تحقيق هذه الأغراض فى ظل تلك المجزرة المنظمة وهو أمر لايمكن مخالفته الا على حساب السمعة وما يتبع ذلك من تحقير .

وينطبق ذلك الوصف الى حد ما على أنواع أخرى من الألعاب الرياضية وأحسن مثل لها ألعاب القوى . فان لها أيضا طرائقها المقررة التى تحدد الوانها وطرق ممارستها وكيفية ترويحها عن النفس وفق دستور الحياة المحترمة . ويقول الممارسون لألعاب القوى والمعجبون بها انها أفضل وسيلة

ممكنة لتجديد النشاط و « التربية البدنية » • والعادات المكتسبة تؤيد هذا القول • ودستور الحياة المحترمة يقصى من أسلوب الحياة لدى الطبقة المترفة كل نشاط لايصطبغ بصبغة الفراغ الواضح • ولذلك فانه يميل بمرور الزمن الى اقصائه أيضا من أسلوب الحياة فى المجتمع بصفة عامة . ومع ذلك فالاجهاد الجسمانى بلا هدف ممل وغير مستساغ الى حد لا يطاق. وفى هذه الحالة يستعان – كما شوهد فى مناسبة سابقة – بلون من النشاط له فى الظاهر على الأقل غرض حسن حتى ولو كان هذا الغرض مجرد ادعاء كاذب • والألعاب الرياضية تفى بهذه الحاجات عديمة الجدوى وتضفى عليها غرضا حسنا فى الظاهر • ثم أنها تهيىء مجالا للمباهاة ، ولذلك فهى جذابة .. ولكى تكون الأعمال محترمة يجب أن تمتثل لقانون الطبقة المترفة فى الاسراف ، الا أنه لكى تكون الأعمال تعبيرا عاديا ولو الى حد ما عن مطالب الحياة ، يجب أن تمتثل لقانون البشرية العام بحيث تكفى لتحقيق غرض مفيد • ويتطلب النظام الذى تسير عليه الطبقة المترفة العبث الشديد الشامل • أما طبيعة المهارة فتتطلب أن يكون العمل هادفا • وقانون الآداب الاجتماعية لدى الطبقة المترفة يعمل ببطء وشدة ، عن طريق عملية الانتخاب – على اقصاء كل طرق العمل المفيدة أو الهادفة ، من الأسلوب السائد فى الحياة . اما غريزة المهارة فتندفع الى العمل من تلقاء نفسها ، وقد ترضى – الى حين – بهدف قريب • والعقل يجهل الأعمال غير المجدية لأنها تخالف تماما الاتجاه الهادف العادى لعملية الحياة ، ولأنها تعوقه وتزعجه •

وعادات المرء فى التفكير تكون العقل الذى يتجه دائما نحو الأعمال المفيدة فى الحياة • والعقل سرعان ماينفر من أية محاولة لجعله يستسيغ سياسة الاسراف والعبث كفاية من غايات الحياة . الا أن من الممكن تحاشى هذا النفور بقصر الاهتمام على الغرض المباشر من الجهود التى تبذل للدلالة على المهارة أو للتباهى • فالألعاب الرياضية – كالصيد فى البر والبحر وألعاب القوى وما شابهها – تهيىء الفرصة لاظهار المهارة والتباهى بالقوة والدهاء ، تلكم الصفات التى تتميز بها الحياة العدوانية • وطالما أن للمرء القدرة ولو الى حد ضئيل على التفكير ومعرفة الهدف من أعماله ، وطالما أن حياته تقوم على الدوافع البسيطة فان الهدف المباشر والحقيقى من الألعاب الرياضية وهو اظهار التفوق سيشبع فيه الى حد ما غريزة العمل ، وهذا حقيقى بصفة خاصة اذا كانت الدوافع المسيطرة هى نزعات التباهى الفطرية فى الطباع العدوانية • ومع ذلك فقوانين الآداب الاجتماعية تغريه بممارسة الألعاب الرياضية كتعبير عن حياة لا غبار عليها من الوجهة المالية • ولكى يأخذ أى عمل معلوم مكانته كوسيلة تقليدية معتادة من وسائل الترويح اللائق لا بد من التوفيق بين التبذير الشديد والهدف

المباشر . واذا استحال من الوجهة الأدبية على الأفراد ذوى التربية الحسنة والحس الرقيق أن يمارسوا الوانا أخرى للترويح والرياضة فان الألعاب الرياضية تكون أحسن وسيلة ممكنة فى الظروف الحاضرة .

الا أن أعضاء المجتمع المحترم الذين يدافعون عن الألعاب الرياضية يبررون عادة موقفهم أمام أنفسهم وأمام جيرانهم بحجة أن تلك الألعاب وسيلة قيمة للنمو الى حد بعيد ، فهى لا تحسن أجسام المتبارزين فحسب بل انها عادة تنمى روح الرجولة فيهم وفى المشاهدين . وكرة القدم بالذات هى اللعبة التى ربما ستخطر على بال أى فرد فى هذا المجتمع عندما تثار مسألة فائدة الألعاب الرياضية ، لأن هذا النوع من العاب القوى يشغل أسمى مكان فى عقل الذين يدافعون عن الألعاب أو يهاجمونها كوسيلة للخلاص الجسمانى أو الخلقى . ولذلك فهذه اللعبة النموذجية للألعاب الرياضية قد تستخدم لبيان علاقة الألعاب الرياضية بنمو لاعبيها جسما وخلقا . ولقد قيل بحق ان علاقة كرة القدم بالتربية البدنية تشبه كثيرا علاقة مصارعة الثيران بالزراعة . ولكى تكون هذه الألعاب مفيدة لا بد من التدريب المستمر . واللاعب سواء أكان انسانا أم حيوانا يخضع لانتخاب دقيق ونظام معين لصيانة وتقوية بعض الاستعدادات والنزعات التى تتميز بها الحالة العدوانية والتى تأخذ فى الاضمحلال فى حالة الاستئناس . وليس معنى ذلك أن النتيجة فى أية حال من الحالين هى رجوع كلى لعادات العقل والجسم العدوانية أو البربرية ، وانما هى رجوع من ناحية واحدة الى البربرية أو الحالة الطبيعية الوحشية - رجوع الى تلك الصفات العدوانية وتقويتها ، تلك الصفات التى تؤدى الى التلف والدمار بدون تنمية مماثلة للصفات التى تساعد المرء على المحافظة على ذاته وعلى اكتمال حياته فى بيئة وحشية . والتدريب الذى يتوفر فى كرة القدم يؤدى الى التوحش والدهاء فهو رجوع الى الطباع البربرية الأولى مع كبت تلك الصفات التى تتكافأ - من وجهة نظر الضرورات الاجتماعية والاقتصادية - مع الأخلاق الوحشية .

والقوة البدنية التى تكتسب من التدريب على العاب القوى - حسب ما يقال عن نتائج التدريب - تفيد الفرد والمجتمع من الناحية الاقتصادية . والصفات الروحية التى تلائم العاب القوى تفيد الفرد كذلك من الناحية الاقتصادية ولكنها لاتفيد المجتمع . وهذا ينطبق على أى مجتمع يتصف أفراده الى حد ما بهذه الصفات . والمنافسة فى هذه الأيام هى الى حد كبير عملية اعتداد بالنفس على أساس هذه الصفات ذات الطابع العدوانى والتحلى - الى حد ما بهذه الصفات بالصور الزائفة التى تدخل بها المنافسة المسالمة فى العصر الحديث غالبا مايكون ضرورة من ضرورات الحياة لدى

الانسان المتحضر ، ولكن مع أنها ضرورية للانسان فى منافسته للغير الا أنها لاتفيد المجتمع مباشرة • ومن ناحية قدرة الفرد على أداء الخدمات من أجل تحقيق أهداف الحياة الجماعية فان القدرة على المنافسة - اذا كان لها فائدة - لاتفيد الا بطريقة غير مباشرة • فالشراسة والدهاء لافائدة منهما للمجتمع اللهم الا فى الأعمال العدوانية مع المجتمعات الأخرى ، والانسان لايستفيد منهما الا لأن عددا كبيرا من هذه الصفات يعمل فى البيئة البشرية التى يتعامل معها • وان رجلا يدخل صراع المنافسة ولا يكون مسلحا بهذه الصفات لا بد أن يخسر ، ومثله الى حد ما كمثل ثور عديم القرون وسط قطيع من الماشية ذات القرون ، لا يستطيع العيش معها •

وقد يكون من المرغوب فيه الاتصاف بالطباع العدوانية وغرسها فى النفوس لأسباب أخرى غير اقتصادية • فالميل شديد من الناحية الجمالية أو الخلقية للنزعات البربرية كما أن الصفات المشار اليها تعمل بجد على تدعيم هذا الميل حتىأن فائدتها من الناحية الجمالية أو الخلقية قد توازن عدم فائدتها الاقتصادية.ولكن ذلك البحث يخرج عن موضوعنا الحالىفاننا لا نتحدث هنا عن الحاجة الى الألعاب الرياضية أو ملاءمتها بصفة عامة أو عن قيمتها فى النواحى غير الاقتصادية •

والحياة الرياضية فى مفهوم سواد الناس تنشىء نوعا من الرجولة فيه كثير من الصفات البديعة ، ويسودها الاعتماد على النفس وحسن معاملة الزملاء الى أقصى حد • على أن هذه الصفات نفسها قد تبدو من وجهة نظر أخرى وحشية وقبلية • وسبب استحسان الناس لهذه الصفات الرجولية والاعجاب تها وسميتها بالرجولة هو نفس سبب فائدتها للانسان . فأعضاء المجتمع ، وبخاصة هؤلاء الذين يحددون قواعد الذوق - يتصفون بهذه الصفات الى درجة تجعلهم يعتبرون أن المجردين منها ناقصون وان المتصفين بها الى حد غير مألوف جديرون بكل تقدير • ومازالت طباع الانسان العدوانى كامنة فى عامة الناس المتحضرين ومن الممكن اظهارها فى صورة واضحة فى أى وقت وذلك باثارة الميول التى تظهرها ، مالم يتعارض ذلك مع أعمالنا ومصالحنا • وقد تحرر سواد الناس فى المجتمع الصناعى - من الوجهة الاقتصادية - من هذه النزعات الشرسة اذ أنها استقرت فى العقل الباطن نتيجة للاقلاع الجزئى والمؤقت عنها وتبقى هذه الصفات على أهبة الاستعداد - ولكن بدرجات متفاوتة فى مختلف الأفراد - للاستجابة لأى باعث يثيرها بشدة أقوى من الاثارة اليومية المعتادة ، فتؤدى الى القيام بالأعمال والميول العدوانية • وتظهر هذه الميول بعنف عندما لا يتدخل عمل غريب عن الثقافة العدوانية فيشغل الانسان ويؤثر على رغبات الفرد وميوله

وهذا هو الحال بين أفراد الطبقة المترفة واتباعهم • ومن ثم كانت السهولة التى بها يزاول الأعضاء الجدد فى تلك الطبقة الألعاب الرياضية ، ومن ثم كان النمو السريع للألعاب الرياضية والميول الرياضية فى أى مجتمع صناعى تكاثر فيه المال الى حد يكفى لاعفاء جزء كبير من الناس من العمل •

وهناك حقيقة بسـيطة ومألوفة يمكن ذكرها للدلالة على أن الدافع العدوانى لا ينتشر بدرجة واحدة فى كل الطبقات • فعادة حمل عصـا فى المشى لمجرد اعتبارها أحد ملامح الحياة العصرية قد تبدو شيئا صغيرا تافها ، الا أن لها أهمية فى موضوع البحث • والطبقات التى تنتشر بينهـا هـذه العادة - الطبقات التى يذكرها الناس عند ذكر العصا - هى رجال الطبقة المترفة الأصلية والرياضيون ومنحرفو الطبقة الدنيا • ومن الممكن أن يضاف اليهم الرجال الذين يشتغلون فى الأعمال المالية • ولا ينطبق ذلك على سواد الناس الذين يشتغلون فى الصناعة • ويلاحظ بهذه المناسبة أن النسـاء لا يحملن عصيا الا فى حالة العجز حيث تكون لها فائدة من نوع آخر • ولا شك أن حمل العصا عادة طيبة الى حد كبير ، الا أن أساس العادات المهذبة يرجع الى نزعات تلك الطبقة التى تسير وفق العادات المهذبة • والعصـا تعلن عن أن يدى حاملها تعملان فيما لا يستدعى جهـدا مثمرا ، ولذلك ففائدتها أنها دليل على الفراغ • ولكنها أيضا سلاح يفى بحـاجة الانسان الهمجى عند الضرورة • وفى استعمال هذه الوسيلة الملموسة والبدائية للاعتداء على الغير سلوى لأى انسان ذى طبائع وحشية ولو بدرجة متوسطة•

ومقتضيات اللغة تجعـل من المستحيل تجنب اظهار استنكارنا للاستعدادات والنزعات وأساليب الحياة موضوع البحث . ومع ذلك فليس الغرض امتداح أى من هذه النواحى فى الأخلاق او فى مجرى الحيـاة أو استهجانها • فالعناصر المختلفة فى الطبيعة البشرية السائدة يجب أن تبحث من وجهة النظر الاقتصادية ، والصفات تقيم وترتب على حسب صلتهـا الاقتصادية المباشرة بسهولة سير الأمور فى الحياة الجماعية ، أى أن هذه الظواهر الطبيعية تبحث من وجهة النظر الاقتصادية وتقيم من ناحية أثرها المباشر فى تسهيل أو تعويق التوفيق التام بين الناس والبيئة وبينهم وبين النظم الأساسية التى تتطلبها الحالة الاقتصادية للحياة الجماعية فى الزمن الحاضر والمستقبل القريب • والصفات التى ورثت عن الثقـافة العدوانية قليلة النفع من ناحية هذه الأغراض ، ولو أنه حتى فى هذه المناسبة لا يصح أن نغفل أن عناد الانسان العدوانى وميله الشديد للعدوان تراث له قيمته • وتناقش القيمة الاقتصادية - مع أخذ القيمة الاجتماعية بمعناها الضيق فى الحسبان - لهذه الميول والاستعدادات للحكم عليها دون محاولة لتقييمهـا

من وجهة نظر أخرى . وعندما تقارن هذه الصفات المتخلفة من العصور البدائية الأولى عن معنى الرجولة - عندما تقارن هذه بأسلوب الحياة الصناعى الحديث العادى والعملى ، وعندما تقيم على أساس المستويات المقررة للأخلاق وعلى وجه الخصوص بمستويات الجمال والنظم ، فقد يصبح لهذه الصفات قيمة تختلف كثيرا عما ذكر . ولكن نظرا لأن كل هذا خارج عن الموضوع فلن نبدى الآن رأيا فى هذه النقطة الأخيرة . وكل ما يجوز قوله هو الفات الأنظار الى وجوب عدم السماح لهذه المستويات الرفيعة التى لاتمت بصلة الى الغرض الحالى ، بالتأثير فى تقديرنا الاقتصادى لهذه الصفات الخلقية وللأعمال التى تعينها على النمو . وهذا ينطبق على الأشخاص الذين يمارسون فعلا الألعاب الرياضية والأشخاص الذين لا تتجاوز خبرتهم الرياضية مجرد المشاهدة . وما يقال هنا عن الميول الرياضية يمكن أن يقال كذلك عن النقد الكثير الذى يوجه حاليا الى مايعرف بالحياة الدينية .

والفقرة الأخيرة تلمس بايجاز حقيقة أن الحديث اليومى عن هذا النوع من الاستعدادات والأعمال يندر الا يتضمن استنكارا أو دفاعا عنها . وهذه الحقيقة هامة لأنها تبين الاتجاه المألوف للرجل العادى المنصف نحو النزعات التى تعبر عن نفسها بالألعاب الرياضية والأعمال البطولية بصفة عامة . ولربما يكون هذا هو المكان المناسب لمناقشة ذلك الصوت الخافت المستنكر الذى ينساب فى كل المناقشات الكثيرة المدافعة او الممجدة لألعاب القوى وغيرها من أنواع النشاط الأخرى التى تتسم بالطابع العدوانى . وقد لوحظ أن نفس الاتجاه الاعتذارى الذى يسود بالنسبة للألعاب الرياضية يسود أيضا بالنسبة للمدافعين عن معظم النظم الأخرى الموروثة عن الطور البربرى . ومن هذه النظم القديمة التى تحتاج الى الدفاع عنها ، النظام الحالى لتوزيع الثروة وما ينجم عنه من الفوارق الطبقية والفروق فى المراكز الاجتماعية ، وكل أو جل صور الاستهلاك التى تنطوى تحت اسم الاسراف المظهرى ، ومركز النساء فى ظل نظام الأبوة ، وكثير من ملامح المعتقدات التقليدية والشعائر الدينية وبخاصة التعبيرات المألوفة عن العقيدة ، والادراك الساذج للشعائر الدينية . ولذلك فان مايقال عن الألعاب الرياضية والخلق الرياضى على سبيل امتداحها سيقال - مع تغيير مناسب فى الأسلوب - دفاعا عن تلك الأنظمة الأخرى التى يقوم عليها تراثنا الاجتماعى .

وهناك شعور - غامض فى العادة ولا يجاهر به المدافعون ولكن من الممكن لمسه فى طريقة حديثهم - بأن هذه الألعاب الرياضية ، وكذلك الدوافع وعادات الفكر العدوانية التى تكمن وراء الخلق الرياضى لايستسيغها الادراك السليم . والقول المأثور « بأنها صفات سيئة جدا فى نظر غالبية القتلة ،

ليتضمن تقويما للطباع العدوانية والآثار التهذيبية الناتجة عن التعبير العلنى عنها واستخدامها من وجهة نظر رجال الأخلاق وهو تعبير عن رأى الرجل العاقل البالغ عن مدى وجود الصفات العدوانية ومد ىامكان الانتفاع بها فى أغراض الحياة الجماعية • ومن المفهوم أن هذا التوجيه هو ضد اى نشاط يتضمن التطبع بالأخلاق العدوانية وان عبء اثبات نفعها يقع على كاهل المدافعين عن الرجوع الى الطباع العدوانية وعن الأعمال التى تقويها • وفى المجتمع عدد كبير من الناس يمتدحون الألعاب الرياضية والمغامرات ويشجعونها ، الا أن فيه مع ذلك شعورا عاما بأنها فى حاجة الى سند يدل على فائدتها . وهذا الدليل المطلوب يأتى عادة من اثبات أن الألعاب الرياضية رغم أنها فى جوهرها ذات اثر عدوانى ضار بالمجتمع ، ورغم أنها تعمل على الرجوع الى النزعات الضارة بالصناعة الا أنها بطريقة غير مباشرة وبعيدة — أى بطريقة غير مفهومة كالاستقطاب ، او عن طريق اثارة رد فعل — تعمل على نمو الطباع المفيدة للاغراض الاجتماعية او الصناعية •• ومعنى ذلك أن الألعاب الرياضية ولو أنها تقوم على العنف وتثير البغضاء الا انه يظن أنها بأثرها الغامض البعيد تنمى الطباع التى لاتبعث على البغضاء. وعادة مايحاول المدافعون عنها اثبات ذلك بما لديهم من خبرات ، أو على الأصح الادعاء بأن هذا هو الرأى الناتج عن الخبرة وأنه لابد أن يكون واضحا لكل من يهمه الأمر • ولاقامة الدليل على صحة ذلك نجدهم يحسنون تجنب الأساس الواهى الذى يبنى عليه الاستنتاج من العلة الى المعلول ، اللهم الا فيما يثبت أن الألعاب الرياضبة تنمى « فضائل الرجولة » التى سبق ذكرها • ولكن لما كانت فضائل الرجولة يعوزها السند على اهميتها من الناحية الاقتصادية فان سلسلة البراهين تنتهى حيث يجب أن تبدأ • وهذا الاعتذار فى نظر رجال الاقتصاد عبارة عن محاولة لاثبات — رغم منطق الموضوع — أن الألعاب الرياضية تعمل فى الحقيقة على النهوض بما قد يسمى صراحة بالمهارة . وطالما أن المدافعين عن الألعاب الرياضية لم ينجحوا فى اقناع أنفسهم أو غيرهم بصحة هذا المنطق فانه لن يهدأ لهم بال ، ويجب التسليم بأنهم فى الغالب لن يهدأ لهم بال • وعادة مايظهر عدم اقتناعهم بدفاعهم فى لهجتهم العنيفة وفى تحمسهم لجمع الأدلة التى تعزز مركزهم •

ولكن لماذا تحتاج الألعاب الرياضية الى الدفاع عنها ؟ واذا كان عدد كثير من الناس فى المجتمع يميلون اليها ويشجعون على ممارستها أفلا يكون ذلك دليلا كافيا على فائدتها ؟ ولقد نقل التدريب الطويل الذى تلقاه الناس على أعمال الجراة فى طور الثقافة العدوانية وشبه المسالمة ، الى الاجيال الحاضرة طباعا تجد فى هذه التعبيرات عن العنف والدهاء اشباعا لنزعاتها • ولذلك فلماذا لا تقبل هذه الألعاب الرياضية على أنها تعبيرات مناسبة عن

الطبيعة البشرية الصحيحة العادية ؟ ما هو النمط الآخر الذى يجب أن يلتزم الناس باتباعه فى حياتهم ، غير ذلك الذى يحدد مجموع الميول والغرائز العديدة التى تعبر عن نفسها فى عواطف هذا الجيل بما فى ذلك أعمال الجراة المتوارثة ؟ ان النمط الحقيقى الذى يستهوى النفوس هو غريزة المهارة ، وهو غريزة أساسية وقديمة أكثر من النزعة الى المباهاة العدوانية • وما النزعة الى المباهاة الا تطور خاص لغريزة المهارة حدث متأخرا نسبيا رغم مرور زمن طويل جدا منذ حدوث ذلك • وهذه النزعة العدوانية الى المباهاة أو كما قد تسمى غريزة حب الألعاب الرياضية ، ليست بالضرورة متغيرة اذا ماقورنت بغريزة المهارة الأصلية التى تطورت منها وتفرعت عنها • واذا قومت نزعة المباهاة العدوانية على ضوء هذا المعيار السلوكى للحياة فان المباهاة العدوانية ، ومن ثم الألعاب الرياضية ، لن تجد لها سندا يبررها •

والطرق والاجراءات التى تتبعها الطبقة المترفة للمحافظة على الألعاب الرياضية والاعمال العنيفة التى تثير البغضاء لايمكن تناولها بايجاز • ومما سبق بيانه يظهر ان الطبقة المترفة بعواطفها وميولها أكثرميلا للنزعات الحربية من الطبقات الصناعية • ويبدو ان هذا ينطبق على الالعاب الرياضية كذلك • الا ان تأثير تلك الطبقة فى الميول السائدة نحو الالعاب الرياضية يتم بطريق غير مباشر عن طريق التكريم وتزيين الحياة ، ويعمل هذا الأثر غير المباشر بطريقة واضحة على بقاء العادات والطباع العدوانية • وهذا صحيح حتى بالنسبة لأنواع الرياضة التى تحول قوانين اللياقة بين الطبقة العليا المترفة وبين مزاولتها ، مثل الملاكمة ، ومصارعة الديوك وغيرهما من صور التعبير السوقية عن الطباع الرياضية • وبغض النظر عما تتضمنه البيانات المعتمدة عن الآداب الواجب مراعاتها بواسطة تلك الطبقة فان قوانين اللياقة التى تسير عليها تمتدح فيها المباهاة والتبذير بطريقة لا لبس فيها ، وتذم عكسهما • تلك القوانين لاتفهم بالسهولة المرغوب فيها نظرا للفوارق بين الطبقات الاجتماعية ولذلك فانها تطبق بدون تفكير الى حد ما وبقليل من الشك فى مدى ملاءمتها أو المواضع التى أجيزت فيها على سبيل الاستثناء •

والانكباب على ألعاب القوى — لا ممارستها الفعلية فحسب بل وتشجيعها أدبيا — هو الى حد ما من مميزات الطبقة المترفة ، وهى تشترك فى ذلك مع منحرفى الطبقة الدنيا ومع تلك العناصر الرجعية فى المجتمع ذات الميول العدوانية المسيطرة • وقليل من الناس فى البلاد الغربية المتحضرة يتجردون من الغريزة العدوانية ولا يجدون أية متعة فى مشاهدة الألعاب الرياضية وألعاب القوى • على أنه مع انضمام عامة الناس الى الطبقات الصناعية فان

الميل الى الألعاب الرياضية ليس قويا الى الحد الذى يخلق مايسمى بحق العادة الرياضية • فالألعاب الرياضية فى نظر هذه الطبقات تسلية عرضية وليست من الملامح الجدية للحياة • ولذلك لايمكن ان يقال ان هؤلاء الناس يغرسون النزعة الرياضية • ومع أنهـا لم تصبح أمرا منسيا لدى الأفراد العـاديين منهم ، أو حتى لدى عدد كبير من الأفراد ، الا أن الميل الى الألعاب الرياضية فى الطبقات الصناعية العادية لايزيد عن ذكريات تبدو فى صـورة اهتمام عرضى اكثر منها اهتماما حيويا ودائما له اهميته فى تشكيل المركب العضوى لعادات التفكير التى تتعلق بها .

وهذه النزعة ـ كما تظهر فى الحياة الرياضية فى هذه الأيام ـ ليست عاملا اقتصاديا ذا قيمة . وهى بمفردها عديمة الأهمية الى حد كبير فيما يتعلق بآثارها المباشرة على كفاية المرء الصناعية أو استهلاكه ، الا ان انتشار ونمو ذلك النوع من الطبيعة البشرية الذى من خصائصه هذه النزعة له بعض الأهمية ، اذ هى تؤثر فى حياة المجتمع الاقتصادية من ناحية سرعة التطـور الاقتصادى وطابع النتائج المترتبة على هذا التطور • وفى كل الظـروف والأحوال فان سيطرة هذا النوع من الخلق على عادات التفكير المنتشرة بين الناس لا يمكن الا أن تؤثر بدرجة كبيرة فى مدى واتجـاه ومستويات ومثل الحياة الاقتصادية للجماعة وكذلك فى درجة تلاؤم حياة الجماعة مع البيئة •

ويمكن ان نقـول نفس الشىء على بعض الصـفات الاخرى التى تكون الخلق البربرى . ويمكن اعتبار هذه الصفات البربرية الاخرى ، من وجهة نظر النظرية الاقتصادية صفات ملازمة للطباع الوحشـية التى تعبر عنهـا الجرأة • وهى الى حد ما ليست ذات أهمية كبيرة من الناحية الاقتصـادية ولا علاقة لها مباشرة بالأمور الاقتصادية ، ولكنها تصلح للدلالة على مرحلة التطور الاقتصادى التى يكيف الانسان الحائز لهذه الصفات نفسه لها ولذلك فهى ذات أهمية من حيث أنها اختبارات اضافية لدرجة مواءمة الفرد المتصف بها للضرورات الاقتصادية فى هذه الايام ، ولكنها ايضا ذات أهمية الى حد ما بصفتها استعدادات تعمل على زيادة أو نقص قدرة الفرد على أداء الخدمات الاقتصادية •

واذا وجدت الجرأة المجال للتعبير عن نفسها فى حياة الانسان البربرى فانها تتخذ لذلك وسيلتين هامتين : القوة والخداع • وهاتان الوسـيلتان متبعتان أيضا بدرجات متفاوتة فى الأعمال الحربية الحديثة وفى الأعمـال المالية وفى الألعاب الرياضية • والحياة الرياضية والحياة التنافسية بصورها

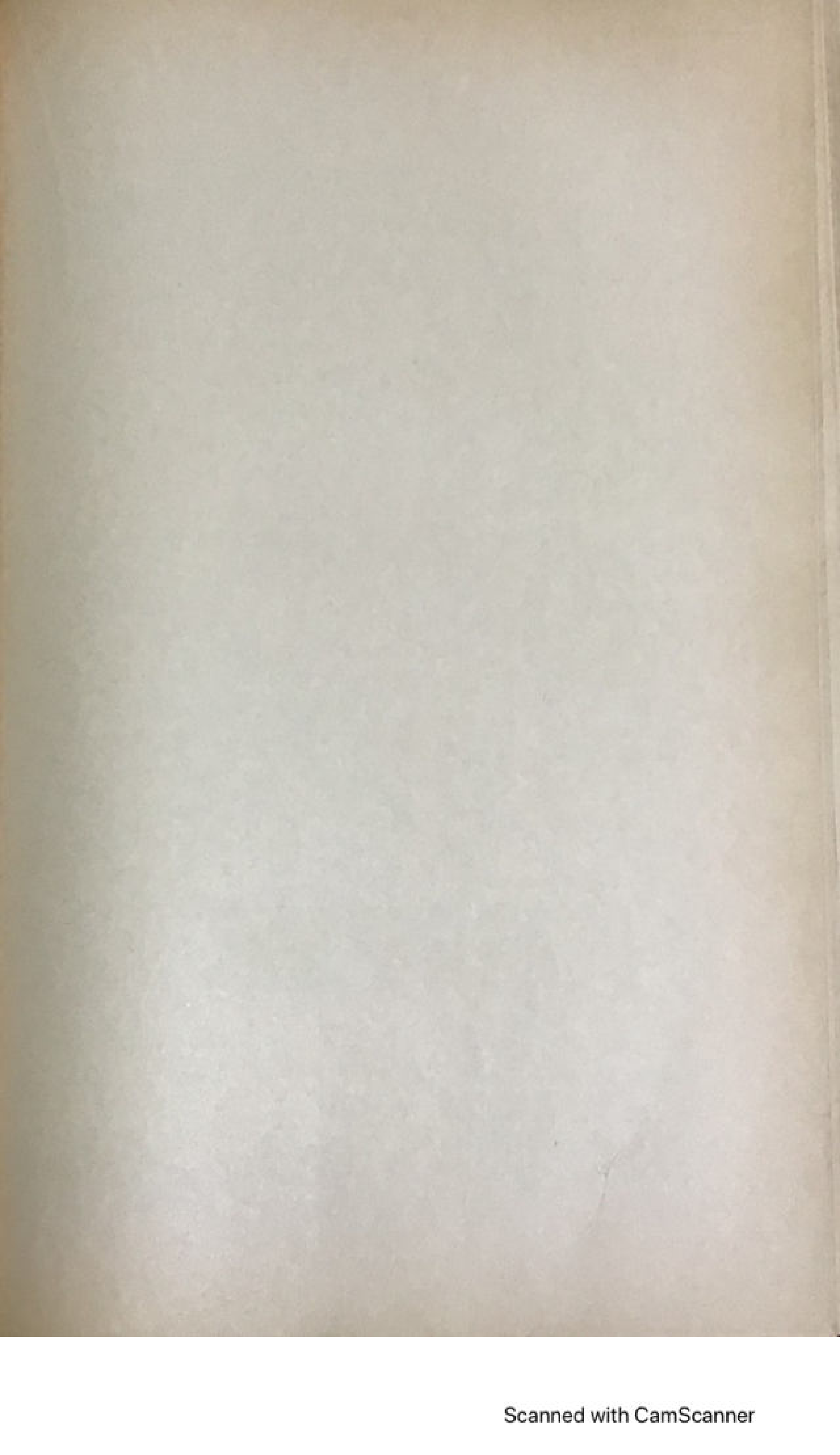
الأكثر جدية تفرس الصفات اللازمة لذلك وتقويها. والاستراتيجية أو الدهاء عنصر لابد منه على الدوام فى الألعاب الرياضية كما لابد منه فى الأعمال الحربية والصيد • وفى كل هذه الأعمال تصبح الاستراتيجية عبارة عن مكر وخداع • فللخداع والكذب والتخويف شأن عظيم فى المصارعة والملاكمة وفى المباريات الرياضية بصفة عامة • ومهمة الحكم العادية والنظم الفنية الدقيقة التى تحكم حدود ودقائق الغش الجائز والاستفادة من التلاعب تكفى لاثبات حقيقة أن الأعمال والمحاولات الاحتيالية للتغلب على الخصم ليست ملامح عرضية للالعاب ولابد بالطبع أن يؤدى التعود على الألعاب الرياضية الى زيادة نمو الاستعداد للاحتيال •وان انتشار ذلك الخلق العدوانى الذى يرغب الناس فى الألعاب الرياضية ليدل على انتشار عدم الذمة وعدم المبالاة التام بمصالح الغير بين الأفراد والجماعات . وان الالتجاء الى الخداع فى أية صورة وبمقتضى أى سند من القانون او العادة ، لهو تعبير عن أنانية ضيقة • ولسنا فى حاجة الى الاسهاب فى القيمة الاقتصادية لهذه النقطة من الخلق الرياضى •

ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن أجلى صفة يتميز بها الملاكمون والمصارعون وغيرهم من الرياضيين هى الدهاء المتناهى • ولا تقل أعمال يوليسيس العظيمة شهرة عن أعمال أخيل سواء فى مناصرتها الجوهرية للالعاب الرياضية أو فى الشهرة التى تضفيها على رجل الألعاب الرياضية الداهية بين أقرانه • وعادة مايكون تمثيل دور الدهاء فى صمت هو اول خطوة يقوم بها الشبان تشبها بالرياضيين المحترفين اثر حصولهم على شهادة التخرج من أية مدرسة محترمة ثانوية أو عالية حسب الظروف • وصفة الدهاء ـ كمظهر زخرفى ـ تسترعى انتباه أولئك الذين يعنون جديا بالمصارعة والملاكمة والسباق وغيرها من أنواع المباريات المماثلة التى تتصف بطابع المنافسة • ومن الممكن الاشارة ـ كدليل آخر على مابينها من صلة روحية ـ الى أن أعضاء الطبقة الدنيا المنحرفة يظهرون هذا الدهاء بدرجة ملحوظة وعادة مايبالغون فى ذلك الى الحد الذى يشاهد غالبا لدى المتفوقين فى العاب القوى من الشباب • وبهذه المناسبة فان ذلك أوضح دليل على مايسميه عامة الناس « بالخشونة » فى الشباب المتطلع الى السمعة السيئة •

ويلاحظ أن الرجل الداهية ليس له أية قيمة اقتصادية فى المجتمع الا فيما يختص بالتعامل مع المجتمعات الأخرى • وعمله لايؤدى الى النهوض بالحياة . وهو فى افضل صورة ، وفى علاقته المباشرة بالامور الاقتصادية ، عبارة عن تحويل المادة الاقتصادية فى المجتمع لتنمو فى اتجاه غريب عن عملية الحياة الاجتماعية • وهو يشسبه فى ذلك ما يسمى فى الطب بالورم

البسيط الذى يميل بعض الشىء الى تخطى الحد غير المؤكد الذى يفصل بين الأورام البسيطة والأورام الخبيثة .

وتعمل الصفتان العدوانيتان - العنف والدهاء - على تكوين الطباع العدوانية أو الميول الروحية . وهما تعبيران عن الأنانية الضيقة . وهما عظيما الفائدة للفرد فى حياة يقوم النجاح فيها على التحاسد . ولكليهما أيضا قيمة كبيرة من الناحية الجمالية ، وتدعمهما الثقافة المالية . ولكنهما عديما الفائدة من ناحية أهداف حياة الجماعة .



الفصل الحادي عشر

الاعتقاد فى الحظ

النزعة الى الميسر صفة أخرى من صفات الخلق العدوانى . وهى ملازمة للخلق السائد غالبا بين الرياضيين والعاكفين على الأعمال الحربية والتنافسية بوجه عام . ولها أيضا قيمة اقتصادية مباشرة ، فهى معروفة بأنها تعوق الكفاية الصناعية المرتفعة فى أى مجتمع تنتشر فيه بدرجة كبيرة .

ومن المشكوك فيه أن يكون الميل الى المقامرة من الملامح التى تنتمى بصفة خاصة الى النوع العدوانى من الطبيعة البشرية . والاعتقاد فى الحظ هو الدافع الأساسى الى المقامرة ، ويبدو أن آثار هذا الاعتقاد يمكن تتبعها – على الأقل فيما يختص بعناصر هذا الاعتقاد – الى مرحلة سابقة لمرحلة الثقافة العدوانية . ومن الممكن أن يكون الاعتقاد فى الحظ قد تطور فى ظل الثقافة العدوانية الى الصورة التى هو عليها الآن والتى تبدو كأنها العنصر الأساسى فى الخلق الرياضى وفى نزعة المقامرة. ومن المحتمل أن صورته الواضحة فى الثقافة الحديثة تعود الى التعاليم العدوانية . الا أن الاعتقاد فى الحظ هو فى جوهره عادة أقدم من الثقافة العدوانية . فهو صورة من الاعتقاد بأن للأشياء روحا . ويبدو أن هذا الاعتقاد انتقل فى جوهره من طور بدائى الى الثقافة البربرية ، ثم أخذ يتنقل عن طريق تلك الثقافة الى أن وصل الى مرحلة حديثة من التطور البشرى فى صورة واضحة فرضتها التعاليم العدوانية . ولكنه على أية حال يعتبر صفة قديمة موروثة من الماضى السحيق الى حد ما ، ولا يتفق مع حاجيات الصناعة الحديثة ويعوق الكفاية التامة فى الحياة الاقتصادية للجماعة فى العصر الحاضر الى حد ما .

ومع أن الاعتقاد فى الحظ أساس عادة المقامرة الا أنه ليس العنصر الوحيد الذى تقوم عليه عادة المراهنة . فالمراهنة على نتيجة المباريات التى يتنافس فيها المتبارزون فى القوة والمهارة تصدر عن باعث آخر لا يكون الاعتقاد فى الحظ من الملامح البارزة فى الحياة الرياضية بدونه . وهذا الباعث الآخر هو عبارة عن رغبة الفائز المنتظر – أو المشايع للفريق المنتظر فوزه – فى الاعلاء من شأن فريقه على حساب الفريق الخاسر . فالفريق

الأقوى لايحرز نصرا مبينا فحسب ، والفريق الخاسر لايبتلى بهزيمة منكرة مذلة تتمشى مع عظم المكسب والخسارة المالية . ولو ان لهذا وحده أهمية كبرى ، بل ان الرهان ايضا يكون عادة بهدف ـ ولو ان هذا الهدف لايكون معروفا علانية أو سرا ، زيادة فرص الفوز للخصم المراهن عليـــه ، ويحس المرء أن المال الذى أنفق والقلق الذى استولى على النفوس من جراء ذلك لايمكن أن ينتهيا الى لا شىء . وهنا تظهر صفة غريزة الحذق يسندها احساس أكثر وضوحا بأن التقمص الروحى للاشياء لابد أن يحكم بالفوز للفريق الذى تعمل الأحداث لصالحه تدفعها وتفردها فى ذلك الرغبة الملحة لدى الأفراد . وهذا الدافع على المراهنة يعبر عن نفسه جهارا بمساندته المنافس المنتظر فوزه . ولا ريب أن هذا من ملامح العدوان . والتعبير عن الاعتقاد فى الحظ بالمراهنة خضوع للدوافع العدوانى الاصيلى. ولذلك يمكن القول تانه مادام الاعتقاد فى الحظ يعبر عن نفسه عن طريق المراهنة فانه يعتبر عنصرا لا يتجزأ من عناصر الخلق العدوانى . والاعتقاد فى الحظ عادة قديمة تنتمى أصلا الى الطبيعـة البشرية التى لا تنوع فيها ، ولكن عندما يساعده على الظهور الدافع العدوانى التنافسى فيتخذ الشكل الواضح لعادة المقامرة فانه يصبح فى هـــذا الشكل الواضح الراقى المتطور صفة من صفات الخلق العدوانى .

والاعتقاد فى الحظ هو الاعتقاد بأن للظواهر الطبيعية القدرة على توجيه الأمور . وله فى كافة اشكاله وتعبيراته المتعددة أهمية عظمى من ناحيـــة الكفاية الاقتصادية فى أى مجتمع ينتشر فيه انتشارا كبيرا . وهذا مما يبرر البحث الوافى فى نشأته ومضمونه وفى صلة أشكاله المختلفة بالكيان والعمـل الاقتصادى . وكذلك البحث فى صلة الطبقة المترفة بتطوره وتنوعه وثباته . ويحتوى الاعتقاد فى الحظ فى الصورة المتطورة المتكاملة التى يشاهد فيهـا لدى المتبربرين ذوى الثقافة العدوانية أو لدى الرياضـيين فى المجتمعات الحديثة ، يحتوى على الأقل على عنصرين ظاهرين يعتبران بمثـابة مرحلتين مختلفتين لنفس عادة التفكير الأصلية أو بمثابة نفس العامل الفسيولوجى فى مرحلتين متتاليتين من مراحل تطوره . على أن كون هذين العنصرين همـا مراحل متتالية فى نفس الخط العام لنمو الاعتقاد فى الحظ لايمنع تعايشهما فى الفكر لدى أى فرد . والصورة الأكثر بدائية (أو الاكثر قدما) لهـذا الاعتقاد هى اعتقاد أولى فى أن للأشياء روحا ـ أو أن بين الأشـياء علاقة روحية ـ وبذلك يكون للحقائق تصرفات وصفات كالأفراد . ويعتقد الانسان القديم أن لكل الأشياء والحقائق الهامة بشكل واضح فى بيئة ذاتية شـبه شخصية ولها ارادة ـ أو بمعنى آخر نزعات ـ تكون مجموعة الأسباب المعقدة وتؤثر فى سير الأمور بكيفية غامضة . واعتقاد الرجل الرياضى فى الحظ أو فى قدرة الاشياء على توجيه الأمور عبارة عن الاعتقاد البدائى غير الواضح

بأن للاشياء روحا • وان ذلك ينطبق بطريقة غامضة جدا فى الغـالب على
الأشياء والظروف ولكنه يعتقد عادة أن لهذه الأشياء القدرة على الصفح او
على الخداع والمداهنة أو على تعكير ظهور النزعات الكامنة فى الأشياء التى
هى الأداة اللازمة لأية لعبة من العاب المهارة أو الحظ وملحقاتها • وغالبية
الرياضيين يحملون تعاويذ أو تمـائم يشعرون أنهـا تحميهم وتجلب لهم
التوفيق • وهناك كثيرون يخافون بالفطرة من الأعمال السحرية التى تجلب
سوء الحظ للاعبين أو للفريق الذى يراهنون عليـه ، أو يشـعرون بأن
مساندتهم لأحد اللاعبين او احد الفريقين لا بد أن تشد من أزره أو ينظرون
الى « البروكة » على أنها شىء هام •

والاعتقاد فى الحظ فى صورته البسيطة هو ذلك الاحساس الفطـرى
بأن فى الأشياء أو الظروف نزعة غائية غامضة • وتنزع الأشياء أو الأحداث
الى تحقيق هدف معين سواء أكان عرضيا أم متعمدا • ومن هذا المـذهب
البسيط القائل بأن لكل شىء روحا يتطور الاعتقاد بخطى غير محسوسة الى
الصورة أو المرحلة الثانية الفرعية التى سبق ذكرها وهو اعتقاد واضح الى
حد ما فى قوة خارقة للطبيعة غير معروفة • وهذه القوة الخارقة تؤثر فى
الأشياء المنظورة المتصلة بها ولكنها لاتشبهها من ناحية الذاتية • واستعمال
عبارة « قوة خارقة » هنا ليس له معنى آخر من ناحية القوة التى يقال انها
خارقة • فما هو الا تطور آخر للمعتقدات الاحيائية • والقوة الخارقة للطبيعة
ليست حتما عاملا شخصيا بالمعنى التام ولكنها قـوة لهـا من الصـفات
الشخصية مايكفى للتأثير الشديد الى حد مافى نتيجة أى عمل وبخاصـة
المباريات • والاعتقاد السائد فى أن يدا خفية هى التى توجه الانسان ، والذى
يصبغ قصص البطولة الايسلندية بصفة خاصة والقصص الجرمانية القديمة
بصفة عامة هو ايضاح لهذا الاحساس بالنزعة الخارجة عن الطبيعة فى سير
الأحداث •

وفى هذا التعبير أو الشكل من أشكال الاعتقاد فى الحظ يندر تجسيد
هذه النزعة رغم ما ينسب اليها الى حد ما من ذاتية • وهذه النزعة الشخصية
تخضع أحيانا للظروف ـ وهى عادة الظروف ذات الطابع الروحى أو الخارق
للطبيعة . والرهان على نتيجة المعارك مثل مشـــهود ورائع ـ فى مرحلة
متقدمة من مراحل تفرعها ـ وينطوى على تجسيد القوة الخارقة التى يستعان
بها • ففيه تعمل القوة الخارقة عندما يستعان بها على تكييف نتيجة العراك
وفق الأساس المتفق عليه للحكم ، كعـــدالة مطالب كل من المتنافسين أو
قانونيتها ، ومما يدل على هذا الاعتقاد السائد بين الناس فى وجـود قوة
روحية غامضة ، فى كل شىء ، ذلك القول المأثور « لا بد أن ينتصر ذلك الذى
يعرف أن قضيته عادلة » ، وهو قول له معنى كبير فى نظر الرجـل العادى

السـاذج حتى فى المجتمعات المتحضرة فى هذه الأيام . ولقد ضعف فى هذه الأيام أثر الاعتقاد فى أن يدا خفية توجه الانسان ، وهو الاعتقـاد الذى يدل عليه هذا القول المأثور ولربما تعرض لشىء من الشك ، ولكن على أية حال يبدو أنه اختلط بعوامل أخرى سيكولوجية لا يتضح فيها طابع الاعتقاد بأن لكل شىء روحا .

وليس من الضرورى فى موضوعنـا ان نبحث بدقـة أكبر فى العمليـة السيكولوجية أو تطور الأنواع السلالية التى عن طريقها تطور الاعتقاد فى روحية الأشياء الى الاعتقاد فى أن هناك قوة خارقة للطبيعة تسير الانسان . وقد تكون هذه المسألة ذات أهمية كبرى من ناحية موضوع أكثر أهمية هو ما اذا كان الاعتقادان يذكران كمراحل متتاليـة فى عمليـة التطور . ولمـا كان هذان الموضوعان خارجين عن البحث فنكتفى الاشارة اليهمـا . ومن ناحية النظرية الاقتصادية فان لهذين العنصرين أو المرحلتين للاعتقاد فى الحظ أو فيما للاشياء من اتجاهات أو نزعات بعيدة عن ادراكنا طابعا واحدا جوهريا . ولهما أهمية اقتصادية من حيث كونهما عادات للتفكير تؤثر فى نظرة المرء العادية الى الحقائق والنتائج التى يتصل بها وبذلك تؤثر فى قدرته على العمل لتحقيق هدف الصناعة . ولذلك سيتناول البحث علاقتهمـا الاقتصـادية بقدرة المرء على الخدمة كعامل اقتصادى أو بصفة خاصة كعامل صناعى ، بصرف النظر عما للمعتقدات من جمال أو أهمية أو منفعة .

وقد سبق القول بأن المرء لكى يكون قادرا على أداء عمله على خير وجه فى العمليات الصناعية المعقدة فى هذه الأيام عليه أن يكون مزودابالاستعدادات والقدرة على سرعة الفهم وارجاع النتائج الى اسبابها. والعملية الصناعية ككل وفى جزيئاتها عبارة عن العلاقة الكمية بين العلة والمعلول . والذكاء المطلوب من العامل ومن كل من يدير أية عملية صناعية ، لا يزيد على أن يكون سهولة فهم الأسباب التى أدت الى النتائج ، وكيف تتتابع الأسباب والنتائج . هذه السهولة فى الفهم والتكييف هى ما يعوز العمال الأغبياء وهى الغاية التى يعمل تعليمهم على انمائها بمقدار ما يهدف ذلك التعليم الى زيادة كفايتهم الصناعية .

واذا كانت استعدادات المرء الموروثة أو التدريبات التى تلقاها تجعله فى التعليل للحقائق والنتائج يميل الى اتباع طريق آخر غير طريق العلاقة بين العلة والمعلول فانها تقلل من كفايته الانتاجية أو فائدته الصناعية . وانحطاط الكفاية بسبب الميل الى اتباع الطرق الاحيائية لمعرفة الحقائق ظاهر بصـفة خاصة فى عامة الناس – فى أية مجموعة من النـاس ذات نزعة احيائية . والعيوب الاقتصادية للمعتقدات الاحيائية أوضح ، ونتائجها أعمق بكثير فى

النظم الحديثة للصناعة الكبيرة مما هى فى غيرها • والصناعة فى المجتمعات الصناعية الحديثة تستند - الى حد متزايد وباستمرار - الى التنظيم الشامل للآلات والأعمال بحيث تتوقف كفاية كل منها على الآخر • ولذلك تزداد الحاجة باستمرار لتحقيق كفاية المشتغلين بالصناعة الى التحرر من الانحراف عند دراسة أسباب الظواهر الطبيعية • اما فى الحرف اليدوية فقد تعوض المهارة والجد والقوة العضلية أو قوة الاحتمال ، الى حد كبير ، عن هذا الانحراف فى تفكير العمال •

وكذلك الصناعة الزراعية من النوع التقليدى تشبه تماما الحرف اليدوية من ناحية ما تتطلبه من العامل • **فالعامل فيهما هو المحرك الأصلى الذى يعتمد عليه غالبا ، وتعتبر القوى الطبيعية** عوامل عرضية غامضة الى حد كبير لايمكنه ان يسيطر على أعمالها او يفهمها. ومن المعروف أن فى هذه الانواع من الصناعة عمليات صناعية قليلة نسبيا تفهم على **أساس قانون التسلسل الآلى الشامل** • أى على أساس العلاقة بين العلة والمعلول ، الذى يجب أن تطبق عليه عمليات الصناعة وأنشطة العمال • وكلما ارتقت طرق الصناعة نقصت قيمة مزايا الصانع اليدوى الماهر كعوض عن قلة الذكاء أو التردد فى قبول تسلسل العلة والمعلول • والتنظيم الصناعى يتخذ - بصورة تزداد على مر الأيام - طابع نظام آلى يكون على الانسان فيه أن يميز بين القوى الطبيعية ويختار منها ما يؤثر فى عمله • ويختلف دور العامل فى الصناعة من دور المحرك الأصلى الى دور المميز بين النتائج الكمية والحقائق الميكانيكية التى يقوم بتقويمها • والقدرة على سرعة الفهم والتقدير السليم للأسباب المتصلة بعمل العامل تزداد اهمية من الناحية الاقتصادية • واى عنصر فى التفكير يدفع بالعامل الى الانحراف عن تقدير النتائج الحقيقية يكون عنصرا معوقا يعمل على الحط من قدرته الصناعية • وانحراف الراى حتى ولو كان ضئيلا وغير واضح ، يؤثر فى اتجاه الناس العادى عند التعليل للحقائق اليومية ، اذ يستعينون بأسباب أخرى غير تلك العلاقة الكمية بين العلة والمعلول • وهذا مما يؤدى الى انحطاط كبير فى الكفاية الصناعية الجماعية فى المجتمع •

وقد يحدث التفكير الاحيائى للانسان فى المرحلة الاولى للمعتقدات الاحيائية البدائية او فى المرحلة المتاخرة الأرقى التى اضفى فيها على الأشياء صفات الانسان • على أنه لا شك أن القيمة الصناعية لهذا الاحساس الاحيائى القوى أو لهذه الاستعانة بقوة خارقة أو التوجيه بواسطة يد خفية هى واحدة فى كلتا الحالتين ، ثم ان اثره واحد فى قدرة المرء على القيام بالمهام الصناعية. الا أن المدى الذى تبلغه طريقة التفكير هذه فى السيطرة على عادات التفكير الأخرى يختلف باختلاف درجة السرعة او الاحساس بالضرورة او الشمول

التى يستخدم المرء بها عادة التفكير الاحيائى فى تناوله حقائق بيئية . فالاعتقاد الاحيائى يعمل فى كل الحالات على تشويه تقدير النتائج السببية . الا أنه كان فى العصور الأولى يؤثر فى تفكير المرء بصورة أعم . وحيثما يكون الاعتقاد الاحيائى فى صورته البدائية يكون مجاله غير محدود ، فيؤثر بشكل جلى فى كل تصرفات الانسان المتصلة بالأمور المادية . وعلى اثر تطور المذهب الاحيائى الى شكله الأحدث والأكثر تقدما — بعد أن حددت معالمه عملية الصقل وبعد أن أصبح تطبيقه مقصورا فى صورة ملائمة بعض الشىء على القوى البعيدة والخفية — يزداد عدد الحقائق اليومية التى يستطيع الانسان أن يعللها دون الرجوع الى القوى الخارقة للطبيعة . فالقوى الخارقة للطبيعة ليست وسيلة ملائمة لتناول الحوادث التافهة فى الحياة ولذلك يعلل الناس لكثير من الظواهر الطبيعية التافهة أو المألوفة بأنها تحدث وفق قانون السببية . ويستمر الأخذ بهذا التفسير الوقتى بالنسبة للأغراض التافهة حتى يحدث ما يثير الانسان أو يربكه فيضطر للالتجاء الى معتقداته الأصلية . ولكن عندما تشتد الحاجة الى الاستعانة بقانون العلة والمعلول يلجأ الانسان عادة الى القوى الخارقة للطبيعة كحل عام اذا كان ممن يعتقدون بمعتقدات تانيسية(١) .

المعتقدات التأنيسية

وللالتجاء الى أسباب خارجة عن قدرة الانسان فائدة كبرى عندما يصادف الانسان ما يحيره ، الا أن هذه الفائدة عديمة القيمة من الناحية الاقتصادية . فهذا الاعتقاد يصبح بصفة خاصة ملاذا وجالبا للراحة والسلوى خاصة عندما يصل الى درجة الثبوت والتخصص التى يؤدى اليها الاعتقاد ، ولهذا الاعتقاد ما يبرره لأسباب أخرى بخلاف أنه وسيلة لانقاذ الشخص الحائر من مشكلة التعليل للظواهر الطبيعية بقانون السببية . وليس هنا مجال الاسهاب فى المزايا الواضحة والمعروفة للاعتقاد فى اله ذى صفات انسانية من وجهة النظر الجمالية أو الخلقية أو الروحية ، أو حتى من وجهة النظر السياسية أو الحربية أو الاجتماعية . فالبحث هنا مقصور على القيمة الاقتصادية للاعتقاد فى هذه القوى الخارقة للطبيعة كعادة للتفكير تؤثر فى قدرة الانسان المؤمن بها على الانتاج الصناعى . وحتى فى هذا المجال الاقتصادى الضيق يقتصر البحث على الأثر المباشر لهذه العادة فى قدرة العامل على العمل ولا يمتد لآثارها الاقتصادية البعيدة . اذ من الصعوبة بمكان عظيم تتبع تلك الآثار البعيدة ، لأن البحث فيها يصطدم بتصورات شائعة عن مقدار ما يناله الانسان من خير نتيجة الاتصال الروحى بتلك القوة الخارقة . ولذلك فلا جدوى حاليا من محاولة البحث فى قيمتها الاقتصادية .

---

(١) أى تنظر الى اله باعتباره يشبه الانسان

والأثر المباشر لهذا الاعتقاد فى عقلية المرء أنه يقلل من ذكائه المثمر مع ما للذكاء من أهمية خاصة فى الصناعة الحديثة . ويختلف هذا الأثر فى الدرجة نتيجة لاختلاف القوة الخارقة التى يعتقد فيها الانسان . وما اذا كانت من نوع عال أو دنىء . وينطبق هذا على المعتقدين بالحظ كاعتقاد البرابرة أو الرياضيين ، كما ينطبق على المعتقدين بمعتقدات أكثر تقدما نوعا من اله ذى صفات انسانية ، وهو الاعتقاد الذى تتمسك به هذه الطبقات فى العادة . وينطبق نفس الشىء أيضا على العبادات التى تستهوى الانسان المتحضر المتدين ، ولو أنه ليس من السهل أن نقول الى أى حد من القوة يكون هذا الانطباق . ومع أن العجز الصناعى الذى ينتج عن التمسك باحدى العبادات الراقية قد يكون طفيفا نسبيا الا أنه لايمكن التغاضى عنه. بل ان هذه العبادات الراقية فى الثقافة الغربية لا تصور الشكل الأخير الآخذ فى الاختفاء لاحساس الانسان بهذه القوة الخارقة . وعلاوة على ذلك يبدو الاعتقاد بوجود روح فى كافة الأشياء فى الاتجاه الذى ساد فى القرن الثامن عشر وأضعف من الايمان بوجود اله ذى صفات انسانية ، ودعا الى النظام الطبيعى والحقوق الطبيعية . وكذلك فى صورتها الحديثة التى اتخذت صورة الاتجاه الذى انتشر بعد ذيوع آراء داروين ، وهو القائل بأن عملية التطور تؤدى الى التحسين . وهذا التفسير الروحى للظواهر الطبيعية ان هو الا نوع من المغالطة المعروفة لدى المناطقة ، أما فى ميدان الصناعة والعلم فتعتبر خطأ فى ادراك الحقائق وتقييمها .

وللعادات الاحيائية ـ علاوة على ما لها من نتائج صناعية مباشرة ـ أهمية مؤكدة فى النظرية الاقتصادية لأسباب أخرى . (١) لأنها دليل موثوق به ثقة لا بأس بها على وجود ـ والى حد ما على قوة ـ بعض الصفات الأخرى القديمة التى تصحبها ولها أهمية اقتصادية أساسية . و (٢) ان النتائج المادية لتلك المجموعة من صفات التدين التى تظهرها العادات الاحيائية وما تطورت اليه من معتقدات تأنيسية : (أ) تؤثر فى استهلاك المجتمع للسلع وفى قواعد الذوق السائدة كما سبق بيان ذلك ، (ب) تحمل على الاعتراف دائما بالصلة بين الانسان وقوة أعلى ، وبذلك تجمد الاحساس السائد عن المركز الاجتماعى والولاء .

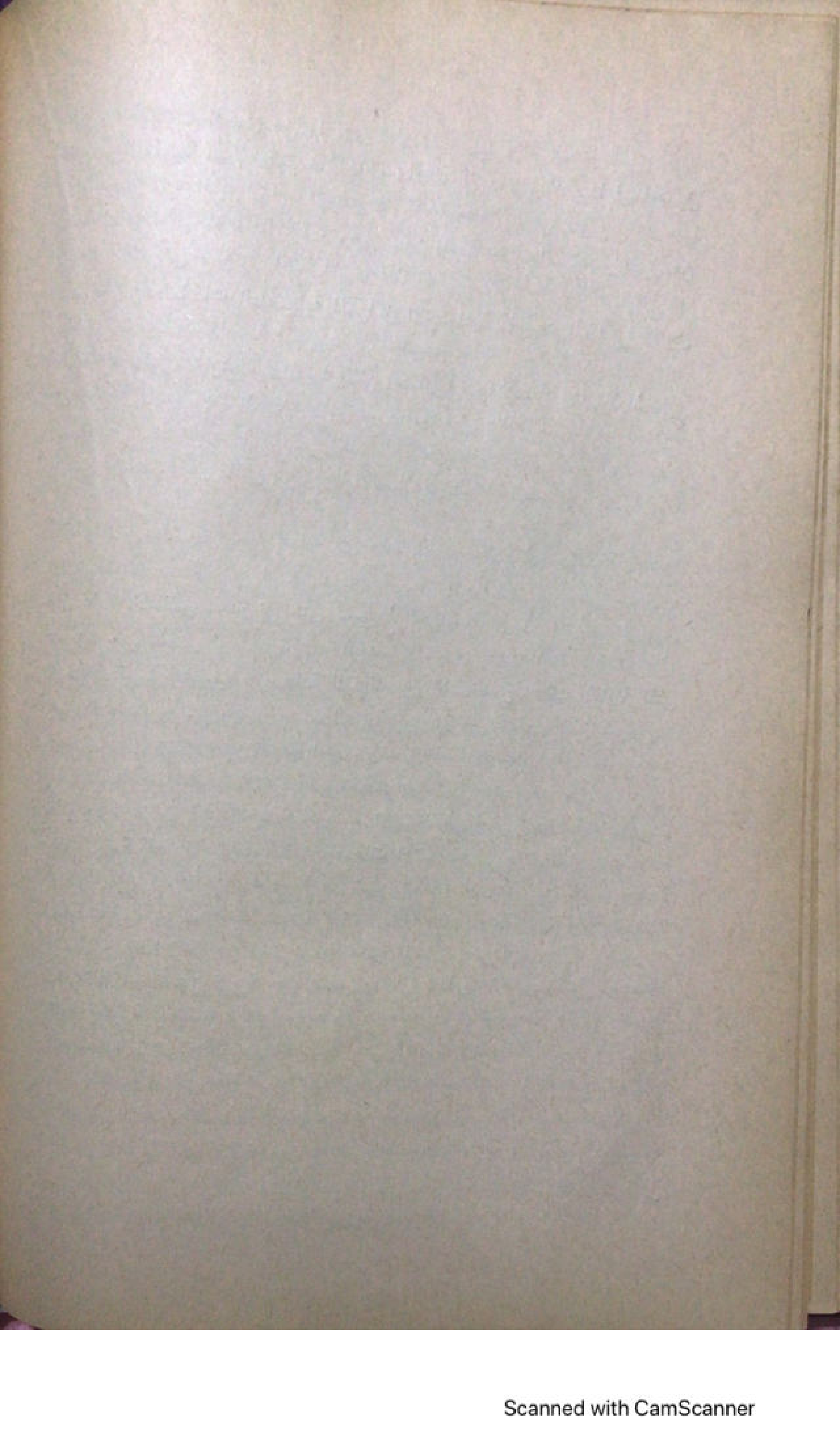
وفيما يختص بالنقطة الأخيرة الواردة تحت بند (ب) فان عادات التفكير التى يتكون منها خلق المرء هى الى حد ما مجموعة عضوية موحدة . وأى تغيير فى أى اتجاه عند نقطة ما لا بد أن يؤدى الى تغيير تبعى فى التعبير العادى عن الحياة فى اتجاهات أخرى أو أعمال أخرى . وهذه العادات المختلفة فى التفكير أو التعبير عن الحياة كلها أوجه متتابعة لحياة المرء . ولذلك فالعادة

التى تتكون استجابة لدافع معين لا بد أن تؤثر فى كيفية الاستجابة للدوافع الأخرى ، فتعديل الطبيعة البشرية عند نقطة ما هو تعديل للطبيعة البشرية فى مجموعها • ولهذا السبب – وربما لأسباب أخرى أكثر غموضا لا يمكن البحث فيها فى هذا المجال – تحدث هذه الاختلافات التبعية بين الصفات المختلفة فى الطبيعة البشرية • ولذلك فالشعوب البربرية – مثلا – ذات النظم العدوانية المتطورة تسودها الاعتقادات الاحيائية ولها عقائد تأنيسية ، بان الخالق له صفات انسانية ، كما يسود بينها احساس بتفاوت الناس فى المركز الاجتماعى • ومن ناحية أخرى فان تأنيس الاله والاحساس بالنزعة الاحيائية المادية يوجد بدرجة أقل لدى الشعوب فى المراحل الثقافية التى تسبق وتلى الثقافة البربرية . وعلى العموم يضعف الاحساس بالمركز الاجتماعى فى المجتمعات المسالمة • ويلاحظ أن أغلب الشعوب التى تعيش فى طور الثقافة البدائى المتوحش لها معتقدات احيائية نشيطة ولو أنها ليست على درجة عالية من التخصص • فالانسان البدائى الهمجى لا ينظر الى هذا الاعتقاد نظرة جدية مثل البربرى أو الهمجى الذى فقد صفاته الأصلية ، فهى بالنسبة للانسان البدائى نتيجة لتصوراته الخيالية لا نتيجة لخرافات ذات قوة قاهرة • ففى الثقافة البربرية يظهر حب الالعاب الرياضية وأهمية المركز الاجتماعى وتأنيس الاله • ويلاحظ عادة وجود مثل هذه العادات المختلفة المترابطه بالنسبة لما تحدثه من أثر فى خلق أفراد المجتمعات المتحضرة الحالية • وهؤلاء الممثلون العصريون للخلق البربرى العدوانى الذين يؤلفون العنصر الرياضى هم عادة الذين يعتقدون فى الحظ • ولديهم على الأقل اعتقاد قوى فى روحية الأشياء ولذلك ينكبون على المقامرة • كما أن هذا يفسر أيضا عقيدة هذه الطبقة التأنيسية فى خالق له صفات انسانية • وهؤلاء فى اعتناقهم لعقيدة ما ، يتمسكون عادة باحدى العقائد التأنيسية للاله • وقليل من الرياضيين هم الذين يبتغون الراحة الروحية فى العقائد الأقل تأنيسا للاله مثل الموحدين أو المسيحيين الذين يعتقدون بخلاص البشرية فى نهاية الأمر •

ويظهر الارتباط بين تأنيس الاله والجراة ، فى أن العقائد التأنيسية تعمل على المحافظة على – ان لم يكن على خلق – عادات عقلية تلائم نظام المركز الاجتماعى • وبخصوص هذه النقطة يستحيل القول أين ينتهى الأثر التهذيبى للعقيدة وأين يبدأ ظهور التغيرات التبعية فى الصفات الموروثة • وتنتمى الطباع العدوانية والشعور بالمركز الاجتماعى والعقيدة التأنيسية فى أكثر مراحل تطورها الى الثقافة البربرية . وهناك شىء من العلاقة السببية المتبادلة بين هذه الظواهر الطبيعية الثلاث عند ظهورها فى المجتمعات فى ذلك المستوى الثقافى . والطريقة التى تحدث بها وتترابط فى شكل عادات واستعدادات

للأفراد والطبقات تنطوى على ما يشبه الصلة السببية أو العضوية بين هذه الظواهر النفسية التى تعتبر صفات أو عادات للفرد . ولقد بينا فيما سبق من البحث أن علاقات المراكز الاجتماعية كأحد ملامح التكوين الاجتماعى هى نتيجة لعادات الحياة العدوانية . وهى – من ناحية نشأتها – تعبير دقيق عن الاتجاه العدوانى . ومن ناحية أخرى فان العقيدة التأنيسية للاله عبارة عن مجموعة من العلاقات التفصيلية للمراكز الاجتماعية أضيفت الى فكرة القوى الخارقة للطبيعة الغامضة الموجودة فى الأشياء المادية . ولذلك فالعقيدة من ناحية الحقائق الخارجية لنشأتها يمكن اعتبارها نموا لاعتقاد الانسان البدائى فى روحية الأشياء بعد أن جدد وغير فى الحياة ، الى حد ما ، بواسطة العادات العدوانية ، مما يؤدى الى تأنيس القوة الخارقة للطبيعة التى يقال انها تحظى بأكمل عادات التفكير التى يتميز بها الانسان فى الثقافة العدوانية .

والملامح السيكولوجية العامة فى هذه الحالة والتى لها صـلة مباشرة بالنظرية الاقتصادية ومن ثم لها أهميتها هى (أ) كما ظهر فى فصل سابق ، فان عادة التنافس العدوانى التى نسميها الجراة ما هى الا الشكل البربرى لغريزة حب العمل أو المهارة عند الجنس البشرى كله ، وقد اتخذت هذه الصورة المعينة بتوجيه من عادة المقارنة بين الاشخاص ، تلك المقارنة التى تثير البغضاء والتحاسد (ب) ان العلاقة بين المراكز الاجتماعية عبارة عن تعبير رسمى عن المقارنة التحاسدية ، وقد اتخذت ورتبت طبقا لنظام معتمد (ج) ان عقيدة تأنيس الاله فى فترة عنفوانها الأولى على الأقل هى عبارة عن نظام يقوم على المراكز الاجتماعية يضع الانسان فى أدنى السلم الاجتماعى ، ويضع القوة الخارقة للطبيعة ذات الصفات الانسانية فى مكان سام، واستنادا الى ذلك فلن تكون هناك صعوبة فى تبين العلاقة الوثيقة بين هذه الظواهر الثلاث للطبيعة والحياة الانسانية لهذه العلاقة تبلغ درجة من وحدة العناصر الأساسية بهذه الظواهر فمن ناحية يعبر نظام المراكز الاجتماعية والعادات العدوانية للحياة عن غريزة حب العمل والمهارة كما يتخذصورتها فى ظل عادة المقارنة المثيرة للبغضاء والتحاسد . ومن ناحية أخرى تعبر العقيدة الشخصية للاله وعادة مراعاة الطقوس الدينية ، عن العادات الاحيائية ، بعد أن هذب هذا الاعتقاد ونما فى ظل نفس عادة المقارنة التحاسـدية . ولذلك فان كلتا الظاهرتين – عادة المنافسة وعادة مراعاة الطقوس الدينية – يمكن اعتبارهما عنصرين يتمم أحدهما الآخر من عناصر الطبيعة البشرية البربرية وصورها البربرية المعاصرة . وهما تعبيران عن نفس المجموعة من الاستعدادات التى تكونت استجابة لمجموعات مختلفة من البواعث .



الفصل الثانى عشر
الشعائر الدينية

ان السرد المتقطع لبعض الأحداث فى الحياة العصرية أبرز الصلة الأساسية بين العقائد التأنيسية للاله ، وبين الثقافة والطباع البربرية ، كما يساعد على اظهار أن بقاء العقائد وما لها من آثار ، وانتشار الشعائر الدينية انما يرجع الى نظام الطبقة المترفة والى الحوافز التى تكمن وراء ذلك النظام . وليس من أغراضنا امتداح أو استهجان الأعمال التى سنتحدث عنها تحت عنوان الشعائر الدينية أو الصفات الروحية والذهنية التى تعبر عنها تلك الشعائر ، وانما سنتناول الظواهر العادية للعقائد التأنيسية من ناحية أهميتها فى النظرية الاقتصادية . فموضوع حديثنا هو الملامح الخارجية الملموسة للشعائر الدينية . أما ما للحياة الدينية من قيمة خلقية وتعبدية فخارج عن نطاق بحثنا الحالى . ولا شك أن هذا البحث ليس هو مجال التساؤل عن مدى حقيقة العقائد التى تنبثق منها تلك الشعائر أو مدى جمالها ، وحتى الآثار الاقتصادية غير المباشرة لا يمكن أن تكون محلا للبحث هنا لأن الموضوع عويص وهام الى حد لا يمكن معه أن نجد له مكانا فى هذا العرض المبسط .

ولقد سبق أن تحدثنا عن أثر المعايير المالية لقيمة أى شىء ، فى عمليات التقييم التى تجرى على أسس أخرى لا صلة لها بالناحية المالية . على أن الصلة بين المعايير المالية وغير المالية ليست صلة من طرف واحد . فالمعايير الاقتصادية أو قواعد التقييم تتأثر بدورها بمعايير للقيمة خارجة عن مجال الاقتصاد . وأحكامنا على ما للحقائق من أهمية اقتصادية تتكون الى حد ما كنتيجة لوجود هذه القيم غير الاقتصادية الهامة . وهناك وجهة نظر معينة تقول بأن الأهمية الاقتصادية لها وزنها فقط باعتبارها مشتقة وتابعة لتلك القيم غير الاقتصادية الأعلى . ولذلك يجب التفكير فى عزل الآثار والنتائج الاقتصادية لهذه العقائد التأنيسية . ومن الصعب على الانسان أن يجرد نفسه من هذه الآراء والقيم الأكثر أهمية ، وأن يصل الى تقييم هذه الحقائق من الناحية الاقتصادية مع أقل درجة ممكنة من التحيز وذلك لما لهذه النواحى غير الاقتصادية من أهمية كبيرة .

ولقد ظهر من البحث فى الخلق الرياضى أن الشعور بأن فى الأشياء المادية والأحداث روحا هو الذى يهيىء الأساس الروحى لعادة المقامرة عند الرياضيين

العقائد التأنيسية

ومن الناحية الاقتصادية فان هذا الميل هو نفس العنصر السيكولوجى الذى يعبر عن نفسه فى صور مختلفة من الاعتقادات الروحية والعقائد التانيسية . اما فيما يخص الملامح السيكولوجية الملموسة التى تتناولها النظرية الاقتصادية فان روح المقامرة التى تعم العنصر الرياضى تختفى شيئا فشيئا بدرجة غير محسوسة فى اطار العقل الذى يجد الراحة فى الشعائر الدينية . وكما يبدو من وجهة نظر النظرية الاقتصادية يتحول الخلق الرياضى الى خلق التدين . وحيثما تظهر التقاليد المناسبة فان معتقدات المراهنين بأن الاحيائية تتحول الى اعتقاد واضح الى حد ما فى قوة خارقة للطبيعة . وفى هذه الحالة يظهر الميل عادة الى التودد الى تلك القوة الخارقة باتباع احدى طرق التقرب والاسترضاء المقبولة ، وطرق التقرب هذه تشبه كثيرا انواع العبادات الأقل تقدما ـ ان لم تكن فى النشأة التاريخية فعلى الاقل فى العناصر السيكولوجية الحقيقية . ومن الواضح أن هذا التقرب يتحول باستمرار الى ما يعرف بالآراء الخرافية والاعتقاد فى الخرافات وبذلك تظهر بوضوح علاقته بالعبادات التانيسية الأشد بدائية .

ولذلك فخلق الرياضى او المقامر يحتوى على بعض العناصر السيكولوجية الاساسية التى تصنع المؤمنين بالمذاهب والمتمسكين بالشعائر الدينية . وأهم نقطة تلتقى فيها هاتان الظاهرتان هى الاعتقاد فى قوة غامضة أو فى قوة خارقة للطبيعة تتدخل فى مجرى الأحداث . واعتقاد المقامر فى وجود قوة خارقة للطبيعة قد يكون ـ وعادة ما يكون ـ أقل تبلورا ، وذلك بالنسبة لعادات التفكير وأسلوب الحياة التى تعزى الى القوة الخارقة للطبيعة ، وبعبارة اخرى بالنسبة الى طبيعة هذه القوة من الناحية الخلقية وأهداف تدخلها فى الأحداث . وأفكار الرياضى هى أيضا أقل وضوحا وأقل تكاملا فيما يختص بطبيعة وشخصية هذه القوة التى يشعر بوجودها فى شكل الحظ أو الصدفة أو الشىء الذى يجلب الحظ والتى يسعى اليها ويخشاها ويحاول تجنبها فى نفس الوقت . والأساس فى ولعه بالمقامرة هو احساسه الفطرى بقوة خارقة هائلة موجودة فى الأشياء أو المواقف ، ولكن من النادر أن ينظر الى هذه القوة باعتبارها قوة انسانية . فالمراهن غالبا ما يكون ممن يعتقدون فى الحظ ـ بهذا المعنى البسيط ـ وفى الوقت نفسه ممن يتمسكون باحدى العقائد السائدة تمسكا شديدا . وهو يميل بصفة خاصة لقبول الكثير من مبادىء العقيدة التى تتناول القوى الغامضة وعاداتها المبنية على الهوى والتى نالت ثقته . وفى هذه الحالة يستولى عليه وجهان مختلفان ـ أو أكثر فى بعض الأحايين ـ من أوجه الاعتقادات الاحيائية . والحقيقة أن من الممكن وجود سلسلة كاملة من الأوجه المتتالية للاعتقاد الروحى ، وذلك فى المقومات الروحية لأى مجتمع رياضى . وهذه السلسلة من المفاهيم الخاصة

بالاعتقادات الاحيائية ستحتوى فى احد طرفيها على الصورة الأساسية للاحساس الفطرى بالحظ وضرورة حدوث الصدف ، وتحتوى فى الطرف الآخر على القوى الخارقة للطبيعة المتخذة صفات انسانية كاملة . ويوجد بين هذين الطرفين صور مختلفة تدل على درجات مختلفة من التكامل . ومع هذه الاعتقادات فى القوى الخارقة للطبيعة يتشكل السلوك فطريا ليتلاءم مع مطالب الحظ السعيد من ناحية ، والخضوع بشكل او بآخر للأوامر الغامضة التى تصدر عن القوى الخارقة من ناحية أخرى .

وهناك علاقة من هذه الناحية بين الخلق الرياضى وخلق الطبقات المنحرفة ، وكلاهما يرتبط بالخلق الذى يميل الى المعتقدات التانيسية . والمنحرف والرياضى بصفة عامة على استعداد للتمسك بعقيدة سائدة ولأداء الطقوس الدينية أكثر من عامة المجتمع . ويلاحظ أيضا أن غير المعتقدين فى الأديان من هذه الطبقات يظهرون ميلا اشد للانضمام الى احدى العقائد السائدة أكثر مما يلاحظ فى غالبية غير المعتقدين بالأديان . ويقر هذه الملاحظة ممثلو الرياضيين وبخاصة عند تبرير ألعاب القوى العدوانية . ومما يقال دائما أن من الأمور المحمودة فى الحياة الرياضية أن الذين يمارسون ألعاب القوى متدينون الى حد ما . ومن المشاهد أن العقيدة التى يتمسك بها الرياضيون والطبقات المنحرفة المعتدية ، أو من ينضمون الى صفوف المتدينين من تلك الطبقات ليست فى العادة مما يسمى بالعقائد الراقية ، وانما هى معتقدات ترتبط بمعبود له صفات انسانية . والطبيعة الانسانية البدائية العدوانية لا ترضى بالمفاهيم الغامضة عن الشخصية التى تتوارى عن الأنظار ليحل غيرها محلها والتى تتحول الى مفهوم عن تتابع أسباب ونتائج كمية كالذى تعزوه العقائد السرية التأملية فى المسيحية الى السبب الأول أو الذكاء العام أو روح العالم أو الناحية الروحية . ومنه أمثلة للعقائد التى تتمشى مع العادات العقلية للرياضى والمنحرف كعقائد من يعرفون باسم جيش الخلاص ، وهو جيش يضم منحرفى الطبقات الدنيا ، ويبدو أنه يضم أيضا نسبة كبيرة من الرياضيين تزيد على نسبتهم فى المجتمع كمجموعة .

والألعاب الرياضية فى المدارس تبين هذه النقطة . ويقول انصار ادخال العنصر الدينى فى الحياة المدرسية – ويبدو أن ليس هناك ما يدعو لانكار ذلك – أن الالعاب الرياضية المحببة الى نفوس أية جماعة من الطلاب فى هذه البلاد هى فى الوقت نفسه دينية الى حد كبير أو أنها على الأقل تعمل على أداء الشعائر الدينية الى احد اكبر مما يؤديها غيرهم من الطلاب الذين يقل اهتمامهم بألعاب القوى وغيرها من صنوف الألعاب الرياضية . وهذا ما يمكن توقعه لأسباب نظرية . ومما يجدر ذكره أن هذا يدعو للثناء على الحياة

المدرسية الرياضية وعلى العاب القوى وعلى الأشخاص الذين يشغلون أنفسهم بهذه الأمور • وكثيرا ما يحدث أن يكرس الرياضيون فى المدارس جهودهم للدعوة الدينية اما كواجب مقدس أو كعمل ثانوى • ومن المشاهد انه عندما يحدث ذلك قد يصبحون دعاة لاحدى العقائد التأنيسية للمعبود • وهم فى دعواهم يصرون على علاقة المراكز الاجتماعية الشخصية التى توجد بين المعبود الذى يصورونه فى صورة انسانية ، وبين الانسان العبد •

وهذه الصلة الوثيقة بين ألعاب القوى والشعائر الدينية لدى رجال التعليم حقيقة معروفة تماما، الان لها مظهرا خاصا لم يلتفت احد اليه رغم وضوحه. والحماس الدينى الذى يعم جزءا كبيرا من العنصر الرياضى فى المدارس يميل الى التعبير عن نفسه بما يبديه من خشوع تام وخضوع لله • ولذلك يسعى الى الانضمام لاحدى المنظمات الدينية العلمانية التى تعمل على نشر تعاليـــم الدين الواضحة مثل جمعية الشبان المسيحيين أو جمعية الشبان لنشر الدعوة المسيحية. هذه الجمعيات العلمانية قائمة لنشر الدين «العملى» وهى فى العادة تخصص جزءا كبيرا من نشاطها للنهوض بألعاب القوى وما يشبهها من الألعاب التى تقوم على الحظ والمهارة ، مما يثبت الصلة الوثيقة بين الخلق الرياضى والتدين البدائى • بل لقد يقال ان هذه الألعاب معروفة بأنها وسيلة فعالة للتقرب الى الله ، ومفيدة بصورة واضحة كوسيلة للهدى وكوسيلة لغرس الدين فى نفوس الناس • أى أن الألعاب التى تظهر الاعتقاد فى روحية الأشياء وحب التنافس تساعد على تكوين وصيانة تلك العادة العقليـــة التى تلائم العادات الأكثر وضوحا • ولذلك كانت هذه الألعـــاب الرياضية تستخدم بواسطة المنظمات العلمانية من أجل التمسك بأهداب الدين أو كوســيلة للكشف عن قيمة الحياة الروحية التى لا يعرفها الا المتصلون بالله •

ومما لا شك فيه أن نزعات المنافسة والاعتقاد فى روحية الأشياء ذات أثر مفيد جدا للأغراض الدينية ، بدليل أن القساوسة فى كثير من الملل تتبع نفس طريق المنظمات العلمانية • وهذه المنظمات الكنسية وبخاصة تلك الأقرب الى المنظمات العلمانية فى اصرارها على الدين العملى اتبعت الى حد ما هذه الأساليب أو ما يشبهها فيما يتصل بالشعائر الدينية التقليدية • ولذلك توجد منظمات الشباب وغيرها من المنظمات التى تقرها الكنيسة ، تعمل على تنمية الميل الى المنافسة والشعور بالمركز الاجتماعى فى شباب المنظمات. وهذه المنظمات الشبيهة بالعسكرية تعمل على تقوية الميل الى المنافسة والمقارنة التحاسدية وبذلك تزيد من سهولة ادراك صلة السيادة الشخصية والتبعية. والمؤمن هو ذلك الشخص الذى يعرف كيف يطيع ويتقبل العقاب عن طيب خاطر •

الا أن عادات الفكر التى ترعاها وتصونها هذه الأعمال لا تكون الا نصف مادة العبادات التأنيسية . أما العنصر الآخر المتمم للحياة الدينية ـ العادات العقلية الاحيائية التى تعتقد فى روحية الأشياء ـ فتدعو اليها وتصونها سلسلة ثانية من الأعمال تنظم بموافقة الكنيسة . ومن أمثلة هذه الأعمال المقامرة التى تمثلها السوق الخيرية التى تقيمها الكنيسة . ويلاحظ كدليل على مقدار شرعية هذه الأعمال بالنسبة للشعائر الدينية أن هذه الأسواق ، وما شاكلها من الفرص التافهة للمقامرة ، تستهوى أعضاء المنظمات الدينية أكثر مما تستهوى الأشخاص الأقل تدينا .

ويبدو أن هذا يدل ـ من ناحية ـ على أن هذا المزاج الذى يحبب الناس فى الألعاب الرياضية هو نفس ما يحببهم فى العبادات التأنيسية ، مما يدل من ناحية أخرى على أن التعود على الألعاب الرياضية ، وبخاصة ألعاب القوى، يعمل على تنمية النزعات التى تجد اشباعا لها فى الشعائر الدينية . وبالعكس يبدو أيضا أن التعود على هذه الشعائر يساعد على نمو الميل الى ألعاب القوى والى كل الألعاب التى تبرز عادة المقارنة التحاسدية بين الناس وعادة الركون الى الحظ . وتعبر هذه النزعات عن نفسها بدرجة كبيرة فى كل من هاتين الناحيتين من نواحى الحياة الروحية . ومما يلائم نشوء هذه النزعات الطبيعة البشرية البربرية التى تسود فيها غريزة العدوان والمعتقدات الاحيائية . وينطوى التفكير العدوانى على احساس قوى بالكرامة الشخصية وبما للأفراد من مراكز مختلفة بالنسبة لبعضهم البعض . والبناء الاجتماعى الذى تكون فيه العادات العدوانية هى العامل الأساسى فى تشكيل الأنظمة الاجتماعية يقوم أساسا على التسليم بوجود مراكز اجتماعية مختلفة . والقانون السائد فى حياة المجتمع العدوانى هو العلاقة بين الرئيس والمرءوس . وبين النبيل والوضيع ، وبين القوى والضعيف ، وبين السيد والعبد . ولقد نشأت العبادات التأنيسية فى هذه المرحلة من مراحل نمو الصناعة وشكلت بواسطة نفس أسلوب التفريق الاقتصادى ـ التفريق بين المستهلك والمنتج ـ وانتشرت نتيجة للمبدأ السائد والقائم على السيادة والخضوع . وتنسب العبادات الى معبودها عادات الفكر التى تلائم طور التفريق الاقتصادى التى ظهرت فيه . ويظن أن المعبود ذا الصفات البشرية يهتم كثيرا بكل مسائل ترتيب البشر وتحديد الأفضل منهم وانه يميل الى اثبات السيادة والى ممارسة القوة بصورة تحكمية ـ التجاء عادى الى القوة باعتبارها الفيصل النهائى

وفى المراحل الأخيرة والأكثر نضجا فى تكوين العقائد التشخيصية أصبحت عادة السيطرة التى تنسب الى المعبود ذى الحضرة الرهيبة والقوة

الغامضة تسمى «أبوة الخالق». ورغم أن الاتجاه الروحي والاستعدادات التي تنسب الى القوة الخارقة للطبيعة تظل مقسمة وفقا لنظام المراكز الاجتماعيه الا أنها تتخذ طابع الأبوة الذى تتميز به مرحلة الثقافة شبه المسالمة • ولكن يلاحظ فى هذه المرحلة المتقدمة من العبادة أن اقامة الشعائر الدينية تهدف الى استرضاء المعبود بتمجيد عظمته واعلان الخضوع والولاء له • والغرض من الاسترضاء أو العبادة هو الاستعانة بالاحساس بالمركز الاجتماعى الذى ينسب الى القوة الغامضة التى يتقرب المرء اليها • واعظم عبارات الاسترضاء شيوعا ما زالت هى تلك العبارات التى تحمل أو تدل على المقارنة التحاسدية بين الناس • والاتصال الصادق بشخص المعبود ذى الصفات الانسانية المتصف بمثل هذه الطبيعة البشرية البدائية يدل على أن المتعبد نفسه له تلك النزعات البدائية • ومن ناحية النظرية الاقتصادية فان صلة الولاء سواء اكان لشخص مادى أم لقوة خارقة للطبيعة ، يجب أن تعتبر صفة من صفات الخضوع الشخصى الذى يكون جزءا كبيرا من نظام الحياة العدوانية وشبه المسالمة •

ان فكرة المتبربرين عن المعبود كقائد حربى يميل الى الصرامة والغطرسة فى حكمه قد لطفت منها كثيرا العادات اللطيفة ونظم الحياة الرشيدة التى تتميز بها تلك المراحل الثقافية التى تقع بين المرحلة العدوانية الأولى والمرحلة الحالية • ولكن حتى بعد تهذيب التصور الدينى وما تلاه من تلطيف ما ينسب الى المعبود من صرامة ، فما زال فى المفهوم السائد لدى عامة الناس عن طبيعة المعبود وخلقه ، بقايا من المفهوم البربرى • ولذلك فلم يزل الخطباء والكتاب مثلا ، عندما يصفون المعبود وصلته بمجرى الحياة الانسانية يكثرون من استخدام التشبيهات المأخوذة من معجم الحرب والأسلوب العدوانى فى الحياة ، كما يستخدمون تعبيرات تنطوى على المقارنة المثيرة للبغضاء بين الناس • والاستعارات التى تحمل هذا المعنى تستعمل كثيرا حتى عند مخاطبة الجماعات العصرية الأقل نزوعا الى الحرب والتى تتكون من المتمسكين بالعقيدة الدينية فى صورتها اللطيفة • ويدل استخدام الخطباء الشعبيين للنعوت البربرية ومصطلحاتها على أن الجيل العصرى يقدر تماما مكانة الفضائل البربرية وميزتها ، كما يدل على وجود شىء من التطابق بين الاتجاه الدينى والتفكير العدوانى • والتصور الدينى للمتدين العصرى لا ينفر من أن ينسب الى معبوده عواطف واعمالا تتصف بالعنف والانتقام الا اذا عاود التفكير فى المسألة • ومن الملاحظ أن للنعوت التى تصف المعبود بحب الانتقام والدم قيمة عظيمة من ناحية الجمال والشرف فى المفهوم الشعبى • أى أن المعانى التى تحملها هذه النعوت يتقبلها العقل غير المفكر أحسن قبول !

• لقد رأت عيناى جلال المعبود وهو فى طريقه ليقضى بقدميه على غلة الكروم مستودع الشر .

لقد أطلق العنان لسيفه البتار فملأ بريقه القلوب رعبا . ان تعاليمه الحقة آخذة فى الانتشار » ..

والتصرفات التى توجه الرجل المتدين تتفق وأساليب الحياة البدائية التى أصبحت عديمة الفائدة من وجهة نظر المتطلبات الاقتصادية فى الحياة الجماعية المعاصرة • وحيثما كان التنظيم الاقتصادى يلائم حاجيات الحياة الجماعية الحالية فانه يكون قد تعدى نظام المراكز الاجتماعية الذى لم يعد له فائدة ، وأصبحت العلاقات القائمة على الخضوع الشخصى لا مكان لها • ومن ناحية الكفاية الاقتصادية للمجتمع فان عاطفة الولاء والتصرفات العامة التى تعبر عنها تلك العاطفة هى بقايا تعرقل التقدم وتقف فى سبيل المواءمة المناسبة بين النظم الانسانية والأوضاع الراهنة . ان العادات الفكرية التى تتمشى مع أهداف المجتمع المسالم والصناعى هى ذلك المزاج الواقعى الذى يعرف قيمة الحقائق المادية باعتبارها مجرد وحدات جامدة فى التوالى الميكانيكى • انه ذلك العقل الذى يرفض فطريا المعتقدات الاحيائية ، والذى لا يلجأ الى تدخل قوة خارقة للطبيعة لتفسير الظواهر الطبيعية المحيرة ولا يعتمد على أية خافية لكى تعدل سير الأمور لفائدة الانسان • وللوفاء بما تتطلبه أقصى درجات الكفاية الاقتصادية من حاجيات فى الظروف العصرية يجب التعود على ادراك أن الأمور تسير فى الحياة بناء على علاقات كمية وبنظام بعيد عن أى غرض •

وكما يبدو من وجهة نظر المتطلبات الاقتصادية الأخيرة فان التدين ينظر اليه ـ ربما فى كافة الحالات ـ باعتباره من مخلفات مرحلة أولى فى الحياة الجماعية وهو علامة على توقف التقدم الروحى . على انه مما لا شك فيه انه فى حالة ميل الناس بشدة الى الشعائر الدينية فى مجتمع يقوم بنيانه الاقتصادى على نظام الطبقات وتتشكل آراء عامة الناس فيه وتتلاءم مع أوضاع السيادة الشخصية والخضوع الشخصى او مع الأشكال الأخرى للتقاليد والاستعدادات الموروثة ، فان تدين الفرد العادى يعتبر جزءا من العادات السائدة فى الحياة • وعلى ذلك لا يمكن أن يقال عن الشخص المتدين فى مجتمع انه قد ارتد الى ثقافة بدائية ، اذ أنه يجارى عامة المجتمع • ولكن كما يبدو من وجهة نظر للظروف الصناعية المعاصرة فانه يمكن بسهولة تسمية التدين الزائد ـ أى الحماس الدينى الذى يزيد عن القدر المألوف فى المجتمع ـ بالردة •

ولا شك ان من المناسب ايضا البحث فى هذه الظواهر الطبيعية من وجهة نظر اخرى . فقد تقيم هذه الحقائق لهدف آخر مما يؤدى الى رفض العرض السابق . ومن الممكن ان يقال كذلك وبنفس القوة عند التحدث عن وجهة نظر العبادة أو التدين ان النزعة الروحية التى تغرسها الحياة الصناعية العصرية فى نفوس الناس لا تلائم التنمية الحرة للحيـاة الدينية . وقد يعترض بحق على التنمية الصناعية فى العصور الحديثة بأنها تجنح الى المادية والى استبعاد الخضوع للدين . ويمكن أن تقال أشياء ذات أهمية مشابهة كذلك من وجهة النظر الجمالية . ولكن مهما كانت قيمة هذه الآراء وصحتها فلا مكان لها فى بحثنا الحالى الذى يقتصر على تقييم هذه الظواهر الطبيعية من وجهة النظر الاقتصادية .

والاهمية الاقتصادية الكبرى للعادات الفكرية المرتبطة بالمعتقدات التشخيصية والعكوف على الشعائر الدينية لابد أن تكون مبررا لزيادة التحدث فى موضوع البحث الذى يعتبر الحديث فيه غير مستساغ فى مجتمع متدين مثل مجتمعنا. وللشعائر الدينية أهمية اقتصادية باعتبارها دليلا على نوع من المزاج الذى يلازم عادات التفكير العدوانية وبذلك تدل على وجود صفات ضارة من الناحية الصناعية . وهى دليل على وجود اتجاهات عقلية لها قيمة اقتصادية معينة نظرا لما لها من اثر فى قدرة المرء على أداء الخدمات الصناعية، كما أن لها أهمية ظاهرة أيضا فى التأثير على النشاط الاقتصادى فى المجتمع وخاصة فيما يتعلق بتوزيع السلع واستهلاكها .

والآثار الاقتصادية الأكثر وضوحا لهذه الشعائر تتجلى فى استهلاك السلع وأداء الخدمات اللازمة للعبادة . فاستهلاك السلع الخاصة التى تتطلبها الحفلات الدينية والتى تتخذ شكل المعابد والهياكل والكنائس وملابس الكهنة الرسمية والقرابين والعشاء الربانى ولباس العطلات ، لا تحقق أى غرض مادى مباشر . ولذلك فكل هذه الأشياء يمكن أن توصف بأنها اتلاف بين ويمكن أن يقال ذلك عن استهلاك الخدمات الشخصية مثل التربية الكهنوتية والخدمة الكهنوتية والحج والصوم والعطلات وغيرها . ثم ان الشعائر التى تستدعى استهلاك هذه الأشياء تعمل على نشر الآراء التى تقوم عليها عقيدة تأنيس المعبود . اى انها تروج الآراء الخاصة بنظام المراكز الاجتماعية وهى عقبة فى سبيل التنظيم المثمر للصناعة فى الظروف العصرية كما انها تحول دون تطور النظم الاقتصادية لتلائم الحالة الراهنة . وتؤدى الآثار المباشرة وغير المباشرة لهذا الاستهلاك الى التقليل من الكفاية الاقتصادية فى المجتمع . ومن ناحية النظرية الاقتصادية فان النتائج المباشرة لاستهلاك السلع والجهود المبذولة فى خدمة المعتقدات التأنيسية هى هبوط حيوية

المجتمع . أما النتائج الأدبية غير المباشرة لهذا النوع من الاستهلاك فانها تحتاج الى تفصيل دقيق ، وهى مسألة لا يمكن تناولها هنا .

ومع ذلك تجدر ملاحظة الطابع الاقتصادى العام للاستهلاك من أجل الأغراض الدينية اذا ما قورن بالاستهلاك من أجل أغراض أخرى . ان الاشارة الى البواعث والأهدف التى ينشأ عنها استهلاك السلع فى الأغراض الدينية تساعد على ادراك قيمة هذا الاستهلاك نفسه والأفكار العامة التى تتمشى معه . وهناك تطابق عجيب ، ان لم يكن تماثل جوهرى ، فى البواعث على الاستهلاك من أجل خدمة المعبود فى المعتقدات الشخصية ، والاستهلاك لخدمة انسان مترف - رئيس أو شيخ - من الطبقة العليا فى خلال فترة الثقافة البربرية ، كتخصيص المبانى الفخمة الكثيرة النفقات لكل من الرؤساء والآلهة . كما أن هذه المبانى وما فيهـا من أثاث لا يجب أن تكون من نوع مألوف اذ أنها يجب أن تبرز مظاهر الاسراف الفاحش . ومما يلاحظ كذلك أن المبانى التى تقام للعبادة تتخذ دائما طابعا قديما فى تشييدها وأدواتها . كما أن خدم الرئيس وخدم المعبود يلبسون فى خدمته لباسا مزركشا من نوع خاص . والصفة الاقتصادية المميزة لهذا الزى هى الاسراف المظهرى المتناهى، وذلك بالاضافة الى أن لباسهم لابد أن يكون من طراز قديم نسبيا ، وهى ظاهرة تزيد أهمية فى حالة رجال الكنيسة عنها فى حالة الخدم والحاشية . وكذلك يجب أن تكون الملابس التى يرتديها العلمانيون من افراد المجتمع عندما يحظون بالمثول بين يدى القسيس أو المعبود من نوع أغلى من ملابسهم العادية . ومما يلاحظ كذلك وجود درجة كبيرة من التطابق بين التقاليد التى تتبع فى قاعة اجتماعات الحكام وتلك التى تتبع فى المعبد اذ يتطلب كل منهما نوعا معينا من الملابس اللائقة . وأهم ما تتميز به تلك الملابس من الناحية الاقتصادية أنها لا تدل على أن مرتديها من أرباب الحرف الصناعية أو أن لها نفعا ماديا .

وهـذا المطلب الذى يقتضى الاسراف المظهرى والتبرؤ من آثار الصناعة يمتد الى الملابس والى حد ما الى الأطعمة التى تستهلك فى أيام العطلات المقدسة ، أى فى الأيام المخصصة للمعبود أو لأحد الأعضاء العاديين من الطبقة المترفة فيما وراء الطبيعة . وتعتبر النظرية الاقتصادية أيام العطلات المقدسة أوقاتا يجب توقف العمل فيها رسميا وذلك من أجل المعبود أو القديس الذى حرم العمل باسمه والذى يصبح الامتناع عن بذل أى جهد مثمر فى أعياده أمرا عاديا من أجل المحافظة على سمعته الطيبة . والظاهرة المميزة لكل هذه الأيام التى يعطل فيها العمل من أجل العبادة هى تحريم القيام بأى نشاط يفيد الانسان تحريما تاما الى حد ما . وفى أيام الصوم يزداد الامتناع عن القيام بأى عمل مفيد وعن بذل اى جهد يؤدى الى نفع

الانســـان ماديا بالامساك عن استهلاك كل ما يؤدى الى الراحة أو اشباع رغبات الانسان ٠

ويلاحظ أن العطلات العلمانية من نفس النوع ٠ وهى تتحول تدريجيا من أيام مقدسة أصلا - عن طريق نوع وسط من أعياد الميلاد شبه المقدسة للملوك وعظماء الرجال الذين اكتسبوا قدسية بطريقة ما - الى عطلات مبتكرة عمدا تخصص لتمجيد حادث هام أو حقيقة مذهلة ، وقد يكون ذلك بقصــد التكريم أو تجديد السمعة الطيبة ٠ وهذا التهذيب غير المباشر فى مهمــة العطلات الرسمية كوسيلة لتمجيد ظاهرة طبيعيــة أو شىء معلوم يرى فى أجمل صوره فى أحدث استعمال له ٠ ففى بعض المجتمعات يطلق على أحد أيام العطلات يوم العمال ٠ والغرض من ذلك زيادة ما للعمـــل من احترام باتباع الوسيلة العدوانية البدائية فى الامتناع الاجبارى عن القيام بأى عمل مثمر ٠ والامتناع عن العمل يبين ما للعمال بصـــفة عامة من أثر عظيم فى القوة المالية ٠

والعطلات المقدسة ، والعطلات بصفة عامة، عبارة عن ضريبة مفروضة على الناس ٠ وتدفع هذه الضريبة فى أيام العطلات الرسمية وينسب الأثر المشرف الذى ينتج منها الى الشخص أو الحقيقة التى من أجلها قررت العطلة الرسمية ٠ وضريبة البطالة الرسمية هذه ضرورة أولية لكل أعضاء الطبقة المترفة الخارقة للطبيعة ولا غنى عنها لطيب سمعتهم ٠ والقـــديس الذى لا يحصل على عطلة لتقديس اسمه لابد انه ولد فى أيام سيئة ٠

وعلاوة على ضريبة الفراغ المفروضة على العلمانيين توجد أيضا فئات خاصة من الناس - القساوسة ورجال الدين على اختلاف رتبهم - يكرسون كل وقتهم لخدمات مماثلة ٠ وليس من الواجب فحسب أن يمتنع القساوسة عن العمل العادى وبخاصة اذا كان مربحا أو معروفا بأنه يسهم فى سعادة الناس الدنيوية بل وعليهم الا يجـروا وراء أى غنم دنيـوى ، وذلك لأنه لا يليق بكرامة خادم المعبود - أو بالأحرى بكرامة المعبود الذى يقوم بخدمته - أن يسعى الى الكسب المادى أو يشغل باله بالأمور الدنيوية « فأحقر الحقراء هو ذلك الذى يدعى بانه كاهن المعبود ولكنه يعمل على تحقيق راحتــه وطمـــوحه » ٠

وهناك خط فاصل - لا يجد صاحب الذوق المهذب فى الامور الدينية الا قليلا من العناء فى تحديده - بين الأعمال والتصرفات التى تؤدى الى حياة بشرية هانئة وتلك التى تؤدى الى رفعة شأن المعبود ، وتقع أعمال الكهنة فى النظام البربرى المثالى فى الجانب الأخير من الخط ٠ أما تلك التى تتصـل بالامور الاقتصادية فتقع تحت المستوى اللائق باهتمام القساوسة ٠ واذا كان هناك بعض الاستثناءات الظاهرة لهذه القاعدة مثل بعض طوائف الرهبان

فى العصور الوسطى الذين كانوا يشتغلون من أجل غاية مفيدة فان ذلك لا ينقض القاعدة لأن هذه الطوائف المنعزلة التى تنتمى الى طبقة القساوسة ليست عنصرا كهنوتيا بالمعنى التام • ويلاحظ أيضا أن هذه الطوائف المشكوك فى كهانتها والتى تشجع أعضاءها على العمل من أجل لقمة العيش كانت موضع احتقار لخروجها عن حدود اللياقة فى المجتمعات التى تعيش فيها •

فالقسيس يجب ألا يضع يده فى أى عمل آلى منتج ، ولكن عليه أن يستهلك كثيرا • ومن واجبه حتى فيما يختص بالاستهلاك الا يتناول تلك الأشياء التى تؤدى الى راحته أو اشباع رغباته • فهذه يجب أن تتفق والقواعد التى تنظم الاستهلاك الذى وضحناه فى فصل سابق ، فلا يليق بقسيس أن يظهر أمام الناس ممتلىء البطن أو طافحا بشرا • والحقيقة أن كثيرا من العبادات تفرض قمع شهوات الجسد علاوة على التقشف • وحتى الطوائف الحديثة المنظمة وفق أحدث قوانين العقيدة فى مجتمع صناعى عصرى ، تجد أن التلهف على الاستمتاع بمباهج الحياة يتنافى مع اللياقة الكهنوتية الحقة • وان أى شىء يدل على أن القسس لا يكرسون حياتهم لعبادة سيدهم الخفى وانما يعملون من أجل اغراضهم الخاصة يؤلمنا كثيرا كأنما ارتكبوا ذنبا لا يغتفر • ومع انهم خدم الا أن مركزهم الاجتماعى عظيم نظرا لأنهم خدم لسيد له كل الجلال والاكرام • ولما كان استهلاكهم مبنيا على التقشف وليس لسيدهم فى العبادات الراقية حاجة الى الكسب المادى فانهم عاطلون لا يعملون شيئا • « ولذلك فأكلك وشربك وعملك — كل ذلك تمجيد لله » •

ومن الممكن القول بانه على قدر ما بين العلمانيين والقساوسة من تشابه من ناحية انهم يعتبرون خدما للمعبود ، يعلق بهم ذلك الطابع الكهنوتى • ومدى تطبيق هذه القاعدة التبعية واسع نسبيا • فهى تنطبق بصفة خاصة على حركات الاصلاح الدينى وبث حب التقشف والتقوى فى النفوس اذ أن حياة الانسان فى هذه الدنيا فى يد ملكه الروحى • أى أنه حيثما لا يوجد نظام القساوسة أو حيثما يكون الشعور قويا بسيطرة المعبود المباشرة على شئون الحياة تصبح صلة الانسان العادى بمعبوده كصلة العبد الذليل بسيده وتعتبر حياته فراغا كهنوتيا مخصصا لتمجيد أعمال معبوده • وفى حالات الردة هذه تعود الصلة المباشرة — صلة الخضوع باعتبارها الحقيقة السائدة فى العبادة . ولذلك يصبح الاهتمام شديدا بجعل الفراغ الكهنوتى صارما متعبا مع نبذ تناول الأطعمة الشهية تقربا للمعبود •

وقد يشك فى صحة وصف نظام الحياة الكهنوتية على هذه الصورة ، اذ أن كثيرا من القسوس العصريين لا يتمسكون به فى كثير من جزئياته ،

فهو لا ينطبق على قساوسة الطوائف التى خرجت بصورة ما على التعـاليم الثابتة للمعتقدات او الشعائر الدينية . وهؤلاء يعنـون - على الأقل فى الظاهر أو بموافقة الطائفة - بسعادة عامة الناس فى هذه الدنيا كما يعنون بسعادتهم . وأسلوبهم - لا فى حياتهم الخاصة فحسب بل حتى العلنية فى كثير من الأحيان - لا يختلف بدرجة كبيرة عن أسلوب العلمانيين من الناس سواء فى صرامة مظاهره أو فى بدائيته . وينطبق هذا بدرجة أكبر بالنسبة للطوائف التى ابتعدت كل البعد عن الكنيسة . ويجب أن يقال ردا على هذا أن الاعتراض السابق لا يبين وجود أى ضعف فى نظرية الحياة الكهنوتية وانما يتناول حقيقة أن هؤلاء الكهنة لا يمتثلون لنظامها امتثالا كاملا . فما هم الا فريق صغير من القساوسة ويجب ألا ينظر اليهم كممثلين لنظـــام الحياة الكهنوتى فى صورته الحقيقية الكاملة . ومن الممكن اعتبار قساوسة هذه الطوائف والملل نصف قساوســة أو انهم بسبيلهم الى أن يصـبحوا قساوسة أو أن يعاد تكوينهم . ومن المنتظر ألا يظهر هؤلاء القساوســة خصائص الوظيفة الكهنوتية الا وقد اختلطت بها وحجبتها دوافع وتقاليـد غريبة عنها بسبب وجود عوامل أخرى غير عوامل المـذهب الروحى والمركز الاجتماعى ضمن أغراض المنظمـات التى ينتمى اليها هؤلاء القساوسـة المنشـقون .

وفى وسع أى انسان مهذب ملم بالآداب الكهنوتية أو بمقومات الآداب الكهنوتية فى أى مجتمع أن يعرف أو ينقد ما يجوز أو ما لا يجوز أن يفعله القسيس دون أن يتعرض لأية ملامة. وحتى فى الطوائف التى تحولت نهائيا الى علمانية يمكن التمييز بين نظام الحياة الكهنوتى والعلمانى . ولا يوجد أى انسان عاقل لا يعرف أين ينحرف قساوسة هذه الطائفة فى سلوكهم ولباسهم عن التقاليد المتبعة، فهم ينحرفون عن المثل الأعلى للآداب الكهنوتية. وليس هناك أى مجتمع - أو طائفة - تثقف بالثقافة الغربية لا يبين بوضوح تام الأعمال التى يسمح للقسيس أن يأتيهـا . واذا كان ادراك القسيس للآداب الكهنوتية لا يتحكم فى تصرفاته فان ادراك المجتمع لتلك الآداب لابد أن يرغمه على الوقوف عند حده أو اعتزال الوظيفة .

ومن الممكن أن يقال ان قليلا من القساوسة يعملون علانيـة على زيادة مرتباتهم حبا فى الكسب ، واذا حصل ذلك فانهم يكونون فى نظر طائفتهم قد أتوا عملا منكرا . وبهذه المناسبة يلاحظ أيضا أن النـاس - فيما عدا المستهزئين بالدين والبلداء - يحزنون فطريا فى قرارة أنفسهم اذا ما سمعوا القسيس يلقى النكات من فوق المنبر ، وان احترامهم له يقل اذا ما تصرف فى أى أزمة من ازمات الحياة تصرفا طائشا . انهم يريدون قسيسهم رجلا وقورا لا تزعزعه الاحداث . والكلام الصادر عن الكنيسة أو القسيس يفقد

كثيرا من قيمته اذا كان عن الأمور الدنيوية العادية ، ويجب ان يكون بعيدا عن معجم التجارة اوالصناعة العصرية. وكذلك مما يسيء الى الآداب الكهنوتية أن يتحدث القسيس فى الأمور الصناعية وغيرها من الأمور الانسانية البحتة، اذ للحديث فى المسائل العامة مستوى معين ولا تسمح آداب الوعظ والارشاد لقسيس حسن التربية أن ينزل عنه عندما يناقش المصالح الدنيوية • وهذه المسائل ذات الأهمية الدنيوية والانسانية يجب أن يتناولها القسيس بصفة عامة وبشيء من الترفع يدل على أنه يمثل سيدا مصلحته فى الامور الدنيوية لا تتعدى تأييدها بالقدر المسموح له به •

ويلاحظ كذلك أن الطوائف المنشقة التى تتحدث عن قساوستها تختلف فيما بينها فى مقدار درجة امتثالها للنظام المثالى للحياة الكهنوتية ، يزداد الانحراف بصفة عامة بالنسبة للطوائف الحديثة نسبيا ، وبالأخص تلك التى تتكون أغلبيتها من أعضاء من الطبقة الوسطى الدنيا • ويظهر فى هذه المنظمات عادة مزيج كبير من دوافع الانسانية وحب الخير للناس أو غيرهما مما لا يمكن وصفه بانه من مظاهر التقوى ، كالرغبة فى التعلم او المرح ـ والتى يهتم بها أعضاء هذه المنظمات • ولقد نشأت الحركات الطائفية أو الانشقاقية من خليط من البواعث يتعارض بعضها عن الاحساس بالمركز الاجتماعى الذى تقوم عليه الوظيفة الكهنوتية • وأحيانا يكون الدافع فى الواقع هو النفور من النظام القائم على المراكز الاجتماعية • وحيثما تكون الحال كذلك فان ذلك يعنى أن نظام الكهانة قد تحطم فى أثناء عملية التغيير ـ على الأقل جزئيا ـ والمتكلم بلسان مثل هذه الهيئة يكون فى بداية الأمر خادما وممثلا لها وليس عضوا فى طائفة كهنوتيه خاصة ولا متكلما بلسان الكنيسة • ولا يعود مثل هذا المتحدث الى مركز القسيس ـ فى الأجيال التالية ـ ولا يتمتع بتلك السلطة الكهنوتية ونظام الحياة الكهنوتى الصارم الا بعملية تخصص تدريجى • ونفس الشيء يحدث بالنسبة للشعائر الدينية التى تحطم ثم يعود اصلاحها بعد هذا التدهور ، فالوظيفة الكهنوتية ونظام الحياة الكهنوتى ونظام الشعائر الدينية لا يعود الى مركزه الا بالتدريج وبدرجة غير محسوسة مهما اختلفت التفاصيل ، وذلك حيثما يفرض الاحساس الانسانى القوى بالآداب الدينية سيادته فى المسائل المتصلة بالقوى الخارقة للطبيعة ـ وكذلك كلما زاد ثراء الطائفة ومن ثم يصبح لها نفس وجهات نظر وتصرفات الطبقة المترفة •

وعلاوة على طائفة القسس توجد عادة طائفة كهنوتية عاطلة من القديسين والملائكة وغيرهم ـ أو أمثالهم فى العبادات الوثنية • ولهم درجات بعضهم فوق بعض طبق نظام دقيق للمراكز الاجتماعية • ومبدأ المراكز الاجتماعية يسود كل النظام الهرمى الظاهر منه والخفى • والشهرة الطيبة

الخارقة التي تحظى بها هذه الطوائف العديدة ذات الدرجات الكهنوتيـــة للطبيعة تتطلب في العادة أيضا استهلاكا بالتبعية معينا وفراغا بالتبعية وفي كثير من الحالات يخصصون لخدمتهم فرقا من الأتباع والخدم الذين يقومون نيابة عنهم بالفراغ وفق الطريقة التي رأيناها في فصل سابق والتي تتبعها الطبقة المترفة في النظام الأبوي ٠

وقد لا يبدو الا بعد تفكير طويل أن لهذه الشـــعائر الدينية وغرابة الطباع التي تدل عليها ، أو استهلاك السلع والخدمات التي تستوعبهـــا العبادة أية صلة بالطبقة المترفة في المجتمع الحديث أو بالدوافع الاقتصادية التي تتمسك بها هذه الطبقة في نظام الحياة الحديث ٠ ولذلك فمن المفيد عرض بعض الحقائق المتعلقة بهذه الصلة عرضا موجزا ٠

ويتضح من قسم سابق من هذا البحث أن الصفات التي يتميز بهـــا المتدينون تعوق سبيل الحياة الجماعية في هذه الأيام وبخاصـــة ما يختص بالكفاية الصناعية في المجتمع العصري وانها ليست عونا لها . ولذلك يجب أن تعمل الحياة الصناعية على القضاء على هذه الصفات في الطبقـــات التي تشتغل مباشرة في العملية الصناعية ٠ وفي الحق أن التدين يسير في طريق الزوال فيما يسمى بالمجتمع الصناعي الناجح ٠ ويتضح في نفس الوقت أن هذا الاستعداد يبقى قويا بدرجة كبيرة في تلك الطبقات التي لا تسهم في الحال أو بادئ ذي بدء في عملية الحياة في المجتمع باعتبـــارها عاملا من عوامل الصناعة ٠

ولقد سبق أن ذكرنا أن هذه الطبقات الأخيرة التي تعيش على هامش العملية الصناعية لا كجزء منها هي عبارة تقريبا عن فئتين :

١ – الطبقة المترفة الأصلية الآمنة من ضغط الأحوال الاقتصـــادية ،

٢ – الطبقات المعدمة – بما في ذلك منحرفو الطبقة الدنيـــا – التي تتعرض بدرجة قاسية الى الضغط ٠

وفي حالة الطبقة الاولى تبقى العقلية القديمة ، لأن هذه الطبقة بعيدة عن أي ضغط اقتصادي شديد يضـــطرها الى مواءمة عاداتها مع الأحـــوال المتغيرة ٠ بينما في الطبقات الاخرى يرجع العجز عن تكييف نفسها وفـــق المطالب المتغيرة للكفاية الصناعية الى الجوع والافتقار الى فائض من الطاقة يكفي للقيام بهذا التكييف بسهولة، وانعدام الفرص التي تهيئ بلوغ وجهـــة النظر الحديثة واعتيادها ٠ ويسير اتجاه العملية الانتخابية في نفس الطريق في الحالتين ٠

ومن ناحية الرأى الذى تغرسه الحياة الصناعية العصرية فى الأذهان، فان الظواهر تقسم الى مجموعات رئيسية وتابعة ، وذلك على أساس وجود علاقات كمية تعبر عن التتابع الميكانيكى . والطبقات المعوزة لا ينقصها فقط النزر اليسير من الفراغ لكى تستوعب الآراء العلمية الحديثة التى يتضمنها هذا الرأى ، بل انها أيضا تتخذ موقف الاعتماد على رؤسائها المـــاليين أو خضوعها لهم ، مما يؤخر تخلصها من العقلية التى تلازم نظام الطبقـــات . وينتج عن ذلك أن هذه الطبقات تحتفظ الى حدما بالعقلية العـــامة التى أهم مظاهرها الاحساس القوى بالمركز الشخصى والتى من ملامحها التدين .

وفى المجتمعات القديمة فى الثقافة الأوروبية تعكف الطبقــــة المترفة بالوراثة وجماهير الشعب المعدمة على اقامة الشعائر الدينية بدرجـــة أكبر بكثير من عامة الطبقة الوسطى الكادحة ، ولكن فى بعض هذه المجتمعات تضم الفئتان السابق ذكرهما كل السكان فى الواقع ، وحيثما تســـود هاتان الطبقتان تشكل ميولهما أفكار الناس الى حد يقضى على أى اتجاه محتمـــل للانحراف فى الطبقة الوسطى غير المهمة ويفرض التدين على كل المجتمع .

وليس معنى ذلك أن هذه المجتمعات أو الطبقات التى تميل بصـــورة غير عادية الى الشعائر الدينية تميل الى الامتثال بدرجة غير عادية الى نصوص اى قانون خلقى اعتدنا أن نربطه بالدين . اذ ليس من الضرورى أن تراعى العقلية الدينية الى حد كبير تعاليم الوصايا العشر أو القانون العام . والحقيقة أن المشرفين على حياة المجرمين فى المجتمعات الأوروبية يقررون أن الطبقـــات المجرمة والفاسقة أكثر تدينا من عامة الشعب ، وأن عدم التدين ظاهر الى حد ما بين أولئك الأفراد الذين يكونون الطبقة الوسطى المـــالية والمواطنين الذين يلتزمون القانون . وقد يعترض على ذلك الذين يقدرون مزايا العقائد والشعائر الراقية ويقولون ان تقوى منحرف الطبقة الدنيا تقوى زائفـــة أو على أحسن الفروض خرافية . ولا شك أن هذا الاعتـــراض فى محله ويؤيد ما نقوله تأييدا قويا . الا أن من الواجب من أجل هذا البحث التغاضى عن هذه الاختلافات غير الاقتصادية وغير السيكولوجية مهما كانت صحيحة وحاسمة من ناحية الهدف الذى تسعى لتحقيقه .

وتوضح شكوى القساوسة فى هذه الأيام ما حدث فعـــلا من تحرر الناس من الشعائر الدينية ـ ذلك أن الكنائس لم تعد تجتذب الطبقة العاملة ولم يعد لها سيطرة عليها . ويقال أيضا ان الطبقة المسماة عادة بالوسطى ـ وبخاصة الذكور البالغين منها ـ انصرفت عن التأييد المبنى على الاخلاص للكنيسة . وهذه الظواهر معروفة تماما . ويبدو ان مجرد الاشارة الى هذه

الحقائق يكفى لتأييد الصورة العامة التى سبق رسمها . وهـذه الظواهر العامة فيما يختص بتردد الناس على الكنيسة وعضوية الكنيسـة ، قد تكون دليلا كافيا على صحة ما نقول . الا أن من السداد أن نبين بشىء من التفصيل مجرى الأحداث والعوامل الخاصة التى أدت الى هذا التغيير فى الاتجـاه الروحى لدى المجتمعات الصناعية الحالية الأكثر تقدما . ومن المفيد أن نوضح الأسباب الاقتصادية لتحول أفكار الناس الى الامور الدنيوية . ويعطينـا المجتمع الأمريكى فى هذا الموضوع ايضاحا مقنعا بدرجة غير عادية ، اذ أنه أقل المجتمعات تقيدا بأية ظروف خارجية من أى نوع صناعى هام .

وباستثناء الشواذ والذين يخرجون على القاعدة . يمكن تلخيص الحالة الراهنة بما يأتى :

القاعدة العامة هى ان الطبقات ذات الكفاية الصناعية المنخفضـة او الذكاء الضئيل او كليهما هى طبقات متدينة بصفة خاصة . ومن امثلة ذلك الزنوج فى الجنوب وكثير من الأجانب من الطبقه الدنيـا وكثير من سكان الريف وبخاصة فى تلك القطاعات المتـأخرة فى التعليم أو حيث تأخرت تنمية صناعتهم أو الذين يقل اتصالهم الصناعى بباقى المجتمع، ومن المتدينين كذلك بعض افراد الطبقة المعدمة بالوراثة ، وبعض الأفراد من طبقة المجرمين أو الفاسقين ، ولو أن التدين بين أفراد الطبقة الأخيرة عرضة لأن يأخـذ صورة الاعتقاد الروحى الساذج فى الحظ والشعوذة أكثر مما يأخذ صورة التمسك الشكلى بعقيدة صحيحة . ومن جهة أخرى فان الطبقة العاملة قد انصرفت بدرجة كبيرة عن العقائد الدينيـة المعروفة وعن كل الشـعائر الدينية . وهذه الطبقة معرضة من الناحيتين الذهنية والروحية لضـغط الصناعة العصرية المنظمة التى تتطلب التعرف المستمر على العلاقة الموضوعية بين الأشياء والظواهر ، والتمشى التام مع قانون العلاقة بين الأسـباب والنتائج . وهذه الطبقة ليست سيئة التغذية ولا منهوكة القـوى الى حد لا يدع لديها فائضا من الطاقة لاتمام التكيف اللازم .

أما بالنسبة للطبقة المترفة الدنيا فى أمريكا – وهى الطبقـة التى تسمى عادة بالوسطى – فالوضع غريب بعض الشىء ، فهذه الطبقة تختلف فى حياتها الدينية عن مثيلتها الأوربية ولكنها لا تختلف فى الجوهر وانمـا فى درجة التدين وفى طريقة العبادة . فالكنائس ما زالت تلقى العون المالى من هذه الطبقة ولو أن العقائد التى تتمسك بها هذه الطبقة بدرجة أكبر تتصف بضعف ما تحتويه من اعتقاد فى تجسد المعبود . وفى نفس الوقت فان أغلب من يترددون على الكنيسة من الطبقة الوسطى هم النساء والأطفـال ويفتقر

الذكور البالغون من هذه الطبقة كثيرا الى الحماس الدينى ولو أنهم يتمسكون الى حد كبير بالعقيدة التى ولدوا عليها . اذ أنهم فى حياتهم العادية على اتصال وثيق الى حد ما بالعملية الصناعية .

وهذا الاختلاف الغريب بين الجنسين الذى يؤدى الى أن النساء وأطفالهن هم الذين يمارسون الشعائر الدينية يرجع - على الأقل الى حدما - الى أن نساء الطبقة الوسطى هن الى حد كبير طبقة مترفة بالنيابة. وينطبق نفس القول ، ولكن بدرجة أقل ، على نساء الطبقات الدنيا العاملة فهن يعشن فى ظل نظام للمراكز الاجتماعية موروث عن مرحلة سابقة لمراحل التنمية الصناعية ، ولذلك فهن يحتفظن بعقلية تؤدى بهن الى الميل الى الآراء القديمة بصفة عامة . وفى نفس الوقت فان النساء لسن على اتصال مباشر قوى بالعملية الصناعية بحيث يؤدى ذلك الى التخلص من تلك الآراء التى تتفق والصناعة العصرية . أى أن تقوى النساء عبارة عن تعبير خاص عن المحافظة التى ترجع الى حد كبير فى حالة النساء فى المجتمعات المتحضرة الى وضعهن الاقتصادى . وفى نظر الرجل المتحضر فان العلاقات الأبوية للمراكز الاجتماعية ليست هى الصورة السائدة فى الحياة . أما فى نظر النساء وبخاصة نساء الطبقة الوسطى العليا القابعات فى دورهن تبعا للتقاليد والظروف الاقتصادية فان هذه العلاقات هى أعظم عامل حقيقى يشكل الحياة . ومن ثم تسود العقلية الملائمة للشعائر الدينية ولتفسير حقائق الحياة بصفة عامة بما يتمشى والمراكز الشخصية . فالمرأة تنقل منطق الحياة العادية المنزلية وعملياتها المنطقية الى العالم الخارق للطبيعة ، وتجد نفسها مرتاحة ومطمئنة لسلسلة من الآراء هى فى نظر الرجل غير مقبولة وخرقاء الى حد كبير .

ومع ذلك فرجال هذه الطبقة ليسوا مجردين من التقوى ولو أنها ليست قوية . وموقف رجال الطبقة العليا من الشعائر الدينية أفضل من موقف رجال الطبقة العاملة . وقد يكون تفسير ذلك الى حد ما هو أن ما هو حقيقى عن نساء أية طبقة يكون حقيقيا ولو الى حد أقل عن رجالها أيضا . فهم الى حد كبير طبقة قد سلمت من التأثر بالعمليات الصناعية والعلاقة الأبوية الخاصة بالمراكز والتى تبدو واضحة فى حياتهم الزوجية وفى معاملتهم للخدم . وقد تعمل أيضا على المحافظة على العقلية القديمة وتكون عاملا يعوق عملية التحول الى الاهتمام والتفكير فى النواحى المدنية . ومع ذلك فرجال الطبقة الوسطى الأمريكية على علاقة وثيقة قوية بالمجتمع الاقتصادى ، ولو أنه قد يلاحظ بهذه المناسبة ونتيجة لتأهيلهم - أن نشاطهم الاقتصادى كثيرا ما يتسم الى حد ما بالطابع الأبوى أو شبه العدوانى .

والأعمال التى لها مكانة طيبة فى نفوسهم والتى لها اعظم شأن فى تشكيل آرائهم هى الاعمال المالية التى سبق التحدث عنها فى فصل سابق . وهناك كثير من عوامل التحكم والخضوع وكثير من الدهاء الذى يقرب قليلا من الخداع العدوانى . وكل ذلك من خصائص الحياة البربرية العدوانية التى تتصف بالاتجاه للتدين . وعلاوة على ذلك تستهوى الشعائر الدينية هذه الطبقة لما تضفيه من حسن السمعة . الا أن هذا الباعث الأخير على التقوى يستحق الدراسة ، وسنتناوله الآن .

وليس فى المجتمع الأمريكى طبقة مترفة بالوراثة ذات أهمية الا فى الجنوب . وتعكف الطبقة المترفة فى الجنوب الى حد ما على العبادة أكثر من أية طبقة أخرى تماثلها فى المركز المالى فى أية جهة أخرى من البلاد . ومن المعروف تماما كذلك أن العقائد السائدة فى الجنوب ذات طابع أكثر قدما من تلك السائدة فى الشمال . ويرتبط بهذا الاخلاص للشعائر الدينية هناك انحطاط التنمية الصناعية . فالتنظيم الصناعى فى الجنوب فى هذه الأيام – وبخاصة الى عهد قريب – ذو طابع بدائى اذا قورن بالمجتمع الأمريكى عموما ، وهو أقرب الى الحرف اليدوية من ناحية قلة وعدم تقدم أجهزته الآلية ، كما تسوده كثير من عوامل السيطرة والخضوع . ويلاحظ أيضا – نظرا للظروف الاقتصادية الخاصة فى هذا الجزء – أن شدة تقوى أهل الجنوب سواء أكانوا من البيض أم من الزنوج ترتبط بأسلوب الحياة الذى يذكر الانسان فى كثير من الحالات بالمراحل البربرية للتنمية الصناعية . وتنتشر بين هؤلاء الناس أكثر مما تنتشر فى أية جهة أخرى جرائم ذات طابع قديم مثل المبارزات والمشاجرات والأخذ بالثأر والسكر وسباق الخيل ومصارعة الديوك والميسر والدعارة (كما يدل على ذلك كثرة عدد المولودين). هذا الى أنهم يقدرون كثيرا معنى الشرف – وهو من ملامح الخلق الرياضى ومن نتائج الحياة العدوانية .

أما من ناحية الطبقة الأكثر ثراء فى الشمال – الطبقة الأمريكية المترفة بمعنى الكلمة – فانها ليست متدينة بالوراثة ، اذ أنها حديثة التكوين الى حد لا يمكن معه أن تكون لها عادة قوية فى هذا الاتجاه ، أو حتى أن يكون لها تقليد محلى خاص متبع . ومع ذلك يلاحظ أنها تميل بدرجة ملحوظة الى التمسك – على الأقل أسميا ، أو قد يكون حقيقيا – باحدى العقائد السائدة. ثم انها تمجد حفلات الزواج والجنازات وغيرها من الأحداث الهامة باقامة بعض الشعائر الدينية . ومن المستحيل أن نحدد اذا كان هذا التمسك بالشعائر يعبر عن رجوع حقيقى الى العقلية الدينية أو هو مجرد نوع من المحاكاة الوقائية التى تتخذ من أجل التمشى الظاهر مع قواعد حسن السمعة

المأخوذة من المثل العليا الأجنبية . على أنه يبدو أن ذلك يرجع الى نزعة دينية الى حد كبير اذا ما اتخذنا حضور الشعائر الدينية الآخذة فى الانتشار فى عبادات الطبقة العليا دليلا على ذلك . وهناك ميل ملموس لدى متدينى الطبقة العليا الى أن يعتنقوا تلك العقائد التى تعنى كثيرا بما يصاحب العبادة من حفلات ومظاهر ، وفى الكنائس التى تسود فيها عضوية الطبقة العليا يشتد الميل الى الاهتمام بالاحتفالات الدينية على حساب النواحى العقلية سواء كان ذلك بالنسبة للصلاة أو بالنسبة لطرق اقامة الطقوس الكنسية وهذا صحيح حتى حيثما تنتمى الكنيسة الى طائفة تتميز طقوسها وأجهزتها بالبساطة النسبية . والاهتمام بالطقوس الدينية يرجع بلا شك الى الميل الى الاسراف المظهرى بشكل واضح ولكنه قد يدل ايضا على الاتجاه الدينى لدى المتعبدين . وبقدر ما تدل اقامة الطقوس أو الاهتمام بها على الاتجاه الدينى، فانها تدل على صورة قديمة الى حد ما للعبادة . ويسود الجانب المظهرى فى الشعائر الدينية بشكل ملحوظ فى كل المجتمعات المتدينة التى ما زالت فى مرحلة بدائية نسبيا من الثقافة والتى هى على قدر ضئيل من التقدم العقلى . وهذا من خصائص الثقافة البربرية اذ أن الشعائر الدينية تقام هناك بصورة تثير العواطف عن طريق كافة الحواس . والميل الى الرجوع الى هذه الوسيلة البسيطة المثيرة للعواطف ظاهر تماما فى كنائس الطبقة العليا فى هذه الأيام . وهو ملموس أيضا ولكن بدرجة أقل فى المذاهب التى تسعى للحصول على ولاء الطبقة المترفة الدنيا والطبقات الوسطى . فنجد أن هناك عودة الى استعمال الأضواء الملونة والمناظر الرائعة والرموز الكثيرة والموسيقى والبخور . وقد يلحظ المرء فى الاحتفالات والترانيم وفى مختلف حركات الخشوع فى العبادة عودة الى ما كان يصاحب العبادة قديما من الرقص المقدس .

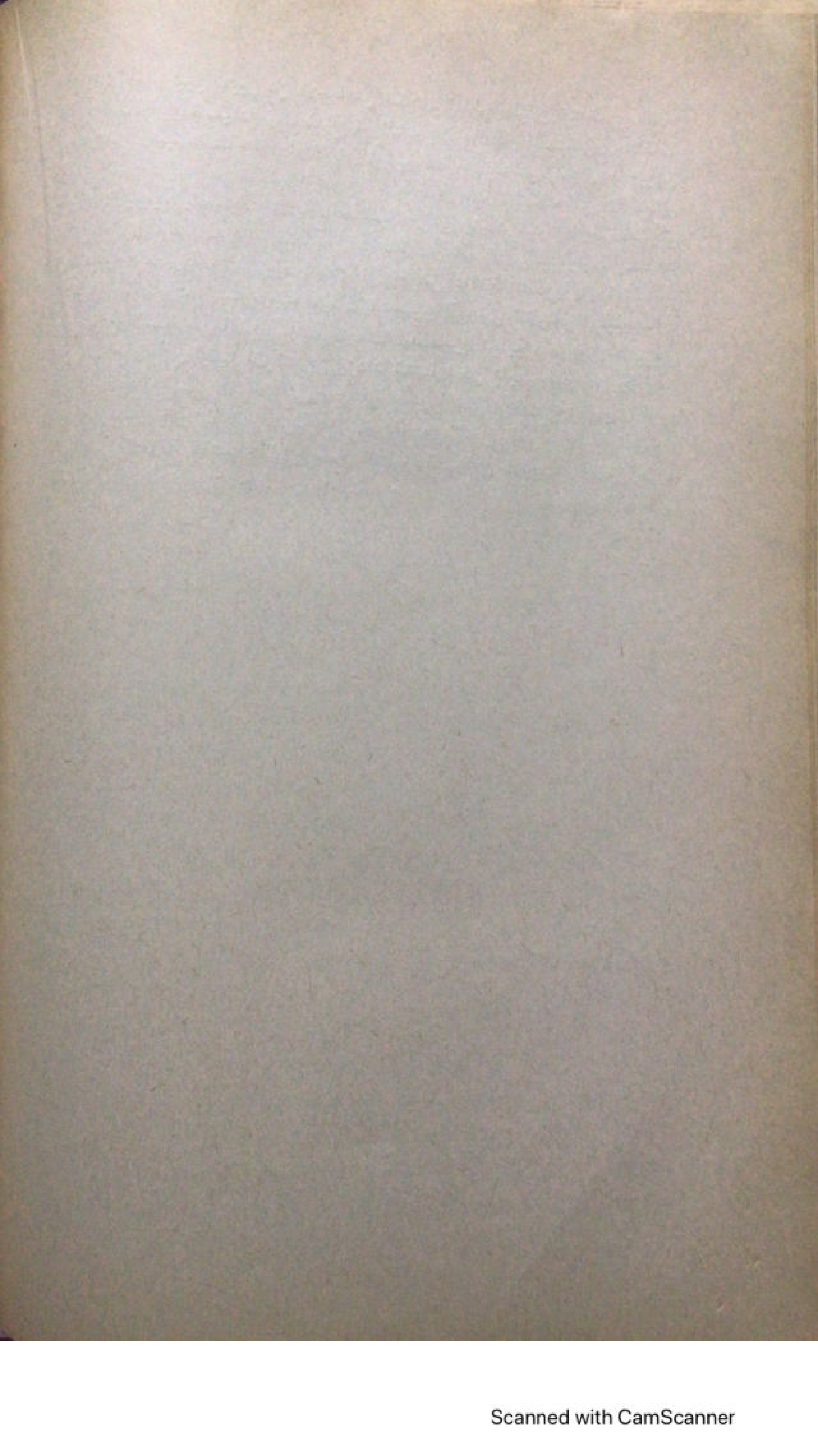
وهذه العودة الى الصلاة وسط المناظر الخلابة ليست مقصورة على عبادات الطبقة العليا ولو أن خير ما يمثلها هى الطبقات العليا الاجتماعية والمالية . وعبادات المتدينين من الطبقة الدنيا مثل زنوج الجنوب والعناصر الأجنبية المتأخرة من السكان تظهر بلا شك أيضا ميلا شديدا الى الطقوس والرموز والأشياء التى تسترعى النظر كما هو المنتظر من تاريخ تلك الطبقات ومستواها الثقافى . وليس انتشار الطقوس وتأنيس المعبود بين هذه الطبقات رجوعا الى الماضى مثلما هو امتداد لما كان فى الماضى . الا أن استعمال الطقوس والمظاهر المتصلة بالعبادة منتشرة ايضا فى نواح أخرى. ففى الأيام الأولى للمجتمع الأمريكى بدات الطوائف المنتشرة بطقوس وأجهزة غاية فى البساطة ولكنها ـ كما نعرف ـ بمرور الزمن اتخذت ـ بدرجات متفاوتة ـ كثيرا من العناصر الجذابة التى كانت قد نبذتها فيما مضى. ولقد

كان هذا التطور يساير زيادة الثراء وسهولة حياة المتدينين بصفة عامة ، وكانت تلك الطبقات ذات الثراء العريض والشهرة الواسعة خير ما يمثله .

ولقد سبق ذكر الأسباب التى يرجع اليها هذا التقسيم الطبقى المالى للعبادة بطريقة عامة عند التحدث عن العقليات عند الطبقات المختلفة ، واختلاف الطبقات فى العبادة ما هو الا تعبير خاص عن حقائق وراثية . وضعف الولاء للكنيسة بين أبناء الطبقة الوسطى الدنيا أو ما يسمى بصفة عامة بقلة التقوى بين الأبناء فى هذه الطبقة يرى بشكل ملموس بين سكان المدن الذين يشتغلون فى الصناعات الآلية • والمرء بصفة عامة لا يبحث حاليا عن التقوى التى تشوبها شائبة بين أبناء تلك الطبقات التى يقترب عملها من عمل المهندس وصانع الآلات • وهذه الأعمال الآلية هى الى حد ما حقيقة عصرية ، ورجال الحرف اليدوية فى العصور الأولى الذين كانوا يعملون لتحقيق غاية صناعية تشبه فى طابعها ما يقوم به الصناع فى هذه الأيام لم يكونوا متمردين على نظام العبادة • ولقد تغير النشاط العادى للمشتغلين فى هذه الفروع من الصناعة تغيرا كبيرا من ناحية نظامه الذهنى منذ أن أصبحت العمليات الصناعية العصرية مألوفة • ثم ان النظام الذى يخضع له الصانع فى عمله اليومى يؤثر أيضا فى طرق ومستويات تفكيره فى الموضوعات الخارجة عن عمله • والتعود على العمليات الصناعية المنظمة تنظيما عظيما يغير شخصية الصانع ويعمل على تقويض دعائم الاعتقاد الروحى . ومهمة العامل ستصبح بنوع خاص التمييز والمراقبة فى عمليات ذات تسلسل آلى بعيدة عن الأهواء ، وطالما ان الفرد هو أكبر محرك فى العملية وطالما ان الملامح البارزة للعملية الصناعية هى مهارة الصانع وقوته فان عادة تفسير الظواهر الطبيعية حسب الدوافع والميول الشخصية لا تتعرض تعرضا كثيرا مستمدا من تدخل الحقائق التى تؤدى الى القضاء عليها . ولكن فى ظل التقدم الصناعى الحديث حيث الصناع والآلات التى يعملون بها ذات طابع غير شخصى وغير فردى تكون أسس التعميم الكامنة فى عقل العامل ووجهة النظر التى منها يدرك عادة الظواهر الطبيعية هى التعرف الاجبارى على تسلسل الحقائق • ونتيجة ذلك فيما يختص بحياة العامل الدينية هى الميل الى التشكك فى الدين •

ولذلك يبدو أن التدين يبلغ مداه فى ظل الثقافة القديمة الى حد ما • ولفظ « متدين » يستعمل هنا بلا شك بمعناه الانثروبولوجى ولا يدل على أى شىء بالنسبة الى الاتجاه الروحى السابق وصفه غير الميل الى الشعائر الدينية • ويبدو أيضا أن هذا التدين يبين نوعا من الطبيعة البشرية يلائم أسلوب الحياة العدوانى أكثر مما يلائم الحياة الصناعية المتقدمة العصرية •

وهو الى حد كبير تعبير عن الاحساس العادى القديم بالمركز الشخصى القائم على العلاقة بين السيادة والخضوع ، ولذلك يلائم النظام الصناعى فى الثقافة العدوانية وشبه المسالمة ، ولكنه لا يناسب النظام الصناعى الحالى . ويبدو كذلك أن عادة التدين مستمرة بدرجة أشد لدى تلك الطبقات التى لا تتصل حياتها اليومية بالعمليات الآلية الصناعية والتى يشتد تمسكها بالقديم فى نواح أخرى أيضا . اما الطبقات التى تتصل اتصالا مباشرا بالعمليات الصناعية العصرية والتى يؤدى ذلك الى تعرض عاداتها الفكرية الى الضغط الشديد للحاجات التكنولوجية ، فان التفسير الروحى للظواهر الطبيعية ، واحترام الأشخاص اللذين تنشأ عنهما الشعائر الدينية ، فانها فى طريق الزوال . ويبدو أيضا أن التدين يزداد انتشارا فى المجتمعات العصرية بين تلك الطبقات التى تتمتع بالثروة والفراغ من العمل ، وفى هذا كما فى امور أخرى يعمل نظام الطبقة المترفة على المحافظة على النوع القديم للطبقة البشرية وعناصر الثقافة القديمة التى يعمل التطور الصناعى للمجتمع فى مراحله الأخيرة على التخلص منها ، بل واحيائها .



الفصل الثالث عشر

بقايا الاهتمام بالنواحي غير التجاسدية

والديانات التأنيسية تتعرض هي وقانونها الذى يفرض التمسك الشديد بتعاليمها ، تتعرض ، بدرجة تزيد مع الزمن للاضمحلال المستمر بسبب الحاح المطالب الاقتصادية وتفكك النظام الذى يفرق بين الناس فى المكانة . وكلما زاد هذا الاضمحلال اقترنت بهذه التقوى وامتزجت بها عواطف ودوافع أخرى معينة ليست دائما نابعة من أصول هذه العقيدة ، ولا هى راجعة الى عادة الخشوع الشخصى . وليست كل هذه الدوافع الاضافية التى تمتزج بعادة التقوى فى مرحلة الاخلاص للعبادة ، ليست هذه الدوافع كلها متفقة مع الميل الى الورع أو مع الفهم المبنى على العبادات التأنيسية لتتابع الظواهر . ونظرا الى اختلاف منشئها ، فان تأثيرها فى حياة التقوى لا يسير هو أيضا فى نفس الاتجاه . فانها تتعارض بطرق شتى مع قواعد الخشوع أو حياة التبعية ، التى يمكن أن نجد أساسها الحقيقى فى قانون التقوى وفى النظم الكنسية أو الكهنوتية . وعن طريق وجود هذه الدوافع الخارجية بتفكك النظام الصناعى يفرق فى المكانة بين الناس ، ويفقد قانون الخشوع الشخصى السند الذى كان يجده فى التقاليد المتوارثة . ثم تستجد عادات دخيلة وميول خارجة فتطغى على المجال الذى كان يحتله هذا القانون ، وسرعان ما يتحول الكيان الكنسى والكهنوتى الى مظاهر أخرى من مظاهر العبادة دخيلة بعض الشىء على نظام حياة الخشوع الذى كان معروفا أيام كان نظام القساوسة فى عنفوانه . ونستطيع أن نذكر من هذه الدوافع الخارجية التى تؤثر فى نظام التقوى فى مرحلته الأخيرة ، دوافع الاحسان وحسن المعاشرة ، أو بعبارة أعم ، السبل المختلفة لاظهار روح المساواة والتعاطف الانسانى . ونستطيع ان نزيد على هذا ان هذه الشعائر الدخيلة على الكيان الكنسى تؤثر تأثيرا فعالا على بقائه اسما وشكلا ، حتى بين أولئك الذين ليس لديهم مانع من التخلى عن لبه وروحه . وهناك عنصر دخيل آخر أكثر انتشارا وأشد تمييزا للدوافع التى أصبحت تدعم بقاء حياة التقوى ، هو شعور عدم الاهتمام بالتلاؤم الجمالى مع البيئة ، وهو بقية من بقايا شعائر العبادة فى أخريات أيامها ، بعد تنقيتها مما كان يخالطها من تجسيد لشخص المعبود . وقد لعب هذا الأمر دورا هاما فى المحافظة على النظام الكهنوتى ، عن طريق امتزاجه بدافع الخشوع الشخصى . وهذا

الاحساس ـ أو الدافع ـ بالتلاؤم الفنى ليس ذا طابع اقتصادى بالدرجة الأولى ، لكن له أثرا كبيرا غير مباشر فى تشكيل ميول الفرد العقلية نحو الأغراض الاقتصادية فى التطور الصناعى • وأكثر آثاره وضوحا فى هذا السبيل هو الاتجاه الى الانحياز الواضح نوعا ما الى المصلحة الذاتية ، الذى انحدر الينا عن الأطوار الأولى والأشد صلاحية لنظام التفريق فى المكانة بين أفراد المجتمع • ومن هذا نرى أن الاتجاه الاقتصادى لهذا الدافع يتعارض مع الاتجاه الى التقوى، فأولهما يعمل على الاقلال من الانحياز الى المصلحة الذاتية، ان لم يكن يعمل على القضاء عليه ، وذلك بالتغلب على التناقض والتنافر بين الذات واللاذات ، بينما الثانى ـ لأنه تعبير عن الاحساس بالخشوع الشخصى وعن السيادة ـ يعمل على ابراز هذا التنافر وعلى توكيد التباعد بين المصلحة الذاتية ومصالح عملية الحياة التى تشمل الأجناس البشرية جميعا •

وهذه البقية غير التحاسدية من بقايا الحياة الدينية ـ الاحساس بالاتصال بالبيئة أو بعملية الحياة الشاملة للاجناس البشرية ـ وكذلك دوافع الاحسان ولطف العاشرة ، تعمل بطريقة فعالة على تشكيل أفكار الناس نحو الهدف الاقتصادى • لكن أثر كل هذه المجموعة من الميول غامض نوعا ، ومن الصعب أن نتعقب آثاره بالتفصيل • على أننا نستطيع أن نرى بوضوح أن أثر هذه المجموعة من الدوافع أو الميول ، يتجه ناحية تناقض المبادىء التى يشتمل عليها نظام الطبقة المترفة بالشكل الذى أوضحناه • فان أساس هذا النظام ، وكذلك أساس العقائد الدينية التأنيسية والتى تقترن به فى أثناء التطور الثقافى ، هذا الأساس هو فى عادة المقارنة التحاسدية • وهذه العادة لا تتفق وممارسة الاتجاهات التى نحن بصددها • والقواعد الأصلية لنظام حياة الطبقة المترفة هى الاسراف المظهرى فى الوقت والسلع والابتعاد عن أية عملية انتاجية ، بينما الاتجاهات المعينة التى نحن بصددها تؤكد وجودها ـ من الناحية الاقتصادية ـ باستنكار التبذير وطريقة الحياة الفارغة وباظهار الميل الى المشاركة فى عملية الحياة أو الاندماج فيها ، سواء كان هذا من الناحية الاقتصادية أو أية ناحية أخرى أو مظهر آخر من مظاهرها • وواضح ان هذه الميول وأساليب الحياة التى تقوم عليها حيثما كانت الظروف مواتية لظهورها ، أو حيثما تفصح عن نفسها بطريقة شاملة ، هذه الميول وأساليب الحياة تسير على عكس ما يقتضيه نظام حياة الطبقة المترفة • لكن ليس من الواضح أن الحياة فى ظل نظام الطبقة المترفة ، كما يتضح لنا فى مراحل تطوره الأخيرة ، يميل دائما الى كبح هذه الميول أو التخلص من أساليب التفكير التى تعبر بها عن نفسها • فالتنظيم الايجابى لنظام حياة الطبقة المترفة يسير شوطا بعيدا فى الاتجاه الآخر • فان نظام حياة الطبقة المترفة تنظيمه الايجابى يشجع ـ عن طريق القدوة وعن طريق الاختيار

Scanned with CamScanner

والاستبعاد – أولوية قواعد التبذير والمقارنة التحاسدية فى كل منعطفات الحياة ، تلك الأولوية الشاملة والمسيطرة. لكن اتجاه تنظيم ميول الطبقة العاطلة فى آثاره السلبية ، لا يتفق بهذا القدر من الوضوح مع القواعد الأساسية لهذا النظام . وقوانين الطبقة المترفة ، فى تنظيمها للنشاط البشرى بحيث يخدم أغراض الوجاهة المالية ، تقضى بالابتعاد عن اى عمل انتاجى . وهذا معناه أنها تحرم على نفسها القيام باى نشاط فى النواحى التى يقوم فيها أفراد المجتمع الفقراء بجميع الجهود . وهذا التحريم يصل – فيما يتعلق بالنساء ، بل وعلى الأخص وبدرجة أكبر ، فيما يتعلق بنساء الطبقة العليا والطبقة العليا الوسطى فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، الى حد وجوب الابتعاد حتى عن عملية التنافس فى جمع المال بالطرق التى ظاهرها يشبه النهب الذى تنطوى عليه الأعمال المالية .

وثقافة الطبقة الممولة ، أو المترفة ، التى تبدأ على شكل بديل تنافسى لدافع اتقان العمل ، تكاد فى آخر أطوارها تقضى على مجال نفوذها باستبعاد عامل التنافس التحاسدى فيما يتعلق بالكفاية او حتى بالمنزلة المالية . ومن ناحية أخرى ، لما كان أفراد الطبقة المترفة ، سواء من الرجال او النساء ، آمنين الى حد ما من الحاجة الى البحث عن مورد للعيش وسط صراع تنافسى مع من حولهم ، فان هذا يجعل من اليسير على أفراد هذه الطبقة لا أن يحيوا فحسب، بل أيضا أن يتبعوا ميولهم فى حدود معينة، اذا لم يكونوا قد أوتوا من المواهب ما يساعدهم على النجاح فى الصراع التنافسى . ومعنى هذا أن وسائل معيشة أفراد هذه الطبقة لا تتوقف – عند ما يبلغ هذا النظام أرقى مراحله – على توافر تلك القدرات التى تميز الشخص العدوانى الناجح ، واستغلالها أتم استغلال . وعلى ذلك فان فرص البقاء أمام الأفراد الذين ينتمون الى أعلى درجات الطبقة المترفة والذين لم يوهبوا تلك القدرات ، اكبر مما هى عليه فى المستوى العام لقوم يعيشون فى ظل النظام التنافسى .

وقد حدث فى فصل سابق من هذا الكتاب عند مناقشة الظروف التى تساعد على بقاء سمات النظم البالية ، ان لاحظنا أن مركز الطبقة المترفة العجيب يهيىء فرصا مواتية للغاية لبقاء المظاهر التى تميز أنواع الطبائع البشرية التى كانت تلائم مرحلة ثقافية سابقة عفى عليها الزمن . والطبقة المترفة بمنجى من ضغط الضرورات الاقتصادية، وهى من هذه الناحية بمنأى من الصدام الشديد مع القوى التى تساعد على التلاؤم مع البيئة . وقد سبق أن ناقشنا أسباب بقاء السمات والظاهر التى تذكرنا بالثقافة العدوانية ، بقائها بين الطبقة المترفة وفى ظلّ نظام حياتها . فهذه الميول والعادات تجد

فرصة للبقاء ملائمة بدرجة غير عادية ، فى ظل الأوضاع التى تعيش فيها هذه الطبقة . فان الأمر لا يقتصر على ان بقاء الطبقة المترفة بمنأى ، من الناحية المالية ، عن ضغط الضرورات الاقتصادية ، يهيىء مركزا ملائما لبقاء الأفراد الذين لم يؤتوا المواهب التى تهيئهم للقيام بدورهم فى الظروف الصناعية الحديثة . لكن قواعد الوجاهة عند الطبقة المترفة تتطلب فى نفس الوقت ممارسة ظاهرة لبعض المهارات العدوانية . وأوجه العمل التى تستطيع المواهب العدوانية أن تكشف فيها عن نفسها تقوم دليلا على الثراء وعراقة الأصل والابتعاد عن القيام بأى عمل منتج . وبقاء السمات العدوانية فى ظل ثقافة الطبقة المترفة يجد ما يدعمه سلبيا وايجابيا معا ، سلبيا عن طريق امتناع هذه الطبقة عن أداء أى عمل منتج ، وايجابيا عن طريق التوفير الذى توفره لها قوانين الوجاهة التى تسود بينها .

أما فيما يختص ببقاء السمات التى تتميز بها الثقافة الهمجية التى سبقت الثقافة العدوانية ، فان الوضع يختلف بعض الاختلاف ، وموقف الطبقة العاطلة بمنأى عن العمل يساعد على بقاء هذه السمات أيضا . لكن الميل الى السلم والى حسن النية لا يجد فى قواعد العادات المرعية ما يؤيده تأييدا ايجابيا . والأفراد الذين وهبوا مزاجا يشبه ما كانت عليه الثقافة السابقة على الثقافة العدوانية يحتلون بين الطبقة المترفة مركزا ممتازا نوعاما بالنسبة لمن وهبوا نفس المزاج من غير هذه الطبقة ، من حيث انهم لا يقعون تحت ضغط حاجة مالية تتغلب على الميول التى تدفعهم الى حياة خالية من المنافسة . لكن مثل هؤلاء الأفراد لا يزالون عرضة لنوع من الاضطرار المعنوى يستحثهم على عدم المبالاة بتلك الميول ، اذ أن قانون العرف السائد بين المجتمع يفرض عليهم سبلا للحياة قائمة على ممارسة المواهب العدوانية. وطالما بقى النظام الذى يفرق بين الأفراد فى مكانتهم الاجتماعية ، طالما بقى هذا النظام دون أن يمس ، وطالما كان أمام الطبقة المترفة مجال لنشاط غير منتج خلاف قتل الوقت باعمال مضنية لاطائل تحتها ، فلن يكون هناك خروج كبير على قواعد الحياة الوجيهة التى تحياها الطبقة المترفة . وظهور مزاج غير عدوانى بين هذه الطبقة فى تلك المرحلة يمكن اعتباره حالة من حالات الانتكاس غير الشامل . لكن منافذ الوجاهة غير الصناعية التى تتخذها الدوافع التى تحث الانسان على العمل تفشل فى الحال بسبب زيادة التطور الاقتصادى ، واختفاء حيوان الصيد الكبير ، وقلة الحروب ، واندثار حكومات أصحاب الأملاك ، وضعف النظام الكهنوتى . فاذا حدث هذا فان الموقف يبدأ فى التغير ، ولابد للحياة البشرية أن تسير فى طريقها بوسيلة أو بأخرى ، فاذا فشلت الوسائل العدوانية فانها تبحث عن وسيلة أخرى .

والتحرر من الضغط المالى ، كما أوضحنا سـابقا ، قد قطع فى حالة نساء الطبقة المترفة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة شوطا أبعد مما قطع فى أية مجموعة أخرى من الناس كبيرة العدد . وعلى ذلك فان النسـاء يبين منهن انتكاس الى مزاج غير تحاسدى ، أكثر وضوحا مما ينتظر من الرجال . لكن هناك أيضا بين رجال الطبقة المترفة زيادة واضحة فى مجال نشاطهم ومداه ، ذلك المجال الناتج عن الميول التى لا يمكن اعتبارها من قبيـل حب الذات والتى لا تهدف الى الامتياز القائم على التحاسد . ولهذا ، مثلا ، فان العدد الأكبر من الرجال الذين لهم صلة بالصناعة بتولى الادارة الماليـة لمشروع من المشروعات ، يهتمون بعض الاهتمام ويعتزون بأن يروا العمـل يسير سيرا حسنا وانه يصيب النجاح من الناحية الصناعية ، وكل هذا حتى بصرف النظر عن الربح الذى قد ينتج عن أى تقدم من هذه الوجهة . وجهود النوادى التجارية ، واتحادات الصناع التى تبذل فى هذا السـبيل لزيادة الكفاية الصناعية زيادة غير قائمة على التحاسد ، جهودا معروفة جيدا .

والاتجاه الى أغراض فى الحياة غير تحاسدية قد تمخض عن عدد كبير من الهيئات تهدف الى بعض نواحى الاحسـان أو التقدم الاجتماعى . وهـذه الهيئات يغلب فيها أن تكون ذات طابع دينى ظـاهرى أو كاذب ، ويشترك فيها الرجال والنساء معا . ولو فكرنا فى هذا الأمر لحضرتنا أمثلة عديدة من هذا النوع ، لكننا – لكى ندلل على مدى الدوافع التى نحن بصددها وتحديد خصائصها – نستطيع أن نورد بعض الحالات المحددة الواضحة . فمن هذا القبيل مثلا المطالبة بالغاء الخمور وغير ذلك من الاصلاحات الاجتماعيـة ، وباصلاح السجون ونشر التعليم ومحـاربة الرذيلة ، وبتجنب الحروب عن طريق التحكيم ، ونزع السلاح أو غير هذه من الوسائل . ومنها مثلا – الى حد ما – استقرار الجامعات وانشاء اتحادات تضم أهالى الأحياء المختلفة فى المدن ، والهيئات المختلفة من أمثال جمعيـة الشبان المسيحية وجمعيـات الشباب للجهود المسيحية ، ودوائر الخياطين والنوادى الاجتماعية والنوادى الفنية ، وحتى النوادى التجارية . ومن هذا القبيل أيضا ، الى درجة قليلة، المؤسسات المالية للهيئات شبه العمومية التى تقوم بالاحسان أو التعليـم أو الترفيه ، سواء كانت تمول من هبات افراد من الأغنياء أو من تبرعات تجمع من أناس أقل مالا – ما دامت هذه المؤسسات ليست ذات طابع دينى .

ونحن لا نرمى بطبيعة الحال الى أن نقول ان هذه الجهود تصـدر عن دوافع أخرى تختلف بالكلية عن دوافع المصلحة الشخصية . فان ما نريد أن نقوله هو أن هناك دوافع أخرى تبدو فى مجرى الامور العام ، وان انتشار

الجهود التى من هذا القبيل هذا الانتشار الواضح فى ظروف الحياة الصناعية الحديثة اكثر من انتشاره فى ظل النظام العتيد الذى يفرق بين المكانة الاجتماعية لأفراد المجتمع ، يدل على ان الحياة الحديثة لا تخلو من بلبلة فعالة فيما يختص بشرعية نظام الحياة القائم على التنافس . ومن الامور الملحوظة جيدا ، الى درجة جعلتها من المضحكات الشائعة ، أن هناك دائما دوافع خارجية تظهر عادة فى الدوافع التى تسوق هذه الطبقة الى العمل - دوافع يبدو فيها طابع المصلحة الذاتية ، ولا سيما طابع الامتياز التحاسدى . وهذا صحيح الى حد أن كثيرا من الأعمال الظاهرة التى تنطوى على روح الخدمة العامة المجردة من المصلحة الشخصية ، قد قامت دون شك واستمرت فى عملها ونصب عينيها قبل كل شىء رفع مكانة مؤسسيها بل وفائدتهم المالية . أما فيما يختص ببعض مجموعات كبيرة من مؤسسات أو هيئات من هذا القبيل ، فان الدافع التحاسدى هو فيما يبدو الدافع الغالب للذين أسسوا هذه المشروعات ولمن يؤيدونهم على السواء . وهذه الملحوظة الأخيرة تصدق بصفة خاصة على بعض الأعمال التى تكسب القائمين بها امتيازا بسبب ما يقومون به من انفاق كثير ملحوظ. من ذلك مثلا تأسيس جامعة او مكتبة عامة او متحف . ولكنه يصدق أيضا ، وربما بدرجة لا تقل عن هذا ، على بعض الأعمال العادية كالمساهمة فى بعض المؤسسات والحركات التى للطبقة العليا دون سواها شرف المساهمة فيها . وهذه المؤسسات تعمل على توكيد الوجاهة المالية لأعضائها ، كما تعمل دائما على تذكيرهم بمركزهم المرموق ، لأنها توضح لهم التباين بينهم وبين البشرية التى تقف على مستوى أدنى منهم والتى يعملون هم على تحسين أحوالها . ومن هذا القبيل مثلا انشاء مساكن المدن الجامعية ، وهى مهمة انتشر تهافت الناس عليها فى السنوات الأخيرة . ولكن بعد أن أبدينا بعض التساهل وقمنا ببعض الاستنتاج ، لا يزال لدينا بقية من دوافع ذات طبيعة لا تنطوى على شىء من المنافسة . ونفس الحقيقة الواقعة وهى أن الناس يتبعون هذا الاسلوب جريا وراء كسب الامتياز أو السمعة الحميدة ، تشهد بوجود شعور عام بأن الاهتمام غير التنافسى وغير التحاسدى أمر له ما يبرره ، وان وجوده له تأثير فعال كعامل أساسى فى أساليب التفكير فى المجتمعات الحديثة .

وفى جميع هذه المجالات التى يظهر فيها نشاط الطبقة المترفة فى الوقت الحاضر ، والتى تقوم على أساس من مصلحة غير تحاسدية وغير دينية ، نستطيع أن نلاحظ أن للنساء همة ومثابرة تزيدان على ما يظهره الرجال - طبعا فيما عدا تلك الأعمال التى تقتضى بذل الأموال الكثيرة . أما فيما يتعلق بالمدى العام لوجوه الاصلاح ، فان رجال الدين الذين ينتمون الى مذاهب أقل ورعا ، أو الى طوائف أكثر استمتاعا بالامور الدنيوية ، فانهم

يمكن أن نحسبهم فى زمرة النساء . هذا هو ما تقول به النظرية . وموقف طبقة رجال الدين أيضا ، من حيث العلاقات الاقتصادية الاخرى ، موقف غامض بين طبقة النساء وطبقة الرجال الذين يشتغلون بالأعمال الاقتصادية. فان رجال الدين ونساء الطبقة الميسورة كليهما يعتبران – حسب التقاليد وحسب قانون العرف السائد – فى مركز الطبقة المترفة بالتبعية . وفى حالة كلتا الطبقتين نجد العلاقة الخاصة التى تعمل على تشكيل أساليب التفكير لدى كل منهما هى علاقة خضوع – أى علاقة اقتصادية تفهمها كل من الطبقتين على طريقتها الخاصة . وعلى ذلك نرى فى كلتا الطبقتين ميلا خاصا واضحا الى تفسير الظواهر على ضوء العلاقة الشخصية لا علاقة الأسباب بالنتائج . وكلتا الطريقتين تمنعها قواعد السلوك من مزاولة عمليات مريبة من العمليات الكاسبة أو المهن المربحة ، حتى لتجعل من المستحيل عليهم من الناحية الأخلاقية أن يسهموا فى عملية الحياة الصناعية فى وقتنا الحاضر. ونتيجة هذا الابتعاد الذى تقضى به التقاليد ، عن كل عمل مربح من الأعمال المبتذلة هو تحويل قدر كبير نسبيا من طاقات طبقتى النساء ورجال الدين العصريتين ، الى أنواع أخرى من الخدمات غير خدمة المصلحة الذاتية . فقانون السلوك لا يترك مجالا آخر تستطيع دوافع العمل الهادف أن تجد فيه متنفسا . وتأثير التحريم البات المفروض على كل نشاط مثمر تقوم به نساء الطبقة المترفة يكشف عن نفسه على هيئة دافع الى الاتقان الفنى فى نواح أخرى غير الأعمال الكاسبة .

والحياة اليومية التى تحياها نساء الطبقة الميسورة ورجال الدين تشتمل ، كما أشرنا فيما مضى ، على عنصر من عناصر المكانة أكبر من حياة معدل الرجال ، ولا سيما حياة أولئك الرجال الذين يشتغلون بالأعمال الصناعية الحديثة فعلا . ومن هنا نجد أن الخدمات المنبعثة عن ميول التقوى قد احتفظت بمكانتها بين هذه الطبقات بدرجة أكبر مما نجدها بين الرجال العاديين فى المجتمعات العصرية . ومن هنا نستطيع أن نتوقع أن قدرا كبيرا من الطاقة التى تريد التنفيس عن نفسها فى عمل غير مربح يؤديه أفراد الطبقة المترفة بالتبعية ، قد ينتهى به الأمر الى أن يظهر فى شكل استمساك بالتعاليم الدينية وأعمال التقوى . ومن هنا ، والى حدما ، تنبع المبالغة فى الجنوح الزائد الى التقوى من جانب النساء ، وهو أمر سنتناوله فى الفصل الأخير من هذا الكتاب . ولكن من الموضوعات ذات الصلة الوثيقة بالموضوع الذى نحن بصدده الآن أن نشير الى تأثير هذا الميل فى تحديد دور الحركات والمنظمات التى لا تهدف الى كسب مادى والتى يتناولها هذا البحث ، وفى صبغ أهدافها . فحيثما وجدت هذه الصبغة الدينية فانها تعمل على تقليل القدرة الفورية للمنظمات على تحقيق اى هدف اقتصادى قد توجه اليه

جهودها . وكثير من المنظمات التى تهدف الى عمل الخير والى الاصلاح توزع اهتمامها بين المصالح الدينية والدنيوية للمجتمع الذى تبغى خدمته . وقد لا يكون هناك شك يذكر فى أنهـا لو بذلت هذا القدر من الجهـود الصادقة والاهتمام ، فى تحسين أحوال الناس الدنيوية ، دون أن توزعهـا فى مجالات شتى ، فان القيمة الاقتصادية العاجلة لجهودها تكون أعظم مما هى بكثير . وطبيعى اننا نستطيع أيضا أن نقول - اذا كان هناك مجـال للقول - ان قدرة هذه الهيئات على تحسين الأحوال الدينية قد تكون أعظم لو لم تقف فى سبيلها الدوافع والأهداف الدنيـوية التى لا يسـلم الأمر من وجودها .

ولا مندوحة عن استخلاص بعض النتائج من القيمة الاقتصادية لهـذا النوع من الأعمال غير التحاسدية ، بسبب تدخل عوامل التقوى . لكن هناك أيضا نتائج لا بد من استخلاصها بسبب وجود دوافع أخرى خارجية تتعارض بقدر كبير أو صغير مع الاتجاه الاقتصادى لهذا التعبير غير التنافسى عن غريزة حب الاتقان . ونحن نستطيع بعد الفحص الدقيق أن نتأكد من صحة هذا الى حد أنه قد يتضح ، بعد أن نوفى الموضوع حقه من الكلام ، أن هذه الطائفة العامة من المشروعات ذات قيمة اقتصادية مشكوك فيهـا تماما - اذا قيست على أساس رفاهة الحياة ويسرها بين الأفراد أو الطبقات التى توجه المشروعات الى تحسين أحوالها . فكثير من الجهود التى تبذل اليوم لتحسين أحوال الطبقات الفقيرة من سكان المدن الكبيرة ، يغلب عليها الى حد كبير طابع البعثات الثقافية ، وهم يرمون من وراء هذه الطريقة الى أن يزيدوا من معدل السرعة التى تستطيع بها بعض عناصر خاصة من ثقافة الطبقة الراقية ان تتسرب الى نظام الحياة اليومية بين الطبقات الدنيا . فمثلا الحملات التى توجه لتحسين أحوال المناطق التى استقر بها السكان منذ عهد قريب يوجه قدر من جهودها الى رفع الكفاية الصناعية بين الفقراء والى تعليمهم كيفيـة الافادة من الموارد التى تحت أيديهم افادة أكبر . لكنها ترمى أيضا - وبنفس القدر من العناية - الى مساعدة الطبقات الفقيرة على اقتباس بعض العـادات الحميدة وآداب السلوك من الطبقة الراقية ، عن طريق الاقتداء بها واحتذاء مثلها . وسوف نتبين بعد الفحص الدقيق ، أن الأساس الاقتصادى الذى انبثقت منه هذه العادات هو الاستهلاك المظهرى للوقت وللسلع . فأولئك الناس الطيبون الذين يأخذون على عاتقهم تهذيب الفقراء يشككون عن عمد الى أقصى حد ، ويتمسكون فى صمت بآداب السلوك وقواعد اللياقة والحشمة فى الحياة ، وهم فى العادة قوم يعيشون حياة مثاليـــة ، وقد أوتوا قدرة الاصرار الصلب على التمسك بالتقوى فى كل بند من بنـــود استهلاكهم اليومى . ولا نكون مبالغين مهما قلنا عن قوة التمدين أو التثقيف الناتجة

عن هذا الاقتباس لأساليب التفكير السليمة فيما يتعلق باستهلاك الوقت والسلع ، كما أن قيمتها الاقتصادية للفرد الذى يعتنق هذه المثل العليا المشرفة ، لا يستهان بها • وفى ظروف الثقافة المالية القائمة تتوقف سمعة الفرد ، ويتوقف بالتالى نجاحه ، على سلوكه وأساليبه فى الاستهلاك التى تثبت اعتياده تبديد الوقت والسلع • أما من حيث الوضع الاقتصادى البعيد المدى لهذا التمرس بأساليب الحياة الفاضلة ، فيجب أن نقرر أن الأثر الناتج هو فى معظمه اقتباس طرق أكثر نفقة أو أقل كفاية ، لبلوغ نفس النتائج المادية ، فى علاقات نتيجتها المادية هى الشيء الوحيد الذى له قيمة اقتصادية حقيقية • والدعاية للثقافة هى فى معظمها اقتباس أذواق جديدة ، أو بالحرى اقتباس مجموعة جديدة من العادات تكون قد دخلت الى نظام حياة الطبقة الراقية على هدى تشكيل الطبقة المترفة لمبادىء المكانة الاجتماعية والوجاهة المالية • وهذه المجموعة الجديدة من العادات تتداخل فى نظام حياة الطبقة الدنيا بمقتضى قانون أبدعه فريق من السكان بعيد كل البعد عن العملية الصناعية • وهذه المجموعة الدخيلة لا يرجى منها كثيرا أن تتفق ومطالب الحياة عند الطبقات الدنيا أكثر مما تتفق المجموعة التى يسيرون بمقتضاها فعلا ، بل ولا تتفق بصفة أخص ، اكثر مما تتفق المجموعة التى يقومون هم أنفسهم بابتداعها تحت ضغط الحياة الصناعية الحديثة •

كل هذا بطبيعة الحال لا يشكك فى الحقيقة الواقعة ، وهى أن التقاليد التى تحتويها المجموعة الدخيلة من العادات ادخل فى باب اللياقة من المجموعة التى تزحزحت أمامها • والشك الوحيد الذى يكشف عن نفسه لا يعدو أن يكون مجرد شك فى الملاءمة الاقتصادية لهذا العمل التجديدى — أى الملاءمة الاقتصادية لهذا الوضع المادى العاجل الذى يمكن فيه التأكد من آثار التغيير بقدر كاف من الاطمئنان ، وكما تبدو لامن وجهة نظر الفرد بل من حيث تسهيلها لحياة المجموع • لذلك كان علينا ، لكى نستطيع أن نقدر مقدار الملاءمة الاقتصادية لهذه المشروعات الاصلاحية ، ألا نحكم على فائدتها بناء على قيمتها الظاهرية ، حتى حينما يكون هدف المشروع اقتصاديا من أساسه وحيثما لا تكون الفائدة المرجوة منه فائدة ذاتية أو تحاسدية بحال من الأحوال • والقدر الذى يمكن اتمامه من الاصلاح الاقتصادى يكون أغلبه من قبيل التغيير فى طرق الاسراف المظهرى •

لكن هناك فوق ذلك شيئا يجب أن نذكره عن طبيعة الدوافع المجردة عن الغرض وقواعد السير فى كل عمل من هذا النوع الذى يتأثر بطرائق التفكير التى تتميز بها الثقافة المالية ، وهذا الاعتبار الأخير قد يؤدى الى مزيد من التحديد للنتائج التى توصلنا اليها فعلا . فقواعد الوجاهة أو

اللياقة فى ظل الثقافة المالية تصر - كما ذكرنا فى فصل سابق - على أن بذل الجهود التى لا طائل تحتها هى العلامة على حياة مالية ناصعة • ومن هنا لا تنشأ فقط عادة ازدراء كل عمل مربح ، بل ينشأ أيضا ما هو أحسم أثرا فى توجيه نشاط أية هيئة أو مجموعة من الناس تسعى وراء حسن السمعة فى المجال الاجتماعى • وهناك تقليد يقتضى من المرء أن لا يكون ملما الـمام العامة بأية عمليات أو تفصيلات تتعلق بالضرورات المادية فى الحيـــاة • والانسان يستطيع أن يبدى اهتماما كبيرا بخير الطبقات الدنيا ، عن طريق التبرع أو عن طريق المساهمة فى لجان الادارة وما اليها ، بل قد يستطيع الانسان فوق ذلك أن يبدى اهتماما عاما أو تفصيليا بخير طبقة العـامة من الناحية الثقافية ، بابتكار وسائل تنمى أذواقهم وتهيىء الفـرص لتحسين مستواهم الروحى • ولكن يجب على المرء أن لا يبدى ما ينم عن المامه التـام بالظروف المادية التى تحيط بحياة العامة ، أو بأساليب التفكير لدى الطبقات الشعبية ، تلك الأساليب التى قد يكون لها أثر فعال فى توجيه جهود هذه المنظمات نحو هدف مادى نافع • وهذا الامتناع من جانب المرء عن اظهـار المامه الدقيق بظروف حياة الطبقة الدنيا بالتفصيل ، موجود بالطبــع لدى مختلف الأفراد بدرجات متفاوتة تفاوتا كبيرا ، لكن قدرا وفيرا منه يوجـد بالطبع متجمعا فى أية منظمة من النوع الذى نتناوله هنـــا بالكلام ، يكفى للتأثير فى سير عملها تأثيرا عميقا • وهذا الامتناع عن اظهار الالمام (غير اللائق بالمقام) بظروف الحياة الشعبية يتجه تدريجيا الى اهمال دوافــع المشروع الأصلية من أجل اتباع مبادىء معينة تؤدى الى حسن الســمعة ، ويمكن أن تتلخص فى النهاية فى أنها ذات أهمية ماليـــــة ، وعلى ذلك نرى الدافع الأساسى لمؤسسة قائمة منذ عهد بعيد ، وهو دافع العمل على تحقيق رخاء الحياة بين هذه الطبقات ، ينتهى به الأمر الى أن يصبح دافعا تظاهريا فقط ، وحينئذ يتجه العمل الشعبى الفعال للمؤسسة الى أن يصـــبح فى خبر كان •

وما يصدق على قدرة المنظمات على تحقيق أهدافها غير التحاسدية من هذا الوجه يصدق أيضا على عمل الأفراد الذى ينبعث عن نفس الدوافــع ، على أنه قد يصدق أيضا على عمل الأفـراد بدرجة أكبر مما يصـدق على المشروعات المنظمة • وعادة الحكم على قيمة الشىء بمقياس الطبقة المترفة ، أى على أساس قوانين الانفاق التبديدى والجهل بطرق حياة العامة ، سواء من حيث الانتاج أو الاستهلاك ، هذه العادة راسخة بالضرورة فى أذهان الأفراد الذين يطمحون الى أداء بعض الأعمال ذات المنفعة العـــامة ، فاذا حدث أن تجاهل الفرد مهمته وحول جهوده بحيث ترمى الى التأثير فى عامة الشعب ، فان الذوق العام للمجتمع - وهو الاحساس بالوجاهة المالية - يستنكر منه

هذا العمل ويرده الى الطريق السوى . ونستطيع ان نرى مثلا على هذا فى طرق التصرف فى الهبات التى يتبرع بها رجال جبلوا على حب خدمة المجتمع، لكى تنفق فى غرض واحد (على الأقل ظاهريا) هو العمل على زيادة رخاء الحياة البشرية فى ناحية معينة . والأغراض التى من أجلها توهب هذه التبرعات بكثرة فى هذه الأيام هى المدارس والمكتبات والمستشفيات والملاجىء التى تقام للعجزة أو للبائسين . والغرض الذى يعبر عنه الواهب فى هذه الحالات هو تحسين الحياة البشرية من الناحية المعينة التى يحددها عند الهبة . ولكن القاعدة التى لا نراها تشذ أبدا هى اننا سوف نكتشف فى أثناء سير العمل وجود قدر غير قليل من آثار بواعث أخرى ، هى فى الغالب لا تتفق والدافع الأصلى ، تتدخل فتحدد الغرض النهائى الذى ينفق فيه قدر كبير من الموارد التى خصصها الواهب . فهناك مثلا مبالغ معينة قد تكون وضعت جانبا لتكون نواة لتاسيس ملجأ أو مأوى للعاجزين - لكننا نجد من الامور الشائعة فى مثل هذه الأحوال أن يتجه الانفاق وجهة تبديد شرفى ، وهو أمر مألوف الى حد أنه لا يدعو فى العادة الى الدهشة ، بل ولا حتى الى الابتسام . فمن المألوف مثلا أن يذهب مبلغ كبير من المال فى انشاء واجهة يعلوها تركيب من الحجارة باهظ التكاليف قبيح من الناحية الجمالية وعلى الواجهة رسوم مفصلة ، وقد صممت حوائطها الحصينة وابراجها وأبوابها الغليظة والطرق المؤدية اليها ، صممت جميعها بحيث تذكرك ببعض وسائل الحرب الوحشية . فاذا دلف المرء الى داخل البناء وجده يكشف عن نفس البواعث المنفرة المعروفة عن قانون التبديد المظهرى والاستهلاك العدوانى ، فالنوافذ مثلا - ودع جانبا ما عداها من التفصيلات - قد ركبت بحيث تنطبع فخامتها المالية فى ذهن من يلقى عليها من الخارج نظرة عابرة ، لا بحيث تؤدى الغرض المفروض أن تؤديه ، وهو رضاء المنتفعين بها المقيمين فيها أو راحتهم . وتفاصيل الترتيب الداخلى مطلوب منها أن تتلاءم قدر المستطاع مع هذه الرغبة الدخيلة - والرهيبة مع ذلك - فى استعراض الجمال المالى .

ليس لنا بالطبع أن نفهم أن الواهب فى جميع هذه الحالات يرى أن هذا تصرف معيب ، أو أنه هو نفسه كان يفعل غير هذا لو انه قد تولى القيام به بنفسه ، فالظاهر فى مثل هذه الأحوال التى يتولى فيها المرء الاشراف شخصيا - حيث يدار المشروع عن طريق الانفاق المباشر والرقابة الشخصية لصاحب الهيئة ، بدلا من أن يكتفى بالتبرع - الظاهر أن طرق الادارة فى مثل هذه الأحوال لا تختلف من هذه الناحية . بل ان المتبرعين ، أو الذين يشرفون من بعيد دون أن يكون هناك مساس مباشر براحتهم أو بكبريائهم، لن يرضيهم أن تنفق تبرعاتهم بطريقة غير هذه . فليس يناسب أحدا أن يسير المشروع دون أن يكون له هدف مباشر غير استخدام الموارد التى تحت

يده فى سبيل تحقيق الغرض الأولى والمادى من المنشأة ، بأكثر الوسائل اقتصادا وأحسنها نتيجة . فكل من يهمهم الأمر ، سواء كانت لهم مصلحة مباشرة وشخصية ، أو كانوا مكلفين بمتابعة المشروع فقط ، متفقون على أن نسبة كبيرة من النفقات يجب أن تحقق الأهداف العليا او الروحية التى تنبعث من عادة المقارنة التحاسدية فى أوجه الاستغلال العدوانى وتبديد المال . لكن هذا لا دلالة له سوى أن قوانين المكانة التنافسية والمالية تتحكم فى ذوق المجتمع الى حد انها يستحيل تجنبها أو التخلص منها ، حتى فيما يتعلق بمشروعات تقوم بكليتها ظاهريا على أساس المصلحة غير التحاسدية.

بل قد يكون الواقع أن المشروع يدين بشرف الفضل فيه — كوسيلة لزيادة ذكرى الواهب العطرة — الى افتراض وجود هذا الدافع غير التحاسدى . لكن هذا لا يحول دون تحكم المصالح التحاسدية فى تحديد وجوه الانفاق . فتأثير وجود دوافع ذات أصل تنافسى أو تحاسدى فى مشروعات غير تنافسية من هذا القبيل ، قد يكشف عن نفسه بشكل واضح وبالتفصيل فى أى نوع من أنواع المشروعات التى تكلمنا عنها آنفا . وحيثما كانت هذه التفصيلات التفاخرية فى مثل هذه الحالات ، فانها عادة تتخفى وراء أسماء مشروعات تتصل بمجالات المنفعة الجمالية أو الأخلاقية أو الاقتصادية . وهذه الدوافع الخاصة المنبعثة من مستويات قوانين الثقافة المالية ، تعمل بطريقة على تحويل الجهد ذى الطابع غير التحاسدى الى غير طريق الخدمة الفعالة ، دون أن يضطرب لها شعور الوكيل بطيب القصد من عمله ، أو يشعر بسببها بعدم جدواه . ومن الممكن تتبع آثار هذه الدوافع خلال جميع مراحل المشروعات الاصلاحيه غير التحاسدية التى هى مظهر عظيم ، ومظهر واضح بصفة خاصة ، من مظاهر النظام العام لحياة الطبقة الميسورة . لكن ربما كان الوضع النظرى من الوضوح بحيث لا يحتاج الى مزيد من الشرح ، خصوصا اننا سنهتم ، فى مجال آخر ، اهتماما مفصلا بنوع من هذه المشروعات ، وهى المؤسسات التى تقام للدراسات العليا .

وعلى ذلك يبدو — فى ظروف الموقف الانعزالى الذى تقفه الطبقة المترفة — أن هناك نوعا من الانتكاس الى مجال الدوافع غير التحاسدية التى تميز الثقافة الهمجية السابقة على الثقافة العدوانية . وهذا الانتكاس يشمل كلا من تقدير حب الاتقان والميل الى التراخى وحسن المعاشرة . لكن قواعد السلوك المبنية على قيمة الشخص التحاسدية أو المالية ، تقف فى نظام الحياة الحديث عقبة فى سبيل حرية ممارسة هذه الدوافع ، ووجود هذا النوع من قوانين السلوك بدرجة شائعة له اثر كبر فى تحويل مثل هذه الجهود التى تبذل على أساس المصلحة غير التحاسدية التى تقوم عليها الثقافة المالية.

وقوانين الوجاهة المالية ، فيما يتعلق ببحثنا الحاضر ، لا تخرج عن مبادىء التبديد والتفاهة والهمجية • ومقتضيات الوجاهة المالية موجودة بدرجة تحكمية فى المشروعات الاصلاحية ، كما هى موجودة فى غيرها من نواحى السلوك ، وتقوم بالرقابة على دقائق السلوك والادارة فى أى مشروع • كما ان قوانين الوجاهة تقوم - عن طريق تحديد واختيار كل دقيقة من دقائق العمل واختبارها - بدور كبير فى الحد من كل طموح او جهد غير تحاسدى. فمبدا الجرى وراء المظاهر التافهة ، هذا المبدا المنفر الذى لاشخصية له ولا حماس فيه ، موجود دائما يعمل على الحيلولة دون التعبير الفعلى عن كثير من الاتجاهات التى لا تزال باقية من عهود ما قبل الثقافة العدوانية ، والتى يمكن ان تدخل فى نطاق غريزة حب الاتقان • ولكن وجوده لا يحول دون انتقال تلك الاتجاهات أو استمرار حدوث البواعث التى تدفع الى التعبير عنها .

وفى المرحلة التالية من مراحل تطور الثقافة المالية ، وهى مرحلة أكثر تقدما من سابقتها ، نرى مقتضيات الابتعاد عن اداء الأعمال النافعة ، فى سبيل تجنب التحقير الاجتماعى ، تصل الى حد الامتناع عن كل عمل ينطوى على المنافسة • وفى هذه المرحلة المتقدمة تعمل الثقافة المالية ، بطريقة سلبية على توكيد الدوافع غير التحاسدية بالتقليل من الأهمية التى يعلقها المجتمع على مكانة الأعمال التنافسية والعدوانية والمالية ، اذا قارناها بالأعمال ذات الطابع الصناعى أو الانتاجى • ومقتضيات مثل هذا النأى عن كل عمل من الأعمال النافعة للانسان تنطبق - كما لاحظنا آنفا - على نساء الطبقة العليا انطباقا اشد قسوة مما تنطبق على اى فريق آخر ، الا اذا ذكرنا طبقة القساوسة فى بعض المذاهب على سبيل الاستثناء من هذه القاعدة استثناء قد يكون ظاهريا أكثر منه حقيقيا • والسبب الذى يدعو الى المبالغة فى التمسك للنساء بنظام حياة لا يعملن فيه عملا نافعا ، أكثر مما يحدث فى حالة الرجال الذين ينتمون الى نفس المستوى المالى والاجتماعى ، يرجع الى أنهن لاينتمين فقط الى درجة من درجات الطبقة المترفة أعلى ، لكنهن فى نفس الوقت أيضا ، طبقة مترفة بالتبعية • وعلى ذلك فلديهن أساس مزدوج للامتناع دائما عن بذل أى جهد مثمر •

طالما كرر الكتاب والخطباء المعروفون الذين يعبرون عن راى الطبقة المستنيرة فيما يتعلق بكيان المجتمع ومهمته ، طالما كرر هؤلاء وأحسنوا القول بأن دور المرأة فى أى مجتمع هو أظهر دليل على المستوى الثقافى الذى بلغه هذا المجتمع ، بل نستطيع ايضا ان نقول انه اظهر دليل على المستوى الثقافى الذى بلغته أية طبقة معينة من طبقات المجتمع • وربما كانت هذه الملاحظة

اكثر صدقا فيما يتعلق بمجال التطور الاقتصادى منها فيما يتعلق بالتطور فى اى مجال آخر . وفى نفس الوقت نرى المكانة التى تمثلها المراة فى نظام الحياة المتعارف عليه فى اى مجتمع او فى ظل اية ثقافة ، هو - الى درجة كبيرة - تعبير عن التقاليد التى تبلورت فى ظروف مرحلة سابقة من مراحل التطور ، لكنها لم تتلاءم الى الآن الا تلاؤما جزئيا مع الظروف الاقتصادية السائدة ، او مع حوافز ميول العقل واساليبه التى تدفع الى العمل نساء يعشن فى ظل الظروف الاقتصادية الجديدة .

وقد سبق أن أشرنا اشارة عابرة ، أثناء مناقشة تطور المؤسسات الاقتصادية عامة ، وبالاخص عند الكلام على موضوع الفراغ بالتبعية وعلى الأزياء ، نقول سبق أن أشرنا الى أن مركز النساء فى ظل النظام الاقتصادى الحديث يتعارض مع دوافع غريزة حب الاتقان فى المرأة اكثر مما يتعارض مركز الرجال الذين ينتمون الى نفس طبقاتهن . ويبدو من الصحيح أيضا ان مزاج المرأة ينطوى على نصيب يزيد على نصيب الرجل من هذه الغريزة التى تفضل الراحة وتستهجن التفاهة . فليس من قبيل المصادفة ، اذن ، أن نساء المجتمعات الصناعية الحديثة يميزن تمييزا قويا بين نظام الحياة المتعارف عليه وبين مطالب الظروف الاقتصادية .

والأوجه العديدة لمسألة المرأة تبين بوضوح الى أى مدى تخضع حياة النساء فى المجتمع الحديث ، ولاسيما فى الدوائر المهذبة ، لنظام حددته مجموعة من الآراء العامة تشكلت فى ظل الظروف الاقتصادية التى كانت سائدة فى مرحلة سابقة من مراحل التطور . ولايزال الناس يشعرون أن حياة المرأة فى وضعها المدنى والاقتصادى والاجتماعى ، هى فى جوهرها وفى واقعها حياة تبعية، تقتضى طبيعة الأشياء ان تنسب فضائلها أو نقائصها الى شخص آخر تربطه بها علاقة التملك أو الوصاية . فلو أن المرأة مثلا ارتكبت فعلة تعتبر خرقا للآداب المرعية فان نتيجة هذه الفعلة تنعكس فى الحال على شرف الرجل الذى ترتبط حياتها بحياته . وقد يكون هناك بالطبع بعض القصور فى تفكير أى شخص يصدر حكما من هذا القبيل على ضعف ارادة المراة او انحرافها ، لكن حكم الراى العام للمجتمع فى مثل هذه الأمور يصدر آخر الأمر دون كثير تردد ، ولن يرتاب الا قليلون فى أن الرجل يكون على حق اذا تملكه الغضب حين يعرض له عارض من هذا النوع . لكن من جهة أخرى لانرى المرأة يصيبها الا قدر قليل نسبيا من العار اذا ارتكب رجلها فعلا شائنا .

فنظام الحياة الجيد الجميل اذن - اى النظام الذى اعتدناه - يحدد للمرأة دائرة فى حدود نشاط الرجل ، والشعور العام هو أن أى خروج على

تقاليد دائرة النشاط المحددة لها يعتبر أمرا لايليق بالانثى ، فاذا كان الأمر يتعلق بالحقوق المدنية أو بالتصويت ، فان الشعور العام نحو هذا الأمر ــ أو بعبارة أخرى الحكم المنطقى لنظام حياتنا على هذه النقطة ــ يقضى بوجوب تمثيل المرأة فى الهيئات السياسية وأمام القانون ، لا بشخصها مباشرة بل بوساطة رب العائلة التى تنتمى اليها ٠ فليس من صفات الأنوثة فيها ان تطمح الى حياة تتولى فيها شئونها بنفسها أو تتركز فى شخصها ، ثم ان الشعور العام يقول أن اسهامها المباشر فى شئون المجتمع المدنية أو الصناعية خطر يهدد ذلك النظام الاجتماعى الذى يعبر عن أساليب تفكيرنا بوضعها الذى شكلت به على هدى تقاليد الثقافة المالية.وكل صياح وضجيج عن «تحرير المرأة من أسار الرجل » وما الى ذلك هو ــ اذا استعملنا الأسلوب المهذب القوى للكاتبة اليزابث كاندى ستانتن ، استعمالا معكوســا ــ « محض هراء » ٠ فالعلائق الاجتماعية بين الرجل والمرأة قد حددتها الطبيعة ٠ ومدنيتنــا باسرها ــ أو ما هو جميل فيها ــ تقوم على المنزل . و «المنزل» هو العائلة ، والرجل على رأسها ٠ ووجهة النظر هذه التى كثيرا مايعبر الناس عنها لكن بطريقة اكثر رقة ، هى وجهة النظر الشائعة عن مركز المرأة ، لابين الرجال العاديين فى المجتمعات المتحضرة فحسب ، بل بين النساء أيضا ٠ فالنساء لديهن حاسة يقظة متنبهة لكل مايقتضيه نظام الحياة ، ومع انه صحيح ان كثيرات منهن لايتقبلن بالارتياح كل التفصيلات التى يفرضها النظام ، فان قليلات منهن لايعترفن بأن قانون الأخلاق القائم يضع المــرأة ، بالضرورة وباذن الله ، فى منزلة دون منزلة الرجل ٠ وحياة المرأة فى نهــاية الأمر وبمقتضى شعورها بما هو طيب وجميل ، هى ــ ويجب نظريا أن تكون ــ تعبير عن حياة الرجل بالدرجة الثانية .

ولكن بالرغم من وجهة النظر السائدة من حيث مكان المــرأة الطبيعى اللائق ، فان هناك أيضا شعورا بدأ ينمو ، مؤداه أن كل هذه الأوضاع المتعلقة بالوصاية وبحياة التبعية ، وبالأمور التى تشرفها أو تعيبها ، أوضاع خاطئة بشكل ما ٠ أو ــ على الأقل ــ حتى لو كانت تطورا طبيعيا وتنظيما حسنا فى زمانها ومكانها ، ورغما من قيمتها الجمالية العامة ، فانها مع ذلك لاتحقق أغراض الحياة اليومية فى مجتمع صناعى حديث ، بل انه حتى ذلك العدد الكبير ذو النفوذ من نساء الطبقتين العليا والوسطى ذوات النشأة الراقية اللائى يرين بعقولهن المترفة التى لاتميل مع الهوى ونظرتهن الفاحصة الى آداب السلوك التقليدية ، أن هذا التمييز بين الناس فى المكانة حقيقة أبدية أساسية ــ حتى هؤلاء النسوة ذوات الميول المحافظة يجدن على العموم تباينا فى التفاصيل طفيفا بين وضع الأمور كما هى ووضعها كما يجب أن تكون من هذه الناحية ٠ لكن هذه المجموعة من النساء العصريات اللائى لايســهل

اقناعهن كما يسهل اقناع غيرهن ، واللاتى يقفن بحكم شبابهن وتعليمهن ومزاجهن بعيدا الى حد ما عن الاتصال بتقاليد التمييز فى المنزلة الاجتماعية ، هذه التقاليد التى انحدرت الينا من الثقافة الهمجية ، واللائى قد يشعرن بميل لامبرر له الى الارتداد لدافع التعبير الذاتى وحب الاتقان — هؤلاء النسوة يخالجهن شعور بالضيم واضح بدرجة تحرمهن راحة البال .

فى حركة « المرأة الجديدة » هذه — وهو الاسم الذى يطلق على تلك الجهود العشواء غير المتناسقة التى تبذل فى سبيل اعادة المرأة الى مكانتها التى كانت لها فى عصور ما قبل الجليد — فى هذه الحركة نستطيع أن نستشف عنصرين على الأقل كلاهما ذو طابع اقتصادى . وهذان العنصران ، أو الباعثان ، تعبر عنهما كلمتا السر : «تحرير» و «عمل» . وكل من هاتين الكلمتين معروف عنها أنها تحمل معنى يعبر عن الشعور السائد بالضيم . وانتشار هذا الشعور يحس به حتى الذين لايرون أن فى الأمر كما هو الآن أساسا حقيقيا للشعور بالضيم . وهذا الشعور بالضيم الذى يتحتم رفعه ظاهر أشد مايكون الظهور ، والخوض فيه منتشر أشد مايكون الانتشار ، بين نساء الطبقات الميسورة فى المجتمعات التى قطعت أبعد شوط فى التطور .. ومعنى هذا ، بتعبير آخر ، أن هناك مطالبة ، جدية الى حد ما ، بالتحرر من كل علاقات التمييز فى المنزلة وعلاقة الوصاية أو حياة التبعية ،ويشتد الاعتراض بصفة خاصة من جانب طبقة النساء التى فرضت عليهن حياة التبعية بشدة ، بمقتضى نظام الحياة الذى انحدر الينا من عصور التمييز فى المنزلة ، وفى تلك المجتمعات التى ابتعد نظامها الاقتصادى أقصى ابتعاد عن الظروف التى كان هذا النظام التقليدى يتلاءم واياها . وتأتى المطالبة من جانب ذلك الفريق من النساء اللائى يعفيهن قانون الوجاهة من كل عمل منتج واللائى تتوفر لهن حياة البطالة والاستهلاك البين توفرا تاما .

وقد أساء فهم بواعث حركة « المرأة الجديدة » هذه أكثر من واحد ممن تعرضوا لها بالنقد . وقام أخيرا أحد المعلقين المعروفين على الظواهر الاجتماعية بتلخيص موضوع « المرأة الجديدة » الامريكية فقال : « انها تحظى بالتدليل على يدى زوجها ، أكثر الأزواج اخلاصا فى العالم وأكثرهم عملا شاقا .. وهى تفوق زوجها فى التعليم وفى كل ناحية تقريبا . وهى محاطة بأكثر مظاهر الرعاية وأرقها ، ومع ذلك فهى غير راضية .. وحركة «المرأة الجديدة » الانجلوسكسونية أكثر ما أنتجته الأزمنة الحديثة سخفا ، وقد كتب عليها أن تلقى اشنع ما شهده هذا القرن من فشل » . واذا صرفنا النظر عما تنطوى عليه هذه الصورة من استهجان — قد يكون فى موضعه الملائم — فانها لاتزيد مشكلة المرأة الا غموضا . فان شعور المرأة الجديدة

بالضيم مبعثه تلك الأسباب التي يسوقها هذا الوصف الخاص للحركة على أنها أسباب يجب أن تبعث على رضاء المرأة • فهى تدلل ، ويسمح لها ، بل ويرجى منها ، أن تستهلك استهلاكا كبيرا بينا ـ بالتبعية نيابة عن زوجها أو أى وصى طبيعي آخر ، وهي معفاة ، أو ممنوعة من أداء الأعمال الانتاجية التي يقوم بها عامة الناس ـ كل ذلك لتظهر بمظهر الفراغ بالتبعية من أجل حسن سمعة وصيها الطبيعي (أى المالى) • وهذه هى العلامات المتعارف عليها التي يتميز بها غير الأحرار ، وهى فى نفس الوقت لاتتفق والدافع البشرى الى النشاط الهادف • ولكن المرأة قد أوتيت نصيبها ـ وهناك مايدعو الى الاعتقاد بأنه أكثر من نصيب عادل ـ من غريزة حب الاتقان التى تستهجن التفاهة فى الحياة وفى الانفاق • وعليها أن تكشف عن طاقاتها فى الحياة استجابة لدوافع البيئة الاقتصادية التى تعيش فيها ، استجابة مباشرة دون تدخل من جانب أحد • وربما كان الدافع الذى يدفع المرأة الى أن تحيا حياتها الخاصة بطريقتها الخاصة ، وأن تتصل بحياة المجتمع الصناعية بشخصها لا ممثلة فى شخص آخر ، ربما كان هذا الدافع أشد على المرأة مما هو على الرجل •

وطالما كانت مكانة المرأة على الدوام مكانة الكادح ، فانها ، فى متوسط الحالات ، ترضى بما قسم لها . فليس لدى المرأة شيء ملموس وهادف تفعله فحسب ، بل هى أيضا لاتجد من الوقت والتفكير ماتضيعه فى التذمر استجابة لمثل هذه الدوافع البشرية التى تدفعها الى توجيه حياتها بالطريقة التى ورثتها عن الماضى • وعندماتنتهى مرحلة الكدح النسائى العامة ،ويصبح الفراغ بالتبعية والامتناع عن بذل أى جهد شاق هو المهمة التى تناط بنساء الطبقة الميسورة ، فان القوة التقليدية لقانون الوجاهة المالية ، الذى يوجب عليهن التزام القيام بالأعمال التافهة دون غيرها ، سوف تحول أمدا طويلا بين النساء المثقفات وبين الاتجاه الى تدبير أمورهن بأنفسهن أو أداء اى عمل نافع • وهذا يصدق بصفة خاصة خلال المراحل الأولى من الثقافة المالية ، حين لايزال فراغ الطبقة المترفة نشاطا عدوانيا الى حد ما ، وتوكيدا ايجابيا للسيادة ينطوى على أهداف ملموسة من نوع تحاسدى ، بقدر يكفى لأن تعتبر بحق عملا يستطيع الانسان أن يمارسه دون خجل • والظاهر أن وضع الأمور على هذا النحو قد بقى كما هو فى بعض المجتمعات الى وقتنا الحاضر • وهو يبقى على حاله بدرجات تختلف باختلاف الأفراد ، وتتراوح تبعا لقوة الشعور بالتفريق فى المنزلة وتبعا لضعف دافع الاتقان الذى وهبه الفرد • لكن اذا كان الكيان الاقتصادى للمجتمع قد تطور بحيث لم يعد يلائم نظام الحياة القائم على التفرقة فى المنزلة وبحيث لم يعد الناس يشعرون بأن علاقة التبعية الشخصية هى العلاقة الطبيعية

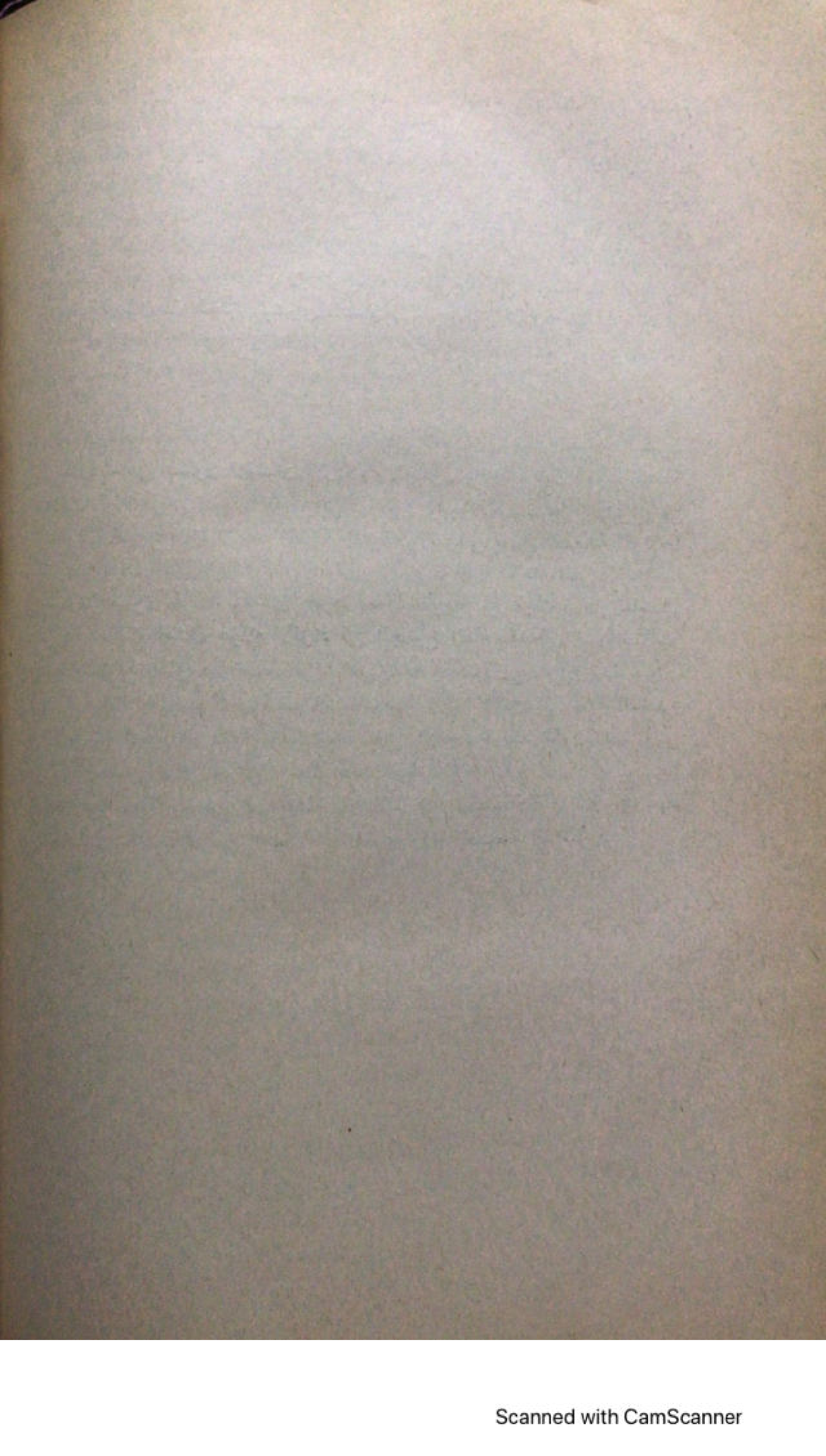
الوحيدة ، فهنا سوف تبدا عادة النشاط الهادف القديمة فى الظهور بوضوح فى الأفراد الذين لم يتوفر لهم قدر كبير من الراحة ، فى مواجهة العادات والآراء الحديثة ، السطحية نسبيا ، سريعة الزوال نسبيا ، التى جادت بها الثقافة العدوانية والثقافة المالية على نظام حياتنا . وهذه العادات والآراء تبدأ فى فقدان سلطانها القاهر على المجتمع ، أو الطبقة المعينة ، حالما تصبح طرق التفكير ووجهات النظر التى أوجدها النظام العدوانى والنظام ذو المظهر السلمى ، غير متفقة تماما مع المركز الاقتصادى الذى تطور اليه المجتمع أخيرا . وهذا واضح فى حالة الطبقات العامة فى المجتمعات الحديثة ، فهم يرون أن نظام حياة الفراغ قد فقد كثيرا من قوته ، وخاصة فيما يتعلق بعنصر المنزلة الاجتماعية . ولكن من الواضح أيضا أن الطبقة الراقية لاتزال تتمسك به ، وان لم يكن بنفس الطريقة .

والعادات المأخوذة عن الثقافة العدوانية والثقافة السلمية المظهر ، هى اشكال متنوعة سريعة الزوال نسبيا من دوافع وصفات عقلية معينة خاصة بالجنس البشرى آلت اليه عن النظام الطويل الأمد الذى ساد فى عصر الثقافة البدائية للانسان الأول ، عصر الحياة الاقتصادية السلمية المستقرة نسبيا ، وسط بيئة مادية بسيطة نسبيا وغير منوعة . وعندما تعجز طرق التفكير التى فرضتها طرق الحياة التنافسية ، عن التلاؤم مع المطالب الاقتصادية القائمة ، تبدأ عملية انحلال ، تضطر معه طرق التفكير الجديدة ذات الطابع الأقل شمولا ، الى اخلاء الطريق أمام خصائص الجنس البشرى الروحية القديمة الأوسع انتشارا .

فحركة المرأة الجديدة من بعض النواحى ، اذن علامة على الانتكاس الى نوع من الطبائع البشرية أكثر شمولا ، أو الى تعبير عن الطبيعة البشرية اقل تنوعا . وهو نوع من الطبيعة البشرية يمكن أن يقال عنه انه من مميزات الانسان الأول ، وهو يرجع – من حيث مادته ان لم يكن من حيث السمات الغالبة فيه – الى مرحلة ثقافية يمكن أن نصفها بأنها دون المرحلة الانسانية . وهذه الحركة المعينة أو المظهر التطورى يشترك ، بطبيعة الحال فى هذه المميزات مع سائر مراحل التطور الاجتماعى الذى حدث بعده ، على قدر ما يكشف هذا التطور الاجتماعى عن دلائل العودة الى الاتجاهات الروحية التى تتميز بها المرحلة السابقة غير المنوعة من مراحل التطور الاقتصادى . ومثل هذا الدليل الذى يفصح عن اتجاه عام للتحرر من سلطان المصلحة التحاسدية لايعوزنا تماما ، وان لم يتوفر لنا منه الكثير ، ولا هو حاسم بغير جدال . فالاضمحلال العام للشعور بالتفريق فى المنزلة فى المجتمعات الصناعية الحديثة له بعض الدلالة على هذا الاتجاه ، والعودة التى نلاحظها الى

استنكار الفراغ فى حياة الانسان ، واستنكار أنواع النشاط التى لاتخدم الا مصلحة الفرد على حساب المجموع أو على حساب طبقات أخرى ، دليل على الاتجاه ذاته • ويوجد اتجاه ملحوظ الى استهجان ايقاع الأذى بالناس ، كما يوجد اتجاه الى اعتبار كل عمل من أعمال النهب أمرا شائنا ، حتى لولم تتسبب هذه الأعمال التى تعبر عن المصالح التحاسدية فى انزال أذى ملموس بالمجتمع أو بالفرد الذى يصمها بهذه الوصمة • بل قد نستطيع أن نقول أن معدل الشعور الذى لايتأثر بالاهواء للرجال فى المجتمعات الصناعية الحديثة ، يرى أن الخلق البشرى النموذجى هو الخلق الذى يعمل من أجل السلام والمحبة والكفاية الاقتصادية ، لا من أجل حياة تسعى وراء المصلحة الشخصية والقوة والاحتيال والسيادة •

وتأثير الطبقة المترفة لايعمل بانتظام على العودة الى هذه الطبيعة البشرية التى سادت فى عصور الانسان الأول ، ولا يحول بانتظام دون العودة اليها• ففيما يتعلق بفرص البقاء أمام الأفراد الذين وهبوا نصيبا استثنائيا من الطباع البدائية ، نجد موقف الطبقة المترفة الانعزالى يعمل لمصلحة أفرادها مباشرة بابعادهم عن مجال الصراع المالى ، لكن قوانين الطبقة المترفة الخاصة بالاسراف المظهرى فى السلع والجهود تعمل بطريقة غير مباشرة على تقليل فرص البقاء أمام أمثال هؤلاء الأفراد فى المجموع العام للسكان • ومطالب التبديد المعقولة تعمل على امتصاص فائض طاقة المجتمع فى صراع تحاسدى ، ولا تترك مجالا لمطالب الحياة غير التحاسدية . أما الآثار الروحية البعيدة غير الملموسة لنظام الوجاهة فانها تتجه نفس الاتجاه ، وقد تكون ذات تأثير أكبر فى تحقيق هذا الغرض • وقواعد الحياة اللائقة هى تهذيب لمبدأ المقارنة التحاسدية ، وهى لهذا تعمل بانتظام على الحيلولة دون بذل أى جهد غير تحاسدى ، وعلى غرس الاتجاه الى الجرى وراء المصلحة الذاتية •



الفصل الرابع عشر

الدراسة العليا كتعبير عن الثقافة المالية

يهدف المجتمع دائما الى أن يحافظ على بعض أساليب التفكير فيما يتعلق بموضوعات خاصة لكى تتنقل الى الأجيال الصاعدة ، ومن أجل هذا يقيم نظاما للتعليم يقره المجتمع ويجعله جزءا من نظام الحياة العام . وأساليب التفكير التى تتشكل بهذه الطريقة بفضل ارشاد المعلمين والتقاليد التعليمية لها — من حيث تأثيرها فى قيمة مايؤديه الفرد من خدمات — قيمة اقتصادية حقيقية لاتقل فى حقيقتها عن القيمة الاقتصادية لأساليب التفكير التى شكلتها **ظروف الحياة اليومية** ، **دون تدخل** من هذا الارشاد . وأية صفة من التى يتميز بها النظام التعليمى المتعارف عليه والتى يمكن أن ننسبها الى نزعات الطبقة المترفة أو الى تأثير قوانين المكانة المالية ، ترجع كلها فى أساسها الى هذا النظام ، وكل قيمة اقتصادية تنطوى عليها مظاهر التعليم هذه ، هى تعبير تفصيلى عن قيمة هذا النظام . وعلى ذلك فمن الملائم فى هذا المجال أن نذكر أية مظاهر معينة من مظاهر النظام التعليمى يمكن أن تنسب الى نظام حياة الطبقة المترفة ، سواء من حيث هدف النظام ووسائله ، أو من حيث مدى وخصائص العلوم التى يشتمل عليها . فمجال التعليم بالذات ، ومجال التعليم العالى بصفة خاصة ، هو المجال الذى يظهر فيه تأثير الطبقة المترفة أوضح ظهور . وبما أننا لا نرمى هنا الى مقارنة مستفيضة بين الأرقام التى تبرز تأثير الثقافة المالية على التعليم ، بل تهدف بالحرى الى توضيح طريقة تأثير الطبقة المترفة فى التعليم واتجاهه ، فلن نحاول هنا سوى عرض بعض مظاهر التعليم العالى الرئيسية التى تخدم هذا الغرض .

والتعليم ، من حيث منشاه وتطوره فى مراحله الأولى ، يتصل اتصالا وثيقا نوعا بعمل النذور فى المجتمع ، وعلى الأخص بمجموعة الطقوس التى تظهر فيها عبادة الطبقة المترفة التى توجد فيما وراء الطبيعة . والعبادة التى ترمى الى ارضاء القوى الخارقة للطبيعة ليست ، فى العقائد البدائية ، عملا تكسبيا يضيع فيه المجتمع وقته وجهده . لذلك يجب أن نعتبره الى حد كبير فراغا بالتبعية يخدم القوى الخارقة التى يناجيها المتعبد ، والتى يرى أن عبادتها وتقديم الخضوع لها يؤديان الى كسب رضائها . والعلم فى مراحله الأولى كان فى معظمه تحصيلا للمعرفة وللخشوع فى عبادة قوى الطبيعة

الخارقة . ولذلك كانت طبيعته تتفق والدربة اللازمة لتأدية الخدمات المنزلية لرب البيت . والعلم الذى يحصله المرء على أيدى المعلمين من رجال الدين فى المجتمعات البدائية كان علما يتعلق بالعبادات والعقائد ، أى معرفة أنسب الطرق واحسنها أثرا أو أضمنها للتقرب الى القوى الخارقة للطبيعة وخدمتها . وكان التعليم يقتصر على كيف يستطيع الانسان ان يقنع هذه القوى بأن لاغنى لها عنه ، وبهذا يضع نفسه فى مركز يسمح له ان يسأل ، بل وأن يطلب اليها ، التدخل فى مجرى الحوادث ، أو الابتعاد عن التدخل فى أى عمل معين .. وكان الغرض من هذا هو نوال الرضاء ، وكان هذا الرضاء يتحقق عن طريق زيادة الخشوع فى العبادة . ويبدو أن عناصر العبادة الأخرى ، غير التفانى فى خدمة المعبود ، لم تتسرب الا تدريجيا الى صلب التعاليم الكهنوتية او الشامانية (**العقائد التى تقوم على السحر والشعوذة**) .

والخادم الكهنوتى الذى يقوم على خدمة القوى الغامضة التى تتحرك فى العالم الخارجى ، قد اتخذ لنفسه وظيفة الوسيط بين هذه القوى وبين غير المتعلمين من عامة الشعب ، لأنه كان ملما بقواعد السلوك الخارقة التى تسمح له بالمثول بين يدى المعبود ، وكما يحدث دائما للوسطاء بين عامة الشعب وبين السادة ، سواء كان السادة من البشر أو فوق البشر ، كان الوسيط يجد من مصلحته ان تتوفر له الوسائل المحسوسة التى تدخل فى روح العامة الشعور بأن هذه القوى الغامضة سوف تحقق له اى مطلب يطلبه .. ومن هنا كان لابد ان يمتزج فورا بالعلوم الكهنوتية المام ببعض العمليات الطبيعية ، كى يستغله فى القيام ببعض المشاهد الخارقة التى تترك فى العامة اثرا بالغا . وان يمتزج بهذا الالمام شىء من خفة اليد . والعامة تفهم العلم الذى من هذا القبيل على أنه علم باسرار « الغيب » وترجع فائدته فى خدمة الاغراض الكهنوتية الى طابعه «الغيبى» . ويبدو ان العلم ، بصفته نظاما ، قد نبع من هذه الحقيقة ، وان تفرعه من هذا الأصل الذى هو منبعه الأول المتصل بالطقوس السجدية والضلال الشامانى ، يبدو أن تفرعه هذا كان عملية بطيئة مطولة ، وانها لم تنته بعد ، حتى فى اكثر مراحل التعليم تقدما .

ولا تزال النواحى الغامضة فى التعليم ، كما كانت دائما فى جميع العصور ، عنصرا جذابا ومؤثرا فى غير المتعلمين ، بل موحيا لهم بالرهبة . ومكانة العالم فى ذهن من لم ينالوا أى قسط من التعليم ، تقاس بمقياس اتصاله الوثيق بالقوى الخفية . ومن هذا القبيل مثلا ، أن الفلاحين من أهل النرويج كانوا الى عهد قريب جدا ، بل الى منتصف هذا القرن ، يدركون بالغريزة أن العلم الغزير الذى بلغه بعض أساطين اللاهوت من أمثال لوثر

وميلانكتن وبيترداس ، بل وعالم آخر فى اللاهوت حديث العهد جدا هو جروندفج ، كان الفلاحون من أهل النرويج يفسرون سعة علم هؤلاء الأساطين على أنه نوع من الفنون السوداء ، فهؤلاء العلماء ، ومعهم عدد كبير من علماء أقل شهرة ، بعضهم مات وبعضهم لايزال حيا ، كان المعروف عنهم أنهم متبحرون فى العلوم السحرية . واذا بلغ رجل من رجال اللاهوت منزلة مرموقة ، فان معنى هذا ، فى نظر أولئك الفلاحين البسطاء ، أن له قدما راسخة فى الأعمال السحرية والعلوم الخفية . وهناك حقيقة شبيهة بهذه أقرب الى ديارنا ،وهى كسابقتها توضح العلاقة الوثيقة فى أذهان العامة بين التبحر فى العلوم وبين عالم المجهول ، وهى تساعد فى نفس الوقت على أن تفسر ، بطريقة أقل وضوحا نوعا ،الوجهة التى تحددها حياة الطبقة العاطلة للميول العلمية. ومع ان هذا الاعتقاد لايقتصر بحال من الأحوال على الطبقة العاطلة ، فان بين هذه الطبقة اليوم عددا لايتناسب مع عددها ،من الذين يؤمنون بالعلوم السحرية بجميع أنواعها والوانها . ولايزال الناس الذين لم يؤثر اتصالهم بالحياة الصناعية فى اساليب تفكيرهم يشعرون أن العلم بالمجهول هو آخر المطاف فى العلم ، ان لم يكن هو وحده العلم الحقيقى .

فالعلم قد بدأ ، اذن ، على أنه فى بعض نواحيه ابتكار طبقة المترفين بالتبعية من رجال الدين ، وقد بقى التعليم العالى منذ ذلك الوقت ، فى بعض نواحيه على الأقل ، ابتكارا أو وظيفة ثانوية من وظائف طبقات الكهنوت . وكانت مجموعة العلوم المنظمة كلما زادت ظهر فى الحال تمييز - يمكن ان نقتفى أثره الى عصور التعليم السحيقة - بين العلوم الخفية والعلوم العلنية وكانت الأولى - من حيث مابينها من فروق أساسية - تشتمل على ماليس له نتائج اقتصادية أو صناعية من العلوم ، وتشتمل الثانية أساسا على معرفة العمليات الصناعية والظاهرات الطبيعية التى كانت تستغل عادة فى تفسير اغراض الحياة المادية . وبمرور الزمن صار هذا الخط الفاصل ، فى مفهوم العامة على الأقل ، هو الخط العادى الذى يفصل بين التعليم العالى وغير العالى .

ومما له مغزى ، لا من حيث كونه شاهدا على ارتباطه الوثيق بالمهن الكهنوتية فحسب ، بل أيضا من حيث دلالته على أن نشاط رجال الدين يدخل الى حد كبير فى نطاق نوع الفراغ البين الذى يطلق عليه اسم السلوك أو التربية ، نقول مما له مغزى فى هذا السبيل ان الطبقة المتعلمة فى جميع المجتمعات البدائية من أشد المتمسكين بالعادات المرعية وأدب السوابق والتمييز بين الناس فى المنزلة والطقوس والملابس والأزياء التقليدية التى يلبسها رجال العلم بوجه عام . وهذا أمر من الطبيعى أن يكون ، ومعناه ان

التعليم العالى في مراحله البدائية ، مهنــة من مهن الطبقــة المترفة ـ أو هو بتحديد أكبر ، مهنة من مهن الطبقــة المترفة بالتبعية التى تعمــل فى خدمة الطبقة المترفة فيما وراء الطبيعة . لكن هذا التمسك بالرداء الجامعى يقوم أيضا شاهدا على نقطة أخرى من نقط الاتصال أو الاستمرار الذى يصل بين مهمة رجل الدين ومهمة رجل العلم . فالعلم كوظيفة رجل الدين ، هو ، من حيث النشأة ، والى حد كبير ، نتيجة من نتائج السحر الذى مبعثه الرحمة . ولذلك فمن الطبيعى أن تتبوأ هذه الأداة السحرية ، التى هى السلوك والطقوس ، مكانها بين طبقة المتعلمين فى المجتمعات البدائية . فالطقوس والملابس المزركشة لها قدرة خفية على خدمة الأغراض السحرية ، لهذا كان وجودها بصفتها عاملا لاغنى عنه فى المراحل الأولى لتطور السحر والعلم ، من الأمور الملائمة لأغراض صاحبها ، تماما كنظرة الحب الى مجرد الرموز الوثنية .

وهذا الاعتقاد فى أهمية الرموز الطقسية وأهمية التأثيرات التعاطفية التى يجب تحقيقها عن طريق المهارة فى ترتيل الطقوس التقليدية الضرورية للعمل أو للغرض الذى يرجى تحقيقه ، موجود بالطبع فى أعمال السحر بدرجة أوضح والى حد أكبر مما هو موجود فى مجالات العلوم ، بل حتى مما هو فى مجال العلوم الخفية . لكننى أعتقد ان القليلين فقط من الناس الذين وهبوا القدرة على تقدير المكانة العلميــة للمتعلمين يستهينون بالاجراءات الطقسية التى لاتزال عالقة بمظاهر التعليم ويعتبرونها توافه عديمة القيمة بالكلية . وكل من يمعن النظر فى سير تاريخ التعليم فى حضارتنا لا بد ان يلحظ تشبث هذه الاجراءات الطقسية الشديد بالبقاء خلال مراحل التطور الأخيرة . بل اننا لا نزال الى اليوم نرى مثل هذه الأمور فى مظاهر تتمسك بها المجتمعات المتعلقة كلباس الراس الجامعى والرداء الجامعى ، وكالاحتفالات التى تقام فى مناسبات جواز امتحان السنة الاعدادية للجامعة واحتفالات الالتحاق والتخرج ، وفى منح الدرجات والألقاب والامتيازات العلمية بطريقة توحى بنوع من خلافة العلماء للرسل . وترتيب رجال الكهنوت فى درجات تمتاز بعضها على بعض ، هو دون ريب أقرب المنابع التى نبعت منها هذه المظاهر الطقسية العلمية من أمثال الرداء الجامعى ، كرسالة الكاهن ومنح الجلال والبركة عن طريق اللمس باليد ، وما الى ذلك . لكن الأصل الذى اشتقت منه هذه العادات يمكن أن نتتبعه الى أن نجدها قد خرجت من المنبع الذى أخذت منه طبقة رجال الدين المتخصصين بالذات ، خلال عملية التخصص التى أدت الى التمييز بين رجل الدين والساحر من جهة ، وبينه وبين الخادم الذى يقوم على خدمة سيد من البشر من جهة أخرى . أما فيما يتعلق باشتقاقها ومغزاها السيكولوجى ، فان هذه العادات وما تقوم عليه من

مفاهيم فى أذهان الناس ترجع الى مرحلة فى التطور الثقافى ليست أحدث من مرحلة (الساحر المشعوذ) وصانع المطر • وعلاقتها بطقوس العبادة التى أتت بعدها ، وكذلك بنظام التعليم العالى ، هى أنها رواسب متخلفة عن مرحلة روحانية قديمة من مراحل تطور الطبيعة البشرية •

بوسعنا أن نقرر ، دون أن نجانب الصواب ، أن هذه الملامح الطقسية للنظام التعليمى فى الحاضر وفى الماضى القريب تحتل مكانها أولا فى معاهد التعليم العالى والعام والكلاسيكى ، لافى مراحل التعليم وفروعه الأدنى والتكنولوجية والعملية . فاذا احتوت مراحل التعليم الدنيا وفروعه الأقل صيتا على مثل هذه الملامح ، فمن الواضح أنها قد أخذتها عن المراحل العليا • ثم أن استمرار وجودها فى المدارس العملية دون سند من وجود مثل لها تحتذيه فى المراحل العليا والتكنولوجية ، أمر أقل ما يقال عنه أنه بعيد الاحتمال جدا • لأن وجود مثل هذه المظاهر فى المدارس المتوسطة والعملية وتعليمها لتلاميذها مبعثه التقليد ـ الذى يرجع الى الرغبة فى التمشى قدر المستطاع مع مستويات الوجاهة العلمية التى تحافظ عليها المراحل والفصول العليا ، التى وصلت الى هذه الطقوس المظهرية الثانوية أخذا عن أسلافها •

بل نستطيع أن نذهب فى التحليل خطوة أبعد من هذا فنقول ان البقايا الطقسية أو الانتكاسات اليها تظهر على أشدها ، وبقدر لاحد له من الذاتية ، فى حلقات التعليم التى تعنى أساسا بتعليم فصول اللاهوت والطبقة المترفة . وعلى هذا يجب اذا أنعمنا النظر فى التطورات الحديثة فى حياة الكليات والجامعات ان نتوقع، وهذا هو مايحدث فعلا بدرجة لابأس بها من الوضوح أن نجد المدارس التى أنشئت لتثقيف الطبقات الدنيا فى فروع المعرفة ذات الفائدة المباشرة ، اذا تطورت الى معاهد للتعليم العالى ، فان تطور الاحتفالات الطقسية وما يلازمها من مظاهر البهاء ، وظهور بعض الزخرف العلمى المنمق ، يسير جنبا الى جنب مع تحول المدارس المذكورة من مجال الدراسة العلمية المعروفة الى المجال الكلاسيكى العالى . فقد كان الهدف الأول لهذه المدارس والعمل الذى قامت أصلا من أجله فى أولى هاتين المرحلتين التطوريتين ، هو اعداد شباب الفصول الصناعية للعمل • اما على مستوى التعليم العالى الكلاسيكى التى تتحول اليها عادة ، فيصبح الطابع الغالب عليها هو اعداد شباب طبقة الكهنة والطبقة المترفة ـ أى شباب فى مستهل حياة الفراغ ـ لاستهلاك السلع ، من مادية وغير مادية ، بما يلائم أوجه الاستهلاك وطرقه المتعارف عليها • وقد كانت هذه الخاتمة السعيدة هى بوجه عام مآل المدارس التى ينشئها «أصدقاء الشعب» لمعاونة الشباب المكافحين.

وحينما يحدث هذا التحول بالطريقة التى تجعله ملائما لأغراضه الجديدة ، فان المدارس فى العادة ، ان لم يكن فى جميع الأحوال ، تعتريها فى نفس الوقت تحول الى حياة أكثر تمسكا بالطقوس .

وفى الحياة المدرسية فى الوقت الحاضر نرى الاهتمام بالطقوس على أشده فى المدارس التى جعلت هدفها الأساسى تدريس « العلوم الانسانية » وربما كان هذا الارتباط ظاهرا فى تاريخ حياة الكليات والجامعات الامريكية ذات النشأة الحديثة بدرجة أدق مما هو ظاهر فى غيرها من المعاهد . وقد يكون لهذه القاعدة شواذ كثيرة ، وخصوصا بين تلك المدارس التى أنشأتها الكنائس المعروفة بالتدين والتمسك بالطقوس ، والتى قامت ، من أجل ذلك ، على أساس من التمسك الكلاسيكى ، أو بلغت هذا المركز الكلاسيكى من أقصر السبل . لكن القاعدة العامة فيما يتعلق بالكليات فى المجتمعات الأمريكية الأحدث نشأة خلال القرن الحاضر ، هى أنه طالما بقى المجتمع فقيرا ، وطالما بقيت عادات الكدح والادخار تسود البيئة التى تستمد منها الكلية طلبتها ، فلن يكون هناك فى البرامج الدراسية متسع للمواد التى تمت بصلة الى الشعوذة الطبية التى كانت تسود المجتمعات الهمجية . لكن ما ان تبدأ ثروة المجتمع فى الزيادة بدرجة كبيرة ، وما أن تبدأ مدرسة بالذات تستمد طلبتها من بيئة تعيش فيها طبقة عاطلة ، حتى يبدأ أيضا الحاح ، يزداد ازديادا ملحوظا ، على ادخال الطقوس المدرسية ، وعلى الاتجاه الى الطرق القديمة فى الزى المدرسى وفى الاحتفالات الاجتماعية والمدرسية الفخمة ولذلك كان هناك مثلا اتفاق تقريبى فى التوقيت بين زيادة الثروة فى المنطقة التى تزود بابنائها أية كلية معينة فى الغرب الأوسط (الأمريكى) وبين تاريخ أول ظهور ملابس السهرة بين الشبان والفتيات بصفتها الملابس اللائقة للمناسبات ولجلال العلم ، أو للمناسبات الاجتماعية السعيدة فى دوائر الكلية ، ثم بعد ذلك تاريخ ذيوع استعمالها . وليست هناك صعوبة تذكر فى أن نقتفى أثر هذا الارتباط ، بصرف النظر عما يكتنف مثل هذا العمل المتشعب من صعوبة آلية . ومثل هذا القول صحيح فيما يتعلق بذيوع استعمال لباس الرأس والرداء الجامعيين .

ولقد دخل لباس الرأس والرداء الجامعيان الى كثير من كليات هذا الجزء من الولايات المتحدة خلال السنوات القليلة الماضية على أنهما من الشعارات المميزة للمتعلمين . ومن الصواب أن نذكر أن هذا ربما لم تكن لتسنح له فرصة تذكر ليحدث فى تاريخ سابق على هذا كثيرا ، أو قبل أن تظهر فى المجتمع طبقة مترفة لها رأى قوى يستطيع أن يدعم حركة قوية تنادى بوجوب العودة الى الأهداف التعليمية القديمة بصفتها أهدافه الشرعية

.. **ونستطيع أن نذكر أن هذا البند بالذات من بنود الطقوس التعليمية** ليس فقط مرضيا لرأى الطبقة المترفة فيما يتعلق بالأمور اللائقة ، اذ انه يلائم الميول القديمة الى التأثير فى الناس تأثيرا يلفت الأنظار ، ويلائم الميل الى الرمزية البائدة ، لكنه فى الوقت نفسه يلائم نظام حياة الطبقة المترفة لأنه عنصر **ملحوظ من عناصر الاستهلاك المظهرى** ، أما التاريخ الدقيق الذى تمت فيه هذه العودة الى لباس الرأس والرداء الجامعيين ، وكذلك كون هذه العودة حدثت فى عدد كبير من المدارس فى وقت واحد تقريبا ، فيبدو أنهما يرجعان الى حد ما ، الى موجة سادت المجتمع فى هذه الفترة من موجات الحنين الى **ماكان يمارسه السلف من آداب السلوك ودعامات الوجاهه** .

قد لانبعد عن الصواب كثيرا اذا قلنا ان هذا الانتكاس يبدو أنه حدث فى نفس الوقت الذى بلغت فيه الرغبة فى العودة الى التقاليد والعادات القديمة ذروتها فى نواح أخرى كذلك . ويبدو ان موجة الانتكاس قد اكتسبت قوة الدفع الأولى من آثار الانحلال السيكولوجي الذى خلقته الحرب الأهلية . فان الاعتياد على أوضاع الحرب يقتضى مجموعة من أساليب التفكير العدوانية ، حيث تحل روابط العشيرة محل روابط الوحدة القومية ، ويحل شعور التمييز التحاسدى محل دوافع الانصاف والاستعداد لأداء الخدمات اليوميه . ومن نتائج الآثار المتراكمة لهذه العوامل أن يصبح الجيل الذى يأتى فى أعقاب حرب عرضة لأن يشهد تعديلا فى العناصر التى تبنى عليها منزلة المرء ، من الناحية الاجتماعية ومن ناحية نظام طقوس العبادة وغيرها من الأشكال الرمزية والطقسية كذلك . ففى خلال العقد التاسع من القرن الماضى ، وفى خلال العقد الثامن أيضا لكن بدرجة أقل وضوحا ، كان فى الامكان ملاحظة موجة متزايدة من العواطف تحبذ الأساليب التحاسدية شبه العدوانية والتمسك بالفروق التى تميز بين النـاس فى المنزلة وبالمذاهب التجسيدية ، وعلى العموم بالمذاهب التى تتمسك بالقديم . وهذه الأساليب الهمجية من أساليب التفكير التى تعود مباشرة ودون وسيط ، من أمثال العودة الى النشاط غيرالمشروع وحياة الغش شبه العدوانى التى يتبعها بعض أساطين الصناعة ، كانت سائدة قبل ذلك ، وكانت قد أخذت فى الانحطاط بشكل ملحوظ فى أواخر العقد الثامن . ويبدو أيضا ان العود الى الشعائر الانسية قد جاوز أشد مراحله حدة قبل ختام العقد التاسع . لكن الطقوس ومظاهر الزخرف والتنميق التى تلابس التعليم والتى تناولناها هنا بالكلام هى مظهر من مظاهر العقائد الروحانية الهمجية أقدم وأكثر غموضا . وعلى ذلك فقد زاد انتشارها وتنميقها ببطء أكبر فبلغت ذروة قوتها فى تاريخ تال على ذلك . وهناك مايدعو الى الاعتقاد أنها اليوم قد جاوزت ذروتها ومن المحتمل أن التطورات الحديثة والتوسع فى استعمال الشعارات

والاحتفالات المدرسية سوف تأخذ فى التدهور التدريجى ، الا حيث تتهيأ لها قوة دافعة جديدة نتيجة لحرب جديدة ، والا حيث تلقى — من لدى طبقة الأثرياء المتزايدة العدد — المساندة التى يلقاها كل نوع من انواع الطقوس ، ولا سيما الاحتفالات التى تكون مجالا للاسراف البين وتدل دلالة قاطعة على تفاوت الناس فى المكانة · لكن مع انه قد يكون صحيحا أن شعار الراس والرداء الجامعيين ، وكذلك ماصحبهما من التعليمات المشددة الخاصة بالتقاليد المدرسية قد وجدت طريقها الى الحياة الجامعية وسط موجة الانتكاس الى العادات الهمجية ، فمن الصحيح أيضا دون ريب أن مثل هذا الانتكاس الطقسى لم يكن ليحدث الا بعد أن زاد تضخم الثروة فى أيدى أصحاب الأملاك الى حد يسمح لها بتهيئة الأساس المالى الضرورى لحركة تهدف الى تطور الكليات فى البلاد بحيث تلائم أهداف الطبقة المترفة من الدراسة العليا. وادخال شعار الراس والرداء الى الطقوس الجامعية هو احد المظاهر الوراثية المدهشة للحياة الجامعية الحديثة ، وهو فى نفس الوقت يقوم دليلا على أن هذه الكليات قد أصبحت نهائيا من المنشآت الخاصة بالطبقة المترفة ، من حيث ماتحققه فعلا أو ماترمى الى تحقيقه من الأغراض ·

وللتدليل على العلاقة الوثيقة بين نظام التعليم والمستويات الثقافية للمجتمع ، نستطيع أن نذكر أن هناك اتجاها ظهر حديثا للاستعاضة باساطين الصناعة عن رجال الدين فى عمادة معاهد الدراسة العليا ، وهذه الاستعاضة ليست بحال من الأحوال تامة ولا محددة · والذين يجمعون بين وظيفة كهنوتية وبين درجة عالية من المقدرة المالية هم أحسن من يحوز القبول لشغل وظيفة العمادة فى احدى هذه الكليات · وهناك اتجاه مماثل ، لكنه اقل وضوحا ، الى اسناد وظائف التثقيف فى مراحل التعليم العليا الى رجال تتوفر لهم بعض المؤهلات المالية · والمقدرة الادارية والمهارة فى الاعلان عن المشروع لهما اليوم اهمية تزيد على ما كان لهما فى وقت من الأوقات كعوامل تؤهل صاحبها لوظيفة التعليم · وهذا صحيح لاسيما فى حالة العلوم التى لها اكبر ارتباط بحقائق الحياة اليومية · وهو صحيح بصفة خاصة فيما يتعلق بالمدارس الموجودة فى أوساط يتركز تفكيرها فى الناحية الاقتصادية دون سواها · وهذه الاستعاضة المغرضة بالمنزلة المالية عن الكهنوتية ملازمة للتحول الحديث من الفراغ البين الى الاستهلاك البين بصفته اهم وسيلة للشهرة · وقد تكون العلاقة بين الحقيقتين واضحة بغير حاجة الى مزيد من الافاضة ·

وموقف المدارس والطبقة المتعلمة من تعليم المرأة يوضح الى أى مدى وبأية وسيلة ابتعد التعليم عن وضعه القديم حينما كان امتيازا لطبقة رجال

الدين والطبقة المترفة ، ويوضح أيضا كيف واجهت الطبقة المتعلمة الحقيقية الموقف الواقعى الحديث الاقتصادى او الصناعى . فقد كانت المدارس العليا والوظائف العلمية الى عهد قريب محرمة على المرأة ، وكانت تلك المؤسسات من بادىء الأمر ، وبقيت حتى الآن بنسبة كبيرة ، مخصصة لتعليم طبقة رجال الدين والطبقة المترفة .

وقد كانت النساء ، كما أوضحنا فى مكان آخر ، الطبقة الأصلية التى تقوم بالخدمة ، ولا زلن يحتفظن الى حد ما ، خصوصا فيما يختص بمراكزهن الاسمية أو المظهرية ، بهذه العلاقة بينهن وبين الرجال الى وقتنا هذا . وهناك رأى قوى سائد مؤداه أن السماح للمرأة بالتمتع بامتيازات التعليم العالى (كالسماح لها بالمشاركة فى الاحتفالات الايلوزية فى التاريخ القديم) من شأنه أن يحط من كرامة المهن العلمية . ومن أجل هذا لم يسمح للمرأة بدخول مراحل التعليم العليا الا اخيرا جدا ، ويكاد هذا يقتصر على أكثر المجتمعات تقدما فى الصناعة . بل ان أعلى الجامعات واحسنها سمعة تظهر نفورا بالغا من اتخاذ هذه الخطوة ، حتى تحت ضغط الظروف السائدة فى المجتمعات الصناعية الحديثة . فالشعور بتفاوت المكانة بين الطبقات ، اى الشعور بالتباين فى المنزلة، وبالتمييز فى المنزلة بين الجنسين بناء على الاختلاف بين مكانة عقلية عالية وأخرى أقل منهـا ، ما زال موجودا بشكل قوى فى هذه المنشآت الخاصة بارستوقراطية المعرفة . فهناك شعور سائد بأن القواعد الملائمة تقضى بأن المرأة يجب أن لا تنال من العلم الا ما ينطبق عليه احـد وصفين :

١ ـ المعرفة التى تكون نتيجتها المباشرة القيام على خدمة البيت على وجه مرض ـ وهذا هو المجال المنزلى .

٢ ـ أنواع المنجزات والمهارات ذات الصفة العلمية والصفة الفنية التى يبدو عليها بوضوح أنها من اعمال الفراغ بالتبعية . فان الشعور السائد هو أن العلم ليس من شئون النساء اذا كان علما يعبر عن مكنون حياة المتعلم وييسر تحصيله بناء على ادراك المتعلم لمصلحته الخاصة دون دافع من قوانين السلوك ودون الاعتماد على سيد ينال من وراء اشتغال المرأة بهذه الأعمال او استعراض اشتغالها بها راحة أو حسن سمعة . وهكذا أيضا كل أنواع المعرفة التى تقوم دليلا على الفراغ ـ غير الفراغ بالتبعية ـ لاتكاد تتفق والانوثة .

هذه الظواهر التى استعرضناها ذات أهمية فى تقدير العلاقة بين هذه المعاهد الدراسية العليا وبين الحياة الاقتصادية للمجتمع ، كشواهد على

انجاه عام أكثر منها حقائق ذات نتائج اقتصادية هامة فى حد ذاتها . فهى تقوم شاهدا على ماهية الاتجاهات الغريزية والتحامل اللذين تظهرهما الطبقة المتعلمة ضد انماط الحياة فى مجتمع صناعى . وهى تقدم مثالا على مدى التقدم الذى بلغته الدراسة العليا والطبقة المتعلمة، وبهذا تحدد لنا مانستطيع ان نتطلبه من هذه الطبقة فى الموضوعات التى يرتبط فيها التعليم وحياة المتعلمين مباشرة بكفاية المجتمع وحياته الاقتصادية ، ويرتبط كذلك بالتلاؤم بين حياة الطبقة المتعلمة ومقتضيات العصر . والذى تشهد به هذه البقايا الطقسية هو انتشار روح التشبث بالقديم ، ان لم يكن بالروح الرجعية ، لاسيما فى معاهد التعليم العالى حيث الاهتمام بنشر العلوم التقليدية .

والى هذه الدلائل التى تشير الى روح المحافظة على القديم ، نستطيع أن نضيف خاصية أخرى لها نفس الدلالة ، ولكنها علامة ذات نتائج أكثر خطورة من ذلك الاتجاه الهازل الى التمسك بتوافه المظاهر والطقوس . فالاغلبية العظمى من الكليات والجامعات الأمريكية ، مثلا منضوية تحت احدى الهيئات الدينية وتهتم نوعا ما بالشعائر الدينية ، مع أن ماهو مفروض فى كليات تلك المعاهد من المام بالطرق العلمية ووجهات النظر العلمية كان خليقا أن يكسبها مناعة ضد أساليب التفكير الروحانية . لكن لاتزال نسبة كبيرة منها الى اليوم تصرح بتمسكها بعقائد وشعائر ترجع الى ثقافة سابقة . ولا شك أن هذا الافصاح عن الحماس الدينى أمر مرغوب فيه الى حد كبير ، ولا بد منه ولو على سبيل أداء الواجب ، سواء من جانب المدارس بصفتها جزءا من الهيئة الدينية أو من جانب أعضاء هيئة التدريس . لكن مما لاشك فيه أن هناك آخر الأمر عنصرا كبيرا من العاطفة الدينية يلازم الحياة فى المدرسة العليا . وما دام هذا هو الواقع فلا بد أن نعتبره مظهرا لأساليب عقلية روحانية قديمة . وهذه الأساليب العقلية لابد لها أن تثبت وجودها ، بقدر ما ، فى نوع الثقافة الذى تقدمه المدرسة العليا ، ولا بد لتأثيرها فى تشكيل أساليب تفكير الطالب أن يعمل بنفس القدر على تثبيت روح المحافظة على القديم أو الرجوع اليه . فهى تعمل على تعميق تقدمه فى العلوم الواقعية التى من شأنها أن تخدم أغراض الصناعة على أحسن وجه .

والألعاب الرياضية فى الكليات ، وهى تحظى باهتمام بالغ فى معاهد التعليم المرموقة فى الوقت الحاضر ، تتجه اتجاها مماثلا . والرياضة فى الواقع تشارك الاتجاهات الدينية فى الكليات فى كثير من المظاهر ، سواء فيما يتعلق بأساسها السيكولوجى رفيما يتعلق بتأثيرها فى النظام . لكن هذا المظهر من مظاهر المزاج الهمجى يجب أن ينسب الفضل فيه أولا الى هيئة الطلبة لا الى طبيعة المدارس بصفتها هذه ، الا على قدر ماتقوم الكليات

أو موظفوها ـ كما يحدث أحيانا ـ بدور ايجابى فى تشجيع الرياضة والعمل على انتشارها • وما يصدق على الألعاب الرياضية فى الكليات يصدق كذلك على الجمعيات ، لكن مع فارق ، فالالعاب أساسا تعبير عن الدافع العدوانى ليس الا ، أما الجمعيات فهى ، بدرجة أخص ، تعبير عما ورثناه من التحزب للعشيرة ، الذى هو من الملامح الهامة للمزاج العدوانى الهمجى • ومما يلاحظ ايضا أن هناك صلة وثيقة قائمة بين الجمعيات المدرسية والألعاب الرياضية. ولا نكاد نجد ضرورة ، بعد كل ماذكرنا فى فصل سابق عن الرياضة وعادة المقامرة ، للافاضة فى بحث القيمة الاقتصادية للتدريب على الألعاب وعلى التنظيم والنشاط الجماعيين •

لكن كل هذه الملامح الخاصة بنظام حياة الطبقة المتعلمة وبالمؤسسات المخصصة للمحافظة على التعليم العالى ، انما هى ، الى حد كبير ، مظاهر عرضية ليس الا • ولا تكاد تحسب عناصر فعالة فى أمور البحث العلمى والتثقيف التى ليس لقيام المدارس هدف ظاهر غير متابعتها • وهذه الدلالات العرضية من شأنها أن تؤكد استنتاجا يتعلق بطبيعة العمل الذى يتحقق ـ كما يبدو لوجهة النظر الاقتصادية ـ وبالاتجاهات التى يطبعها هذا العمل الخطير الذى يتم فى حماها ، فى الشباب الذى يتردد على المدارس • وهذه الاستنتاجات القائمة على الاعتبارات التى قدمناها هى أن المدارس العليا ، من حيث طبيعة عملها وتقاليدها ، ينتظر منها أن تقف موقفا محافظا ، لكن هذا الاستنتاج يجب أن نتوقف عن الاسترسال فيه بواسطة مقارنة طبيعة العمل الذى تحقق فعلا ، وبواسطة نوع من المسح للعلوم التى عهد الى المدارس العليا بالمحافظة عليها • ومن المعروف جيدا ـ فى هذه النقطة بالذات ـ أن معاهد التعليم الموثوق فيها قد التزمت موقف المحافظة الى عهد قريب ، فوقفت موقف الاستهجان تجاه كل نوع من التجديد • وكانت القاعدة العامة ان كل وجهة نظر جديدة وكل شكل جديد من أشكال المعرفة لا تنال موافقتها ولا يسمح لها بالدخول الى برامج المدارس الا بعد أن تكون قد انتشرت خارجها • وهناك استثناءات لهذه القاعدة نذكر منها على سبيل المثال أن ما كان غير ظاهر من التجديدات أو ما كان خروجا على المألوف ليس بحال من الأحوال خروجا على وجهات النظر المتعارف عليها أو على نظام الحياة المعترف به • من هذا مثلا دقائق الحقائق الرياضية الطبيعية، وكل تفسيرات أو قراءات جديدة للآداب القديمة، لاسيما ما كان منها ذا اتجاه فقهى أو أدبى فحسب • وقد كان المعروف دائما ـ الا فى مجال العلوم الانسانية فى أضيق مدلولها ، والا على قدر ما تركت وجهة النظر التقليدية للعلوم الانسانية دون أن تمسسها يد المجددين ـ كان المعروف دائما ان طبقة العلماء المعترف بها ومعاهد التعليم العالى تنظر بازدراء الى كل تجديد • فالآراء الجديدة

والاتجاهات الجديدة فى النظريات العلمية ، لاسيما الاتجاهات الجديدة التى تمس نظرية العلاقات الانسانية فى اى أمر من الأمور ، لم تجد لها مكانا فى مناهج التعليم الجامعية الا مؤخرا وعلى مضض من المسئولين ، بدلا من أن تقابل بترحيب حار ، كما أن الرجال الذين اهتموا بمثل هذا العمل من أجل توسيع المعارف الانسانية لم يلقوا على العموم معاملة طيبة من معاصريهم من العلماء • فالمدارس العليا لم تمنح تأييدها بصفة عامة لأى تطوير جدى لأسلوب التعليم أو مادته الا بعد أن تكون الموضوعات الجديدة قد جاوزت طور شبابها وبعد أن تحقق كثير من فوائدها ـ بعد أن تكون قد أصبحت أمورا عادية فى الذخيرة العلمية لجيل جديد ترعرع فى ظل مجموعة علوم تسمو على العلوم المدرسية ، وفى ظل وجهات نظر حديثة وتشكلت بها أساليب تفكيره • هذا صحيح عن الماضى القريب • لكن من المجازفة أن نقول الى أى حد يمكن أن يصدق على الحاضر الحالى ، لأن من المستحيل أن نستشف حقائق الحاضر بدرجة من الصفاء نستطيع معها أن ندرك اهميتها النسبية •

لم نذكر الى الآن شيئا عما يقدمه الأثرياء من خدمات للعلوم والفنون ، وهو أمر اعتاد أن يفيض فيه الكتاب والخطباء الذين يعالجون موضوع تقدم الثقافة وتطور الكيان الاجتماعى • ومهمة الطبقة المترفة هذه لاتخلو من حملة عامة بالدراسة العالية وبانتشار المعرفة والثقافة • وطريقة تشجيع هذه الطبقة للعلم عن طريق رعايته ، ودرجة هذا التشجيع ، أمر معروف . فطالما سردت فى عبارات مؤثرة مملوءة بالتقدير ، على أيدى خطباء يساعدهم المامهم بهذا الموضوع على أن يوضحوا لسامعيهم المغزى العميق لهذا العامل الثقافى • على أن هؤلاء الخطباء قد عرضوا الموضوع من وجهة نظر الأهمية الثقافية أو من ناحية حسن السمعة لهؤلاء الأثرياء ، لا من حيث الأهمية الاقتصادية •فمهمة طبقة الميسورين هذه ، وكذلك السلوك العقلى لأعضاء هذه الطبقة ، كما ترى من وجهة النظر الاقتصادية ، وكما هى من حيث فائدتها للصناعة ،تستحق بعض الاهتمام وتستوجب التوضيح •

وعلى سبيل تحديد علاقة الرعاية هذه بين الأثرياء وطلاب العلم ، يجب ان نذكر أنها اذا نظرنا اليها نظرة سطحية على أنها علاقة اقتصادية أو صناعية فقط ، وجدناها علاقة هدفها توكيد علو مكانة المتفضل بالرعاية • والطالب الذى ينال هذه الرعاية يؤدى الواجبات التى تفرضها الحياة العلمية بالنيابة عن الثرى الذى يرعاه ، وهذا الثرى يعود عليه شىء من الفائدة ، هو نوع من الذكر العطر الذى يكتسبه اى سيد يؤدى لصالحه نوع من الفراغ بالتبعية . ويجب أيضا أن نلاحظ ـ من حيث الحقيقة التاريخية ـ ان تشجيع طلب العلم أو القيام بنشاط علمى عن طريق علاقة الرعاية التى يبذلها

الأثرياء ، كان بوجه عام تشجيعا للتفوق فى القصص الأدبى والعلوم الانسانية • وهذا النوع من المعرفة يميل الى الحد من طاقة المجتمع الانتاجية بدلا من زيادتها •

كذلك فيما يتعلق بالمساهمة الفعلية التى تبذلها الطبقة العاطلة فى تشجيع طلب العلم ، نجد أن قواعد الحياة المحترمة من شانها أن تجعل المرء يهتم بألوان النشاط العقلى الذى يبغى التعبير عن نفسه بين هذه الطبقة بواسطة التبحر فى الآداب وسعة الاطلاع ، لا بواسطة التبحر فى العلوم التى لها بعض الصلة بحياة المجتمع الصناعية • وأكثر ميادين المعرفة التى يسعى أعضاء الطبقة المترفة الى ارتيادها ، بعد دراسة الآداب ، هى ميادين العلوم القانونية والسياسية ، والعلوم الادارية بصفة أخص • وهذه العلوم كما يسمونها ، هى أساسا مواد تتعلق بقواعد تدريب الطبقة المترفة على القيادة فى وظائف الحكم ، باعتبارها ملكا لطبقة من الطبقات • واذن فليس الدافع لهم عموما الى ارتياد ميادين العلوم المذكورة هو الفائدة العقلية أو العلمية وحدها ، بل هو الى حد كبير ، دافع الفائدة الواقعية التى تتطلبها مقتضيات علاقات السيادة التى تحتكرها تلك الطبقة • أما من حيث النشأة فان وظيفة الحكم وظيفة عدوانية ظهرت فى الأصل من نظام حياة الطبقة المترفة فى الأزمان الغابرة وسايرته الى اليوم • وهى ممارسة لحكم السكان والتحكم فيهم ، وهما الأمران اللذان تستمد منهما الطبقة المترفة مقومات كيانها • ومن هنا كان ميدان العلوم القانونية والسياسية ، وكذلك أحداث ممارسة الحكم الذى يستمد منها أهميته ، لها نوع من الاغراء لهذه الطبقة ، بصرف النظر عن مسائل المعرفة جميعا •

وكل هذا يبقى صحيحا اينما وطالما بقيت وظيفة الحكم ، فى مظهرها أو فى جوهرها ، حقا لطبقة من الطبقات • وهو يبقى صحيحا فيما جاوز هذا المجال ، طالما ظلت التقاليد التى تختص بها مظاهر الحكم القديمة باقية على حالها فى الحياة الحديثة لتلك المجتمعات العصرية التى بدأ احتكار الطبقة المترفة لحكمها يسير فى طريق الزوال •

أما فيما يختص بميدان العلم الذى تغلب فيه المصلحة العلمية أو العقلية ـ وهو ميدان فروع المعرفة التى يطلق عليها بحق اسم المواد العلمية ـ فان الأمر مختلف نوعا ، لا من حيث موقف الطبقة المترفة فحسب ، لكن أيضا من حيث اتجاه تيار الثقافة المالية بأسره •

فالمعرفة من أجل المعرفة نفسها، أى تدريب ملكة الفهم دون أى غرض من وراء ذلك، يجب ـ كما يصح لنا أن نتوقع ـ ان يهدف اليه الرجال الذين ليست لهم

مصلحة مادية ملحة تحول دون هذا المطلب • ووقوف الطبقة بمنأى عن كل عمل منتج يجب أن يطلق العنان للرغبة العلمية فى أفراد هذه الطبقة ، ويجب بالتالى أن يكون من بين الطبقة المترفة نسبة عالية من طلاب العلم والمتخصصين فى المواد العلمية والعلماء ، تحفزهم حياة الفراغ الى البحث العلمى والتفكير. ومن حقنا أن نتوقع مثل هذه النتيجة ، ولكن هناك لحيـــاة الطبقة المترفة مظاهر ، تناولناها بالتفصيل فيما سبق ، تعمل على تحويل اهتمام تلك الطبقة بالأمور العقلية الى موضوعات أخرى غير ذلك التتابع السببى للظاهرات الذى تتكون منه مادة العلوم • فأساليب التفكير التى تميز حياة هذه الطبقة تسير وفق علاقات السيادة الشخصية ، ووفق المفاهيم التحاسدية غير الأصلية للشرف والقيم الذاتية والجدارة والطبع وما اليها • لكن التتابع السببى الذى هو موضوع المواد العلمية غير ظاهر من وجهة النظر هذه ، كما أن حسن السمعة ليس حتما نتيجة للحقائق التى قد تكون مفيدة لعامة الناس • ومن هنا يبدو من المحتمل أن أهمية المقارنة التحاسدية فيما يتعلق بالمركز المالى أو طيب السمعة يجب أن تجتذب اهتمام الطبقة المترفة اجتذابا يلهيها عن الاهتمام بالجدارة العلمية • فاذا ما كشفت هذه الجدارة الأخيرة عن نفسها فانها فى العادة تتحول الى ميادين المضاربة والاستثمار ، وهى ميادين محترمة وعديمة الجدوى ، بدلا من أن تتحول الى طلب المعرفة • وقد كان هذا فى الواقع هو تاريخ المعرفة لدى طبقة الكهنة والطبقة المترفة ، طالما لم يكن هناك قدر كبير من المعلومات المنظمة قد أدخل الى النظم المدرسية من مصادر خارج المحيط المدرسى • لكن لما كانت علاقة السيادة والتبعية آخذة فى الاضمحلال من حيث كونها العامل الذى يتحكم فى نظام حياة المجتمع ويشكله ، فان هناك ملامح أخرى لنظام الحياة ، ووجهات نظر أخرى آخذة فى فرض سلطانها على طلاب العلم •

أما الرجل المهذب حقا من رجال الطبقة المترفة فعليه أن يرى العالم من وجهة نظر العلاقة الشخصية ، وهذا هو ما يفعله • فاذا ظهر عليه الاهتمام بالمعرفة فان هذا الاهتمام يتجه الى تنظيم الظاهرات على هذا الأساس • وهذا هو فى الواقع حال الرجل المهذب من رجال المدرسة القديمة الذى لم تتعرض مبادىء الطبقة المترفة فيه لأى تفكك ، وهذا هو اتجاه سلفه الحديث ، من حيث أنه قد ورث جميع فضائل الطبقة العليا — ولـــكن طـرقَ الوراثة غير مستقيمة ، وليس كل ابن من أبناء الرجلَ المهذب قد خلق ليحتلَّ مكان أبيه، لا سيما أن أساليب التفكير التى يتميز بها سيد متسلط تصـــبح بالوراثة ضعيفة نوعا فى سلسلة النسب التى لم يكن ينتمى منها لنظام الطبقة المترفة غير عقب واحد او عقبين • أما احتمالات حدوث اتجاهات قوية ، فطرية أو مكتسبة ، نحو تدريب الملكات العلمية ، فيبدو أنها تظهر على أوضح ما يكون

فى أعضاء الطبقة المترفة الذين انحدروا من أسلاف ينتمون الى الطبقة الدنيا او الطبقه الوسطى ، أو بعبارة أخرى ، أولئك الذين ورثوا جميع القدرات الخاصة بالطبقات الكادحة ، والذين اكتسبوا مكانهم بين الطبقة المترفة لأن فيهم صفات لها اليوم وزن يزيد على ما كان لها فى الزمن الذى تشكل فيه نظام حياة الطبقة المترفة . لكن حتى خارج دائرة هذه المجموعة التى دخلت حديثا فى زمرة الطبقة المترفة ، يوجد عدد من الناس لا يستهان به تسيطر عليهم المصالح التحاسدية بدرجة تكفى لتشكيل آرائهم النظرية وتظهر فيهم الميول النظرية قوية الى حد يكفى لتوجيههم نحو طلب العلم .

ويرجع الفضل فى ادخال المواد العلمية فى مناهج الدراسة العليا الى تلك الفروع المنحرفة من الطبقة المترفة الذين خضعوا لسلطان تقاليد العلاقات غير الشخصية فى الزمن الحديث ، والذين ورثوا مجموعة من القدرات الانسانية تختلف فى بعض ملامحها الأساسية عن النزعة التى يمتاز بها نظام التفريق بين المراتب الاجتماعية . لكن الفضل فى وجود هذه المجموعة الدخيلة من المواد العلمية يرجع ايضا ، جزئيا وبدرجة اكبر ، الى افراد من الطبقات الكادحة كانت ظروفهم ميسرة بدرجة تكفى لتوجيه اهتمامهم الى مهام أخرى غير السعى وراء القوت اليومى ، وكانت مواهبهم الوراثية لا تستسيغ نظام التفريق بين مراتب الناس ، من حيث أن وجهات النظر التحاسدية والتجسيدية لا تتحكم فى أساليبهم العقلية . ومن بين هاتين المجموعتين اللتين تتكون منهما تقريبا القوة الفعالة وراء التقدم العلمى نجد أن ثانيتهما هى التى ساهمت بالنصيب الأوفى . وفيما يتعلق بهما كلتيهما يبدو أننا لا نعدو الصواب لو قلنا أنهما لم تكونا منبع التقدم العلمى بقدر ما كانتا اداته ، وأنهما على أحسن تقدير أداة التغير التى تحولت على يديها أساليب التفكير التى فرضتها على المجتمع علاقاته بالبيئة تحت ضغط مطالب الحياة العصرية وما يلازمها من الصناعات الآلية ، فأصبحت هى صاحبة الفضل فى ادخال العلوم النظرية .

ولم يصبح العلم ، بمعنى الادراك الواضح لما بين الظاهرات ـ طبيعية كانت أو اجتماعية ـ من ارتباط سببى متسلسل ، مظهرا من مظاهر الحضارة الغربية الا منذ صارت العملية الصناعية فى المجتمعات الغربية عملية مخترعات آلية يقتصر دور الانسان فيها على تمييز القوى المادية وتقييمها . وقد ازدهرت العلوم بهذا القدر نوعا ما عندما تشكلت حياة المجتمع الصناعية بحيث تلائم هذه الصورة ، وبهذا القدر نوعا ما أيضا حينما سيطرت المصلحة الصناعية على حياة المجتمع . ثم اندفع العلم ، والنظريات العلمية بصفة خاصة ، فى تقدمه فى ميادين الحياة الانسانية والعلوم الانسانية العديدة بدرجة تتناسب

فى كل ميدان منها على التوالى مع مقدار اتصالها الوثيق المتتابع بالتطور الصناعى والاقتصادى • أو قد يكون الأصدق أن نقول ، على قدر ما تخلص كل منها ، واحدا اثر واحد ، من تحكم مفاهيم العلاقات الشخصية او المنزلة الاجتماعية ، ومن قواعد المراتب الدينية أو المنزلية الشخصية •

ولم يبدأ الناس فى تنظيم ظاهرات البيئة والحقائق المتعلقة باتصالهم بها، تنظيما قائما على السببية ، الا بعد أن اضطرتهم مطالب الحياة الحديثة الى الاعتراف بالتسلسل السببى فى العلاقة الواقعية بين الانسان وبيئته • وعلى ذلك فانه بينما الدراسة العليا فى ذروة تقدمها ، بوصف كونهـا الثمرة الكاملة لطرق الفكر ونتاجه وأحكامه فى القرون الوسطى ، نتيجة ثانوية من نتائج وظائف الكهنة ، والطبقة المترفة ، فكذلك العلم الحديث يمكن أن نقول انه من النتائج الثانوية للتقدم الصناعى • واذن فقد استطاعت أساليب التفكير التى فرضتها الحياة الصناعية الحديثة أن تكشف عن نفسها وأن تزدهر كمجموعة متصلة من العلوم النظرية مرتبطة بتتابع الظواهر السببى ، وذلك على أيدى هذه الجماعات من الناس ـ الباحثين والعلمـاء والمخترعين والمفكرين ـ الذين قام أكثرهم بأعظم أعمالهم أثرا خارج المحيط الجامعى • ومن ميدان التفكير العلمى هذا خارج محيط الجامعات كانت تتسرب الى النظام الدراسى ، بين الحين والحين ، تغيرات جديدة فى أساليب التفكير وأهدافه •

ويجب أن نلاحظ بهذه المناسبة أن هناك فرقا ملحوظا جدا ، فى المادة وفى الهدف ، بين التعليم الذى تهيئه المدرسة الابتدائية والثانوية من جهة ، والذى تقدمه معاهد التعليم العليا من جهة أخرى • والفرق من حيث الواقعية المباشرة للتعليم الذى يتوفر فى كل من النوعين ومستوى الكفاية الذى يبلغه التلاميذ ، قد تكون له بعض الآثار ، وقد يستحق الاهتمام الذى كان يحظى به بين الحين والحين • لكن هناك فرقا أكبر قيمة فى الاتجاه العقلى والروحى الذى يعمل كل من النظامين على خلقه ، وهذا الاختلاف فى الاتجاه بين نظام الدراسـة العليا والدراسة الدنيا ملحوظ بصفة خاصة فيما يتعلق بالتعليم الابتدائى فى أحدث مراحل تطوره فى المجتمعات الصناعية المتقدمة • فالتعليم هنا موجه نحو خلق القدرة أو المهارة ، العقلية واليدوية ، على ادراك الحقائق مجردة من الاعتبارات الشخصية والافادة منها ، من حيث أسباب حدوثها لا من حيث أهميتها لمركز الانسان • صحيح ان المدرسة الابتدائية ، جريا على تقاليد الأيام الغابرة التى كان التعليم الابتدائى فيها فى الأغلب الأعم يقتصر على الطبقة المترفة ، لا تزال تتخـذ من التعليـم حافـزا على العمل فى عامة المدارس الابتدائية ، لكن حتى هذا الدافع الى التعليم الذى يتخذ سبيلا الى تحقيق الأهداف فى الحيـاة ، آخذ فى الضعف بدرجة ملحوظة فى مراحل التعليم

الأولى فى المجتمعات التى لا تسير مراحل التعليم الأوليـــة فيها على هدى التقاليد الكهنوتية أو العسكرية . كل هذا صحيح بدرجـة غير عـادية ، وصحيح بدرجة أخص فيما يتعلق بالجانب الروحى فى نواحى التعليم التى تأثرت تأثرا مباشرا بطريق التعليم فى رياض الأطفال واهدافه .

والاتجاه غير التحاسدى العجيب لنظام رياض الأطفال ، وكذلك طبيعـة أثر رياض الأطفال فى التعليم الابتدائى بعد مرحلة الرياض بالذات ، يجب ان نربط بينه وبين ماذكرنا آنفا عن الاتجاه الروحى العجيب لنسـاء الطبقة المترفة فى ظل الظروف الاقتصادية الحديثة . فنظام رياض الأطفال يبلغ أكمل مستوياته – أو يبلغ أقصى بعد له عن المثل القديمة للنظـام الأبوى والبيداجوجى – فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، حيث يوجد عدد كبير من النساء المثقفات العاطلات ، وحيث نظام المكانة الاجتماعية قد ضعفت شدته نوعا بتأثير الحياة الصناعية التى تعمل على اضعافه ، ولعدم وجود مجموعة محددة من التقاليد العسكرية أو الكهنوتية ، فهذا النظام انما يستمد سنده المعنوى من أولئك النسوة اللائى يعشن فى ظروف ميسرة . وأهداف رياض الأطفال وأساليبها تحوز رضاء هذه الطبقة من النساء اللائى لا يجدن الراحة فى ظل المنهج المالى للحياة المشرفة ، ولها تأثير خاص عليها . فرياض الأطفال اذن ، وكل أثر لروح رياض الأطفال فى التربية الحديثة ، يجب أن نعدها – هى و « حركة المرأة الحديثة » – من نتائج ذلك الشعور بالنفور من التفاهة والمقارنة التحاسدية ، التى تعمل حياة الترف فى ظل الظروف الحاضرة على تشجيعها فى النساء اللائى يخضعن لهذا النظام خضوعا مباشرا . ومن هذا يبدو – بطريقة غير مباشرة – أن نظام الطبقة المترفة هنا يشجع مرة أخرى على ظهور اتجاه غير تحاسدى ، قد يصبح بمرور الزمن تهديدا لاستقرار النظام نفسه ، بل ولنظام الملكية الخاصة الذى يقوم عليه نظام الطبقة المترفة .

وقد حدثت فى الماضى القريب تغيرات محسوسة فى مجـال التعليم فى الكليات والجامعات ، كانت فى أساسها عبارة عن استبعاد جزئى للعـلوم الانسـانية – فروع العلوم التى يعتقد انهاتساعد على الثقافة والأخلاق والأذواق والمثل التقليدية – والاستعاضة عنها بالعلوم الأكثر واقعية التى تساعد على الكفاية المدنية والصناعية ، ولنعبر عن نفس المعنى بعبارة اخرى فنقول ان فروع العلوم التى تهدف الى خلق الكفاية (الكفاية الانتاجية فى نهاية المطاف) أخذت تثبت أقدامها بالتدريج على حساب تلك الفروع التى تعمل على زيادة القدرة الاستهلاكية أو تقليل الكفاية الانتاجية ، وعلى نوع من المزاج يلائم نظام المكانة الاجتماعية . وقد وجد أن المعاهد العليا فى قبولها لهذا النظام التعليمى كانت تلزم موقف الجمود ، وان كل خطوة كانت تتخذها فى هذا السبيل

كانت الى حد ما بمثابة تراجع عن مبادئها ، وكانت هذه العلوم تغزو نظام الدراسة من خارج المحيط الجامعى ، ولا نقول من محيط أدنى منه . ومن الملاحظ أن العلوم الانسانية التى لم تخل السبيل للمواد العلمية الا على مضض، ملائمة دائما لتشكيل طباع التلميذ بحيث تلائم نظام استهلاك تقليديا ، هو نظام التفكير فى ما هو حق وجميل وطيب والاستمتاع به ، وذلك حسب مستوى معروف من مستويات السلوك والامتياز ، أهم مظاهره الفراغ Otum cum dignitat e (الفراغ هو الشرف) .

وقد كان المدافعون عن العلوم الانسانية يعبرون ، فى لغة يسترها قناع من طول اعتيادهم وجهة النظر القديمة الملائمة ، عن المثل الأعلى الذى يعبر عنه المثل القائل « انما وجدنا لنستمتع بخيرات الحياة » fruges consumere nati ومثل هذا الاتجاه لا يجب ان يثير أية دهشة فيما يتعلق بالمدارس التى يشكلها ويدعمها أساس من ثقافة الطبقة المترفة .

والقواعد التى على أساسها كان يراد الاحتفاظ ، قدر الاستطاعة ، بما ورثوه من مستويات الثقافة كاملة غير منقوصة ، هى أيضا من خصائص المزاج القديم وخصائص آراء الطبقة المترفة فى الحياة . فالاستمتاع والميول التى أخذوها عما اعتادوه من حياة ومثل وأفكار وطرق استهلاك الوقت والسلع التى كانت شائعة بين الطبقة المترفة فى الزمن القديم مثلا ، يعتقد أنها أعلى وأشرف وأوجه مما ينتج من اعتياد مماثل لما يفعله عامة الناس فى مجتمع حديث من ألوان الحياة اليومية والمعارف والطموح . فالمعرفة التى يكون جوهرها الالمام التام بما هو فى هذا الزمن من رجال ومن أشياء ، تعتبر ، اذا قورنت بسابقتها ، « قليلة » و « دنيئة » و « خسيسة » ـ بل ان الانسان ليسمع هذه المعرفة الواقعية بالناس والأشياء تنعت بأنها « دون الانسانية » .

وهذا الدفاع عن العلوم الانسانية الذى يقدمه المتكلم بالنيابة عن الطبقة المترفة يبدو سليما فى أساسه . فحقيقة الواقع أن الرضا والثقافة ، أو الاتجاه الروحى أو أساليب العقل التى تنتج من اعتياد التأمل فى العقائد الأنسية والتعصب للعشيرة والرضاء عن النفس الذى كان يستشعره المهذبون من الطبقة المترفة فى زمان مضى ، أو التى تنتج من التعود على الخرافات الروحانية والشراسة الخصبة التى يمثلها أبطال هوميروس مثلا ، هذا الدفاع اذا نظرنا اليه من الناحية الفنية وجدناه أقرب الى الصحة من الآثار المماثلة الناتجة عن الالمام الواقعى بالأشياء والبصر بالمهارات الحديثة فى النواحى الفنية والمدنية . ولا يمكن أن يكون هناك كبير شأن فى أن العادات التى مر ذكرها أولا تفضل الاخرى فى أهميتها الجمالية أو الشرفية، وبالتالى فى احقيتها التى

تتخذ أساسا للمفاضلة . فان لب قواعد الذوق ، وقواعد الشرف بدرجة أخص ، هى ، من حيث طبيعة الأشياء ، أثر من آثار حياة العنصر وظروفه الماضية ، انتقلت الى الجيل الحاضر عن طريق الوراثة أو التقاليد ، وكون السيادة التى طال بها الأمد فى ملازمة النظام العدوانى لحياة الطبقة المترفة كان لها أثر عميق فى تشكيل عادات العقل ووجهات النظر للعنصرية فى الماضى ، هو أساس كاف لكى يكون لهذا النظام سيادة جمالية مشروعة فى كثير مما يتعلق بأمور الذوق فى الوقت الحاضر . وقواعد الذوق — فيما يتعلق بالموضوع الذى نحن بصدده — هى عادات خاصة بالجنس البشرى تكونت عن طريق اعتياده الطويل لاستحسان أو استهجان بعض الأشياء التى يصدر الذوق حكمه عليها بأنها ملائمة أو مستقبحة ، فكلما طال التعود واتصل كان قانون الذوق الخاص به أصح من الناحية القانونية ، على فرض تشابه سائر الملابسات الأخرى .

لكن مهما كانت القانونية الفنية للحكم الثالب على العلوم الحديثة الذى يصدره المدافع عن العلوم الانسانية ، ومهما تكن قيمة الأدلة التى تدل على ان الأدب الكلاسيكى احق بالتقدير ، وان له فى الثقافة وفى الطبع أثرا أكثر انسانية ، فان هذا لا علاقة له بموضوع هذا البحث . فالذى يهمنا فى هذا البحث هو الى أى مدى تعمل فروع العلوم هذه ووجهات النظر التى تمثلها فى نظام التعليم ، على تشجيع أو تعويق ظهور حياة جماعية فعالة فى الظروف الصناعية الحديثة — الى أى مدى تساعد على سهولة التلاؤم مع الظروف الاقتصادية فى الوقت الحاضر . والمسألة مسألة اقتصادية وليست فنية ، ومستويات تعليم الطبقة المترفة التى تكشف عن نفسها عن طريق ما تبديه المعاهد العليا نحو العلوم الواقعية من تحقير ، يجب — فيما يتعلق بهذا البحث — تقويمها من وجهة النظر هذه دون سواها . من أجل هذا كان استعمال بعض النعوت من أمثال « شريف » و « خسيس » و « راق » و « دنىء » وما اليها لا دلالة له الا انه يكشف عن تعصب الأطراف المتنازعة ووجهات نظرهم ، سواء كانوا يدافعون عن أهلية النظام الجديد أو القديم . فكل هذه النعوت تعبيرات للدفاع عن النظام أو للنيل منه ، أو هى بمعنى آخر تعبير عن المقارنة التحاسدية لا يخرج ، اذا نظرنا اليه نظرة تحليلية ، عن أن يكون تعبيرا عن الأمور المشرفة أو المشينة ، اى انها تدخل فى نطاق الآراء التى يتميز بها نظام المكانة الاجتماعية ، اى انها فى جوهرها تعبير عن الروح الرياضية — عن أساليب التفكير العدوانية الأنسية ، اى انها تنم عن وجهة نظر ورأى فى الحياة بائدين ، ربما كانا ملائمين لمرحلة الثقافة العدوانية وللتنظيم الاقتصادى الذى ينبعث منه ، ولكنها من وجهة نظر الكفاية الاقتصادية بمعناها الواسع ، تناقض لا طائل تحته .

والآداب القديمة وما لها من اولوية فى نظام التعليم الذى تتمسك به المعاهد العليا تمسكا شديدا ، تعمل على تشكيل الاتجاه العقلى وخفض الكفاية الاقتصادية فى الجيل الذى يتلقى العلم الحديث . وهى تعمل هذا لا عن طريق التمسك بالمثل العليا للرجولة فى الزمن الغابر فحسب ، لكن ايضا عن طريق ما تغرسه من تمييز بين انواع المعرفة المشرفة وغير المشرفة. وهذه النتيجة تأتى عن طريقين : (١) بما توحى من اعتبار النفور مما هو نافع فقط ، بمقارنته بما هو مشرف فقط ، من انواع المعرفة ، وبهذا تشكل أذواق الناشئة بحيث تجعلهم يعتقدون انهم يطلبون العلم من اجل تنمية اذواقهم فقط ، او تقريبا فقط ، عن طريق ذلك التدريب الذى يرمى عادة الى اى كسب مادى أو اجتماعى ، و (٢) بتضييع وقت المتعلم وجهده فى تحصيل المعرفة التى لا جدوى من ورائها ، الا بمقدار ما تدخل هذه المعرفة - فى نظر العرف - فى نطاق المعلومات التى لابد للعالم من الالمام بها ، وبهذا تصبح ذات صلة بالعبارات والأساليب اللغوية التى تستخدم فى فروع العلم النافعة. ولولا هذه الصعوبة الخاصة بالأسلوب اللغوى - وهى نفسها أثر من آثار تهافت الناس فيما مضى على دراسة الأدب القديم - لما كان لمعرفة اللغات، مثلا، اية منفعة علمية لأى باحث او اى عالم لا يشتغل بعمل ذى طابع لغوى فى اساسه . كل هذا بالطبع لا شأن له فيما يختص بالأهمية الثقافية لدراسة الآداب القديمة ، وليس فى النية أن نستخف بالأدب القديم او بما يطبعه فى دارسه من اتجاهات . فهذه الاتجاهات تبدو من نوع ليس له قيمة اقتصادية ، لكن هذه الحقيقة - وهى فى الواقع حقيقة معروفة لعامة الناس - لا يجب أن تقلق احدا كان من حسن حظه أن يجد الراحة والقوة فى الأدب القديم . واذا كانت دراسة الآداب القديمة تعمل على الاخلال بالميل الى الاتقان الصناعى فان هذا يجب أن لايكون له كبير أثر فى أذهان الذين يعتبرون المهارة الصناعية قليلة الأهمية بالنسبة الى غرس المثل العليا المناسبة .

ولما كانت الظروف قد جعلت من هذه المعلومات جزءا من المطالب الأولية فى نظامنا التعليمى ، فان القدرة على استعمال وفهم بعض لغات جنوب أوروبا الميتة ليست فقط من دواعى السرور لمن تسنح له فرصة لاستعراض ما حققه فى هذا السبيل ، لكن شواهد مثل هذه المعرفة تعمل فى نفس الوقت ايضا على تزكية اى عالم لجمهور سامعيه من العلماء وغير العلماء على السواء . والناس عادة يتوقعون ان عددا من السنين لابد قد انقضى قبل التمكن من هذه المعرفة التى ليس لها فائدة اساسية ، بينما عدم الالمام بها يدعو الى استنتاج أن التعليم كان ابتر وسطحيا ، كما يدعو الى استنتاج انه كان ذا واقعية شعبية ، وهذا ايضا أمر ينتقص من مستويات التعليم السليم والمقدرة العقلية .

والمسألة شبيهة بما يحدث عند شراء سلعة استهلاكية بواسطة مشتر تنقصه الخبرة الكاملة بالسلع أو بالمهارات الفنية . فهو يبنى حكمه فى تقدير قيمة السلعة قبل كل شيء على ما يظهر فيها من غلو فى تجهيز بعض الأجزاء والملامح الزخرفية التى لا تتصل مباشرة بفائدة السلعة ، على أساس أن هناك تناسبا ، غير محدد تحديدا دقيقا، بين القيمة الاساسية للسلعة وبين تكاليف الزخرفة التى زيدت عليها رغبة فى تسهيل بيعها . والقول بأنه لا يمكن عادة أن يكون هناك تعليم سليم اذا لم يكن هناك المام بالأدب القديم وبالعلوم الانسانية ، يؤدى الى تضييع مظهرى للوقت والجهد من جانب عامة الطلاب فى سبيل تحصيل هذه المعارف . ولقد أثر التشبث التقليدى بقدر ولو قليل من التبذير المظهرى على أنه من ضرورات التعليم المحترم فى قوانيننا المتعلقة بالذوق والمنفعة فى طلب العلم بنفس القدر الذى أثر به المبدأ نفسه فى طريقة حكمنا على منفعة السلع المصنعة .

صحيح أنه منذ أخذت أهمية الاستهلاك المظهرى تطغى بالتدريج على أهمية الترف المظهرى كوسيلة من وسائل الشهرة ، لم تعد معرفة اللغات الميتة مطلبا هاما كما كانت فى وقت من الأوقات ، واعترى تأثيرها السحرى بعض الوهن ، كدليل على الرسوخ فى العلم . لكن مع أن هــذا صحيح ، فصحيح أيضا أن دراسة الآداب القديمة لم تكد تتعرض لأى انتقاص من قيمتهـا المطلقة كدليل على المكانة العلمية المحترمة ، اذ أن العالم ما عليـه – فى سبيل هذا الفرض – الا ان يكون فى وسعه استعراض بعض المعلومات التى يقضى العرف باعتبارها شاهدا على وقت ضـائع ، ودراسة الآداب القديمة من السهل أن تؤدى هذا الغرض . والواقع أنه قد يكون هناك بعض الشك فى أن فائدتها كدليل على الوقت والجهد الضائعين ، وبالتالى على المقدرة المالية التى مكنت من هذا التضييع ، هى التى حققت للاداب القديمة مركزها الممتاز فى مناهج الدراسة العليا وأدت الى اعتبـارها أكثر فروع المعرفة شرفا . فهى تخدم الأغراض الزخرفية التى تبغيها الطبقة المترفة من التعليم ، أحسن مما تخدمه أية مجموعة أخرى من العلوم ، ولذلك كانت وسيلة فعالة من وسائل الشهرة .

وقد بقيت الآداب القديمة الى عهد قريب بغير منافس تقريبا فى هذا المجال ، ولا تزال بغير منافس خطر فى دول القارة الأوروبية . ولكن لما كانت الألعاب فى الكليات قد شقت طريقها فى الأيام الأخيرة فأصبح لها مركزمعترف به كميدان من ميادين التحصيل الدراسى المشرف ، فقد أصبح هذا الفرع الجديد من فروع المعرفة – ان جاز لنا أن ندخل الألعاب فى نطاق العلوم دون تحديد – منافسا للاداب القديمة فى الألوية بين المواد التى تتلقاها الطبقة المترفة فى المدارس الأمريكية والانجليزية . وللالعاب ميزة ظاهرة على الآداب

القديمة فيما يختص بأهداف الطبقة المترفة من التعليم ، لأن التفوق فى اللعب مفروض فيه أنه ليس مضيعة للوقت فحسب بل مضيعة للمال كذلك ، كما أن المفروض أيضا أن الناجح فى اللعب يمتاز كذلك فى طبعه وفى مزاجه بميزات معينة ترجع الى العصور البائدة وتبعد كل البعد عن مجال الانتاج . وفى الجامعات الألمانية نجد الألعاب وجمعيات الآداب اليونانية قد حل محلها الى درجة ما ، كشاغل لأبناء الطبقة المترفة يتلهون به أيام الدراسة ، ادمان متقن وطبقى للشراب ومزاولة للمبارزة على سبيل اللهو المظهرى .

والطبقة المترفة وفهمها للفضيلة — التمسك بالعادات البائدة والتبذير — يندر أن كان لهما أثر فى ادخال دراسة الآداب القديمة الى مناهج الدراسة العليا ، لكن تشبث المعاهد العليا بالمحافظة على دراسة الآداب القديمة ، ومقدار الشرف العظيم الذى يقترن بدراستها ، يرجعان دون ريب الى انها شديدة الملاءمة لمقتضيات التمسك بالعادات البائدة والتبذير .

وكلمة كلاسيكى (أو قديم) لها هذه الدلالة على التبذير وعلى المهجور ، سواء استعملت لتدل على اللغات الميتة أو على ما زال أو أهمل من أساليب التفكير والتعبير فى اللغات الحية ، أو على غير ذلك من نواحى النشاط أو الأجهزة المدرسية التى تطلق عليها ، ولكن دلالتها عليها أقل . وعلى ذلك نجد طرق التعبير القديمة فى اللغات الانجليزية تسمى « الانجليزية القديمة » . واستعمالها أمر حتمى فى كل حديث أو كتابة عن موضوع هام ، والطلاقة فى استعمالها تضفى نوعا من الاحترام حتى على أتفه الموضوعات وأكثرها جريا على الألسن . أما أحدث أساليب التعبير فى اللغة الانجليزية فانها بالطبع لا تستعمل فى الكتابة أبدا ، لأن ذوق الطبقة المترفة فى السلوك ، وهو يقتضى التزام أسلوب الكلام القديم ، موجود ، حتى فى أكثر الكتاب جهلا واثارة ، بدرجة تكفى للحيلولة دون وقوعهم فى مثل هذه العثرة . ومن جهة أخرى نجد أن أرقى أساليب التعبير القديمة وأكثرها مطابقة للعرف ، لا تستخدم — وهذا من خصائصها — الا فى الاتصال بين اله من آلهة العقائد التجسيدية وعباده . وفيما بين هذين الطرفين توجد أساليب الحديث اليومى التى تستعملها الطبقة المترفة فى أحاديثها وآدابها .

والأسلوب الرشيق ، سواء فى الكتابة أو فى الحديث ، وسيلة فعالة من وسائل الشهرة . ومن المهم أن يعرف المرء ، بشىء من الدقة ، ما هى درجة القدم التقليدية المرغوبة عند الكلام فى أى موضوع معين . وهناك فرق كبير فى الأسلوب الذى يليق استعماله فوق المنابر أو فى الأسواق العامة ، وهذا المجال الأخير ، كما نتوقع ، يسمح باستعمال ألفاظ ومصطلحات

حديثة ومؤثرة نسبيا ، حتى على السنة المتحـدثين المتانقين . وتجنب التعبيرات الحديثة عن قصد امر مشرف ، ليس فقط لانه دليـل على أن وقتا قد ضاع فى تحصيل اساليب الحديث البائدة ، بل ايضا لانه دليل على أن المتحدث قد لازم منذ طفولته قوما يتقنون التعبيرات القديمة ، وهذا دليل على أن أسلافه كانوا من الطبقة المترفة . والاسلوب اذا كان على درجة عالية من النقاء كان دليلا افتراضيا على عدد من الأعمار المتعاقبة صرف فى غير الأعمال الانتاجية التى يزاولها عامة الناس ، على أن دلالته فى هذا السبيل ليست بحال من الأحوال حاسمة .

ومن أحسن الأمثلة التى يمكن ان نسوقها على التمسك الذى لا طائل تحته بالقديم ، فى غير بلاد الشرق الأقصى ، طريقة الهجاء المعروفة فى اللغة الانجليزية . فاية مخالفة لقواعد الهجاء تعتبر منفرة وتحط من قدر اى كاتب فى عين كل من يتمتع بذوق راق يستطيع ان يعـرف قيمة الحق والجمال . وطريقة كتابة اللغـة الانجليزية تفى بجميع مقتضيات قواعد الشهرة فى ظل قانون التبـذير المظهـرى . فهى قديمة ومربكة وعديمة الجدوى ، والتمكن منها يستنفد كثيرا من الوقت والجهـد ، والتقصير فى تحصيلها امر يسهل كشفه ، من اجل ذلك كانت اول واسهل اختبار لسعة الباع فى العلم ، وكان التمسك بقواعدها من الشواهد المؤكدة على حياة علمية لا غبار عليها .

وعلى هذا الأساس ، وكذلك على اساس كل وضع آخر يستند فيه العرف التقليدى الى قواعد القدم والتبذير ، نرى المدافعين عن القـديم يتخذون بغرائزهم موقف الاعتذار عن التمسك بالقديم ، فهم يحتجون اساسا بأن التقيد باستعمال التعبيرات القديمة المتفق عليها يفيد فى نقل الأفكار بطريقة أوفى وادق من استعمال احدث تعبيرات الانجليزية الدارجة ، مع أن المعروف لجميع الناس أن آراء اليوم يمكن التعبير عنها أحسن تعبير بلغـة العصر الدارجة . والكلام الكلاسيكى له قيمتـه المشرفة التى تبعث على الاحترام ، وهو يثير الانتباه والاحترام بصفته وسيلة التفاهم المعروفة فى ظل نظام حياة الطبقة المترفة ، لانه يحمل دلالة واضحة على ان الذى يلتزمه ليس مرغما على اداء اى عمل منتج . وميزة التعبيرات التقليدية انها من دواعى الشهرة ، وهى تبعث عليها لأنها مربكة وانها قد عفى عليها الزمن ، ولهـذا كانت شاهدا على ان صاحبها قد اضاع عمره فيها ، وانه فى غنى عن استعمال الكلام الصريح الفعال وعن الحاجة اليه .

فهـرس

صفحة

